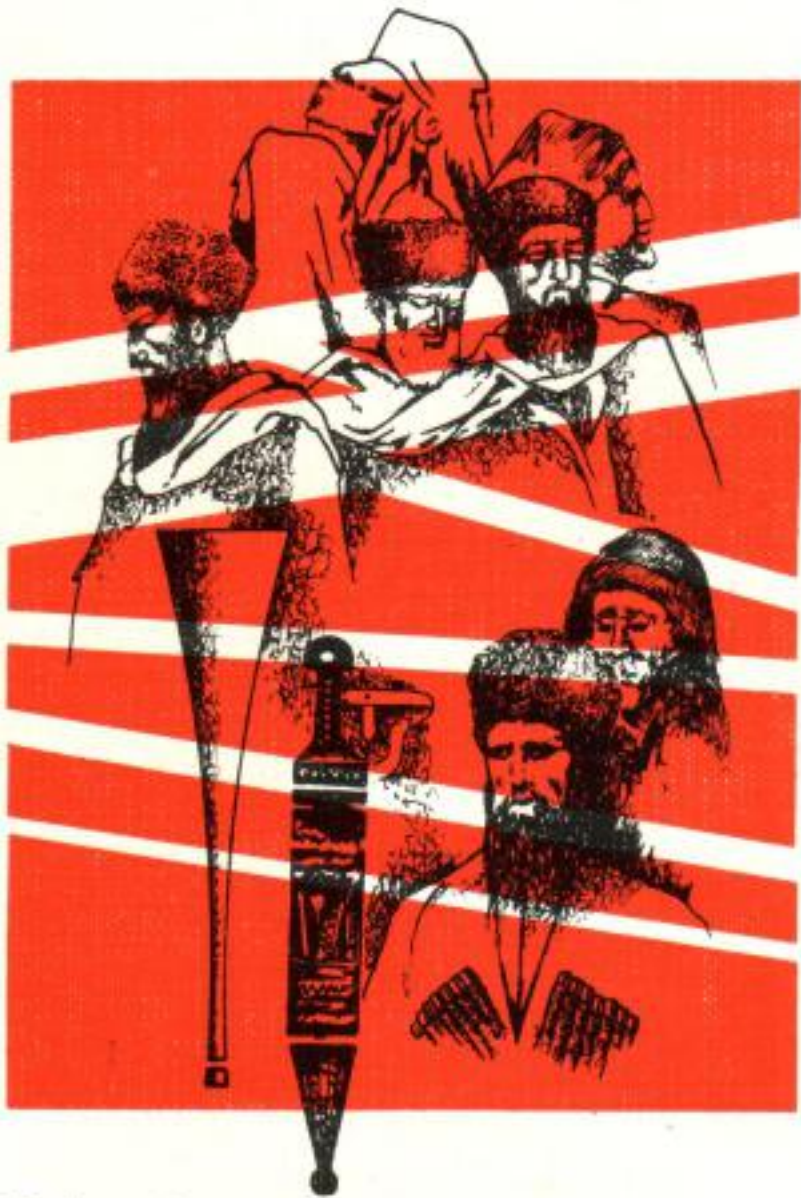


أفراالراطين

باغرات شينكو با رواية قفقاسية



ترجمة الدكتور محي الدين ساليق

الرسوم للفنان الأبخازي فلاديمير ميسخي
تصميم الغلاف : الفنان بسام ابراهيم
الإشراف الفني والإخراج : د . محي الدين سليق

آخر الراحلين
* رواية من الأدب الأبخازي في شمال غرب القفقاس



افراالراطين

باغرات شينكوبا روايه قفقاسيه



• Баграт Шынкуба

Ацынцэарах

ترجمة الدكتور محي الدين سليق

Баграт Шинкуба

ПОСЛЕДНИЙ
ИЗ УШЕДШИХ

ROMAN

- ★ رواية «آخر الراحلين»
- ★ الكاتب : باغرات شينكوبا
- ★ المترجم والناشر : د. محي الدين سليق
- ★ الطبعة الأولى ١٩٨٨ - ألف نسخة
- ★ جميع الحقوق محفوظة للناشر

دمشق ص . ب ٤٠٥٥

كلمة لا بد منها

لن أقدم للرواية أفضل من تقديم الكاتب لها . . . ولن أعرف بالكاتب خيراً من الرواية ذاتها . أريد هنا أن أسجل فقط ؛ أن المبادرة لترجمة هذه الرواية ليست لي . . بل لأصدقاء قدامى أشاروا عليّ بذلك . . إلي مدين لهم لكوني شعرت - وأنا أترجمها - بسعادة من وجد الكلمات المناسبة - المتدفقة حرارة وصدقاً - للتعبير عما يختلج في قلبه من مشاعر . . وما يدور في ذهنه من أفكار . . . وما أثقل صدره من هموم . ملكت عليّ الرواية كل كياني . . وأخذت أترجم وأترجم . . فكان العمل ممتعاً ومرهقاً في آن واحد . .

سمعت منذ نعومة أظفاري أحاديث الوالد وأصدقائه الففقياسيين عن الهجرة والظلم العثماني والحقن التي لاقاها المهجرون من الففقياس . كان دكان الحلاقة لوالدي (في القنيطرة) متددى لتداول مختلف أمور الحياة وتبادل الأخبار والآراء . (تماماً مثل دكان الحدادة للجورجي داود وابنه دورسون في عثمان كوي . . في الرواية) . كنت أهرع إلى الدكان فور انتهاء المدرسة . . فأبقى حتى إغلاقه . نشأت فيه وتعلمت الكثير . . . سوى الحلاقة (. . كان الوالد يخشى أن أمتنها في المستقبل) . . . أستمع وأراقب ما يجري في الدكان وخارجه . . ولا أتكلم . . فلم يحق لي الجلوس أو الكلام بحضرة الكبار إلا حين أسأل . . . ساهم في تربيته أصدقاء الوالد أجمعين . . وبقي الجولان أحب المدارس إلى قلبي . .

بلغت السابعة عشرة من العمر لأعيش بعضاً مما سمعت . . نزحنا عن وطننا الحبيب الصغير (القيطرة) . . فقد غدر بنا الغزاة الصهاينة في عام (٦٧) . كنت قد حملت السلاح إثر والدي . . وإني لأذكره منذ وعيت ينظف بندقيته في البيت . . ويطلق بالمقص والمشط طوال النهار في الدكان . . . ويتحدث عن بطولات أبناء الجولان في حرب (٤٨) والنكبة ومأساة اللاجئين الفلسطينيين . لقد شهد كل ذلك بنفسه مقاتلاً في الجيش العربي المغدور . . ولعل لكل ذلك تأثيره المباشر في بقاءه في القيطرة رغم الاحتلال الاسرائيلي لها . بل وحمله السلاح أصلاً بينما صنعته في الحياة تزيين الناس . . لا الحرب والقتال . كم وددت أن أعصي أمره وهو يجبرني عنوة على إخراج النساء والأطفال من المدينة قبل دخول الغزاة .

رحمنا القدر في هذه المرة . . فلم ننزح - كالأوبخ - إلى أرض غريبة . . بل إلى عاصمتنا وقبلة أنظارها . . كانت دمشق تبدو لنا حين نقصدها من القيطرة عالماً هائلاً ومدينة جميلة عظيمة . . تماماً كما بدت القيطرة ذاتها لمن كان يقصدها لأول مرة من القرى المجاورة . . كان مجرد زيارة دمشق - قبل النزوح - حليماً جميلاً نكاد لاندركه . . ولكنها أمست - إثر النزوح - عاجزة عن أن تغنينا عن قيطرتنا الوديدة وأن تنسينا ماعانينا ونعانيه نفسياً من جروح . عزائنا الوحيد هو الزاد العلمي الذي حصلنا عليه إذ سكننا في دمشق واتهلنا من خيراتها .

تغربت عن الوطن ثلاث عشرة سنة قضيتها في الدراسة والعمل في موسكو . . . كنت أتحرق شوقاً إلى القيطرة . . ثم إلى دمشق حيث الأهل والأحبة . . درست أولاً الأدب الروسي والأدب السوفيتية والأجنبية . . ولكن طموحي منذ الصبا كان في دراسة الإخراج السينمائي . . وهكذا بنيت وأنا في دنيا الأدب جسراً إلى عالم السينما . . حضرت أطروحة الماجستير في «نقل الأدب إلى السينما» . وانتقلت أنا أيضاً - على ذلك الجسر - إلى معهد السينما . درست منهاج كلية السيناريو والإخراج . . ومارست التدريب العملي . شغفت بأمهات الكتب في الفن والأدب . . والسينما والتلفزيون . . ودافعت عن رسالة «الدكتوراة في الفنون» في موضوع : «الإخراج السينمائي والتلفزيوني للأعمال الأدبية» .

زرت الففقياس مراراً وأقمت فترات طويلة في أبخازيا . رأيت بأم عيني كيف يمجّد هناك الإنسان فيُعمّر طويلاً . . وكيف يُحتفى بالضيف فيمسي أسيراً سعيداً . . أحسست هناك أيضاً بالحب العميق الذي يكنه الشعب الأبخازي والقفقياس عموماً لكاتبه العظيم باغرات شينكوبا .

عدت إلى الوطن بعد غياب الطويل . . فافتقدت أغلى ماكان في القلب . . الوالد محمد حمزة الذي افتقره القهر والمرض العضال ولم ألقاه حياً . . والقنيطرة - مرتع الطفولة - التي فنك بها ماهو أعتى وأمرّ . قصدت شطآننا عديدة للعمل والفلاح . . حتى بلغت السينما والتلفزيون . . حققت بعض النجاح فيها . . إلّا أنه رواية « آخر الراحلين » أسرتني بشكل خاص وملكت عليّ وقتي وحياتي أيضاً . . فيها وجدت صدى لأوجاعي وهواجسي . . وأحلامي السينمائية . . بل اني أخاف الآن أكثر ماأخاف أن يسبقني شخص ما إلى نقلها إلى إحدى الشاشتين .

سافرت إلى سوخوي وقابلت الكاتب في داره . فرح كثيراً بخبر ترجمة روايته إلى اللغة العربية . تحدثنا طويلاً وأمسى حديثنا ودباً حمياً . . كانت تعد في الحفاء مآدبة أبخازية عامرة . . يالتلك المآدبة . . إنها - كالعادة - عامرة بالأنخاب الحكيمة المؤثرة . . مفعمة بالأداب القفقاسية العريقة . . تشبع فيها النفوس حقاً قبل البطون . سرعان ماانتهت جلستنا الطويلة الوديعّة تلك . خلعت ساعتني (التي ورثتها عن أبي) وقدمتها لباغرات شينكوبا . قبلها مني وقبلني . . ثم خلعت ساعته وألبسنيها عنوة . . وهكذا تبادلنا الآراء والساعات وأصدق ما في القلب . . ثم افترقنا على أمل أن نلقاه ضيفاً عزيزاً في وطننا العربي السوري . . فنحتفي به قراءة وأحباء ونثار لكرم الضيافة عندنا .

ختاماً . . أريد أن أقدم جزيل شكري لكل من ساعد - معنوياً وعملياً - في إصدار ونشر هذه الرواية . . أخص بالذكر هنا الدكتور شرف أباطة (رئيس الجمعية الخيرية الشركسية) على مؤازرته للعمل . . والأستاذ محمد وليد الحافظ على مساهمته في مراجعة النص العربي . . والفنان بسام ابراهيم على تعاونه في تصميم الغلاف .

بقي أن ألفت انتباه القراء إلى أن كلمة «أوبيخ» تكتب على هذا النحو لتسهيل
تصريفها وتداولها . . . أما اللفظ الصحيح للكلمة فهو (وُبيخ) . . . أقول قولي هذا وأنا
أشعر بمرارة الحزن والألم . . . لأن كل ما بقي من هذا الشعب العريق . . . هو اسمه
فحسب . . .

دمشق ١٩٨٨/١١/٢٢

د . محي الدين سليق

« من يفقد وطنه يفقد كل شيء »

« مثل أبخازي »

مقدمة

جاءني إلى البيت مساء أحد أيام السبت من أوائل هذا الشتاء كارييه بارتشان . كنت درست واياه في معهد التربية المتوسط ؛ الأ أنه غادر سوخومي من زمن بعيد ليعمل مدير مدرسة ريفية ولم نتقابل طيلة سنوات عديدة . لذا هيأت نفسي اثر لقائه هذا الحديث طويل عن الأحوال وكافة أمور الحياة . الأ أن كارييه كان على عجل من أمره ، وقال لي : ان سيارة اللجنة المنطقية التي أقلته الى هنا ستأتي بعد نصف ساعة لتأخذه في طريق عودتها ، وكى لا يضيع الوقت سدى أخرج نوا من محفظة كبيرة مهترته ملفاً ضخماً جداً وضعه أمامي على الطاولة :

- هذه مخطوطة ، أرجوك أن تقرأها . وكلما أسرعرت في ذلك كان أفضل . يكفي أنها نامت واحداً وثلاثين عاماً على بعد بيتين عني - في صندوق تاتال ، أكبر عماتي . لقد ماتت عمتي ودفناها في الأسبوع الماضي . وحين فتحنا ذلك الصندوق الذي لا يذكر أحد أنها فتحتة ولو مرة واحدة في حياتها وجدنا فيه هذه المخطوطة . إنها تعود لابنها شاراخ كغادزبا وقد كتبت قبل الحرب ولكن لم ينلها القدم حتى الآن . عموماً أرجو أن تقرأها وتحكم بنفسك .

مضى كارييه مثقلاً ضميري بالمصير اللاحق للمخطوطة التي نامت واحداً وثلاثين عاماً في صندوق أم مات ابنها من زمن بعيد . لذا فقد انتابني قبل أن أفتح ذلك الملف شعور خاص بالرهبة والمسؤولية ليس أمام ميت واحد فقط ، بل اثنين معاً .

قرأت المخطوطة في المرة الأولى قراءة سريعة من بدايتها حتى نهايتها . ثم أخذت أعود اليها بعد ذلك من مرة لأخرى لكي أتفهم بشكل أفضل ما وجدته غامضاً أو ناقصاً في بعض الأحيان ، أو ما بدا لي غير مألوف أو غير معقول في أحيان أخرى . لم تكن المخطوطة سهلة بسيطة وكذلك نصيب صاحبها من الدنيا .

لم أتعرف على شاراخ كفاذزبا شخصياً ولكنني سمعت عنه الكثير . كان يكبرنا بخمس سنوات وقد انتقل الى ليننغراد بعد انهاء معهد التربية المتوسط في سوخومي . ثم انتسب الى كلية اللغات القفقاسية في معهد الاستشراق واستمع لمحاضرات الأكاديمي مار ثم واصل دراساته العليا مختصاً بمجموعة اللغات القفقاسية الشمالية الغربية بما فيها اللغة الأويغية التي كانت معرفتها ذات أهمية كبيرة لتحديد مستوى التقارب والتجانس بين اللغات القفقاسية الأخرى .

وسمعت أيضاً أن كفاذزبا - حسب شهادات أساتذته في ليننغراد - كان انساناً ذا مواهب وقدرات غير محدودة في علم اللغات . ولهذا على الأرجح أتيج له السفر إلى خارج البلاد - الى تركيا والشرق الأوسط - في مهمة علمية تعد نادرة بالنسبة لتلك الأيام . أما هدفها فكان اللقاء بأشخاص يستخدمون في حياتهم اليومية اللغة الأويغية الحية التي حافظوا عليها آباء عن جد . كان ذلك ضرورياً بشكل خاص لعدم وجود أبجدية أويغية للقراءة والكتابة .

أمسى الكثيرون منا خلال الحرب لا يعرفون الا القليل عن ذويم . وهكذا كان حالي أنا وكفاذزبا . لقد سمعت من شخص ما ولعله كاربيه نفسه أن كفاذزبا قد سبق الى الجيش حين عاش في ليننغراد وأصيب من فوره بجرح بليغ . ثم مالبت بعد خروجه من المستشفى والتحاقه بقطعته في الجبهة أن سجل في عداد المفقودين . حدث ذلك في عام (١٩٤٢) . وبعد مرور مايزيد عن ستة عشر عاماً - أي في سنة (١٩٥٨) - وصلت إلينا في سوخومي أخبار تفيد بأنه عثر في ايطاليا البعيدة في أطراف منطقة تشيرمينات قرب بحيرة كومو على شاهدة حجرية فوق قبور بعض الفدائيين الطليان الذين سقطوا في آخر أيام الحرب (وبالتحديد في نيسان سنة ١٩٤٥) تحمل اسم شاراخ كفاذزبا ضمن قائمة الأسماء المسجلة باللاتينية (مع ارتكاب خطأ في حرف واحد فقط في اسمه) . بقي علينا أن نخمن كيف وصل كفاذزبا الى ايطاليا . على الأرجح أنه هرب الى هناك مع الكثيرين

من ذوي المصير نفسه من المعتقلات النازية لأسرى الحرب في النمسا القريبة من الحدود الإيطالية . ثم إن نسبته نادرة الوجود على الأرض كلها ، وهذا لا يترك مجالاً للشك في أنه كفأدزيا نفسه ، كما أن تاريخ مقتله وهو الرابع والعشرون من نيسان عام (١٩٤٥) يشهد بأنه قاتل حتى نهاية الحرب تقريباً ليسقط قبل حوالي اسبوعين من بلوغه يوم النصر حياً . هكذا يبدو مصير شاراخ كفأدزيا . بل على الأصح هذا ما أعرفه أنا عنه .

أما بخصوص قصة مخطوطته فقد تدارست بعض تفاصيلها مع كارييه الذي زارني عدة مرات خلال الأشهر الستة التي استغرقها اعداد المخطوطة للنشر .

يمكن القول من خلال ماتيين لنا إن شاراخ كفأدزيا قد كتب تلك الصفحات الخمسةة تقريباً في جلسة واحدة فقط : فبعد عودته من سفره الى خارج البلاد في صيف عام (١٩٤٠) وحصوله إثر ذلك على إجازته اعتكف في دار أمه في أبخازيا طيلة شهر ونصف وتفرغ كلياً للكتابة . أخذ يعمل منذ طلوع الصباح حتى حلول الليل دون أن يخرج من البيت على الإطلاق .

وفي اليوم الأخير قبيل سفره وضع الأوراق كلها في ملف والملف في محفظة ، وطلب من أمه مفتاح صندوقها ليودع المحفظة في قعر الصندوق ثم ليقله بنفسه ، ويعيد إليها المفتاح قائلاً :

- فلتبق هذه الأوراق عندك في الصندوق حتى ذلك اليوم الذي أعود فيه إليك . قال لها ذلك بنبرة خاصة حتى أنها ما فتئت تذكرها طيلة حياتها .

ومن الطبيعي أن شاراخ لم يكن قادراً عندها أن يخمن أنه يغادر البيت سالكاً طريقة الأخير ، وأنه لن يرى بعد ذلك ثانية لا أمه ، ولا بلده أبخازيا . ولكن على الأغلب أن أمه قد أحست في صوته بما جعلها تحافظ حتى أيامها الأخيرة على الملف الذي وضعه ابنها في الصندوق ، وليس أن تحافظ فحسب وإنما ألا تحدث انساناً على الأرض بذلك . فهي لم تخبر أحداً بهذا سواء حين قالوا لها إن ابنها قد سجل في عداد المفقودين أو حين قالوا لها إنهم وجدوا اسمه على شاهدة قبر جماعي في مكان بعيد الى حد لا يمكن تصوره .

حين بلغها ذلك قالت أول الأمر « لبيع أقرباء وأصدقاء شاراخ كل مالمديها ولديهم من متاع ، ولينقلوها بالنقود المتوفرة الى قبر ابنها » ولكنها مالبت أن كفت عن الحديث عن ذلك ولو بكلمة واحدة حين فوجئت بعدم تشجيعهم لها على ذلك ، وصمتت تماماً . ومن

الجائز أنها لم تكن مقتنعة بموت ابنها طالما أنها لم تر قبره . وفي كل الأحوال فإن الأم لم تخرج محفظة ابنها حتى وفاتها . لقد أوصاها بحفظ أوراقه المكتوبة حتى عودته ومن المحتمل أيضاً أنها ترقبت مجيئه كل الوقت . انها كبيرة في السن وأميمة ولكني لا أدري لماذا لم يسعنا أنا وكاربيه أن نصدق أن تلك المرأة كانت قادرة على نسيان ملف ابنها بكل بساطة .

وقعت مخطوطة شاراخ كقادزبا كما سبق وقلت في خمسمائة صفحة تقريباً وعلى الأدق في أربعمائة واثنين وثمانين صفحة مكتوبة بخط رفيع وأحياناً - خاصة قبيل النهاية - بخط عجول ولكنه مقرأ وواضح . كما ورد في منتصف المخطوطة صفتان مطبوعتان على الآلة الكاتبة مؤرختان بشهر آب عام (١٩٤٠) تلخصان سيرة حياة كقادزبا قبل الحرب وتحويان بعض الاستنتاجات والموضوعات المختزلة المكتوبة بخط يده كمسودة للتقرير الذي أعده كقادزبا في المعهد - كما هو واضح - إثر عودته من مهمته الى خارج البلاد . وجاء ضمن أوراق المخطوطة الى جانب ذلك كله وصل استلام معطى لشاراخ كقادزبا يشهد بأنه سلم المتحف الحكومي الأبخازي بوقنا نحاسيا وخنجرا قفقاسيا أتى بهما من سفرته تلك ليقدّمها الى المتحف ، وأن المتحف قد قبل بدوره حفظها لديه .

لا أدري ما المصير اللاحق للخنجر ، إلا أن البوق يمثل تحفة نادرة من أصل أوبيخي ذات مكانة خاصة في رصيد متحفنا وقد رأيتها هناك مراراً دون أن أعرف أنها هدية شاراخ كقادزبا .

جاء في تقرير كقادزبا ضمن رؤوس أقلامه أن المواد التي جمعها خلال مهمته تلك يمكن أن تلقي الضوء - حسب رأيه - على فجوات قائمة في دراسة التاريخ المأساوي للشعب الأوبيخي الغارق - كما عبّر عن ذلك بنفسه - في ظلمة حالكة تحجب الرؤية .

اعتبر كقادزبا في أحد موضوعاته أن من المهم الإشارة - في إطار نقده الذاتي لعمله - الى أن ثمة الكثير من أسماء الأماكن التي بقيت مبهمّة بالنسبة له وكذلك بعض الشخصيات التاريخية الغامضة التي وقع على آثار نشاطها من خلال المواد التي جمعها ، وأن الكثير مما سجله بنفسه ليس جاهزاً تماماً للتعليق عليه وفق أسس علمية متينة . إلا أنه أضاف أيضاً : أن المرحلة القادمة لعمله لا تنحصر في التعليقات والشروحات العلمية وإنما في الاستعراض المتسالي لكل ما جمعه وكتبه بحيث يصبح ذلك كله أساساً لمراحل العمل اللاحقة .

ومن الواضح أيضاً أن المخطوطة التي حفظت في الصندوق لم تكن متتهية تماماً . بل - وكما يتضح من محتواها - أن العمل قد أوقف في اليوم الأخير وهي تشارف النهاية . قبل أن أقدم للقراء مخطوطة شاراخ كئادزبا التي نَقَحْتُها في تلك الأماكن النادرة حيث دعت الحاجة القصوى ، أريد أن أقول بضع كلمات حول الموضوع الذي تعالجه والذي لم يفقد آنيته حتى الآن .

مخطوطة كئادزبا التي أمامنا تبعث الحياة في صفحات تاريخ الأوبيخ - الشعب الذي عاش منذ القدم في جبال غرب القفقاس ، في الشريط الذي يحده نهرا شانيه وخوستا من الشمال والجنوب .

ففي نهاية الحرب القفقاسية وإثر اصطدام الحكومة القيصرية بالموقف العنيد للأوبيخ إقترحت الحكومة على زعمائهم الخيار التالي : إما النزول من الجبال والانتقال الى سهول شمال القفقاس وإما النزوح إلى تركيا . وقد اختار زعماء الأوبيخ من ذينك الأمرين المرين ما انضح تاريخياً أنه ينطوي على قصر نظر أشد . وهكذا نزع الشعب الأوبيخي في إثر زعمائه في عام (١٨٦٤) الى تركيا ليسوقهم القدر بعد ذلك الى بلدان الشرق الاوسط وكانهم طيور خارت قواها إثر هيجان إعصار عنيف ولم تعد قادرة على التماسك والصمود معاً .

مرّ قرن واحد من الزمان ليندثر عن وجه الأرض ذلك الشعب الجسور ذو الماضي العريق وكأنه لم يكن .

وبقيت اللغة الأوبيخية الحية في الذاكرة فحسب . ومع أن معرفة لغة وتاريخ الأوبيخ هامة جداً بالنسبة لتطور العلوم عن القفقاس فإن هناك أماكن عديدة مجهولة في هذه العلوم حيثما نظرت .

قبل خمسة عشر عاماً وقعت على خبر لأحد العلماء الأوربيين المشهورين المختصين بالقفقاس ، يقول فيه : « ثمة بين أحفاد الأوبيخ الذين نزحوا الى الشرق الأوسط - حسب معلوماته - ستة عشر شخصاً على قيد الحياة يعيشون في قريتين صغيرتين متجاورتين ويتكلمون اللغة الأوبيخية . كان ذلك الخبر الذي مرّ عليه خمسة عشر عاماً هو آخر ما قرأت . ولم تقع تحت يدي بعد ذلك أية وثيقة علمية تنص على أن هناك أناساً يتكلمون الأوبيخية في الوقت الحاضر .

ومع هذا فإنني أرغب في أن أقدم للقراء مخطوطة شاراخ كفاذبا هذه التي تتألف كلها تقريباً من أحاديث مسهية سجلها في عام (١٩٤٠) لعجوز أوييخي عمره مائة عام يذكر جيداً فترة نزوح شعبه الى تركيا ، وعاش كفاذبا في داره أكثر من شهر . لقد تميز هذا العجوز الأوييخي المثوي زاورقان زولاق - كما يبدو من المخطوطة - بصحته النادرة وقوة تحمله بل وذاكرته المتناسكة النادرة أيضاً . وقد سرد لضييفه خلال أكثر من شهر سيرة حياته كلها أولاً بأول تقريباً . أما شاراخ فكان يسمع ويسجل وعلى ما يبدو أنه لم يغفل عن شيء ، حتى في تلك الحالات التي كان العجوز يتوه فيها في حديثه عن هذه أو تلك من الأحداث أو أزمنتها الى جانب حديثه عن تلك الأشياء التي تبدو أحياناً أسطورية . ومن الواضح أن عالم اللغات شاراخ كفاذبا كان يعتمد في البداية الى تسجيل كل شيء يسمعه بتدقيق شديد . ثم لا يلبث أن يخضعه إثر ذلك للبحث والدراسة فيفرز الموثوق منه عما هو أقل دقة ووثوقاً .

والحمد لله لأن المخطوطة قد حفظت بهذا الشكل بالذات . فلم يفت الأوان بعد لدراستها من وجهة نظر علمية . ولم يفت الأوان بعد أيضاً لأن تصحيح هذه أو تلك من الحقائق المذكورة فيها - سواء التاريخية أو المعيشية - مادة للتحليل النقدي . إن هذه المخطوطة تمثل في شكلها الأولي الذي ظهرت فيه وثيقة إنسانية مثيرة للإهتمام بغض النظر عن كل عيوبها من وجهة النظر العلمية . إنها ترسم أولاً شخصية الراوي بالطبع . ولكنها ترسم الى حد بعيد أيضاً شخصية المستمع الذي تأثر وانفعل كل التأثير والإنفعال بما سمعه ورآه ولم يكتف بدور المسجل المجرد فحسب .

لتنصفح المخطوطة إذاً . ولكنني أريد أن ألفت الانتباه أولاً الى انه كان أمامي أربعمائة واثنتان وثمانون صفحة مكتوبة بشكل كامل . إلا أنها لم تكن دون عناوين فحسب بل وغير مقسمة الى أجزاء وفصول ، ومكتوبة - دون تحديد فقرات تقريباً - بيد إنسان لم ينو نشرها بل يسعى سعياً حثيثاً وبكل قواه الى تسجيل كل شيء حتى النهاية قبل انقضاء المدة المحدودة له . إن إعطاء المخطوطة العنوان الذي رأيتموه وكذلك تسمية الفصول وتقسيمها الى أجزاء قد تمّ كله لتسهيل القراءة وهو عبء على ضميري أحمل وزره أنا وليس شاراخ كفاذبا .

باغرات شينكوبا

الفصل الأول

وليمة مع الأموات

أنزل من العربة التي أفلتني بطريقها الى هنا ، أقف محققاً في الأرجاء لا أدري الى أين المسير . الحصان الهزيل الذي جرّ العربة بعناء شديد إلى هنا ينحدر بها الآن بصخب وجلبة الى أسفل الجبل . ضجيج العجلات هو الشيء الوحيد الذي يعكر صفو الهدوء . القبط خفت قليلاً ورياح دافئة هبت تلاقى المساء وأخذت وكأنها مكنسة خفية تذر غبار الطريق . ثمة في البعيد وإلى اليمين قرية يسمع كيف تنبح كلابها . وإلى اليسار رابية جرداء لفتحها الشمس وحفرت سيول الأمطار فيها أخاديد شبيهة بندوق الجراح التي لم تندمل بعد . أما في الأمام فسهل كثيب يمتد حتى الأفق تتناثر فيه أشجار قليلة . أقف متعجباً وأنا أنظر الى هذه الأرض الغريبة عني . أيعقل أن الأوبخ قد استبدلوا بها جياهم ؟! أيعقل أنه هنا ، في هذه الأرض ترقد عظام بضعة جبال منهم ؟!

حين سمعت وقع المطرقة على السندان أيقنت ان الحوزي قد صدق إذ قال وهو ينزلي : « حانوت الحدادة قريب من هنا » . إنه ورائي تماماً على بعد مئة خطوة لا أكثر . كل ما في الأمر أني لم أتجه ناحيته عند نزولي من العربة . وهاهو - على ما يبدو - الحداد نفسه . طرق قليلاً بمطرقته بينما كنت في طريقي إلى حانوته ثم خرج للقاتي وكأنه يعرف مسبقاً أني أقصده بالذات . إنه معتدل القامة ، يرتسم على وجهه المعفر بالسخام والممسوح بعجلة ودون دراية شارب أسود قليل الشعر . لمحت بيده صرة وخطر لي برهة أنه ليس الحداد المقصود بل شخص آخر غيره .

ولكن اتضح أنه الحداد بيرم بالذات ، الذي قالوا لي حين ذكروا اسمه : إذا التقيته فسيجري كل شيء على مايرام . أما أن بيده صرة فهو توفيق آخر حظيت به ، لأنه كان يحمل تلك الصرة الى ذلك العجوز الأوييخي زاورقان زولاق الذي جئت الى هنا من أجله مستخدماً شتى وسائل النقل .

نسير أنا وبيرم بمحاذاة سفح الرايبة الجرداء . بالهذه الرايبة ، كأن غضباً إلهياً حلّ بها : في أحد جانبيها أحاديث كندوب الجراح وفي الجانب الآخر صخور عارية مشققة أحقرت الشمس كل عشب فيها .

- وصلنا - قال بيرم - هذا بيته .

أشار بإصبعه الى المكان ولكني مع ذلك لم أر أي بيت .

- ليس هناك ، بل هنا .

ويشير بيرم بإصبعه من جديد وأرى أخيراً ذلك البيت ، يبدو لي أن هناك كهفياً داخل سفح هذه الرايبة الجرداء ، وأن في مدخله مايشبه ثلاثة جدران منخفضة من اللين غطيت بسقيفة من الألواح الخشبية التي أسود لونها من الدخان .

انتظر هنا . سأرى هل زاورقان في البيت أم لا ؟ وسأسأله هل سيتحدث اليك أم

لا ؟

إن الغضب يتملكه أحياناً لدرجة أنه لا يرغب في رؤية أحد حتى لو كنت أنا .

إنها مائة عام . . .

يرفع بيرم كتفيه وكأنه يريد أن يشرح لي أن الانسان حين يبلغ المائة عام لا يسأل

عن سبب غضبه .

- ولكنني أخشى ألا يكون الآن في البيت فكلبه لم يتنبه لمجيئنا .

لم يكذب بيرم بنم قوله حتى هاج علينا من الكوخ كلب ضخم الجثة أخذ يشب وينبح

بشدة . بدا عواؤه صاحباً مرتجماً وكان شقاء قديماً قدم الزمان يصيح بنا على شكل عواء

الكلاب عبر إبريق فارغ مصدوع .

يصعد بيرم بضع درجات ترابية ليختفي عبر ثغرة سوداء هي بمثابة باب الكوخ

ويربض الكلب محذقاً بي صامتاً بعد أن ملّ التباح .

أما أنا فكنت والذكريات تعود بي الى المشاق التي اعترضت طريق سفري هذه

أفكر والرعب يملأ نفسي بما تكون عليه شخصية هذا العجوز المثوي الذي هو سبب مجيئي الى هنا . وانتساءل عما سيعطي لقائي هذا معه لعلم اللغات ، ثم ماذا يقول له عني بيرم هذا الذي طال غيابيه . أكان من الأفضل ياترى لو أني مضيت معه ؟ ولكن هاهو قد أقبل . لاحظ الان فقط بينما هو ينزل إلي متخطياً الدرجات أنه يعرج بشدة . - زاورقان في البيت . رقد ليرتاح قليلاً . سينهض الآن ويلفك - يقول بيرم ذلك وأشعر من خلال صوته أنه سعيد من أجلي .

نصعد الدرجات الترابية نحن الاثنين معاً في هذه المرة ثم نتوقف أمام الكوخ . لاوجود هناك لما يمكن تسميته باحة دار بل انها شرفة ترابية صغيرة ، نمت فيها أربع شجرات وطبقات قديمات تبدو راسخات بقوة في الأرض . نجلس أنا وبيرم على مقعد تحت إحدى تلك الأشجار وندخن .

- وعد بأن ينهض ويلتقي بك - يكرر بيرم قوله ويضيف وكأنه يقدم تبريراً مسبقاً - إنه يكون متجهماً جداً أحياناً . ولكن هل يلام على ذلك إنسان عجوز مثله ليس له في هذه الديار قرين في السن ؟ قلت له إنني أحضرت ماطلب ولكنه لم يأت بحركة ولم ينبس ببنت شفة . إنه لا يجيب بشيء في أغلب الأحيان . أخبرته بعد ذلك بأنك ضيف عالي المقام . ولكنه لم يجيب بشيء أيضاً . فقط عندما عازمت على الخروج لاحضي بقوله : « سأنهض الآن » . لم أحدثه بغايتك ، فقد يغضب فجأة .

الأفضل أن تحدثه أنت بنفسك عندما يقابلك . طالما سيلتقي بك فانه لن يطردك . إنني أعرفه جيداً .

لقد أصبح بمثابة الأب بالنسبة لي منذ كنت صغيراً وأطعمني حتى كبرت . الحق أنها رغبته هو في العيش منعزلاً . ولكننا مع هذا نبقي كابن وأب وليس له أحد غيري على الإطلاق . سأذهب أنا ولتبق أنت . أرجو المذرة لأنني ذاهب ولكن في هذا الوقت بالذات ، قبل المساء يتوقف الناس عندي لأحذي لهم خيولهم . سأتي الى هنا ليلاً . طالما أنه سينهض ويستقبلك فانه سيدعوك للبقاء هنا وسيكون بإمكانك المبيت عنده ، أما الطعام فسأتي به أنا .

أشكر بيرم وأقول له : إنني سأحاول جزاءه على جميله وطيبته ، فيقاطعي قائلاً :
- سنتحدث فيما بعد . ولكن إياك أن تعرض شيئاً من هذا القبيل على زاورقان ،

نقوداً مثلاً أو أي شيء آخر . إنه يعتبر الضيف إنساناً مقدساً ، أما نحن فستحدث فيما بعد .

أبقى وحيداً أو على الأصح أنا والكلب . ننتظر معاً بصمت . هو رابض وأنا جالس . . .

أختلس النظر الى الباب المفتوح - إنه باب مع ذلك وليس ثغرة ، باب يفتح الى الداخل - أنتظر ظهور صاحب الدار ، مضيفي المجهول الذي وعد بأن ينهض لاستقبالي . منذ كم سنة يعيش هنا ؟ هل هو وحيد دائماً ؟ لماذا وكيف جمعه القدر بيرم ؟ لماذا يعيش في عزلة هذه ؟ ولماذا اختار انسان حي هذا المسكن الذي يشبه القبر ؟ ينشأ الى سمعي من داخل الكوخ سعال عميق مكتوم . إلا أن يضع دقائق أخرى ثم قبل أن يطل زاورقان من الباب . إنه طويل القامة عربيض المنكبين ، وجهه المستطيل يبدو أكثر استطالة بسبب ذقنه البيضاء الطويلة التي تصل الى منتصف صدره . عليه رداء أبيض اللون شبيه بعض الشيء بالعباءة ، فضفاض واسع الكمين ، طويل يغطي ركبتيه . كان يتكىء بيده اليمنى على عكاز ضخم له نهاية حديدية ثقيلة . وقف بالباب طويلاً بلا حراك ، ينظر إليّ بامعان شديد . الكلب يداعب رجله بلطف ولكنه يبعده بقدمه صامتاً ويخطو يضع خطوات نحوي . خطواته مرنة متزنة فهو يحافظ على استقامته لا أثناء الوقوف فحسب ، بل عند السير أيضاً .

- أهلاً وسهلاً - يقول لي بالتركية بعد أن توقف ورفع يده اليمنى إلى صدره .

- يوم طيب - أجب بالتركية .

الآن فقط - حين يقف بالقرب مني - أدرك كم هو طويل القامة وأرى عينيه النضرتين الزرقاوين كزرقة السماء ، اللتين تنظران إليّ من هناك ، من فوق . ويمعن النظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل ثم يجلس ببطء لأن الانحناء أصعب عليه كما بدا لي من الوقوف ، ولا يفوته أثناء جلوسه على الجذع الغليظ المتور لشجرة عمرها مائة عام أن يشير بيده إلى ذلك المقعد الذي جلسنا عليه أنا وبيرم . أمثل لأمره وأجلس أنا أيضاً . يختار لعكازه مكاناً قريباً منه فيغرز نهايته بقوة في الأرض ثم يخرج من جيبه سبحة من الكهرمان .

- لأمثل لحرّ اليوم . ها قد يبس الغصن - ويشير إلى غصن على الشجرة لاأتمكن

من رؤيته .

- نعم ، الجو حار فعلا - أجيب أنا .

بصمت طويلا وأسمع طرففة السبحة فحسب .

«بماذا نبدأ؟ - أفكر أنا - أباهم شيء؟ بسبب قدومي إلى هنا أم بشيء آخر؟» وهكذا

- دون أن أحزم أمري - أسأل بعفوية لم أتوقعها نفسي :

- كم عمركم؟

ويبتسم زاورقان :

- على الأغلب أن كبر سني هو الذي جاء بك إلى هنا ، فلم يعد لدي أي شيء

يسترعي الانتباه ، إذا صحَّ حسابي فعمري مائة عام بالضبط .

- هل ولدتم هنا؟ - أسأل وأنا أدرك أنه لو قال : «نعم» لكان ذلك يعني ذهاب كل

شيء أدراج الرياح .

- كلا ، - يجيب هو - ولدت بعيداً جداً عن هنا .

أنتظر أن يضيف شيئاً آخر عن نفسه ولكنه لا يفعل ، ويعبث دقيقة بالسبحة صامتاً

ثم يتوقف عن ذلك فجأة ويباغتي بسؤاله :

- ولكن من أنت؟ ومن أين أنت؟ .

وأقرر وأنا أنظر في عينيه مباشرة أنه يجب التحدث إلى هذا العجوز بصدق وصراحة

منذ البداية وليكن ما يكون .

- أنا من بعيد ، من دولة أخرى . من الاتحاد السوفيتي .

- كيف؟! - يتساءل من جديد واضعاً راحة يده خلف أذنه .

- الاتحاد السوفيتي . روسيا . القفقاس . أبخازيا . - أقولها واحدة تلو الأخرى ،

محاولاً لفظها على النحو الذي بالفونه جيداً في تركيا آملاً أن يتلقف ولو واحدة منها .

ويتلقف فعلا ويكرر :

- القفقاس؟! أبخازيا؟! .

- نعم أنا من القفقاس ، من أبخازيا . - أقولها بصوت مرتفع . أريده أن يسمعي

جيداً . ويسألني مثلها وكان بوسعي ألا أجيبه بل حتى أنه يتوثب للقائي :

- ولكن من أي شعب أنت؟ .

- أنا أبخازي . جئت من أبخازيا .

- أنت أبخازي؟! ربا، إنك قادر على كل شيء، ماذا أسمع!! - يلفظ المعجوز هذه الكلمات بلغة أبخازية خالصة وهو مأخوذ بها متضرعاً بيديه إلى السماء .
- نعم أنا أبخازي . جئت من أبخازيا - أكرر ذلك ثانية ولكن ليس بالتركية بل بالأبخازية .

- أواه . بالفرحة التي جتني بها . كم مر من السنين التي لم أر فيها أبخازياً واحداً .
كم مر من السنين وأنا أعتقد أن الموتى قد يعيشون من جديد قبل أن أسمع اللغة الأبخازية مرة أخرى .
يَهَبُ المعجوز واقفاً وهو يقول كلامه هذا فيجذبني إليه بقوة شديدة ويقبل عيني واحدة تلو الأخرى .

- اعلم أني لست غريباً عنك بالدم . لقد كانت أمي البائسة أبخازية من عائلة شات إبا من تسييلدا . ماهو اسمك؟
- أذكر له اسمي ، ويستمر هو في الامساك بكتفي ثم يلحظ سبحة على إحداهما فجأة فيدسها على الفور في جيبه وكأنه قد أمسى في غنى عنها تماماً . وهكذا فإنه لا يخرجها من جيبه طيلة كل تلك الأيام التي أقمت فيها ضيفاً عنده .

- اجلس ، اجلس - يقول لي . - أنت لست ملزماً بالوقوف . أنا كبير في السن فعلاً ولكنك خالي . فحسب العادة أنت الأكبر* . - هو يجلسني وأنا أجلسه - إذا مت أنا اليوم وبنت في الجنة حيث ينتظرنني شعبي كله - يقول ذلك محاولاً الوقوف من جديد مع أني أعيقه ماسكاً بكتفيه بقوة - فإني سأحدثهم هناك أنه مازال يعيش هنا على الأرض أبخازيون .

لم يعد باستطاعة المعجوز أن يخلد أبداً إلى الهدوء وسرعان ما أخذت عدوى انفعاله

(★) حسب الأعراف الأبخازية القديمة يعتبر الابن كافة أقارب أمه وكل من يعمل نسبتها أخواله ويدعوهم كذلك . وهم بالنسبة له الأكبر في السن بغض النظر عن أعمارهم . كان هذا ينطبق بشكل طبيعي وأكثر اتساعاً على الرجال أبناء عشيرة الأم إذا كان أصلها من شعب آخر .

نسري في أوصالي . فهو يجلس تارة وينهض أخرى . يذهب إلى الكوخ ثم يعود توأ إلى
الفناء . تتخبط خطواته ذاهلاً ، ينتقل من شجرة إلى أخرى . يتحسس تلك الشجرات
بيديه . يبدو وكأنه يتأكد من بقائها في مكانها . « أليس هذا كله حليماً ؟! » ثم بعد أن
يتلمس الأشجار يقترب مني ثانية ، ويلوك مرة تلو أخرى الكلام ذاته مخاطباً شخصاً غير
موجود هنا ولكنه - على ما يبدو - موجود فعلاً بالنسبة إليه :

- لدي اليوم ضيف كبير . لقد أتى إليّ من هناك ، حيث ولدت . أتى لرؤيتي . إني
أعيش بعيداً عنه ولكنه جاء ليعرف كيف أعيش أنا هنا .

يقول كل ذلك لشخص آخر وليس لي ولكنه يتذكرني من جديد ويجلسني ثانية
بيديه القويتين قوة خيالية بالنسبة لسه .

- اجلس ياداد* ، اجلس . أنت خالي ولا يجوز أن تقف . نعم ، نعم ، لقد
كان الأويخيون يعرفون كيف يجب استقبال الضيوف . - يقول هذا وهو يجلسني - ولكن
من يفعل ذلك الآن غيري ؟! . وماذا بوسعي أن أفعل أنا وحدي لتقديم واجبات
الضيافة على أكمل وجه لضيف مثلك ؟ .

يقول العجوز ذلك كله وهو في حركة حثيثة دؤوبة في الفناء ، فيتوجه إليّ تارة ،
ويكلم نفسه تارة أخرى ويبدو لي في هذا وذلك مجنوناً للحظات أو على وشك الجنون .
يمضي في الظلام الدامس إلى الكوخ ويضرم النار في الموقد . ألسنة النيران تندفع
طليقة عبر الباب المفتوح إلى الخارج . يظهر زاورقان أخيراً ويدعوني للدخول . يجلسني
قرب الموقد ويخرج من جديد . أتفحص المكان . ثمة بضعة مقاعد منخفضة قرب الموقد أما
إلى الجدار فقد صفت مصاطب خشبية للنوم مغطاة بأغطية قطنية وأمامها على الأرض
أحذية منزلية قديمة . هناك باب يؤدي إلى غرفة ثانية . البيت رتيب ونظيف وهذا يعني أن
هناك من يفتني بالعجوز . ولكن من ؟ .

يعود زاورقان بحزمة من الحطب ويلقم النار بنصفها .

- هكذا إذا أيها العزيز شاراخ ، هكذا - يقول العجوز ذلك ممسكاً بكتفي كي
لا أقف - أنظر إلى هذه النار ، إلى هذا الموقد . إنه لآخر أويخي . ما أعظم أني لم أنس

(*) داد : (بالبخازية) للمخاطبة اللطيفة وهي بمعنى «عزيزي» .

اللغة الأبخازية ولكن اعذرني على أية حال إذا نسيت كلمة ما . الحمد لله لأن أُمِّي المسكينة قد علمتني لغتها . إن صوتها باق حتى الآن في أذني .

لم يكن بوسعها أن يهدأ حتى بعد أن أجلسني قرب النار . فهو من جديد إما أن يخرج من البيت أو أن يدخل إليه ثانية . وإما أن ينساني وينصرف عني أو يتذكرني ويلتفت إليّ . ويدخل أخيراً إلى الغرفة المجاورة فيمكث فيها بضع دقائق يودي أن أخرج خلالها من حقيبتي قلم رصاص ودفترًا صغيراً ، ولكنني لا أجرؤ على ذلك في غيابه ، لاسيما ؛ وأني لم أشرح له بعد سبب قدومي إلى هنا . لقد قال عن نفسه إنه آخر أوبيخي . وهذا قريب من الحقيقة . فخلال شهرين من الترحال في سوريا وتركيا لم ألتق بأي إنسان - عدا هذا المعجوز المنوي - يسمي نفسه أوبيخيا . وعنه فقط ، عن هذا المعجوز المنوي زاورقان زولاق سمعت للمرة الأولى خلال كل هذا الوقت من الناس الآخرين أنه على الأرجح - أوبيخي .

هاهو يطل أخيراً من الغرفة الثانية وقد أمسى في هيئة يصعب التعرف عليه فيها . ثم إن قامته قد طالت أكثر . إنه يرتدي بزة شركسية سوداء اللون قديمة ويضع على رأسه قلباً كبيراً ويزين حزامه القفقاسي الرفيع المقفص الذي اسود لونه خنجر فضي قديم ذو مقبض كبير أسود صنع للعراك وغمد مزين بالقفص مسود اللون . خرج المعجوز حاملاً يديه الاثنتين بوقاً فضياً يبلغ طوله متراً وأخذ يحدثني عنه فوراً دون أن يفكر بالجلوس .

- كان صلاح أقدم من بقي في هذه الأرجاء من الأوبيخ ، وقد قام بتسليمي قبيل موته هذا الحزام وهذا الخنجر ، وهذا البوق . الحزام والخنجر من ملكه الشخصي أما البوق فيعود لشعبنا كله . إنه اليوم عندي ، ولكن من يدري لمن سيؤول بعد وفاتي . كان لدى أبي حين عشنا في القفقاس بوق شبيه بهذا ، اعتدنا أن نجتمع به الجيران والأقارب عندما يأتي إلينا أخوة أُمِّي من تسييلدا . كان الجميع يعلمون لدى سماعه بأن ضيوفاً جاؤوا إلى حاميرزا . ليدق البوق إذا في هذه الليلة أيضاً وليعلم الأوبيخيون كلهم أن ضيفي هو إنسان قريب جائي من بعيد . إنه خالي . ليعلم الجميع بذلك فوراً وليأتوا إلى الوليمة .

ودون أن يضيف شيئاً آخر يخرج المعجوز من الكوخ والبوق في يديه . وأخرج أنا في إثره ذاهلاً مأخوذاً بسحره . ثم بعد أن يتجاوز الشجرات الأربع المنتصبة أمام الكوخ يتوقف عند المنحدر وينفخ في البوق .

وأسمع أول مرة في حياتي أصوات هذا البوق . إنها فظيعة باكية معاً ، شبيهة بانين

وحش جريح . أحس أنها ترتفع إلى الأعلى كالدخان فوق السطوح ، أو أنها تضيع وكان الريح تعيث بها فتموت حزينة في البعيد البعيد . كنت أسمعها ولسان حالي يقول : لماذا لا يصدح هذا البوق بقوة أشد وبكاء أكثر حدة لكي يسكب الدمع كل من ينصت إليه . لماذا لا ينكس كل من يسمعه رأسه ذاكراً ذلك الشعب الذي خرج من التاريخ . يدق بوق الأوبيخ الأخير والمصيبة ليست في أن هذا العجوز المثوي الذي ينفخ البوق لن يعود ثانية طفلاً أو صبياً محارباً ، بل المصيبة في أن أحداً من هؤلاء لن يولد بعد الآن من الأوبيخ ، فهذا العجوز هو الراحل الأوبيخي الأخير .

أفكر بهذا بألم وحرقة ، والبوق يدوي ويدوي . ويتوقف أخيراً عن الدوي . ونعود أنا وزاورقان إلى الكوخ ونجلس إلى جانب الموقد . بوق الأوبيخ الأخير قد صمت ، أما الموقد الأخير لم فلا يزال متوهجاً . وأمعن النظر في الأوبيخي الأخير الجالس قبالي ، في تجهيزات وجهه البالغة العمق ، في يديه الكبيرتين الممتدتين على ركبتيه القويتين ، في كتفيه الواسعين ورقبته المثينة المحززة بالثجاويد كوجهه . أتأمله متسائلاً : أي عملاق كان في شبابه .

- إنني أفهمك تماماً . لقد جئت من بعيد - يقول زاورقان ذلك مثلكننا متباطئاً في كلامه جاهداً في تذكر الكلمات واحدة تلو أخرى - أفهم أنك جئت بعمل . أفهم أنك ستسألني وأنا سأجيبك ولكني أرجوك أن ترتاح اليوم وتجرب خبزي .

وما أن يقول العجوز ذلك حتى يمسي يرم على عتبة الغرفة وقد وصل إلينا دون أية ضجة . وأنهض واقفاً للقاء الداخل بحكم عادتنا الأبخازية التي طعمت بها منذ طفولتي وإلى الأبد كما أعتقد .

- اجلس ياداد ، اجلس . إنه لا يفهم هذه الأشياء . - يقول لي زاورقان مشيراً إلى

بيرم .

ويشرع الأخير من فوره دون أن ينس بكلمة واحدة بفك الصرة التي جاءنا بها وإخراج المأكولات ووضعها على الطاولة . ويلجأ أحياناً أثناء عمله هذا إلى زاورقان ، فيقول له بهمس خافت شيئاً ما بالتركية . على الأغلب أنه يتشاور معه حول العشاء .

وبينما يقوم بيرم بذلك يبقى العجوز جالساً بهدوء يمسد لحيته البيضاء التي تصل إلى منتصف صدره وينظر بإمعان شديد إلى عيني مباشرة . كان قريباً مني ولكنه ينظر وكأنه

يجلس بعيداً جداً. بدت في نظرتيه البعيدة تلك ملامح طيبة وأثار شقاء في آن واحد. .
بصرف نظره عني ويحدق في الباب المفتوح إلى الخارج، إلى ظلام الفناء، ويتحدث بصوت
عال ومرح عن شيء ما يحدث الآن في الواقع الفعلي. . هناك وراء الباب:

- نعم، لم يتفخ البوق عبثاً ياداد شاراخ. هاهم الجيران جميعاً والأقارب قد اجتمعوا
مليين نداءه؛ كل منهم يشغل مكانه ويقوم بعمله: منهم من ذبح السخلات ويشويها الآن
على النار ومنهم من ذبح الثور ووضع اللحم في القدر الكبير فأضرم تحته النيران ومنهم من
يتم الآن بتحضير المسالغا*. الشبان مشغولون الآن بعملهم بالطبع. أما شيوخنا
الأويخيون فسيأتون حالاً ليسلموا عليك يا ضيفي الغالي القادم من بلاد أومي. ستراهم
الآن في بزائهم الشركسية المزركشة بمواسير البارود، وسيوفهم الملتوية وخناجرهم الماضية
على أحزمتهم. لقد اتفقت وإياهم من زمن بعيد أن نجتمع على الفور حين يظهر ضيف
من الففقاس في بيت من بيوتنا.

أستمع إليه وأنقل بصري، دون أن أنبس بكلمة، إلى بيرم الذي يواصل ترتيب
المائدة بكل هدوء ولا مبالاة، إما لأنه لا يفهم لغة العجوز الأبخازية وإما لأنه سمع هذا
كله أكثر من مرة.

ينهض زاورقان ويتناول قضيباً من الموقد فيشعل به شمعة، ويضعها في طرف
الطاولة التي أعدها بيرم ثم يذهب إلى منتصف الغرفة ويصدر أوامره مرححاً واضعاً يده على
خصره.

- هيه أيها الشاب. أخبروا الفتيات بأن يأتين بالأباريق والأواني فقد أن الأوان
ليغسل الضيوف أيديهم قبل بدء الوليمة.

ويخرج زاورقان من الكوخ ولكن لا يفوته أثناء خروجه أن يفسح الطريق للآخرين
وكانهم يمرون فعلا عبر الباب.

في فناء الدار ظلام وهدوء. وفي السماء الصافية تتلألأ نجوم ثابتة مضيئة.

- أيها المحترمون المجلون سييت، داو د، صلاح، تاتلاستان، زوسخان، أحمد،
اغسلوا أيديكم وادعوا ضيفنا إلى الطاولة. كل شيء جاهز - يقول زاورقان ذلك بصوت

(*) المسالغا: أكلة أبخازية أويخية تصنع من دقيق الذرة الصفراء.

عال ويتلفت قليلاً بوجهه لدى ذكره كل اسم وكأنه يخاطب شخصاً إثر آخر من الموجودين حوله فعلاً . ثم بخطو بعد ذلك يضع خطوات مقترباً من الشجرة القديمة فيحضن جذعها بيده منحنيّاً على شخص قصير القامة يجيل لي أنه جالس تحت الشجرة .

- أمي الغالية، لماذا أنت اليوم حزينة هكذا؟ إقتربي منّا أكثر وعانقي ضيفنا الغالي عناق الأخت لأخيها . إنه من وطنك الأبخازي . أذكر كيف كنت تكين خفية عنّا بمرارة وألم، وتنديين باللغة الأبخازية أخوتك الباقين هناك . قد لا يكون ضيفنا أخاك بالدم ولكنه مع ذلك أبخازي . تحدثني إليه فقد يعرف شيئاً عن إخوتك .

ويستقيم زاورقان في وقفته . . ويوجه كلامه الآن إلى شخص بقامته هو تقريباً .
- أبي كم أودّ أن أدخل البهجة إلى قلبك . إني أذكر ماكنت تقوم به حين يجلب علينا ضيف أبخازي ، أكان شاباً أم متقدماً في السن ، أذكر كيف كنت تحضني بالضيف دائماً وتدعو الجيران كلهم للمشاركة في ذلك ثم ترافقه بعد ذلك مودعاً حتى شهر مزيمنا . إننا نستضيف اليوم شاراخ كفافازيا . إنه شاب إلا أن العار سيحيق بنا إذا قصرنا في الحفاوة به كما يجب . على الأرجح أنه جاء إلى هنا من بعيد لكي يعرف ماذا حلّ بنا، ولماذا اختفتنا نحن الأوبيخيين عن وجه الأرض .

يعود زاورقان إلى البيت ثم يتوقف عند العتبة ويرفع صوته قائلاً :
- من انتهى من غسل يديه أدعوه إلى المائدة إلى جانب ضيفنا العزيز .
ويتنقل فجأة من اللغة الأبخازية إلى الأوبيخية . لقد درست الأوبيخية بشكل نظري ولكني لم أسمعها من قبل أبداً . لذا فلم أستوعب ماكان يقوله بسبب معرفتي الضحلة بها من جهة وبسبب المفاجأة من جهة ثانية . كنت ألتقط بعض الكلمات المتفرقة والنبرة العامة لها فحسب . زاورقان لا يدعو الآن بل إنه يقنع شخصاً ما . . حتى أنه يأمر . . هذا يبدو من خلال صوته .

نقف تحت نجوم ثابتة في سماء سوداء . إلى جانبي على الأرض إنسان عمره مائة عام يتحدث مع موتى ليس بوسعهم أن يجيبوه . تحته أرض يقف عليها وفوقه سماء تعمّ الجميع . أفكر وأنا أصغي لكلامه المبهم بالنسبة لي بأن هذه الأرض وهذه السماء قد أئمتنا على الأغلب بحق الأوبيخ .

يتوقف العجوز عن التحدث بالأوبيخية ويدعوني بحركة من يده إلى البيت .

يلقانا بـيرم عند العتبة وإبريق ماء في يده ويساعدنا في غسل أيدينا .
- هذا مارزقنا الله به اليوم - يقول زاورقان ذلك إثر جلوسنا وراء الطاولة الواطئة .
أرى كل مايتوضع ويتصب على المائدة عدا التشوريكي (*) مختلفاً عما عندنا في
الفقفاص . لقد تذوقت أكثر من مرة خلال سفرتي هذه تلك الأطباق التركية التي قدمها لنا
بـيرم على الطاولة : باكلاشيرياسي (حساء الفاصولياء) ، بوغلي بوغلامو (لحمة بوفتيك
مطبوخة على البخار) . . .

زاورقان يضيفني ، أما بـيرم فقد جلس في الزاوية بعيداً عن الطاولة فأغمض عينيه
وركن إلى الهدوء ثم غفا هناك .
ينوهج الفحم في الموقد وتراقص شمعة رقيقة بضوئها الباهت على الطاولة . وتتأبني
في هذه الظلمة الخفيفة مشاعر غريبة . لقد بتَّ أصدق وأكذب في الوقت نفسه كل
مايجدث معي وحوالي .

يجلس زاورقان قبالي ويأكل دون استعجال وينظر بغبر رضى من وقت لآخر إلى
جهة واحدة قريبة مني ، وكأن شخصاً ما يعصي كلامه أو لا يرضخ كلياً له . وينهض فجأة
بحركة بطيئة معتمداً براحتي يديه على ركبتيه وينادي شخصاً ما :

- نارتشوو ، ايه نارتشوو . هل جلس كل من يجب أن يجلس ؟ هل صيتم الخمر
للجميع ؟ هل وزعم اللحم المسلوق على الطاولات بشكل لائق ؟ أرجو أن تكون متبها
يا نارتشوو . أظن أنك تعرف لمن يجب تقديم الكنتف المسلوق في الوقت المناسب .

نهض زاورقان بطوله الكامل . - والآن ياضيفي العزيز وياجيرانى الأحباء ، بشرفني
أن أفتتح هذه المأدبة مع أني لاأتحل بأية مناقب متميزة سوى كبر سني . نعم ليمن الله
عليكم جميعاً بالسعادة والعافية . لدينا اليوم ضيف عالي المقام ، لن يدخل بيتنا ضيف
أغل من بعد الآن . إنه خالي أخ أمي ، إن واجبه أكبر بكثير مما استطعنا تقديمه على هذه
الطاولة الفقيرة . ولكن ماعليها كله قد أعدَّ عن قلوبنا الصافية .

زاورقان واقف قرب المائدة ورأسه مرفوع إلى أعلى . أصابع يده اليمنى منقبضة
وكأنها تعانق كأس خمر . ينظر إلى بعيد وكأن وراء الطاولة التي يقف على رأسها مئات

(*) التشوريكي : خبز يصنع في تركيا وبعض بلدان آسيا .

الجالسين وأنها تمتد بعيداً بعيداً في الظلام خارج حدود الكوخ. أنظر إلى العجوز وأكد أنك بكل كلامه - فهو يتحدث بلهجة مقنعة نافذة مع الفراغ المحيط . وأنسى للمحظة كل شيء على الإطلاق ، هذه البلاد التي جئت إليها ، وتلك الصحراء التي قطعناها وهذه السراية الجرداء التي تسلفتها ؛ وحتى هذا الكوخ الذي أجلس فيه . أنسى كل شيء ويخيل إليّ أني لست هنا بل هناك في القفقاس ، وليس الآن بل قبل مائة عام في وليمة أويخية مكتظة بالناس . أرى اللحم المشوي والدخان ينبعث منه . أرى المهالغا والحمر الذي ينصب من أعناق الأباريق . أرى وجوهاً لا أعرفها لكهول ناداهم زاورقان بأسمائهم هناك في الفناء . من قال إن الأويخيين قد فنوا؟ هاهم يجلسون حولي ، إنني أسمع لغتهم . . ها قد انتخب أحدهم بتركية من صاحب الدار تحامانا* . . وهاهو ينهض واقفاً وقد دسّ طرفي بترته الشركسية في حزامه حسب عادة الفرسان . إنه يشرب بصحتي ويشرب الآخرون كلهم وقوفاً باثرة . أرجوهم أن يجلسوا وألا يكلفوا أنفسهم عناء الوقوف - فلست جديراً بأن يقفوا جميعاً من أجلي - لكنهم لا ينصتون إلي ولا يجلسون بل يقفون واقفين . . أغمص عيني لكي أطيل هذه الومضة الغريبة . . ولكن الهدوء الذي حلّ فجأة يوقظني من غفوتي ويعيدني إلى الواقع من جديد .

صمت زاورقان وغار في مقعده فجأة وكأن رجليه قد انقصفتا تَوّاً . إنه يجلس وراء الطاولة قبائلي ويستند بظهره إلى الحائط وقد نال منه التعب كل نزال . وراء الطاولة هو وأنا من جديد وعلى بضع خطوات عنا بيرم الذي فتح عينيه أخيراً وأخذ يرمقنا بنظرات لامبالية وكان شيئاً لم يحدث أو أن العجوز لم يقم ولم يقعد ولم يقل شيئاً مما قاله للتو . ماذا به في حقيقة الأمر؟! لماذا لا يكثر بكل ماجري ويجري؟ - أفكر ببيرم - لعله كان مستغرقاً في النوم حتى آخر ثانية بالفعل ولم يسمع شيئاً من كل ما قيل . أو أن ماهزّي وملا عليّ كيانٍ قد تكرر كثيراً على بيرم فمّل منه من زمن بعيد؟ .

يجلس زاورقان المتعب صامتاً . وعمر دقائق خمسة . . وعشرة . يعدّ بيرم أثناءها القهوة على فحم الموقد ثم يصبها لنا في الفنجانين . يبقى العجوز على صمته بينما نشرب القهوة . ثم ينهض ببطء بعد احتسائها ويقول لي :

(*) تحامانا : يعتبر لدى شعوب القفقاس رئيس المجلس سواء في الأفراح أو الأتراح : لا يجري شيء دون استشارته موافقته ، ويختار تحامانا - حسب العادات - الأقدم في السن بين الحاضرين والأكثر كفاءة .

- داد شاراخ، لن أزعجك أكثر مما فعلت في هذه الليلة. أنت متعب من الطريق.
تمدد وخذ قسطك من الراحة.

يشير بيده إلى المصطبة والغطاء القطني اللذين لاحظتهما فور دخولي إلى هذه
الحجرة.

- نوماً هادئاً - يقول لي ذلك مقترباً من الباب منحنيماً برأسه مودعاً. - سأذهب لأرى
كيف تجري الوليمة. لازال الكثيرون من الضيوف يجلسون وراء الطاولة، بل لازال
جيرانى الذين ساعدوا في خدمة الضيوف منهمكين في العمل ولم يتفرغوا بعد للأكل
والشرب. علي أن أهتم بهم بنفسى الآن.

يرفع زاورقان رأسه ويتناول عكازه المسند إلى الحائط ويخرج من الكوخ بعظمة
لامثيل لها دون أن يعيرني التفاتة أخيرة منه. أما بيرم فيهرع إلي لإرشادي إلى المكان الذي
بوسعي أن أرقد فيه وأنام، ويسدو لي أنه على عجلة من أمره للقيام بذلك في غياب
العجوز. يدلني إلى المكان المذكور لافي هذه الغرفة كما أشار العجوز بل في الغرفة الثانية.

غاب النوم في تلك الليلة عن أجفاني. حلّ الظلام دامساً في البداية. وكنت أسمع
كيف يعشي العجوز وكيف يتحدث مع نفسه. فتارة يهمس بصوت منخفض وتارة بصرخ
بصوت مرتفع. ثم منخفض. وهكذا. ثم يدخل إلى الدار حيناً أو يدب بخطاه في
الفناء حيناً آخر. ثم يعود من حيث انطلق. لم يهدأ له بال إلا عند طلوع الفجر فرقد
للسوم. أما أنا فلم أرغب فيه مطلقاً. أخرجت دفترتي من الحقيبة وجلست ساعات
متتالية أسجل كل ما انطبع في ذاكرتي وبشكل خاص ماقاله العجوز خلال تلك الأمسية،
من أول دقيقة حتى آخرها. أخذت أكتب والقلق الشديد يؤرقني فلم أكن أدري بأي
حال سألقاه غداً بعد انفجار المشاعر والعواطف هذا الذي شهدته بنفسى. هل سيعود إلى
رشدته ياترى؟ هل ستهداً ثورته أم لا؟ هل سيتاح لي أن أتحدث إليه غداً؟

إلا أن هواجسي جاءت في غير محلها.

ففي الصباح وما أن استوى جالساً تحت أقدم شجراته الأربع على مقعده الذي
صنعه بنفسه حتى بادرنى بسؤاله عما أريد أن أسمع منه.

وشرحت له أنني أريد أولاً أن أسمع منه قصة حياته، وأريده ثانياً أن يساعدني في
تعلم اللغة الأوبيخية فهو الوحيد الذي يتقنها وما من أحد غيره قادر على تعليمي إياها.

هز برأسه في المرتين مجبياً بصمت دلالة موافقته على مساعدتي.

بدأ لي في ذلك اليوم متعباً جداً إثر مساء أمس ولذا فلم أستعجله اطلاقاً، إلا أننا باشرنا العمل منذ صباح اليوم التالي وأخذت أتحدث وإياه بضع ساعات كل يوم في الصباح والمساء. عشت لديه أكثر من شهر وبالتحديد أربعة وثلاثين يوماً بالتنام والكمال كما سمحت الفيزا. وتوجب عليّ لو حاولت ثمديها - والأمل ضعيف في ذلك - أن أطيل أمد رحلتي كلها فلم أقو على المجازفة.

أخذت يريم الذي اتفقت معه خفية عن العجوز على أجر زهيد يأتيها مرة، وغالباً مرتين في اليوم بطعام متواضع نجهز عليه حتى آخره في كل مرة.

كنا نجلس عادة منذ الصباح وحتى منتصف النهار في الفناء. العجوز على مقعده الذي صنعه بنفسه، وأنا والدقتر في يدي قبالة على جذع شجرة الدلب الغليظة.

بات زاورقان يتحدث إليّ - كما رجوته - بالأويخية منذ الصباح وحتى منتصف النهار. ودأبت أستمع إليه بانفعال شديد، أسجل وأستفسر ثانية وثالثة. جرت الأمور في الأسبوع الأخير بشكل أسهل أما البداية فكانت صعبة. ذلك لأنني لم أكن ملماً بشكل عام باللغة الأويخية الحية على الرغم من كل معارفي التي تلقيتها في المعهد.

لقد ابتسم لي الحظ لأن العجوز المثنوي الذي غادر القفقاس عندما بلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً لم ينس لغته الأم. ليس هذا فحسب بل إنه يذكر بنفس المستوى أيضاً لغتي الأبخازية - لغة والدته. ثم بالاضافة إلى هذا كله فإنه تعلم خلال ثلاثة أرباع عمره التحدث بطلاقة بالتركية والعربية. وهكذا كنا نتنقل في الحالات التي يتعذر عليّ فيها الفهم، من لغة لأخرى، حتى نصل في نهاية الأمر إلى المعنى الحقيقي لهذه أو تلك من الكلمات الأويخية غير المفهومة بالنسبة لي.

لم تشكل مسألة قرب اللغة الأبخازية من الأويخية موضع شك لدي من خلال دراستي النظرية منذ أيام المعهد. إلا أن النظرية وتشابه نظام القواعد شيء والسعي لاكتساب لغة حية شيء آخر لاسيما وأنها قريبة نظرياً، بعيدة عملياً في الكلام الحي. بل إنها تخلق أحياناً، من خلال أوجه التشابه تلك، صعوبات إضافية. نعم لقد اضطرت في جوهر الأمر إلى دراسة هذه اللغة من جديد، من خلال الممارسة العملية، هذا لعدم كفاية معارفي النظرية ووجود الكثير من الجذور المشتركة بين اللغة الأويخية والأبخازية في

رصيد الكلمات الأدبية وخصوصاً القديمة منها . فالنار بالأبخازية (أمتسا) وبالأوييخية (أمزيه) . القمر بالأبخازية (أمزا) وبالأوييخية (أمزيه) المطر بالأبخازية (أكووا) وبالأوييخية (أككو) . الماء بالأبخازية (أزي) وبالأوييخية (يزي) العيون بالأبخازية (أبلا) وبالأوييخية (أبليا) . الملح بالأبخازية (أجيكا) وبالأوييخية (جمي) . وجدت هناك الكثير من التشابه في الصوتيات إلى جانب وجود الفروق بالطبع . وعلى أية حال توصلت إلى قرار أكيد بوجود اثنين من الأصوات الخافتة يتميزان جداً في اللفظ الأوييخي عن الأبخازي . سمعت في الأيام الأخيرة إلى التأكد من حقيقة الأمر التالي : هل هناك لهجات مختلفة للغة الأوييخية؟ إلا أنني لم أوفق في الفصل في ذلك . عاش زاورقان قرب مصب نهر سوتشي ، أي في تلك الأماكن التي مثلت مركز منطقة الأوييخ ، ولكن هل تميزت لهجة أبناء بلدته عن لهجات الأوييخ القاطنين في الشمال باتجاه توأسيه أو هناك في أعالي الجبال؟ لم يكن زاورقان بالذات يعرف ذلك أو أنه نسي بكل بساطة .

كان زاورقان ينهال علي أحياناً وخلال أحاديثنا الصباحية بالأسئلة المتلاحقة عن أبخازيا ، بلاد أمه . ما أن يبدأ كلامه باللغة الأوييخية حتى ينتقل دون أن يطيق صبراً إلى الأبخازية لكي أفهمه بشكل أفضل . أبدى اهتمامه بصورة خاصة بالأقارب ومن يحمل نسبة أمه ومع أي أخبرته مرات عديدة بأنه لم يتح لي أبداً خلال سفرتي إلى تسيلدا - موطن أمه أن ألتقي بأناس من أصل شات إيا كان يعاند دائماً ولا يدعن لذلك ، ثم لا يلبث أن يلح متسائلاً :

- ولكن هل يوجد هناك ولو شخص واحد من أصل شات إيا وليكن من يكون :

أعمى ، أعرج ، أكتع . . . ولو شخص واحد فقط . . . موجود هناك في تسيلدا؟؟؟

- لا ، ليس هناك في تسيلدا أناس بهذه النسبة الآن - كنت أكرر له ذلك دائماً

بصبر وأناة - أما في مناطق أخرى من أبخازيا فيوجد أناس بهذه الكنية . . . ثمة كبار في السن ، أميون وكذلك شباب متعلمون . وبين هؤلاء وأولئك الكثير من معارفي شخصياً .

حين قلت له هذا في المرة الأولى لم يبد أكثرثاً بالأمر . فقد صبَّ جل اهتمامه على

أقارب أمه من أصل شات إيا في تسيلدا بالتحديد . إلا أن شغفه الشديد في المرات التالية أخذ يشمل أبناء تلك السلالة القاطنين في أماكن أخرى ، وينهال علي دائماً بأسئلته اللجوجة : أين وكيف يعيشون؟ في أية قرى؟ أبعيداً عن البحر أم قربه؟ . . .

حاولت أن أحدثه عن تلك التحولات التي جرت لدينا في أبخازيا، عن المدن والطرق والأوتوسترادات والسكك الحديدية، عن تحفيف وهاد المستنقعات في الشريط الساحلي، عن صراعنا مع الملاريا، عن المستشفيات والمدارس حيث يتعلم الأطفال باللغة الأبخازية. وأيضاً وبشكل عام عما تنطوي عليه السلطة السوفيتية في جمهوريتنا الأبخازية ذات الحكم الذاتي.

وعلى الرغم من دأبه على الاستماع إليّ بأقصى الاهتمام، كنت أشعر أن ذلك بعيد كل البعد عنه. فبين حديثي هذا وذاكرته الخاصة عن صباه مسافة شاسعة جداً لا يمكن على الأغلب تجاوزها لأنها تصل إلى ثلاثة أرباع قرن من الزمان.

اعتدنا الجلوس في الأماشي وحسب ثقلبات الطقس داخل البيت أو تحت الشجرة ذاتها التي تظللنا في الصباحات. بات زاورقان يسرد عليّ قصة حياته بالأبخازية مفعماً حديثه غالباً بكلمات تركية وأحياناً عربية. كان - كما سبق وقلت - شديد التمكن من اللغة الأبخازية ولكن الزمن زاد رصيدها اللغوي عما عرفه زاورقان - في وقت ما - بمئات وألوف الكلمات الجديدة، التي لم تكن قيد الاستعمال عندها والتي عرفها هو بالتركية أو العربية حصراً.

لهذا السبب بالذات كان لا يفهمني بشكل كاف أحياناً إذا استوضحته أمراً أو كررت أسئلتني عليه. حدث ذلك في كل مرة استخدمت فيها الكلمات الجديدة التي دخلت رصيد اللغة الأبخازية، بل ليس الجديدة فحسب وإنما القديمة منها التي اكتسبت مع مرور الزمن معان جديدة تماماً أو إضافية.

لم يفنني شيء أثناء تسجيل ماحدثني به عن حياته، لاسيما وأنه كان يعيد ويكرر أقواله بكل سرور إذا سأله ذلك إثر تفصيري في التدوين. ولكن حدث مراراً أيضاً أنني - تفاعداً لمقاطعته في الحديث - كنت أدون ملاحظاتي جانباً في دفترتي على أمل العودة في اليوم التالي إلى ما فاتني تسجيله أو تلففه. ولاحظت أنه بعيد في المرة الثانية - دائماً تقريباً - كل ماقاله عشية اليوم بنفس الكلمات التي استخدمها آنذاك.

وفي الليالي وبعد أن يخلد العجوز إلى النوم كنت أوصل استكمال تسجيلاتي بما سهوت عنه خلال الحديث، أو مادوتته بإيجاز كيلا أنساه شاعراً من خلال ملاحظاتي العملية ومنتبشاً سلفاً أثناء التسجيل بضرورة التعليق المطول لاحقاً عليه. طبعي أن



المسألة الأولى والأهم هي تسجيل حديث زاورقان زولاق ذاته - هذا الإنسان الزاخر بالحياة الدفقة الحقة والذاكرة النابضة بالحياة المثيلة تلك

حين كنا في الوطن

عبثاً يقولون أيها العزيز شاراخ إن بوسع المرء نسيان اللغة التي رضعها مع حليب أمه . كلا ليس بوسعك ذلك كما ليس بوسعي أن أنسى أمي . إني أعرف بضع لغات وأدرك أهمية ذلك للإنسان . لقد كنت أتحدث في صباي بثلاث لغات لأنني إذا وقفت قبالة البحر وجدت الأديغيين* على يميننا - نحن الأويخ - والأبخازيين** على يسارنا .

.. وهكذا تعلمت الأديغية والأبخازية . الحق أنني لا أتقن الأولى تماماً إلا أنني أعرفها مع ذلك . كنا جميعاً جيران قرييين جداً بحيث لم يسعنا ألا نعرف لغاتنا الثلاث تقريباً . الأويخية : هي لغتي الأم التي سمعتها منذ بداية طفولتي حيثما كنت وأينما سرت : في بيتنا أو في الجوار ، بل في كل مكان تواجدت فيه . كيف أقدر على نسيانها إذا؟ الأبخازية : عرفتها من الوالدة . أما الأديغية فمن خلال جدي التي أتقنتها وقصت عليّ خلال طفولتي حكايات وطرائف وحزازير أديغية . أذكر كيف كانت جدي تصحبني إلى المطحنة وهي تحمل على رأسها قفة ملأى بالحبوب وتغزل أثناء سيرها الصوف بيديها الطليقتين ولاتبقي لسانها بلا عمل أيضاً بل تسرد عليّ الحكايات والطرائف الأديغية . حدث مرة - كما أذكر - أنها توقفت وأشارت إلى النمل الزاحف عابراً دربنا وقالت لي :
- أنظر إليه إنه يقوم بمسير جماعي . أتستطيع إيقافه؟

(*) الأديغيون : يسمون في البلدان العربية بالشراكسة . يعيشون الآن في مقاطعة أديغيا ذات الحكم الذاتي في الاتحاد السوفيتي .
(**) الأبخازيون : يسمون في البلدان العربية بالأباظة ويعيشون في جمهورية أبخازيا الاشتراكية السوفيتية ذات الحكم الذاتي .

- سترين الآن - صحت عازماً على دوسه برجلي . إلا أن جدتي نهرتني في الوقت

المناسب قائلة :

- أتريد أن تربي أنك أقوى من النمل؟ ولكن ماذا لو قابلنا الآن فجأة في هذه الغابة فرساناً مسلحين فقتلونا أو داسونا بحوافر خيولهم؟ أيجوز يا ترى قتل الضعيف لمجرد كونه ضعيفاً؟ إن الأصغر والأضعف يكون أحياناً الأذكى والأفضل .

وحكت لي جدتي حكاية قديمة . ذاكرتنا تشبه المصفاة أيها العزيز شاراخ، عبرها ترسب أشياء وتبقى أشياء . هذه الحكاية الأديغية بقيت في ذاكرتي وسأحكيها لك الآن .
« عاش في قديم الزمان إنسان يفهم كل لغات الأرض حتى لغة الذئب ولغة الأرناب ولغة النمل . . وحدث ذات يوم أن داس هذا الانسان أثناء سيره في الغابة على نملة دون أن يتعمد ذلك ، فصاحت غاضبة :

- أي أحمق هذا الذي يمشي ولا ينظر أمام قدميه؟

سمع الانسان كلامها فالتقطها ووضعها على راحة يده وأخذها يتفحصها وقد أخذته الدهشة ثم حاكها قائلاً :

- إن رأسك كبير جداً!

- هذا لكي يتسع لعقلي - أجابت النملة .

- ولكن خصرك نحيل جداً ؟

- هذا لأنني لا أعيش لأكل ، بل أكل لأعيش .

- وكم تأكلين خلال سنة كاملة؟

- تكفييني حبة قمح واحدة طوال السنة .

- حسناً . سنرى هل تكفيك فعلاً حبة قمح واحدة طوال السنة . - قال الانسان

ذلك ووضع النملة في علبة صغيرة ورمى لها بحبة قمح واحدة .

مرت سنة كاملة ، فتذكر الانسان النملة وفتح العلبة ليرى ماثير دهشته وعجبه .

فقد أكلت النملة نصف الحبة فقط .

- لماذا أكلت نصف الحبة فقط؟ - سأل الانسان .

- لأنني فكّرت أن بوسع ذلك الانسان الأحمق الذي ألقى بي في هذه الزنزانة دون

أي ذنب أن يتذكرني ليس بعد انقضاء سنة واحدة وإنما سنتين وقد أبقيت نصف الحبة

الآخر تحسباً لأي طارئ - أجابت النملة.

أحب هذه الحكاية أيها العزيز شاراخ. ولكني لم أحكها من حوالي عشرين سنة فلم يكن لدي من أحكيها له. إنني أذكرها جيداً لأن تلك النملة الصغيرة لم ترح ذاكرتي خلال درب حياتي الطويل والعسير كله. الحقيقة أن ما أنقذني من الأهوال والمصائب هو قوتي وجلدي وليس عقلي. فلو مائل عقلي قوتي لجرت حياتي بشكل مختلف تماماً على الأغلب. أمي كما أخبرتك سابقاً أبخازية من تسييلدا من أسرة شات إيا. لا أدري هل هي التي علمتني اللغة الأبخازية أم لا. لقد عرفتني ببساطة منذ بداية حياتي ومذ وعيت نفسي. كم أمضيت من الأوقات الطويلة في صغري وصبائي في زيارة أحوالي في تسييلدا وكم سمعت في الشتاء غالباً وأنا ضيف على أسرهم الكبيرة المضيافة من الحكايات والأغاني الشجية للفنانين الشعبيين المشهورين في تسييلدا أو الوافدين باستمرار من قريب وبعيد إلى بيت أقاربي أولاً.

سمعت هناك حكاية أبرسكيل الذي حارب السماء ذاتها وحكاية الجباهرة القدماي - الناريتين*¹. أذكر أنهم في الماضي إذا رغبوا بمدح شخص ما لقاء براعته في الحديث قارنوه بنارت الذي أرغم ماء القدر على الغليان بطلاقة لسانه فحسب. لقد تداولوا قصته هذه طويلاً، وسمعتها مرات عديدة. فيحكى أن الناريتين تنافسوا فيما بينهم لإظهار أكثرهم براعة في البلاغة والتعبير. أخذوا يقتربون من القدر واحداً إثر آخر فيدلي كل منهم بدلوه قائلًا أبلغ مالدیه إلا أن الماء بقي بارداً في كل مرة حتى تحدث أبرعهم في الكلام فصعد في منتصف كلامه قليل من البخار فوق ماء القدر ثم أخذ الماء بالهيجان والغليان مع انتهاء الكلام - هكذا تحدث الأبرع في الكلام. . برتابة وجمال، بصدق وعدل.

كان الخبز والملح وحسن الضيافة أول وأرقى ما يمتن في بيت اخوة أمي. يلي ذلك لديهم البلاغة في التعبير.

إن عيني ترفان كثيراً اليوم، على الأرجح لأنني أنذكر الغابرين.

مأعرفته في طفولتي بأعززي شاراخ محفور في ذاكرتي وكأنه نقش على شاهدة قبر.

(*) الناريتون : مفردها نارت بمعنى بطل جبار يوسعه القيام بالأعمال الحارقة التي لا يقوى عليها الرجال العاديون .

حجري . السنون ثمضي ولا تقدر على محوه الأمطار أو الثلوج ، الرياح أو الرمال .
لا تعجب يا ساراخ لكوني أذكر لغات طفولتي . بل إني لاندعشت جداً لو أني نسيتها
فعلاً .

ثم إن الحياة علمتني اللغة العربية والتركية وإني ممتن لها على ذلك . لقد عشت حياة
شاقة ولكن لم يسعني أن أعيشها على الاطلاق دون هاتين اللغتين . إنها وإن لم تعجلاني
سعيداً قد ردتنا الموت عني .

قلت لي بالأمس أنك لم تجد لاني تركيا ولا في سوريا ولا في غيرها من الأماكن التي
زرتها إنساناً غربي يتحدث بلغة الأويغ . وقلت أيضاً إنه لم يبق هناك في القفقاس ، في
البلاد الأويغية إنسان ينطق بهذه اللغة . لعل فهمتك بشكل خاطيء إلا أنك - كما تبها
لي - تريد أن تقول أن اللغة الأويغية قد اختفت تماماً وأنها لم تعد موجودة . ولكن حتى
لو أنك أصبت في ذلك فإن هذا غير حقيقي بالنسبة لي في كافة الأحوال .

ألا قل لي : فهمت من كلامك أنك زرت بلاد الأويغ أكثر من مرة فهي قريبة
منكم ويكفي لذلك أن تقطع نهر خوستا لتتقرب من نهر سوتشي . لأدري كيف حال
النهر الآن ولكنه كان في السابق واسعاً . أخبرني إذا : ألم يتحدث النهر إليك حين وقفت
قريباً منه ؟ أم أنه تحدث فعلاً ولكنك لم تفهم لغته . إنه يتكلم طالما أنه يجري ، ولن يكف
عن الكلام حتى تجف آخر قطرة ماء في مجراه وليس قبل ذلك إطلاقاً .

ثم لم يسعك حين كنت في بلد الأويغ ألا تلاحظ مكاننا المقدس حيث ترقد
قدستنا القادرة على كل شيء بيتها والتي سهاها بعضنا قديسة وبعضنا الآخر أبقونه .
فهناك بجوار تلة مرتفعة ينسبط مرج أخضر فسبح وفوق تلك التلة تشمخ سبع شجرات
صنوبر ضخمة تحتمي قدستنا بظلها . أغصان الأشجار شديدة التشابك فيما بينها
وتتحدث أوراقها بعضها مع بعض بحفيف خاص دائماً . ألم يتبها لك أن تسمع وأنت
تقف إزاءها كيف تتحدث فيما بينها بلغتنا ؟؟ ألم تر على جذوع أشجار الصنوبر تلك ندوياً
لا حصر لها خلفتها الشموع الملتهبة التي يأتي بها الناس كل ربيع لينحنوا إجلالاً وإكراماً
للقديسة ؟؟ .

كثيراً ما سمعت من المسنين حين عشنا هناك في بلادنا الأويغية أن القديسة تحتفي
في بداية الصيف مغادرة مكانها المقدس هذا ، وتدوي إذ ذاك فجأة أصوات الرعد . أما

هي فتطير إلى السماء محاطة بشرايات نارية . . وتواصل تحليقها هناك في الأعالي فوق الجبال حتى نهاية الصيف لتعود ثانية إلى مكانها.

أذكر أنه حدث في سنة انتقلنا إلى تركيا مالم يحدث أبداً في السابق ولكن ليس في الصيف كما جرت عليه العادة بل في منتصف الشتاء . صدح دوي رعد من جهة القديسة في مساء صقيعي . . يدت السماء فيه زرقاء صافية تماماً . استمر هدير الصوت بضع دقائق فركضنا جميعاً كباراً وصغاراً ونحن لانفقه مايجري حولنا . ثم رأينا فجأة كيف طارت قديستنا إلى السماء نائرة حوها الشرر .

لم يتح قبل ذلك لأحد من الأوبيخ على الاطلاق أن يرى القديسة طائرة من مكانها المقدس أو عائدة إليه لافي أواسط الشتاء ولا في الصيف كالعادة . أيقنوا جميعاً أنها تنذرنا بذلك بالشقاء .

أرأيت في وقت ماتحت شجرات الصنوبر السبع تلك ينبوعاً لايجف ماؤه المقدس بالنسبة لنا؟ . إذا كنت قد رأيته ووقفت قربه فلا يعقل أنك لم تسمع صوته .

أريد أن أسألك أيضاً، هل زرت «مانسيستا»؟ حيث تجري المياه النارية؟ . . حيث تسكب الأرض دموعاً حارة؟ أيعقل أن تلك المياه النارية لم تقل لك شيئاً وهي تنبثق من تحت الأرض!؟

ولكن حتى لو أنك لم تلحظ أو تسمع شيئاً آخر، فليس بإمكانك ألا تسمع البحر الذي يغسل بلادنا . . ألم يتحدث إليك بنفسه؟ ألم يقل لك شيئاً؟ وقبور أسلافنا بشواهدنا الحجرية؟ ليس صحيحاً أن الحجارة صامتة لاتتكلم . . إنها قادرة على التحدث إليك مادامت ذاكرتك حية لم تمت بعد . . مادامت قادراً على سماع الهدوء .

وأغاني الطيور التي تعيش هناك ولا تعيش هنا؟! ألم تسمع لغتها أيضاً؟ كلا ياعزيزي شاراخ، لايمكن للغة أن تموت بمثل هذه البساطة التي تبدو لك . إنها تعيش في داخل الانسان وليس على طرف لسانه . . بل ليس في داخله فحسب وإنما في داخل الماء والأرض والحجر . إني أؤمن بأن هناك الآن في أرض الأوبيخ حديثاً يجري باللغة التي أتحدث أناها بين الغصن والغصن والحجر والحجر والنهر والنهر . . كان أبي وجدتي فلاحين . مات جدتي قبل أن أولد لكنني علمت أنه عمل راعياً . .

رعى الماشية لدى النبل ليكسب قوت أسرته . أما أبي حاميرزا فعمل في الأرض ، في زراعة الذرة الصفراء . امتد عمله المضني من طلوع الفجر وحتى حلول المساء . أراه إذا استيقظت في الليل ، نائماً دائماً ، ولاذكره جالساً في النهار إطلاقاً .

رزق أبي وأمي أولاً بأختي عائشة ثم ولدت أنا وعلى أنثري أخي الأصغر ماتا ، ثم بعد ذلك أختاي الصفراوان جونا وكونا ، لقد ولدنا توأمين .

عشنا معاً قبل انتقالنا إلى تركيا عدا عائشة التي سكنت في القرية المجاورة منذ زواجها من فلاح يدعى هارون .

كنا نربي عدداً من خلايا النحل ونبيع كل خريف شيئاً من الذرة الصفراء وكل العسل والشمع تقريباً . كما نشترى في المقابل الملح والصابون ، والأهم من ذلك البارود .

أما حين يعم الجفاف أو على العكس يهطل مطر غزير جداً نحصل من جرائه على محصول سيء كنا نمضي أنا ووالدي - عبر نهر سوتشي ، تاركين في البيت أخي الأصغر ماتا فنصعد مع تيار النهر ونقطع الأخشاب . لم يكن هناك سبيل آخر سوى تعويمها على الماء ودفعتها إلى أسفل لنبيعها إلى التجار الأتراك القادمين إلينا عن طريق البحر . كانوا يدفعون لنا القليل ويرتب علينا أن ندفع بدورنا لشاردين بن علو لقاء التحطيب في شعابه .

الحق أننا كنا ندفع له القليل فعلاً أي أقل مما ينبغي لنا أن ندفعه لشخص غريب ، ولذلك سببه الخصاص بالطبع فلدينا في بلاد الأوبيخ - كما لديكم أنتم في أبخازيا أيضاً - عادة قديمة جداً اعتبرناها دائماً مشرفة ، وهي أن نربي بيننا أبناء الذوات . فنأخذ - نحن الفلاحين - إلى بيوتنا أطفالاً من سلالة نبيلة لتربيتهم وتنشئتهم لدينا . حتى أن الفلاحين يتفقون فيما بينهم أحياناً على ذلك حتى قبل ولادة الطفل . ثم يرسلون إلى والد ربيهم المقبل مجموعة من كبار ووجهاء القوم في القرية ليلتمسوا النبل منحهم شرف تلمس ثوبه - ذلك يعني خلق أواصر القربى معه .

إذا قبل النبل فأرسل ابنه لتربيته لدينا وهو حُكماً نربي مقتدر ذو نفوذ وصوله وجولة يمسي فوراً حامياً مباشراً للمربين أولاء ، يؤمل عونه ومؤازرته لهم .

امتاز النبلاء في الوقت نفسه بالحنكة في هذه الأمور . فلم يسمحوا بتربية أبنائهم

لاي شخص قبل أن يزنوا الأمور ويقلبونها على كافة الأوجه . . . فهم يضربون ويجمعون قبل أن يعقدوا أواصر القرابة مع هذه السلالة الفلاحية أو تلك ثم يختارون في نهاية الأمر من الفلاحين من يبدو لهم أكثر فائدة ومنفعة وأشد ولاء ومؤازرة عند الضرورة.

هكذا كان قريب أسرتنا النبيل شاردين بن علو - ريبب جدتي، الذي نقطع الأخشاب في أحراشه وندفع له لقاء ذلك أقل مما يجب علينا أن ندفعه لغيره. بل ويحدث أننا كنا نكتفي بإرسال الهدايا له فحسب.

إلا أن شاردين بن علو لم يكن أخا بالرضاعة لأسرتنا فقط بل لكل سلالتنا زولاقي. ومن واجب أفراد حولتنا كلهم أن يهبوا - إذا دعا الأمر - للذود عنه ومناصرته على السراء والضراء.

عاش شاردين بن علو مثل كل نبلائنا الأوبيخين في منزل جيد وطيد الأركان، مصنوع من خشب الكستناء المختار دفة دفة. وملك الكثير من الأراضي والمراعي والغابات وحقول الزراعة. وترتب على أبناء قريتنا أن يرعوا ماشيته وماشيتهم في مراعيه. وأن يحرثوا حقوله ويبدروها ويجمعوا له المحصول. بل وأن يقطعوا له العنب ويعصروا الخمر.

أذكر كيف واطبت سلالتنا كلها على حمل الهدايا له في الأعياد: ماعزا مثلا أو خروفاً أو عجلا بالإضافة إلى البندق والعسل والخمر؛ كل حسب قدرته.

رسخ شادرين بن علوي ذاكرتي محارباً محترفاً، فحصانه المسرح في فناء داره جاهز ليل نهار للانطلاق به في أية ساعة كانت. وسلاحه مهياً دائماً أيضاً. وليس بوسعي أن أذكر عملاً آخر مارسه في حياته عدا الحرب والسلب والغزو.

يمضي شاردين بن علو إلى شاطئ البحر إثر غزواته الناجحة لبيع العبيد للتجار الأتراك المبحرين إلينا على قواربهم وسفنهم ويحتفظ في بيته بشكل دائم بعدد من العبيد لخدمته الخاصة؛ فظالما أنه أخذهم أسرى أصبح حُكماً سيدهم المطلق القادر على بيعهم أو قتلهم، أو دفعهم فدية متى شاء ذلك.

وعند نشوب النزاعات بين الجيران أو سلالات النبلاء - والتي كثيراً ما نشبت - يذهب شاردين بن علو للمشاركة في الاجتماعات العامة التي تنظر في تلك النزاعات، ويصحبه الرجال من أبناء سلالتنا لكي يتولوا بأنفسهم حمايته من الأخطار، أو يثأروا له إذا

قتل .

ويتساوب المرافقون في كل مرة: في هذه السفرة هذا المرافق وفي المرة التالية مرافق آخر. أما أبي حامبرزا فتابعه الملازم إلى حيث يتجه لأنه أخوه بالرضاعة. لقد سمعت أن منطقتنا الأوييخية قد اعتبرت خلال القيصرية الأبخازية جزءاً من أبخازيا. ولكن الحال اختلفت عن ذلك في زماني أنا فلم نتبع لأبخازيا ولم نرزخ لسلطة أمير حاكم واحد. بل حكم بلادنا الأوييخية عدد من النبلاء الأقوياء المتنازعين بدورهم دائماً وأبداً على الانفراد بالسلطة. ولكنني أعتقد أن من الأفضل أن أحدثك عن هذا فيما بعد، لدى حديثي عن شقائنا ومأساتنا نحن.

عرف أبي حامبرزا كإنسان طيب وعادل يلجأ الناس إليه غالباً كما ظهرت خلافات ونزاعات في القرية فيحكم فيها بروية وعدل.

أما في الحروب والغزوات فقد تميز بوصفه محارباً شجاعاً حازماً يقدر أكثر ما يقدر في الناس بسالتهم وشجاعتهم.

لقد علمني وأخي منذ طفولتنا امتشاق السيف وحسن الرماية وامتطاء الخيل بحرية وبراعة.

كنا نقصد الجبال في الشتاء ابتغاء الصيد فنستخدم البنادق أو ننصب الفخاخ أو نصطاد على الزلاجات إثر تراكم الثلوج، فقد تعلمنا هذا أيضاً.

واعتمدنا منذ الصغر على مرافقة الوالد إلى بحرنا القريب، فتعلمنا السباحة والتجديف وإطلاق الأشرطة.

دأب الأوييخيون منذ القدم على المضي بقواربهم لصيد السمك أحياناً ولاغتنام مكاسب مربية في أحيان أخرى. . . يقصدون الضفاف الأبخازية فينبهون ويسرقون أو يكتفون بالبسطو على قوارب التجار الأتراك قبل أن يبلغ هؤلاء عرض البحر.

لازم أمي ناسي مرض عضال بعد أن وضعت أختي الصغراوين التوامين، أما في صباحها فقد شبت جريئة لانتخاف شيئاً. اعتادت السفر - لزيارة أهلها في تسييلدا - وحيدة لا يرافقها أحد، فتمتطي حصانها وتتأبط سلاحها وتأخذني معها أحياناً وأنا طفل صغير. إنني أراها حين أغمض عيني صبية فنية، طويلة القامة جميلة القوام، تصل جدائلها الكستنائية إلى كعبي قدميها تقريباً.

عشنا بفقر وحاجة وغمّ وهمّ، ولكني مع ذلك أذكر تلك الفترة كأوقات سعيدة بالنسبة لأسرتي. ولعلها تبدو لي الآن كذلك بعد المصير الفظيع الذي لاقيناه وعشناه إثر ذلك.

يبدو لي الآن أن الطفولة هي أقصر فترة في الحياة: فبالأمس كنا وأخي نعتبر طفلين، أما الآن فلم نعد كذلك بعد أن أمسينا محاربين ملتزمين بمصاحبة المجموعة وإن كنا نصرغهم بالسّن.

شاركت في الغزوات إلى جانب أبي وأخي وغيرهما من رجال قريتنا. كانت الأولى قصيرة نحو الجنوب، إلى أبخازيا. أما الثانية والثالثة فأوغلنا نحو الشمال عبر الجبال. جرتا في ذلك الزمن المظلم الذي شن فيه القيصر الروسي حربه الشعواء على الأويغ. دامت الحرب سنة وستين وأكثر بكثير. لا أذكر المدة بالضبط إلا أنني أذكر جيداً كم تعاقبت فصول الشتاء والصيف والحرب جارية لا تتوقف. شارك فيها - قبل نهايتها - الرجال كلهم على الإطلاق عدا المرضى وكبار السن بالطبع. أمسى ذلك شاقاً جداً ولاسيما في الصيف. فإلى جانب عملنا المتواصل في الحقل وجب علينا إعداد السلاح وتأمين مؤونة السفر لبضعة أيام لكي نهبّ لدى أول إشارة وأول نداء، ونتجمع في المكان المحدد، ونحن على أهبة الاستعداد للقتال. نعم أيها العزيز شاراخ. لقد حلّ زمن أسود فلم يكن بوسع أقوى حصان كما يبدو لي أن يقطع نهر الدم الذي أرقناه في ذلك الوقت. ولكن لم يأمل أحد من كل ماسفح أو كان له أن يسفح من الدماء الزكية أن يأتينا في كل الأحوال بغير الشفاء والبؤس. ثم إن أكثر الدماء مرارة هي تلك التي تراق هدراً.

لم نتصور أبداً ماهية قوى القيصر الروسي أو عدد جنده. ولم ندرك أيضاً النوايا الحقيقية للسلطان التركي الذي ووطنا بهذه الحرب منذ البداية. أه ياداد شاراخ؛ قد يخفف عن أهل الميت قليلاً أن تبكي السدّابات فوق التابوت وأن يمزقن وجوههنّ وصدورهنّ حتى تنزّ دماؤهن من عروقهنّ ولكنهنّ يبقين عاجزات عن مساعدته بأكثر من هذا، اليس الأمر كذلك في حكايتي أنا أيضاً؟؟

لقد حملت السلاح كما حمله أبي وأخي ولم تتركه من أيدينا حتى النهاية الحاسمة. ثم لا بد من قول الحقيقة التالية: لم نحظ في بلاد الأويغ بالهدوء والاستقرار أبداً. بل سادت ديارنا السرقات والغزوات، بيع العبيد إلى تركيا وماوراء البحار، العداوات بين

السلالات والعشائر المجاورة، إختطفت النساء والثأر بالدم - كل هذا أصبح شائعاً، وبدأ لنا دائماً أنه لا يمكن للأمر أن تسير على نحو آخر. أما حين ألم الخطر بالبلاد الأويغية كلها فقد تناسينا كل شيء والتفتنا إلى ذلك الخطر كلياً.

أتقن الأويغيون منذ القدم حرفة الدفاع عن أنفسهم ضد كل من ينتهك حرمتهم سواء من الجيران أم القادمين من بعيد، من الإغريق أو الرومان أو الأتراك.

دارت بين الناس سير وأقاويل شتى عن الحروب وحفظت حقيقة بعضها في ذكريات المسنين فحسب. ولكن ليس هناك من يذكر التاريخ الذي أخذ الجيل فيه تلو الآخر يعد نفسه للحرب والقتال. إننا ببساطة لم نتصور الحياة على غرار ذلك. بل لم يكن بوسعنا أن نتخيل أنه يمكن لأي من القادرين على حمل السلاح أن يلقي به في يوم من الأيام. ولدى ظهور شواذ من هذا النوع بيننا نحن الأويغ كنا نحرمهم على الفور من أسماهم ونظردهم من البلاد.

بات لزاماً على كل أسرة تجنيد محارب واحد لدى أول إشارة تصدر في أي وقت من الأوقات حتى في الصيف، أسخن فصول السنة، وتوجب على كل عشرة رجال انتخاب قائد من بينهم وعلى كل عشرة من القادة انتخاب قائد للمائة وعلى كل عشرة من قادة المئات انتخاب قائد للألف. وحين يضم الزحف الجماعي عدة ألوف من المقاتلين ينتخب قائد عام ممن شهد الكثير من المعارك وشهدت له، ورأى بريق السيوف فأمسى مجرباً جلوداً شجاعاً. تعتبر أوامر القائد العام فور انتخابه قوانين تسري على جميع المحاربين سواء كانوا من الفلاحين أم من النبلاء. ويحدد القائد العام لدى الاستعداد للزحف الجماعي عادة مكان وزمان التجمع، كما يحدد العدد اللازم من المشاة والخيالة المحاربين. ويتوجب على الجميع باستثناء القائد العام وحده أن يحملوا أو يجزوا المؤونة اللازمة للمسيرة الجماعية: من عجيين بالعسل، ولحم مسلوق، وجبن مسلوق، وملح أبيض وأحمر. ويترتب على كل شخص أن يأخذ معه زوجين من الأحذية الجلدية وجوارب صوفية وقلنسوة. كما يتعين على بعضهم إلى جانب هذا كله حمل الفؤوس والمناشير والمعاول والخيال لنصب الجسور على الأنهر إذا لزم الأمر أو نصب الخيام في الأوقات الباردة للمبيت.

ويدق قبيل المسير الجماعي بوق فضي شبيه بالبوق الذي رأيته عندي.



الحاج برزج جيرا ندوق

تسم الحاج برزج بن أداغوا القيادة العامة للأويخ طيلة عشرين سنة . وخرج منتصراً من أغلب المعارك الدامية التي خاضها . لذلك قرر جنرالات القيصر الروسي إثر فشلهم المتكرر في الإيقاع به بالقوة اللجوء إلى الحيلة للقضاء عليه ؛ أعلنوا أنهم سيهبون من يأتهم برأس قائد الأويخ المتمرد هذا ألف روبل فضي .

وحالت الحظ برزج بن أداغوا بشكل دائم فلم يظهر أي خائن يبيع لنفسه بيع القائد العام . إلا أن الأخير أعضى نفسه فجأة من كافة مهامه واستقال بارادته المطلقة . وهكذا فأننا لأدري السبب الحقيقي لذلك . لعله التقدم في السن؟! أو نتيجة تشعب الأحداث التي دفعت بالشعب الأويخي رويداً رويداً إلى السير في طريق اعتبره المحارب القديم والمجرب خطراً جداً ولم يكن لديه القدرة الكافية على إنقاذ الموقف . . . إلا أن الأمر سيان ، سواء إن صح هذا الاحتمال أو غيره . فقد تنحى ابن أداغوا عن منصبه ونزع عنه أعباء القائد العسكري العام وانزل في بيته ، بل وسرعان ما لفظ أنفاسه الأخيرة . حدث هذا في السنة التي نلت الحرب الكبيرة بين الروس والأترك . وقد شغل منصب القائد العام ابن أخيه الحاج برزج جيراندوق .

لم يرض هذا التبديل كثيرين من الأويخ ولم يعتبروه الحل الأفضل . إلا أن جريان الحرب الضروس لم يترك وقتاً للنقاش والتردد . زد على ذلك أن حالة من مجد الحاج ابن أداغوا قد أحاطت بقريه وكلته بوجهها .

ولكن ما أن تقلد الحاج برزج جيراندوق قيادة الشعب الأويخي حتى بدا للجميع ذلك الاختيار صائباً ملائماً . فقد أبدى الحاج جيراندوق بعد استلامه زمام الأمور صلابة وشجاعة متميزتين على الرغم مما قيل عنه سابقاً من قبيل استعدادة للتأرجح ذات اليمين وذات الشمال كسن منحور في الفم . وكان لتلك الأحكام دواعيها أيضاً . فقبيل بداية الحرب الكبيرة عقد الحاج جيراندوق الصلح مع جنرالات القيصر وحصل على رتبة عسكرية منهم ، وراتب دوري بالروبلات الفضية . وبينما تنطح عمه لمحاربة جنرالات القيصر على رأس الأويخ لاذ هو ببيته وافترش بساطه متفرغاً كلياً للعبة النرد .

لأدري أيها العزيز شاراخ إلام آل مصير الشعب الأويخي لولا قيام حرب القرم

هذه . فقد أنزل الوزير العظيم عمر باشا جيوشه في سوخومي إثر تراجع الجيش الروسي عن شواطئنا والصفاف الأبخازية . وسرعان ماظهر في قرانا رجال دين قدموا عبر الجبال من داغستان ، أو مبحرين مع الأتراك وأخذوا يتحدثون جميعاً بصوت واحد قائلين : لقد قضي على الروس ولن يظهر لهم أثر بعد الآن في مناطقنا .

- أما نحن فقد جئنا إليكم إلى الأبد - كما قالوا لنا - لكي نرفع على قمم جبالكم الراية المقدسة للسلطان العظيم ولي الله على الأرض .

في ذلك الوقت مال الحاج جيراندوق من جهة القيصر إلى جهة السلطان فنزع الكتافيات العسكرية عن بذته الشركسية وامتنع عن استلام الروبيلات الفضية من الروس .

بقي حاكم أبخازيا الأمير حمود بيه نشاتشبا في حرب القيصر مع السلطان إلى جانب القيصر كسابق عهده . أما الحاج جيراندوق فقد مال إلى جهة السلطان . لقد أصبح قائدنا العام في تلك الفترة بالذات . ولكنه لم يعد إلى موقفه السابق حين شرع الأتراك بنقل جنودهم على السفن المحجرة واحدة إثر أخرى إلى تركيا .

بدأ جنرالات القيصر بالعودة واحتلال المواقع الحصينة واحداً تلو الآخر . كانوا قد تخلوا بأنفسهم عنها في السابق . وهنا أبدى الحاج جيراندوق حزمًا وشجاعة لم يتوقعها منه الكثيرون منا . فقد استمر في حرب جنرالات القيصر حتى بعد رحيل الأتراك . أنزلت سفن القيصر الحربية جنودها قرب نوإسيه وإدلى وعند مصب نهر سوتشي ، ولم يتعجل هؤلاء في الهجوم والتوغل في عمق البلاد الأوبخية ، بل أقاموا استحكاماتهم ورموا مواقعهم الحصينة حينما نزلوا . إلا أن الجميع أدركوا منذ البداية أن القوات الروسية لن تنوقف عند هذا الحد ، وأدرك ذلك جيداً أيضاً قائدنا العام الحاج جيراندوق . لذا أخذ يعرفل بكل ماأوتي من سبيل وفي كل مكان وصل إليه جنود القيصر إلى الشاطئ ، بل ويسارع إلى الهجوم على مواقعهم قبل أن يتم لهم تجهيزها كما يريدون .

الحق يقال أننا شعرنا بالاعتزاز بصمودنا وصلابتنا أيها العزيز شاراخ . لقد أنكه شعبنا حتى ذلك الوقت وعانى الكثير من الحرب التي باتت مستحيلة على الناس من جرائها أن يجتمعوا معاً سواء في المأتم أم الأعراس . . ولم يعد بوسعهم تعزيز الأرض التي زرعت أو جمع محصول الذرة الصفراء حيث تمكنوا من التعزيز .

يا إهي ! كم مر من الزمن وكم تغيرت وتقلبت الأحوال منذ ذلك الوقت في هذا العالم المتقلقل على الدوام !

غالباً ما يشبهون الحياة بالبحر. إنه تشبيه دقيق فعلاً، لأن أمواج البحر التي لا تعرف الرحمة تهلك أحياناً كل ما هو حي وتدفعه في طريقها. ولكنها تكتفي في أحيان أخرى بأول غنيمة سهلة تلتقيها وتظفر بها فتراجع مسرعة إلى الوراء. أما الحياة فتجف في كل الأحوال حيث جالت الأمواج ذهاباً وإياباً كما تجف قطرات الماء في رمال محرقة . . .

إنني أذكر هذا كلما فكرت بما حدث لنا نحن الأوبيخ وليساعدني الله في أن أتمكن من سرد كل شيء عليك بالترتيب - حدثاً إثر حدث .

انتشر في قرانا فجأة خبر طيب مفاده أن الروس يريدون عقد صلح وسلام معنا وأن جنراً مرسلاً من قبل القيصر سيلتقي بعد أسبوع مع زعيمنا الحاج جيراندوق عند ضفاف نهر مزيمتا حيث تقطعه العوامة الخشبية ذهاباً وإياباً، وأن الوسيط في المحادثات سيكون ربيب الأوبيخ، حاكم أبخازيا الأمير حمود بيه تشا تشبا.

كانت هناك بعض الخصومات بين الحاج جيراندوق وعدد من ذوي النفوذ من سلالات نبيلة أخرى. ولكن الشعب الأوبيخي وثق بقائده الذي أبلى بلاءاً حسناً وبرهن على شجاعته وإقدامه في المعارك. أما إذا أردت إدراك كنه شخصية الحاج جيراندوق وماكانت تنطوي عليه آنذاك فيوسعي أن أحدثك عن ذلك الآن: لم يكن شاباً ولا أشيب. كان متوسط القامة متين البنية، متقدماً سريع الحركة، كالنار الأثون صوته قوي جهوري، نظراته حادة نافذة يحدق طويلاً بمن أمامه حتى يصرف الأخير بصره عنه أو يعض طرفه.

نشأت والكثيرين من الشباب الأوبيخ سكارى بمجد الحاج جيراندوق وبسالته: وقد أحببته حتى أني بت مستعداً دائماً لأن أعترض بصدري طريق أية رصاصة تطلق عليه وليس الذنب ذنبي في أن الصدف لم تسح لي أبداً للقيام بذلك خلال الأعوام الثلاثة التي بقيت فيها أحد حماه ومرافقيه الشخصيين. ثلاث سنوات قضيتها إلى جانبه محاولاً تقليده في كل شيء. . . حتى كيف يدمس طرفي قلنسوته في حزامه وكيف يطارد بحصانه مائلاً على جنبه الأيسر، متديلاً قليلاً إلى أسفل، مسدلاً يده التي تحمل السوط باستخفاف متميز.

الآن فقط بعد أن أكسبني السنون الطويلة تعقلاً إثر عراكي وخبرتي بالحياة العسيرة - أرى وأنا أتذكر ما فكر به الحاج جيراندوق وما قام به آنذاك كم هو شديد النهور، عظيم الغرور، كثير التسرع، والأهم من ذلك كله ضيق أفقه الشديد. إلا أن شبابي وقلة خبرتي في تلك الأعوام كفلا بحجب ذلك كله عني.

أوه يا لهذا الشباب! لعل أغلى ما فيه هو أنه لا يعرف التعب وأنه يمضي قدماً إلى الأمام لا يألو على شيء.

لقد شاركت مرات عديدة في الغزوات والمعارك، واخترقت بسيفي المسلط نيران البنادق ولم أحد عن طريقي وأنا أرى الموت بعيني وكنت أشعر مع ذلك كله بأن شاب طليق لاهم لي ولا غم، غير دار بأني قد بلغت نهاية غصن رفيع يتدلى على جرف هاوية لا قرار لها.

أذكر جيداً برودة ذلك اليوم التي لم يسبق لها مثيل، على الرغم من بداية تداخل الربيع بالصيف.

وقف ألف وخمسة مائة محارب ممسكين بأعنة خيولهم وهم على أهبة الاستعداد للمسير. اجتمع الحاج جيراندوق تحت شجرات الصنوبر السبع التي عمرها قرون مع أكبر المسنين وأكثرهم نفوذاً وتأثيراً. شهد الناس بأنفسهم كم طال جلوس أولاء وكم امتدت مناقشتهم للأمر الخافية عن الآخرين إلا أنني علمت بها شخصياً لكوني حامياً ومرافقاً ملازماً للحاج جيراندوق: كنت أقف قريباً جداً منه وأسمع كل شيء. ثار الحاج جيراندوق غاضباً ورفض اصطحاب كل تلك القوات إلى مكان المباحثات مع جنرال القيصر.

- لا أريده أن يعتقد أنني أخافه - قال الحاج جيراندوق - سأخذ معي عشرة أشخاص فقط وليتظر الآخرون هنا.

لكن الآخرين لم يقبلوا بذلك، وقالوا: قد لا ينتهي اللقاء بصلح بل بحرب ثم يجب دائماً عدم الوثوق بجنرالات القيصر لأنهم يختطفون الزعماء الجبليين فرادى وغيلة ويسوقونهم أسرى إلى سيبيريا الباردة، أما إذا انعطفت اللقاء باتجاه خطر فلا بد من وجود محاربين إلى جانب زعيم الأويغ.

أذعن الحاج جيراندوق في نهاية الأمر، وهب الجميع بعد انتهاء النقاش هبة رجل

واحد. ففز الحاج جيراندوق إلى ظهر حصانه وانطلق على رأس ألف وخمسة مائة فارس إلى نهر مزيمتا.

حين يسير ركب من الفرسان بهذا العدد الكبير يحملو الغناء عادة للمحاربين. إلا أن فصيلنا تحرك في ذلك الصباح صامتاً وجمعاً يجيم على رؤوسه الطير. كنا مستعدين للقتال بالطبع، ولكننا خلفنا وراء ظهورنا بيوتنا وأسرا وحقولنا التي أهملناها بسبب الحرب، والتي أخذت تعج بالحشائش والأعشاب الطفيلية. ومع أننا كنا جاهزين للمراك والقتال فلم يكن بوسعنا إغفال ضرورة وقف سفك الدماء أخيراً. وانتظرنا التحاذ مثل هذا القرار اليوم بالذات قبيل غروب الشمس.

توقف الحاج جيراندوق فجأة على حين غرة وهو في مقدمة الجميع. نزل عن حصانه وأخذ يحمق بامعان شديد إلى السماء العالية.

أسرعنا إليه، ورفعنا رؤوسنا بدورنا إلى السماء فرأينا سرباً من الغربان السود بلون الفحم يطير باتجاه الغرب راسماً شريطاً طويلاً مظلماً في السماء. أثارنا المشهد جميعاً ولكننا صمتنا وانتظرنا ماسبقوله الحاج جيراندوق:

- فليات إليّ سحت قري - قال ذلك دون أن يلتفت وواصل تحديقته إلى السماء وانتصب سحت قري خلال دقيقة واحدة بعد أن اخترق الصفوف مزاحماً عجولاً ليمثل أمام الحاج جيراندوق بطوله الفارع، وجسمه النحيف، وشاربه الخفيف المتهدل، وعمامة البيضاء الكبيرة، كان أكبر شيخ لدينا في كل البلاد الأويغية، والأعزل الوحيد الذي يسافر معنا.

- ماتاويلك هذا؟ - سأله الحاج جيراندوق مشيراً بإصبعه إلى الغربان المتباعدة.
- هذا نذير شؤم - قال سحت قري مواصلاً كالحاج جيراندوق النظر إلى السماء في إثر الطيور ثم أضاف: - لا أدري هل يجدر بك أن تتابع طريقك أم لا؟... لقد حجبت الغربان عنا اليوم ضوء النهار. أما الكفار الذين ستلتقي بهم فلن يدعونا نعيش غداً. لقد بارك الله رحيلنا عن هذه الأرض وانتقالنا إلى غيرها. وكلما أسرعنا بتنفيذ إرادة الله كان ذلك أفضل بالنسبة لنا.

خفض الحاج جيراندوق بصره عن السماء، وأطرق مفكراً... وطال وقوفه...
ألف وخمسة مائة من المحاربين المترجلين يقفون بسكون منتظرين القرار الأخير. وساد وجل

وهدوه لا يعكرهما إلا سهيل الخيل .

فقر الحجاج جيراندوق إلى ظهر حصانه بسرعة فائقة ، بحيث فاتي أن أسند له الركاب وتابعنا المسير .

بعد أن وصلنا إلى نهر خوستا أمر الحجاج جيراندوق بفرز الجيش إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول أرسله نحو مصب نهر مزيمتا لمراقبة البحر ، والآخر - تحسباً للأحداث - إلى أعلى النهر كي يغطي الدروب الجبلية التي يمكن الوصول عبرها إلى مؤخرة قواتنا . أما الخمسةائة الآخرون من الفرسان فقد أخذهم معه وانحدر بهم إلى حيث تحتاز العوامة الخشبية نهر مزيمتا .

انتصبت خيمة صغيرة لقائدنا العام في ظلال شجر الدلب الكبيرة على ضفة النهر . وانتصبت في الجهة المقابلة للنهر خيمتان ، واحدة للجنرال وأخرى لحاكم أبخازيا . انتقل ضابط روسي مع مترجمه إلى ضفتنا ثم عادا من حيث أتيا بصحبة أحد نبلاتنا الأويخيين .

بعد مباحثات قصيرة تقرر أن يجري اللقاء على ضفتنا نحن .

اقترب المركب الذي خرج منه الجنرال الروسي وضباطه وحراسه وحاكم أبخازيا الأمير حمود بيه الذي رأيتة آخر مرة عندما جاء بيكي وفاة مربيه الحجاج برزج بن أداغو . ومع أنه ذرف آنذاك دموعاً سخية لا يذرفها الآن فقد بدا اليوم أكثر حزناً وقنامة من ذلك الوقت . سارصامتاً بعد أن نزل عن المركب ثم صعد المنحدر وكأنه يجر قدميه جراً . ظهر جنرال القيصر مرتدياً بزته العسكرية برتبتها الجنرالية البراقة ، وتدلّت من وجهه الدائري لحيته الشقراء الصغيرة .

لم أر قبل الآن جنرالاً قيصرياً يمثل هذا القرب . ولم ألحظ أي شيء مميّز فيه على الرغم من كونه كافراً .

سار الجميع متقابلين ليلتقوا أخيراً في منتصف المرج عند الخيمة الصغيرة . اقترب حاكم أبخازيا الأمير حموده بيه من الحجاج جيراندوق وانحنى له وقبله في صدره . تصرف كما يعلي عليه الواجب لكونه قد تربى في طفولته في أسرة أويخية .

كنت أقف حين بدأت المباحثات وراء ظهر الحجاج جيراندوق لحمايته وكنت أسمع كل كلمة تقال .

لا تستغرب ياداد شاراخ أني نسيت أياماً كثيرة من حياتي إلا أني أذكر كل دقائق ذلك اليوم من بدايته حتى نهايته، ففي ذلك اليوم بالذات تقرر مصير شعبي، إنه أول الأيام التي رسم خلالها ذلك المصير وكسرس إلى الأبد. أذكر كل شيء فيه بدقة. أذكر حتى عرائس الذرة الصفراء الجافة من محصول السنة الفائتة التي أخذت تحشخش تحت أرجلنا في المرج. أذكر شمس ذلك اليوم وكيف أخذت تحتجب تارة وتظهر أخرى. أذكر الريح التي هبت من جهة البحر، والمطر الذي بدأ ثلاث مرات يهطل ليتوقف سريعاً بعد كل مرة. وأذكر كم طال النقاش واستطال، وكيف احتدت الأصوات واشتدت، والحاج جيراندوق في ذلك كله شبيه بخيال يمتطي صهوة جواد لم يروض بعد . . . لم يكن بوسعه أن يضبط نفسه أو أن يمتلك ناصية الحديث كما يجب. أخذ وجهه يتغير كل دقيقة وباتت شرايين جبينه المنتفخة تضج بالدم الساخن دليلاً حياً على أنه يتمالك أعصابه بشق النفس ويحجم عن الانقضااض بختجره المسلول على كل من يجادله.

كنت أعرفه وأدرك جيداً أن من الممكن حدوث ما لا يخطر بالحسبان فأمسيت تواقاً ومتأهباً لنجدته في اللحظة الحاسمة. وهذا - على الأرجح - لم أكن قادراً للوهلة الأولى على فهم مايقولون، مع أني سمعت كل كلمة قيلت. فكرت كل الوقت بشيء واحد فقط: ستتزع الخناجر من أعماها للتو.

اشترك في المباحثات من طرف الأوبيخ إلى جانب الحاج جيراندوق دزيابش أحمد بن براكاي الشخصية المعروفة في كل القفقاس . . . فقد درس في شبابه في استانبول، وأتقن عدة لغات، وشارك في عهد قائد الأوبيخ العجوز الحاج برزج بن أداغوا في بحث كل مايتعلق بالأجانب. رتب مرات عديدة شؤون الأوبيخ . . . ذهب لمقابلة السلطان وسافر إلى لندن وبطر سبورغ وعرف دائماً كإنسان داهية شديد الجانب، بوسعه تحطمي كافة الحدود، والتوقف عند النهاية القصوى فحسب. لذا فإن إشراكه في تلك المباحثات - كما ترى - لم يأت عن طريق الصدفة.

بدأ الجنرال القيصري حديثه أولاً وبدت حدة كلماته غير متوافقة مع رصانة وجهه وهدوء صوته. لذلك اعتقدت أول الأمر: أن الجنرال يقول شيئاً والمترجم يقول شيئاً مغايراً تماماً.

- أنت يا حجاج جيراندوق - قال الجنرال - من سلالة برزج ذائعة الصيت، ولا يجدر بك بصفتك إنساناً من أصل رفيع أن تفعل اليوم شيئاً، وغداً شيئاً آخر تماماً. لقد منحك عظمة الامبراطور مرتبة ومربتاً، ولكن يبدو - كما اتضح لنا - أنك غير جدير بعطائه وعطفه. فعندما نشبت الحرب تخليت عن المرتبة واللقب اللذين منحك إياهما الإمبراطور. وعوضاً عن الولاء الدائم للروس تقربت من الأتراك طوعاً دون إكراه منهم أو قسر من قبل غيرهم. ثم إنك تنتهك منذ ذلك الحين بنود الإنفاقية التي عقدتها معنا، فترغم الرجال على تنكب السلاح ليل نهار وتشن هجوماتك على استحكاماتنا وتجرى مع الأتراك مباحثات سرية وتتزود بأسلحتهم خفية عنا.

- السيد الجنرال عليك أن تكون حذراً حين تتحدث معي - أجاب الحجاج جيراندوق أنا لست أرتباً ساقه إلى هنا كلاب صيدك. إني أقف على أرضي والسلاح في يدي ولست مكبلاً بالأغلال.

احتقن وجه الحجاج جيراندوق بالدماء. إلا أن الجنرال تربث قليلاً ولاذ بهدوء لا تتغير فيه ملامح وجهه، حتى فرغ المترجم من ترجمة كل شيء حتى النهاية.

- ولكن هذا كله قليل عليك أيضاً - تابع الجنرال حديثه السابق من نفس المكان الذي توقف عنده وكأنه لم يعر أذناً صاغية للكلمات الحجاج جيراندوق - إنك تعقد الآمال حتى الآن على السلطان التركي. ونحن نعلم أنك تطلب منه مساعدات عسكرية تأمل بالحصول عليها فعلاً. ولكنك مع ذلك لم تكتف باللجوء إليه على الرغم من ثقتك المطلقة بأن قوة السلطان لاتعاديها قوة على الأرض. إننا نعلم أن أحمد بن باراكاي الذي يقف الآن إلى جانبك قد سافر قبل ثلاث سنوات إلى لندن ممثلاً عنك، وطلب من الانكليز الحماية والمساعدة العسكرية ضدنا. لقد كتبت الصحف الانكليزية عن ذلك ولم يعد الأمر سراً. ثم إنك قمت من وقت ليس ببعيد بإرسال كتاب إلى القنصل الانكليزي في سوخومي. وهذا لم يعد سراً أيضاً. فالكتاب في أيدينا وبوسعنا أن نريك إياه. أنا لا أريد توجيه الإهانة لك ولكني لأجد كلمة أخرى أصف بها سلوكك هذا سوى الخيانة.

حين قاطع الحجاج جيراندوق حديث الجنرال في المرة الأولى بدالي أنه سيلجأ إلى خنجره. ولكنه وقف الآن بعد تلك الفورة الحادة بلا حراك وأخذ ينصت مشدوهاً وكأنه عمود غرس بعمق في الأرض - غرز إحدى يديه في جنبه وأمسك بالثانية المقبض العظمي

الأبيض لسيفه . لم يعد ينظر إلى الجنرال، بل تحطت نظراته رأس الجنرال لتصل إلى قدم
الجمال التي تكاثفت الغيوم فوقها . أمسى حرباً أن نحكم عندها بأنه لا يرى ولا يسمع
شيئاً . وتلثم المترجم وارتيك من الاضطراب والانفعال وضاق الحاج جيراندوق ذرعاً
بذلك لمعرفة الجيدة باللغة الروسية فنظر إلى الجنرال بسخرية ورعونة، ثم قال دون أن
ينصت للمترجم حتى النهاية :

- نعم هذه حقيقة . إنى لأمسيت خائناً فعلا لو قمت أسوة ببعض الأمراء الحكام
الآخرين في القفقاس بخيانة شعبي لقاء رتبكم وروبلاتكم الفضية . ولكن والحمد لله لم
يغرنى شيء كما ترون . أيها السيد الجنرال . . . إنك تسمي هذه خيانة . ولكن كيف
نسمي ما فعلته أنت إذ جئت إلى هنا على رأس جيش جرار لا يعد ولا يحصى لكي تطرد
الأويخ من أرضهم؟ .

الأقل لي : لو اجتمع كل الحكام العظام على الأرض وسألوا قبصرك : ماذا فعلنا له
نحن الأويخ؟ وما التهمة الموجهة لنا ولماذا يسمي لتحطيمنا؟ ياذا سيحييهم على ذلك كله
ياتري؟ بودي أن أعرف رده .

نعم لقد قلت لي الحقيقة : فقد حملنا في وقت ما جنسيتكم على أمل أن نعيش حياة
جيدة . ولكن آمالنا خابت . فقد اعتدنا على ممارسة التجارة البحرية دون أن نسأل أحداً
بماذا يمكننا أن نتاجر؟ وبماذا لا يجوز لنا أن نتاجر؟ لقد منعتكم كل السفن - باستثناء
سفنكم أنتم فقط - من أن ترسو في شواطئنا . أخذتم تسمون نبلاءنا أشقياء ولصوصاً ،
ومنعتوهم من بيع الأسرى وقد غنموهم في المعارك الضارية عبيداً . لدينا قوانيننا ولديكم
قوانينكم ، ولا تريد أن تصبح قوانينكم الغربية عنا نيراً على أعناقنا . تريدون حرماننا من
ديانتنا الإسلامية وما أن نمسي تحت سلطانكم حتى نَعْمَدُوا أطفالنا بالقوة . ثم إنكم حين
عجزتم أثناء الحرب عن حماية هذا الشاطئ من الأتراك انسحبتم وتركتموه لعبث
الأقذار . وبعد عودتكم أخذتم تصفوننا بالخيانة . إنى أتساءل : أي صلح يمكن أن نعقده
بيننا؟

لم يجب الجنرال بشيء ، بل أخرج من جيبه منديلاً مسح به عرقه المنتصب على
جبينه ، ووضع يده خلف ظهره ، واقترب من جذع شجرة الدلب ، وأخذ يتفحصه
بامعان ، وكأنه يفكر بأفضل الطرق لبره . ثم التفت فجأة متوجهاً إلى أحمد بن براكاي :

- أيها المحترم أحمد بن براكاي . اعتقد أنك لست الشخص الأخير بين الأوبيخ وبودي أن أسمع اليوم صوتك .

بقي أحمد بن براكاي واقفاً بقامته الطويلة المنتصبة ولم يأت بحركة ، أو يستعجل في الإجابة على سؤال الجنرال بل عندما بدا للجميع أنه لن يجيب بشيء قال :
- أنتم لاتفهموننا أيها السيد الجنرال ونحن لانفهمكم .

تطايير الشرر من عيني الحاج جيراندوق - لأن كلمات أحمد بن براكاي لم تنل اعجابه على الأغلب .

أما الجنرال فقد ابتسم لدى سماعها وقال :

- أنت حكيم كبير يا أحمد بن براكاي . تريد كما يقال عندكم أن تشوي الدجاجة من كافة وجوهها على النار وأن تبقى العصا - التي تمسك بها بالدجاجة - سليمة من الحروق؟ لاتنطبق هذه الحكمة على الحرب أبداً ، ففي الحرب يختلف الأمر تماماً .

وضع الجنرال يديه وراء ظهره وأخذ يغدو ويروح ببطء إلى الأمام وإلى الخلف . ثم بعد أن وقف أمام الحاج جيراندوق قال بصوت عال ولكن ببطء :

- لقد أرغمتم - أنتم بأنفسكم - عظمة الإمبراطور الحاكم على اتخاذ أفسى الاجراءات ضدكم . اتضح أن الجلبين الآخرين يفوقونكم في بعد النظر . فمنهم من انتقل إلى السهول ومنهم من ألقى بسلاحه ووعد بالعيش معنا بسلام . أما أنتم فتحاربون وتحاربون وتعقدون الآمال العظام على السلطان . . إن جلالة الإمبراطور الحاكم قد تعطف واتخذ قراراً هاماً جداً بصددكم خلال زيارته للقفقاس في السنة الماضية ، وعلى أن أذكركم به مرة أخرى ، وعلى الأغلب أنها الأخيرة : «على الأوبيخيين أن يقرروا : هل يرغبون في الانتقال إلى مناطق كوبان حيث يحصلون على أرض يستملكونها إلى الأبد ويحافظون بالتالي على كيانهم كشعب وعلى محكمتهم؟ إذا جاء الجواب بالرفض فليستقلوا إلى تركيا» .

صمت الجنرال ولم يضيف شيئاً من عنده إثر تلك الكلمات المهيبه كالقضاء والقدر والتي لم تكن جديدة بالنسبة لكل من شهد المباحثات . حين لفظ القيصر كلماته تلك كان جالساً على جذع شجرة مغطى بقلنسوة محاطاً بجمع غفير من الناس . وطارت تلك الكلمات بسرعة البرق إلى كافة أرجاء القفقاس . ومع هذا فقد وقعت كالرعد على

الرؤوس حين كررت هنا فجأة في هذا اليوم بالذات خلال المباحثات عن السلام .
- لو أن سهول كوبان البعيدة عنا والتي تريدنا أن ننتقل إليها ملائمة للعيش
لاستوطنها الناس من زمن بعيد، - قال الحاج جيراندوق - إننا نعيش قرب البحر، وامننا
التجارة إلى جانب الصيد في الجبال، وتربية الماشية في المراعي الجبلية . لقد اعتدنا على
العيش هنا وليس هناك . كلا أيها السيد الجنرال ! لن نضع رأسنا في قبعتك أنت؛ فما أن
ترك جبالنا التي تحمينا منكم ومنتقل إلى السهول الجرداء في كوبان حتى تفعلوا بنا
ماتشاؤون . ستعلنون لفلاحينا أن نظام الرق الاقطاعي قد ألغي، ولاندرى لمن وكيف
وأية أراض ستعطوننا أو تبيعوننا، بدلا عن تلك التي ستنزعونها منا هنا . تريدون أن
توقعوا بيتنا وبين فلاحينا الذين سينقلون معنا إلى هناك، ونحن حماهم، فيولد التمرد لديهم
وينعدم احترامهم لنا . ستشجعون تلك الخلافات لكي يسهل عليكم القضاء علينا .
لم يتمالك الحاج جيراندوق نفسه في هذه المرة . تكلم وهو يشتعل غضباً . أمسى
عجولا متلعثماً مفكك العبارات، بينما بقي الجنرال صامتا ينتظر حائمة الحديث بكل
هدوء .

وانتهى الحاج جيراندوق من كلامه أخيراً؛ إلا أن الجنرال لم ينس بكلمة بل نطق
من وقف ساكناً كل الوقت وحتى الآن وهو حاكم أبخازيا الأمير حمود بيه تشا تشبا .
- إذا توفر طريق واحد فقط عبر المضيق الجلي وانعدم وجود غيره أصبح محتأ على
المرء المضي به دون تردد . لا تغضب لكلامي هذا؛ ولكن ليس لديكم - أيها الأوبيخ -
الوقت الكافي للتردد وليس هناك طريقان عبر المضيق .
قال حمود بيه تشا تشبا ذلك بهدوء شديد وبدا واضحاً أن كل كلمة نطق بها خرجت
من فمه بشق النفس .

- دعنا وجها لوجه مع الروس مهما أمسى الأمر عتياً بالنسبة لنا . أنا لم اطلب
وساطتك بعد - قاطعه الحاج جيراندوق صائحاً - ولكن ذلك الصباح لم يردع حمود بيه .
- لقد رضعت الحليب الأوبيخي وتربيت في أسرة أوبيخية . أنا أخ بالرضاعة
للأوبيخ وعلي أن أدفع عنهم المصائب . إنى أتمنى للأوبيخ ما أتمناه للأبخاز لأقل ولا
أكثر، لاسوأ ولا أفضل وإنى سأبرهن على ذلك إذا دعا الأمر، ولن أضن بنفسى وقواي في
سبيل ذلك .

ولكن الحاج جيراندوق قاطعه ثانية ولم يمهلها انتهاء كلامه:

- يصعب علي أن أثق بكلماتك. إننا نذكر كيف حاربت ضدنا نحن الأويخ إلى جانب جنرالات القيصر. تذكرت الخليب ولكنك مزجته أنت بنفسك بالدم. ثم ليس لديك مائتدح به نفسك أمام الأبخاز أيضاً. ألسنت أنت الذي سقيت الأرض بدماء من رفض منهم الخضوع للقيصر؟

أنت تقول إنك ترق لنا، وتعطف علينا، ولكن هل كنت عطوفاً على أبناء شعبك أنت؟!

لم تنهش بأسنانك نفسها لحم جسمك؟

لو أن جدك كيليشيه الذي وخذنا جميعاً في الماضي مازال على قيد الحياة لما أمسيتم أنتم الأبخاز، ولانحن الأويخ على حافة هذه الهاوية السحيقة، إلا أنه قتل ولم يعد له وجود. أما والدك صفريه فقد سلم أبخازيا كلها للقيصر الروسي دون طلقة واحدة. ثم تريد أنت الآن إلقاء الأنشطة حول أعناقنا نحن.

وقف حاكم أبخازيا حاني الرأس. لا يأتي بحركة أما الحاج جيراندوق فبات يشب أمامه كالمسعود لاسعاً أذنيه بسياط الشنائم والإهانات.

- لم يهينا أحد هذه الأرض - انصرف الحاج جيراندوق عن حاكم أبخازيا أخيراً ووقف أمام الجنرال وتابع قائلاً: - ولن يتزعجها منا أحد طالما نحن أحياء. إننا نطلب الصلح؛ فإذا رفضتموه سنحارب.

شد الحاج جيراندوق قبضة يده اليسرى على مقبض سيفه وشهر اليمنى وكأنه يستل سلاحه.

قام المترجمون بعملهم بصعوبة بالغة أما أنا فلم أرفع نظري عن الجنرال والضباط الروس الواقفين وراءه كي أتمكن في حالة نشوب خطرٍ ما من إشهار سيفي.

أطال الجنرال نظره صامتاً ساخراً ممعن التحديق في الحاج جيراندوق وقال أخيراً:

- حسناً. الحرب إذاً. فلنكن الحرب. ولكن مع ذلك أريد أن أسألك أنت يامن تجرؤ على تقرير مصير شعبك شيئاً آخر أيضاً: اعلم أن بوسعكم أن تبيعوا كل ممتلكاتكم لشراء الأسلحة من الأتراك والمهربين الإنكليز لبعض الوقت. نعرف أن لديكم الآن أسلحة ونعرف أيضاً أنهم أرسلوا لكم من إنكلترا من وقت ليس ببعيد ستة مدافع

بسبطانات محززة، ومعها خبيران ليعلموا محاربك طرق استخدامها. ولكن أعلم أن شعبك كله ليس إلا حفنة من الناس. أيعقل أنك لا تدرك أنه ليس بإمكانك أن تقضي علينا بهذه الحفنة؟!

أما إذا أدركت ذلك فلماذا تريد أن تفني شعبك كله وليس لديك أي أمل بالنصر؟
ترقب الجميع جواب الحاج جيراندوق ولم يكن بوسع أحد أن يخمن بماذا سيجيب:
- لا تقلق علينا أيها السيد الجنرال - قال الحاج جيراندوق محاولاً التكلم بأعلى صوت لديه حتى يسمعه الجميع. نطق بذلك وكأنه بصيح - لم يحكم أحد قبل الآن على شجاعة الناس من خلال عددهم. ومع هذا فلدينا العدد الكافي من السلاح والرجال القادرين على حمله. أما إذا نقصنا محاربون فإننا سنمزق بخناجرنا بطون نساتنا الخبل لنحصل على محاربين جدد من أرحامهن.

بعد أن فرغ الحاج جيراندوق من كلامه نظر باتجاهي وصاح غاضباً وكأنني مذنب في شيء ما: «الحياء»

لم يجب الجنرال بشيء بل رفع كتفيه ونظر إلى الأمير حاكم أبخازيا وكأنه يريد أن يقول له: «وما قولك الآن؟ هل اقتنعت بأنه ما كان ليبتج شيء عن هذا اللقاء كله؟»
ولكن حمود به نشأ تشبهاً لم يبرح مكانه إثر تلك النظرة. لم يكن راغباً بعد في مغادرة المكان، ووقف مصالماً يديه على صدره.

نظر إليه الجنرال بنفاذ صبر، ولكنه لم يتحرك أيضاً، بل استمر في الوقوف مصالماً يديه على صدره ثم التفت فجأة ببطء وهدوء إلى قائدنا العام وقال:

- أخي بالرضاعة الحاج جيراندوق. أرجوك ثانية أن تستمع إلي. فلا يحق لأي منا أن يستعجل الأمور حين ينبغي إجراء خيار بين الحياة والموت. أرجوك أن تفكر جيداً قبل أن نشهر سيوفنا من جديد. لقد انتهت الحرب في داغستان كما انتهت في تشيشنة وكل القفقاس. وأمسى القفقاس كله ملكاً للإمبراطور الروسي، أما من لا يوافق على ذلك فسيرحل إلى ما وراء البحر حيث لا ينتظره - كما أعتقد - شيء جديد. سيحل السلام في المستقبل بكافة الأحوال، وسواء تحقق بهذا الشكل أو ذاك سواء أكان سلاماً سيئاً أم جيداً إلا أنه سلام يعم القفقاس كله حتماً. لعل الأوبخ - الغارقين حتى ركبهم في الدم، الدم الغريب والدم الغريب - قد فاتهم أن يدركوا أن الحرب خدعت وتعمد وأنهم إذا وصلوا



هذه الحرب فسيفتلون أنفسهم بأنفسهم في نهاية الأمر. من يدفعهم إلى هذا الجنون؟ اليد الغريبة أم اللغة الغريبة؟ !

أخي بالرضاعة أستحلفك بذكرى من رباني الحاج برزج بن أداغوا، من قاد الشعب الأويغخي سنوات طويلة أن تتيح لي فرصة زيارتكم. إبعث برسلك لدعوة أكثر الناس حكمة من أبناء شعبك. وسأني وحدي دون الجنرال في اليوم الذي تحدده أنت، ولنستمع جميعاً إلي وإليك وإليهم. بماذا تجيبني على هذا قبل أن نفرق الآن؟! .

- طالما أنك تطلب ذلك مستحلفاً بذكرى الحاج برزج بن أداغوا فإنك قد كبلتني بهذا الرجاء من يدي ورجلي. تعال إلينا إذا واستمع إلى رأي الشعب الذي أرضعك من حليبه. ولكن لاتأخر عن نهاية الأسبوع القادم. فليس بوسعنا انتظارك طويلاً. الوداع. وضع الحاج جيراندوق يده على صدره وانحنى برأسه لومضة عين ثم توجه مسرعاً إلى الخيول.

لم يفتني أن ألتفت لأرى كيف استقل الجنرال والأمير حاكم أبخازيا المركب. وعلى الأغلب أنهم لاحظوا من الضفة الأخرى حيث صدحت طبول الحرب كيف هب الجنود من رقاهم تحت الأشجار ليتنظمو حسب الإيعاز في صفوفهم.

امتطينا خيولنا، والحاج جيراندوق منتصب في مقدمة صفوفنا ثم ما إن رفع السوط إلى أعلى حتى دق البوق بصوت قوي نافذ. كانت تلك الإشارة تعني أن مباحثات الصلح قد انقطعت وأن على كل من يحمل السلاح أن يقيه على أهبة الاستعداد. هكذا تكلم البوق.

كيف استقبل الأويغ أخاهم بالرضاعة

لم أر بعيني شخصياً كل ما أريد أن أقصه عليك. ولكن العديدين من أبناء شعبي تحدثوا مطولاً عن سفرة حمود بيه تشا تشبا سواء في حينها أو فيما بعد وكثيراً ما تذكروها بعد أن أمسوا طريدين شريدين. سأعرف لك إذا من بثر ذاكرتي الذي جفّ وأقدم إليك كل

مابقي في قعره .

عزيزي شاراخ ؛ من المهم جداً أن تعرف كل ما أتذكره ، كل شيء حتى آخر كلمة . لقد أمسى ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى بلاد الأوبيخ أخوهم بالرضاعة حمود بيه تشاتشبا اليوم الأخير الذي أمكن فيه إجراء خيار آخر قبل فوات الأوان ، خيار مغاير تماماً للذي قمنا به .

غرف زاورقان في ذلك المساء كل ما وجد في بئر ذاكرته فعلاً ، ماترسب وبقي في القاع طيلة ثلاثة أرباع قرن من الزمان وارتبط بهذا القدر أو ذاك بحدث قديم عمره سبعون سنة وهو زيارة حمود بيه تشاتشبا إلى بلاد الأوبيخ .

لقد تسنى لي أن ألاحظ وأقيم عن كثب ذلك الانتظام الخارق لذاكرة زاورقان خصوصاً في تلك الحالات التي يتذكر فيها ماراً بعينه وسمعه بأذنيه . ولكن الأمر في هذه الحالة قد اختلف تماماً . لذا قرر زاورقان أن من المهم لفت انتباهي لهذا كله . فلم يبق في ذاكرته مجمل الحدث الذي رواه لي بل بقايا الإشاعات التي انتشرت حوله وبعض الأغاني والأساطير التي نظمت واختلقت عنه . لذا فإني في هذه الحالة - وخلافاً لعادتي - لن أسوق حديث زاورقان بشكل مباشر بل سأعالج ذلك الحدث من خلال دراستي الشخصية لتلك الصفحة المثيرة للاهتمام بشكل خاص من تاريخ الأبخاز والأوبيخ وعلى ضوء معلوماتي التي حصلت عليها من مصادر مختلفة قبل سفري إلى زاورقان . وسأكمل معالجاتي تلك ببعض التفاصيل الهامة من حكاياته والتي بدت لي أقرب إلى الحقيقة والوثيقة . وسأورد في الختام نهاية حديث زاورقان آخذاً بالاعتبار أسطورية العرض واعتماده في كل ذلك على الحقيقة التاريخية الموثوقة والدقيقة كل الدقيقة .

جاءت سفرة حاكم أبخازيا الأمير حمود بيه تشا تشبا إلى الأوبيخ - والتي ذكرها زاورقان - في ذات الصيف الذي جرت فيه المباحثات إياها والتي حاول حمود بيه القيام فيها بدور الوسيط وأحاق به بالتالي إخفاق ذريع .

وجب على حمود بيه تشاتشبا أن يسافر إلى بلاد الأوبيخ حتماً . وبدا واضحاً وضح الشمس من خلال الأشخاص الذين سعى لاصطحابهم معه في تلك السفرة ، أنه أعارها جل اهتمامه مدركاً أهميتها الفاتكة ليس للأوبيخ فحسب بل بالنسبة له ومنزلته شخصياً لدى الوصي الجديد على القفقاس الأمير ميخائيل نيكالايفتش .

وترتب على فشل سفرة الأمير حمود بيه تشاتشبا إلى الأوبىخ الحاق الضرر بوضعه المتقلقل سلفاً . لذا فقد قرر أن يأخذ معه في تلك السفرة شخصيات موالية له من ذوي الجاه والنفوذ في أبخازيا وتتمتع في الوقت نفسه لهذا السبب أو ذاك بالقدرة على التأثير على الأوبىخ . مثال ذلك يمخا العيد من (سامورزا كان) ، غير غوال تشاتشبا (من أبجوا) ومعن كاتس (من بزيبا) والذي ناهز التسعين من عمره آنذاك وشغل بغض النظر عن سنه منصب مستشار الأمير في الشؤون الأجنبية وكافة الأمور المعقدة عموماً .

بدا اصطحب معن كاتس في هذه السفرة أمراً منظوياً على المجازفة فقد حارب أكثر من مرة في حياته إلى جانب جنرالات القيصر . قاتل ضد التسييلدين والسادزين والأوبىخ وكفل ظهوره الآن بالتذكير بتلك الأمور الدموية القديمة . إلا أن السفر بدونه في ذلك الطريق الخطر على حد اعتبار الحاكم الأبخازي كان منظوياً على مجازفة أكبر وأخطر . والسر في ذلك هو أن أخت معن كاتس من أمه التي تصغره بحوالي خمسين سنة هي زوجة الحاج جيراندوق وهذا لن يقلل - كما توخى الأمير - من خطورة السفر فحسب بل يمكن له أن يساعد في المباحثات أيضاً .

أراد حمود بيه تشاتشبا أن يصطحب معه وهو في طريقه إلى بلاد الأوبىخ مرافقين اثنين ، ولكنه لم يتمكن من ذلك . فالمخسيت مارشان (من تسييلدا) مضى للصيد متوارياً عن الأنظار . والأمير رشيد غيتشبا (من بلاد السادزين) تمارض فور اقتراب الأمير الحاكم من أراضيه واستدعائه إليه . لم يكن التكهن بسبب التمارض صعباً أبداً ، فلم يرغب رشيد غيتشبا بالتدخل لدى سير الأمور في طريق السلام ، أما إذا توجهت نحو سفك الدماء فمن الواضح أنه سيقف إلى جانب الحاج جيراندوق .

أدرك الأمير الحاكم إدراكاً تاماً أنه لو رافقه هذان الشخصان لسهل عليه استمالة الأوبىخ إلى الحلول السلمية . وهكذا أخذ التفكير بهذه المسألة يعذبه طوال الطريق .

بعد أن قطع الفرسان وهم على ظهور خيولهم الأصيلة نهر مزيمتا ، انطلقوا مسرعين نحو الشمال . بان البحر على يسار الطريق تارة واخفتى تارة أخرى ، ولاحظ الفرسان عند أحد المنعطفات مركباً يتعد بسرعة ملحوظة عن الضفاف .

أوقف الأمير الحاكم حصانه وسأل مرافقيه الذين لحقوا به عن رأيهم بهذا الصدد

- لمن هذا المركب ؟

- إنه يسرع في الإبتعاد . معنى ذلك أنه ليس مركباً روسياً - أجاب معن كاتس وقد وقف على الركاب لكي يتفحص المركب بشكل أفضل .
- على الأغلب أنهم تجار أنراك - قال غيرغوال تشاتشبا - الحق يقال إن الحاج جيراندوق محق في رأيه . فعلى الأوبوخ أن يتاجروا مع أحد ما .
- أحضروا أسلحة إنكليزية مرة ثانية - قال الأمير الحاكم ذلك وهو لا ينظر باتجاه البحر ، بل إلى الدرب الترابي الضيق الذي يتلوى عبر التلال ويضيع في الغابة .
عقب في ذلك الدرب ثلاثون حصاناً على شكل سلسلة ملتوية تصعد التلال ، محملة بالأسلحة . وقف الأمير الحاكم طويلاً لا يبرح مكانه حتى توارى الحصان الأخير عن الأنظار .

- هذا سيء . سيء جداً . لا أدري من دفع النقود ثمناً لهذا السلاح ولكن شعب الأوبوخ سيدفع ثمنه دماء . سيحل بلاء . - قال حمود بيه تشاتشبا .
حفظ مرافقوه هذه الكلمات عن ظهر قلب وأمست بالنسبة لهم كالتبوءة . وعلى كل حال فقد بقيت هكذا في أحاديث المسنين التي سجلت في العشرينات من قرننا .
حصل الأمير حمود بيه تشاتشبا قبل تلك السفارة على رتبة جنرال - أدبوتانت في الجيش الروسي ونال أوسمة حربية روسية عديدة . منح المرتبة والأوسمة لقاء مساعداته لجنرالات القيصر على إخضاع الجبلين الذين رفضوا الحكم الروسي وسلطته الأميرية سواء بسواء . لذا فلم يرغب وهو يتوجه الآن إلى الأوبوخ أن يذكرهم بذلك على الإطلاق فلم يلبس البزة الجنرالية الروسية بأوسمتها الرفيعة وإنما ارتدى بكل بساطة بزة شركسية .
سافر كجبلي إلى جبلين . وثمة عدة شهادات عن تلك التفاصيل لشهود عيان . لقد قالوا أيضاً أنه قطع الطريق كله تقريباً صامتاً متجههم السريرة ، غارقاً في تفكير مضم عميق .
بماذا بات بوسعه أن يفكر وهو متجه إلى الأوبوخ ؟ لن أحاول الإجابة عن هذا التساؤل بل سأفعل شيئاً آخر : سأذكر ببعض الوقائع والحقائق عن سيرة وظروف حياة الأمير الحاكم حمود بيه تشاتشبا التي عقدت وضعه بشكل عام وفي المباحثات المقبلة مع الأوبوخ بشكل خاص .

هل فكر فعلاً بهذا كله في ذلك اليوم بالتحديد ؟ لقد كان لديه مايجب التفكير به بالفعل وإن لم يفعل . وقف حمود بيه قبل حرب القرم بكل حزم إلى جانب الجنرالات

الروس في صراعهم مع الجبليين . ووسع بهذا بالذات سلطانه وملكه . . . ولكنه أمسى في حرب القرم بالذات في حالة صعبة للغاية . فقد رحلت القطعات العسكرية الروسية عن سواحل البحر الأسود ونقلت عتادها ومتاعها على متن السفن . وتخلت الجنرالات الروس مؤقتاً ولدوافع استراتيجية عن أبخازيا وأخرجوا منها كل قواتهم العسكرية . وهكذا رحل الأمير الحاكم حالما شعر بخطورة وضعه إلى أقرباء زوجته الأمراء دادباني (في مينغريليا) . ثم مالبت أن قرر العودة إلى إمارته بغض النظر عن المخاطر التي قد يتعرض لها .

ولكن مشهداً مرعباً كان بانتظاره وهو في طريق عودته إلى سوخومي . فقد لاحت في الأفق سوارى سفن حربية تركية تتحرك نحو الشاطئ . ومآن وصل حمود بيه إلى القصر الأميري حتى أخذ الضيوف يحاصرونه واحد إثر واحد . جاء في البداية أحد نواب شامل وهو محمد أمين - وبالمناسبة فإنه لم يأت من داغستان بل من استانبول - ورافقه آنذاك الأمير الشركسي صفري بيه . لم يخفيا هدفهما عن أحد بل سرعان ما أوضحا أنه يكمن في نشر أفكار الدعوة في أوساط الجبليين في غرب القفقاس . أما لجوؤهما إلى الحاكم الأبخازي فجاء بقصد استمالته إلى جانب تركيا . جرت المحادثات طويلاً واحتدت النقاشات بينهم . إلا أن الأمير حمود بيه تشاتشبا لم يدعن رغم ذلك كله ، ولم يرتحم في أحضان الأتراك .

ثم قدم إلى سوخوي - في أعقاب ذينك الشخصين - التركي عمر باشا المخول بشؤون القفقاس في الحكومة التركية . أراد عمر باشا تسليم حاكم أبخازياً شخصياً رسالة تحمّل نداء الوزير العظيم إلى الجبليين في القفقاس يدعوهم فيه إلى الجهاد ضد الكفرة تحت راية الغزوة . ولكن حمود بيه تشاتشبا رفض استلام تلك الرسالة معلناً أنه مسيحي وليس مسلماً .

وسمى الزائر التالي نفسه محمد بيه . ولكنه كان في حقيقة الأمر المغامر الشهير في أوروبا باندبا الذي يتبع الشعار المعروف منذ العهد القديم « حيث الأفضل يكون وطني » . وقد أطلق على نفسه لقب القائد العام للجيش الأوروبي في القفقاس . وظهر إلى جانب هذا الشخص شخصان أوروبيان آخران مدعومان من الإنكليز هما لا بينسكي وبراون ، وقد مثلوا جميعاً أمام الأمير الحاكم وحاولوا إقناعه بأنه ليس ثمة

قوة على الأرض بوسعها الوقوف أمام القدرة الإتحادية للأسد البريطاني والهلل التركي .
وعدوا الأمير الحاكم بكل شيء . . من أحدث الأسلحة حتى المجد الذي لا يجمد
بريقه عبر القرون . إلا أن الأمير حمود به لم يرضخ رغم ذلك كله ، وسرعان ما أخذت
الجيش التركية بعد ذلك تنزل في جميع سواحل أبخازيا ثم وبالإضافة إلى ذلك . أخذ
الكثيرون من الأمراء والنبلاء الموالين للجانب التركي يتهمون حمود به بأن العمى قد
أصابه فلا يرى إلى جانب من القوة الأشد .

أما العناد الذي أبداه الحاكم الأبخازي في تلك الأيام العصيبة فيعود
لسبيين رئيسين : أولاً - أنه فاق الآخرين في تصوره الأفضل لقوة الروس رغم كافة
إخفاقاتهم في حرب القرم . ثانياً - أنه لم يكن واثقاً من أنهم قد انسحبوا من أبخازيا إلى
الأبد ودونها رجعة . فإذا تم له الأمر كما يريد ، احتفظ لاحقاً ، فور نهاية الحرب بإمارته
وأملكه الشخصية وأراضيه الواسعة ضمن الإمبراطورية الروسية لقاء إخلاصه الذي تميز
به للروس . وضمن له ذلك أيضاً استلام العشرة آلاف روبل فضي سنوياً التي اعتاد على
تلقيها من زمن بعيد من الخزنة الإمبراطورية .

إلا أن ثمة سبباً آخر لعناد الأمير حمود به . لقد أدرك الأمير أن هناك عدداً ليس
باليسير من الأبخازيين الرافضين لتوجهه الروسي أما غالبيتهم العظمى فكانت تعرف
جيداً - بعد مرور ثلاثة قرون على حكم السلاطين - ماهية ذلك كله في حقيقة الأمر ولا
يروقها أبداً الرضوخ لسلطة الأتراك ، لاسيما وأنها اختبرتها بجلد عظيمها وهكذا ، إذا
نشبت من جراء ذلك كله انتفاضة ضد الأمير حمود به فسيبرز سؤال هام : هل سيدعمه
الأتراك حقاً ؟ أو أنهم سيبحثون لهم عن بديل آخر يرتاحون إليه أكثر ؟ !

وجدت من خلال دراسة تاريخ تلك الفترة عدداً من الأدلة على صعوبة الوضع
الذي عاشه الحاكم الأبخازي في ذلك الوقت ، حتى أن مراسل صحيفة التايمز اللندنية
كتب آنذاك على صفحاتها من سوخومي مباشرة يقول : « إن نفور الأبخاز المحليين من
الأتراك مسألة لا تقبل الشك . . فهم لا يقتصرون على رفض تقديم المساعدة لنا بل
إنهم دمروا أيضاً بضعة جسور كان لها أن تسهل حركتنا وقاموا بتخريب الطرق حيث تيسر
لهم ذلك . ثم إن الطبقات العليا من هذا الشعب لا تخفي تعاطفها وتعلقها بروسيا وتنظر
بفرح شديد إلى دخول الأتراك » .

كوفىء الأمير الحاكم على العناد الذي أبداه خلال حرب القرم ، فقد عاد الروس إلى أبخازيا ، وشعر حمود بيه تشاتشبا فور عودتهم بأنه الحاكم الحقيقي لأبخازيا كلها . إلا أن حرب القفقاس سارت نحو نهايتها . سقط شامل وتوقفت العمليات العسكرية في كل مكان باستثناء غرب القفقاس . ورات حكومة القيصر أنه ليس من المفيد الاستمرار بدعم الأمراء الحكام والخانات الذي وقفوا إلى جانبها سابقاً أثناء صراعها مع الجبلين المتمردين آنذاك . وأضحت أبخازيا في عام (١٨٦٢) الإمارة الوحيدة في كل القفقاس ولربما زالت عن الوجود هي الأخرى أيضاً لو أن نائب القفقاس الأمير بارياتسكي لم يكتب للقيصر مدافعاً عن حمود بيه تشاتشبا : « لا أرى أية حاجة لملاحقة الأمير ، بل على العكس إن ذلك يشكل ضرراً كبيراً . فنفوذه وتأثيره على القبائل المجاورة في أبخازيا لا يزالان حسب معرفتي هامين جداً . لذا فإني أعتبر أن استمالة هذا الإنسان إلينا مفيدة جداً .

وتعاقبت الأيام منذ ذلك الوقت وخلال عامين اثنين من سيء إلى أسوأ . فالوصي الجديد على القفقاس الأمير ميخائيل نيكولايفتش لم ير أن المحافظة على إمارة أبخازيا ستأى بفائدة ما للقيصر ، لذا أخذ يفكر كل الوقت في كيفية الإسراع خفية وغدرا في إزالة هذه الإمارة حتى لا يُذكر اسمها في المستقبل باستقلاليتها السابقة .

وصلت الأوقايل حول تلك الخطط لحمود بيه تشاتشبا ، فأضيفت إلى الأنباء المقلقة حول الإصلاح الفلاحي الجاري في روسيا ، والذي سيصل إلى أبخازيا بهذا الشكل أو ذلك وإن كان مجهول الموعد والكيفية ومن أين سيبدأ . فكر حمود بيه بمصيره الشخصي ومصير ابنه الوحيد غيورغي الذي اعتاد من زمن بعيد على تصوره حاكم أبخازيا في المستقبل لذلك كله أراد أن يكسب ولو بعض الوقت ليؤخر بضعة أعوام على الأقل تحقيق نوايا الوصي الجديد بإزالة الإمارة ، لاسيما أن الإشاعات حول ذلك قد ازدادات أكثر فأكثر .

أسى الحاكم الأبخازي بعد تقييمه الصحيح لقوة الروس صادقاً ومخلصاً فعلاً في رغبته بمنع الأوبخ من الإستمرار في إراقة الدماء والعدول عن الصراع الذي لا جدوى منه . أما عنناد الحاج جيراندوق وعزمه على مواصلة الحرب فقد تأججا من خلال السفريات السرية للعملاء الأتراك المتوافدين واحداً إثر آخر . وأدرك حمود بيه جيداً أنه

العناد الشديد لدى الحاج جيراندوق ، وأضعف هذا بالتالي ذلك القدر من التعاطف النفسي لدى حمود بيه تجاه الأوبخ الذي يكبر رجولتهم وبسالتهم .

تحل الحاج جيراندوق بما يكفيه من الشجاعة والجرأة أما رجاحة العقل وبعد النظر فلا . ومع ذلك فقد توجه حمود بيه لإجراء محادثاته مع الأوبخ ليس لأن قلقه على مصيرهم لاحقاً قد أقض مضجعه وشغل تفكيره ، بل لسبب آخر تماماً أكثر أهمية وإلحاحاً وهو خوفه على مصيره الشخصي .

لم يفتقر حمود بيه إلى الأسس القويمة ليقدر جيداً كيف تثير صلابة الحاج جيراندوق وجموحه هياج مواطنيه هو - الأبخاز وخصوصاً أبناء تسبيلدا والمناطق التي تربطها بالأوبخ عرى الجوار الوثيقة . لقد قَدَّر أنه إذا جنح الأوبخ نتيجة مباحثاته معهم إلى الصلح مع الروس فإن ذلك سيرتك آثاره المفيدة على مواطنيه هو ، أو على الأصح على أولئك الذين يعتبرون الآن فقط مواطنيه أما في حقيقة الأمر فإنهم سيرفعون عنهم عصا الطاعة لدى أول فرصة ملائمة .

وبدا له أنه إذا ساعده نجاح المباحثات مع الأوبخ على التمكن من ناصية الفئة المتمردة من الأبخاز فإن ذلك سيزيد من هيئته في عيون الروس وقد يصرفهم ذلك عن فكرة إلغاء الامارة المالكة . ثم إذا تسنى له - خلال المباحثات مع الأوبخ - أن يحقق ما عجز الجنرال الروسي عن تحقيقه منذ شهر مضى فقد ترتفع بهذا مرتبته في بلاط الوصي على القفقاس ، ويقطع بالتالي دابر الحديث حول إلغاء إمارته المالكة أو في أسوأ الحالات يؤخر ذلك سنوات طويلة لاحقاً .

إن الاستطراد الذي قمت به هنا مبتعداً عن حديث زاورقان زولاقي يرمي الى هدف واحد : فعل أساس الشيء القليل نسبياً الذي تمكنت من معرفته حتى الآن عن الأمير الحاكم حمود بيه نشأته ، الشخصية التاريخية في حدود أبخازيا أريد أن أحدد أيضاً تلك المكانة التي شغلتها في حياته سفرته الى بلاد الأوبخ عشية المأساة التي حلت بنا وأن أبين الأسباب التي دفعته الى السفر لإجراء تلك المباحثات المنطوية على كل عناصر المجازفة بالنسبة إليه .

أما أين صبَّ هذا كله ؟ وإلى أية نهاية انتهى ؟ والأهم من كل ذلك : كيف وبأي شكل حفظ في ذاكرة المعاصرين ؟ فإن القسم الأخير والأكثر ارتباطاً من حديث زاورقان

يقدم لنا تصوراً وافياً عنه وقد ذكرت بذلك القسم مراراً وسجلته حرفياً تماماً .
وأكرر هنا أنه بغض النظر عن التفاصيل الأسطورية لتلك القصة فإنها تعتمد -
كأساس لها - الأحداث والحقائق التي تتطابق بشكل دقيق مع الواقع الفعلي .
- يوسعك أن تصدقني أو لا تصدقني أيها العزيز شاراخ لكن الناس حدثوني -
وليس شخصاً واحداً ، بل عديدون ، وليس مرة واحدة ، بل مرات عديدة - أن الأمير
حمود بيه سار صامتاً كالأبكم في طريقه من بيته الى بلاد الأوبيوخ طيلة ذينك اليومين
والليلتين ، ولم ينبس لأحد ببنت شفة .

نطق للمرة الأولى حين أمسى في بلاد الأوبيوخ ولمح في الغابة حصاناً ضخماً تلجى
اللون يرغبي بسلام في حقل أخضر . أعجب الأمير حمود بيه بالحصان والتفت إلى الفرسان
المرافقين ليلفت انتباههم اليه . ولكنهم لم يروا أي حصان أبيض في الحقل الأخضر حين
أدركوا الأمير . اختفى الحصان وكأنه لم يكن هنا في وقت من الأوقات .

عندها فقط حين توقف الأمير مع مرافقيه في منتصف الحقل - نطق لأول مرة خلال
ذينك اليومين والليلتين ، وحدثهم كيف قطع في طفولته هذا الدرب بالذات وهو في
السابعة من عمره . إلا أنه سار عندها في الجهة المعاكسة ، لا من بلاد الأبخاز الى بلاد
الأوبيوخ بل من بلاد الأوبيوخ الى بلاد الأبخاز .

كان عمره آنذاك سبعة أعوام ، ولكنه سافر وقتها كالبالغين ممتطياً حصاناً ضخماً
تلجى اللون ، مرتدياً بزة شركسية بيضاء بلون الحصان وعلى رأسه قلبق أبيض وعلى
كتفيه برنس من نفس اللون . سار الى جانبه مربيه الحاج جيراندوق بن أداغوا ممتطياً
حصاناً أشقر اللون . ورافقهما آنذاك مئة فارس أوبيوخى يغنون أغاني المسير ، ويطلقون
وهم على ظهور جيادهم الرصاص في الهواء على عادة الفرسان إثر عودتهم من نصر
جديد .

لم يكن يوسع من لمح أولئك الفرسان وهم ماضون بهيبة وجمال أن يرفع نظره
عنهم .

من جهل أمرهم سأل عنهم : « من هؤلاء ؟ » ومن علم بحالهم أجاب
السائل : « إنه ابن حاكم أبخازيا صفر بيه في طريق عودته الى أبيه ، بعد تلقيه التربية
المناسبة لدى الأوبيوخ . فلتحل السعادة على الأمير الشاب العائد الى موطنه ، وليأت زمن

يمجد الشعب فيه اسمه .

توقف الحاج برزج بن أداغوا مرتين أثناء الطريق للمبيت والراحة كيلا يتعب ربيبه حمود بيه الصغير ، توقفاً في المرة الأولى لدى الأمراء من أسرة ريديبا ، ثم بعد ذلك لدى الأمراء من أسرة ينال إيسا . وتخللت الموائد العامرة بالطبع ذبك المبيتين ، ولم يبلغ الفرسان ليخني إلا في اليوم الثالث ليصلوا الى بيت حاكم أبخازيا صفر بيه . استمرت الولايم هناك ثلاثة أيام لبلياليها وقدمت أغلى الهدايا وأثمنها للحاج برزج بن أداغوا مربي الأمير الصغير ، ولكل المرافقين الذين بلغ عددهم مئة فارس .

حين أرادوا إدخال حمود بيه الصغير الى غرفته في بيت أبيه تذكر أمه بالرضاعة التي بقيت في بلاد الأوبيخ وبكى طويلاً بألم وحرقة . ولم تتمكن أمه الحقيقية من تهدئته مع أنها لم نال جهداً في ملاحظته ومحاولة إسكاته . وحين همّ مربيه الحاج برزج بن أداغوا بالسير مع فرسانه في طريق العودة أفلت حمود بيه الصغير من الأيدي المسككة به وحاول الوثوب الى ظهر الحصان لكي يعود مع مربيه الى بلاد الأوبيخ .

وهكذا عندما رأى حمود بيه نشاتشبا الحصان الأبيض الذي ظهر فجأة واختفى فجأة شرع يحدث مرافقيه عن طفولته والأسى يغمر قلبه بتلك الذكريات . قرر مرافقوه أن يبعدوا الحزن عنه فلكزوا خيولهم بمهاميزهم وأخذوا يستعرضون ألعاب الفروسية في المرج ، ويطلقون الرصاص من مسدساتهم ويطاردون بأحصنتهم ويصطادون التفاحات الخضراوات الصغيرة على أشجار التفاح البري ، فيرمونها واحدة تلو أخرى من الرصاص الأولى ، ولكنهم لم يتمكنوا حتى بهذا من التفريج عن الأمير . انطلق حمود بيه صامتاً من جديد يتقدم الجميع حتى بدا المرج الأخضر الواسع ، حيث شجرات الصنوبر السبع ومعبدنا المقدس الذي يحوي ضريح القديسة بيتحا . هناك حُدد - حسب الاتفاق - مكان لقاء الأوبيخ بأخيهم بالرضاعة .

اقترب الأمير حمود بيه من طرف الحرش ليرى المرج أمامه خالياً من الناس تماماً . فلم يكن بانتظاره تحت شجرات الصنوبر العتيدات الشامحات تلك أي انسان . - ماذا حدث ؟ لماذا لم يأت أحد ؟ تساءل الأمير حمود بيه متقللاً بصره في أطراف المرج ثم دفع بحصانه الى الأمام دون أن ينتظر جواباً من أحد . ولم يكذبصل الى منتصف المرج حتى تراءى له في الطرف الثاني كتلة سوداء مبهمه

المعالم تتحرك ببطء باتجاهه . واصل طريقه دقيقة واثنين ، لكي يدرك أخيراً أن من يأتي للقاءه ، نساء أطلقن شعورهن والتحفن بالسواد من رؤسهن حتى أخص أقدامهن ومشين وكأنهن في ماتم .

أسرع الأمير حمود بيه ومرافقوه فترجلوا عن خيولهم وأسلموها للحراس ليمضوا للقاء جمهرة النساء السوداء تلك وهي تتحرك باتجاههم . ساروا للقاء النساء وأخذوا يتساءلون قلقين :

- الى أين يسرن ؟ ولماذا عددهن كبير هكذا ؟ ماذا حدث ؟ ومن توفي ؟ ...
وتقترب النساء أكثر فأكثر ويرى الأمير حمود بيه أخيراً مرضعته التي سفته من حليب ثديها ، أرملة الحاج برزج بن أداغوا وهي تتقدم الجميع ، مرتدية السواد مثل سائر النساء ، مبعثرة شعرها الشائب .

حين عرفها حمود بيه هب للقاءها إلا أن العجوز أشاحت بوجهها عنه ولم ترمقه بنظرة واحدة ، حتى حين أمسى قريباً جداً منها .

سارت باكية نادبة ، وكأنها أمام شاهدة ميت تتبعها النسوة الأخرى وبشاركتها الندب والبكاء .

مضت باكية نادبة ، لا ترق ولا تلين ، ولا تعبر ابنها بالرضاعة أي اهتمام . وما لبث الأمير أن سمع بعد أن أصاح بكلتا أذنيه لذلك الندب والبكاء كلمات غمى ألا بسمعتها حتى ساعة موته :

أسمعت يا عابر السبيل عن مصيبي ؟

أسمعت كم أنا بائسة ؟

أسمعت أن من أرضعته حليب صدري ،

قد لفظ أنفاسه اليائسة ؟ ...

مات الأمير حمود بيه .

بفضاعة مات ، والأرض ستلفظه .

مسرلاً بالعار قد مات ،

وليس ثمة من يندبه . .

فقد الأويخ ربيهم ،

فقدوا أخاهم بالرضاعة . .
فقد الأبخاز أميرهم . .
فقدوه تنقصه الشجاعة . . .

وخرجت إثر العجوز من زحمة النساء الناديات أخت حمود بيه بالرضاعة . . كانت
خصلات شعرها التي تصل الى قدميها منقوشة مشعثة ، وأخذت تضرب رأسها بقبضة
بدها بقوة ، وتزعق وتصيح بحيث طغت على صوت أمها وابتلعت كلماتها :

قل لي يا حمود بيه : ماذا عليّ أن أفعل ؟
ماذا على أختك البائسة هنا أن تأمل ؟
أبعقل أنك بعث أرض الخيز والملح .
لقاء مال وفضة القيصر ؟
أية ميتة قد متّ ؟ نجعل أن نتصور .

بكت النساء بصوت تعالي باستمرار ووقف الأمير حمود بيه بينهن حاني الرأس دون
أن يأتي بحركة وكأنه تحول الى حجر . لقد رأى في عصره الكثير من البؤس والشقاء ولكن
مثل هذا البؤس ومثل هذا العار لم يلحقا به من قبل ، خلال حياته كلها .
فبعد أن أعطى الحاج جيراندوق الموافقة على قدوم الأمير الى أرض الأوبيخ عمل
على ألا يستقبلوه كأخ بالرضاعة بل كعدو لدود .
أخيراً خرج حمود بيه من الطوق ، واندفع من وسط جمهرة النساء إلى حصانه فركض
إليه وقفز الى السرج .
- ابك يا أمي التي أرضعتني - صرخ الأمير وقد غصّ بدموعه - ابكين يا أخواتي
بالرضاعة .

إني ربيكن ، أبكي معكن ، ابكين ، ابكين الآن لأنكن لن تتمكنن من البكاء فيما
بعد . ابكين لأن بلاد الأوبيخ قد قتلت . أما أنت يا حاج جيراندوق ، الذي تضحك
الآن لأنني أبكي أنا . . . فاذاكر أن لعنة شعبك ستحل على رأسك أنت وليس على رأسي
أنا .

بعد أن صرخ الأمير حمود بيه بكلماته تلك عبر الدموع التي لم يتجمل منها ولم
بمسحها عن وجهه ألهب ظهر جواده بالسوط وانطلق كالمسحور عبر المرج وكان بؤده أن
يتخلف بأقصى سرعته ، بعيداً عنه خلف ظهره بكاء وحذب النساء . وانطلق مرافقوه
أيضاً كالمسحورين في إثره متجاوزين واحدهم الآخر .

شاردين بن علو

في ذلك اليوم المر كالعالم بالنسبة لأسرتنا كنا جميعاً في المنزل عدا أخي الأصغر
الذي واصل قتاله مع الروس ولم نعرف أين هو وماذا حل به . وكان أبي حاميرزا قد
أصيب بجرح في يده اليمنى من ثلاثة أيام . . . تفحّج الجرح وأخذ يؤلمه ، ولكنه لم يرغب
في الراحة والرقود ، بل نهض منذ الصباح ووضع على جرحه عشياً مخففاً للألم وربطه بيده
ثم جدّ السير ذهاباً وإياباً لا يتخلد الى الهدوء سواء في البيت أو في فناء الدار . أما أمي
وأختاي فقد ذهبن عند الصباح الى بيت الجيران فانضممن الى نسوة بلدتنا كافة وخيطن
الجوخ لمحاربينا ، ثم عدن الى البيت قبيل منتصف النهار لإنهاء أعمالهن المنزلية .
وصلت الى البيت لأجد الجميع بانتظاري . فخلال بضعة أيام على التوالي تفرغت
للعمل حارساً شخصياً ملازماً كل الوقت للحاج جيراندوق ، أكان ذلك تحت وأبل
الرصاص أم في العراك بالأيدي .
وجب أن يبدأ اليوم اجتماع قادة الشعب لتقرير ما ينبغي القيام به لاحقاً . انطلقنا
معاً على ظهور الخيل الى الاجتماع ، وسُمح لي بالمبيت في الدار .
آل ذلك اليوم البارد الى المساء ، أما الثلج الذي تساقط بكثافة منذ الصباح الباكر
فقد توقف تماماً حين اقترب من فناء دارنا ربيب جدتي ، أخ أبي بالرضاعة شاردين بن علو
على ظهر بغل منخفض الصهوة قوي الجسد .
سبقت الآخرين لأمسك له بالركاب فينزل عن بغله وأحاطت به في اثري أسرتنا
كلها .

- كيف جرحك ؟ سأله شاردين بن علو أبي .

- لا يستحق السؤال عنه - أجاب والدي وقد اعتراه الحجل ومنعه من الاعتراف للضيف بأن الألم يعذبه بل وأخفى يده خلف ظهره .

- ياأخانا الغالي ، ياأملنا ، فليرتد عنك كل شقاء وبأس ومرض وليأت إليّ - قالت أمي ذلك ، ودارت حول شاردين - حسب العادة - ثلاث مرات لكي تبعد عنه الأمراض ثم قبلته في صدره . وكررت أختاي خجلأوين إثر أمي كل ماقامت به .

دخل شاردين الى البيت ودخلنا وراءه . ساعدته في خلع برنسه الصوفي وقلبه . نفضهما من الثلج وعلقهما على الحائط .

لم يكن شاردين بن علو طويل القامة بل عريض المنكبين قوي البنية إلا أن خصره تكور من زمن بعيد - لكونه نهياً أكولاً لا حدٌ لشراهته - والتفت نهاية لحيته السوداء الطويلة كالخواتم على صدره القوي .

وضعت الوالدة الوسادة الجلدية - المخصصة لدينا للضيوف الكبار - على مقعد خشبي قرب الموقد المتوهج وجلس عليها شاردين بن علو .

أما نحن الأصغر سنأ فلم نفكر بالطبع في أن نجلس في حضرته ، بل إن الوالدة والوالد بقيا واقفين كل الوقت خلال وجود قريينا عالي المقام هذا مع أنها أكبر سنأ منه .

قامت الوالدة - كما هي العادة دائماً عندما يأتي إلينا شاردين بن علو - بتعليق القدر بالسلسلة فوق النار لإعداد المايغا . وأشار لي الوالد بعينيته : « أن أذهب وأذبح الحروف الذي علف خصيصاً مثل هذه المناسبة » . ولكن شاردين بن علو لاحظ نظرة أبي فأوقفني قائلاً إنه في عجلة من أمره وليس لديه وقت للبقاء وتناول طعام العشاء معنا .

- لقد علمت أنك جريح - قال ذلك لأبي - ولهذا قررت أن أزورك وأزور أسرتهك . وعدا هذا فإني أريد أن أتحدث معكم بأقربائي . إننا نعيش في وقت عصيب وليس ثمة أسرة أخرى أقرب إليّ منكم . لقد جئت لكي أتشاور معكم . تحدث هكذا بينما كنت أسمع وأتساءل : إلام يسعى ؟ هل إلى خير فعلاً ؟

- نعم - قال أبي حاميرزا . - هذا صحيح فلم تمر علينا نحن الأوبيخ أوقات صعبة كهذه قبل الآن . ليس أسرتهنا فحسب بل إني أعرف أن كل من هو تحت حمايتك في بلدتنا أو القرى الجبلية الأخرى يعقدون الأمل عليك أنت . إننا سعداء لأنك اخترت موقد بيتنا لتجلس معنا قربه في هذا الوقت المضطرب .

أخرج شاردين بن علو من سترته سيجاراً أسود، كنا قد رأينا مثيله معه سابقاً عدة مرات ، فهو غيظ مما يحضره له التجار الأتراك . أخرجت من الموقد فحمة متوهجة حملتها له فأشعل بها سيجارة قائلاً :

- على الأرجح أنكم تعلمون أن الحاج جيراندوق قد جمع المجلس اليوم ثانية لكي يقرر ماذا يجب على الشعب الأويغيني أن يفعله . لا أدري كم سيستغرق اجتماع المجلس إلا أنه لم يتخذ بعد أي قرار ، وطالما أن هذا المجلس مستمر في الإنعقاد فإني أريد أن أحدثكم بماذا أفكر أنا نفسي . إني أفكر على النحو التالي : لن يسمح لنا جنرالات القيصر بالعيش هنا على أرضنا بعد الآن .

إن المعارك تصطلي أعلى فأعلى في الجبال وأقرب فأقرب الى هنا . أليس من الأفضل لنا أن نفكر بطريقة ما للنجاة قبل أن يغزوا فينا أسنة الحراب ؟

السلطان التركي - ولي الله على الأرض - سينقذنا إذا وافقنا على حمل جنسيته . لن يقوى أحد على حمايتنا بعد الآن إلا السلطان بقدرته الجبارة . ضافني قبل أيام تاجر تركي من استنبول . إني أعرفه من زمن بعيد وأثق به . فهو ليس غنياً فحسب ، بل إنه على صلة مع المقربين الى السلطان . وحسبها فهمت فإنه جاء في هذه المرة لا للتجارة معنا كالمعتاد بل لمأرب أخرى . حدثني عن جيراننا الناتوخاج الذين انتقلوا إليهم في تركيا . لقد بقي السلطان عند كلمته التي أعطاها للناوخاج . فأسكنهم الأراضي التي اختاروها بأنفسهم . وتبين أن الأماكن التي انتقلوا إليها تمثل جنة حقيقية على الأرض ، فالبرد هناك لا يشند والحر لا يجتد . الطقس عندهم دائماً كما هو عندنا في أواخر الربيع ، وينمو هناك أيضاً كل ما يحتاجه الإنسان . إذا طار طائر حاملاً حبة من الذرة الصفراء في منقاره فألقى بها على الأرض هناك نأ منها بعد شهر واحد ساق ذرة فارغ الطول يترنح بالعرانيس الناصجة . لقد حدثني بأنهم يستخدمون الجواميس هناك للفلاحة فقط فلا يجلبون الجاموسة . وهناك شجرة حلبيية تنمو في كل مكان تماماً مثل شجر الحور عندنا : تقترّب منها وتنشق جذعها بالسكين فينهمر الحليب الكثيف من الشق برغوته الفواحة . وإذا أردت أن تصنع منه لبناً حامضاً فما عليك إلا أن تقطع ورقة من تلك الشجرة وتلقي بها في الحليب ليصبح بينا أنت في طريقك الى البيت لبناً حامضاً كثيفاً لا يمكن قطعه إلا بالسكين . أما اليقطين فينمو هناك كما قال لي بأحجام هائلة ، لا يمكن قطعه حتى

بالسكين ، بل يجب تقطيعه بالفأس . حدثني بمعجزات غريبة حتى أني لم أصدق في البداية ، ولكنه أخرج من جيبه رسالة كتب فيها كل هذا . بعث هذه الرسالة أحد الناتوخاج الذين رحلوا الى تركيا ، اسمه مراد ، وأنا أعرفه من زمن بعيد وكنت ضيفه كما ضافني بنفسه ، وعلى الأرجح أنكم أنتم أيضاً سمعتم عنه . هاهي الرسالة - قال شاردين بن علو وأخرج من الجيب الداخلي ليزته الشركسية ورقة مطوية عدة طيات . أمعن النظر فيها برهة ثم فتحها وأرانا إياها جميعاً .

ولكن من مَنّا بوسعه قراءة تلك الرسالة ؟ لم نحظ آنذاك لا في أسرتنا ولا في كل قرينتنا الجيلية بإنسان قادر على فك حروف أية لغة كانت . بل وعلى ما اعتقد أن أخ أبي بالرضاعة شاردين بن علو كان يميز بصعوبة باللغة بين الأحرف . عرض شاردين الرسالة أمام ناظرينا للحظة ثم مالبت أن أخفاها ثانية وتابع سرد ما كتبه له صديقه مراد مغدقاً في المدح على هذا الإنسان الذي لم يسمعنا عنه كلمة واحدة من قبل .

- عرف هنا كشخص عالمي المقام لدى الناتوخاج . أما هناك في تركيا فقد غدا ذا منصب كبير ، وأمسى مقرباً من الوزير العظيم بالذات . يوسع التاجر التركي بالطبع ألا يقول لي الحقيقة ولكن أعقل أن يخفيها عني ابن جبالنا مراد الذي زارني في بيتي ! . . إنه يكتب لي قائلاً : إذا وجدنا قوانا كافية للخروج من جهنم هذه فإننا سنصل الى الجنة مباشرة . ويضيف أنه إذا تمكنت أنا مع أتباعي من الوصول الى شاطئ الجنة في تركيا فإن حياة سعيدة ستكون بانتظارنا هناك . هكذا يكتب لنا منادياً بإلحاح شديد . ماذا بوسعنا أن نتظر هنا ؟ أن يأتي الجنرالات الروس ويرحلونا الى كوبان ؟! البرد يهلكنا هنا في الفصول الشتائية الباردة كفصلنا هذا ونحن بجوار غاباتنا الأليفة ، فكيف سيكون حالنا في تلك السهوب الجرداء القاحلة ؟ لا بد أننا سنلاقي حتفنا من البرد كالذباب تماماً ثم نحرم من ديننا ويحسد أبناؤنا . كما سيضطّر كل منا إلى شراء قطعة أرض له لأن الاقطاعين في روسيا لا يهتمون الآن بفلاحهم ، وقد انتزع هذا الحق منهم . إذا ، بأية نقود ستشترون هناك أرضاً ؟

وإذا عجزتم عن شراء أرض ، فكيف ستعيشون بدونها ؟ أحي بالرضاعة حاميرزا ، لقد ولدت أنا وأنت من رحمين اثنتين لا من رحم واحدة ولكننا رضعنا من صدر واحد . لقد بحث لك بكل ما أفكر به وأريد أن أعرف كيف تفكر أنت ؟ .

هكذا توجه شاردين بن علو الى أبي الذي ظل واقفاً أمامه وقد مط قامته كشجرة جافة ، ممسكاً يده الجريحة بالسليمة .

عمّ هدوء مهيب يسمع فيه بوضوح شديد صخب ألسنة النيران الجائعة وهي تلتهم الأغصان الحافة في موقدنا . ومع أن شاردين بن علو تكلم عن المعجزات ووعدنا على الأرض فلم يكن لدوي الرعد فوق رؤوسنا - في أعتى فصول الشتاء - القدرة على صعقتنا بتلك الدرجة التي صعقتنا بها كلماته تلك .

صمت أبي طويلاً حتى جفّ حلقي وأنا أتقرب جوابه وبدا لي أنني أيضاً فقدت لساني . وسمعت بصعوبة بالغة كلمات أبي الأولى - أخذ يتحدث بهدوء وببطء مابعدهما هدوء وبطء :

- ياربيينا - أنت أملنا ، أنت أكثر حكمة منا ، وقد شاهدت أكثر منا ، وتعرف أكثر منا كيف ينبغي علينا العمل والتصرف . حيثما ذهبت أنت نمضي معك ونخدمك كما سبق وخدمناك . ماذا عليّ أن أقول لك أيضاً وأنا لا اتقن إلاّ الحراثة والبذار ؟ ولكن إذا سمحت لي فإن بوذي أن أسألك : ماذا قرر المجلس ؟ هل سيمضي الأويخ كلهم في هذا الطريق الذي تريدنا أن نعبه معك ؟

- لم يتخذ القرار بعد ، ولا أدري كيف سيتصرف الأويخ كلهم ، ولكن ليس لدي أناس أقرب إلى منكم ، وقد أتيت لأحدثكم عن قراري الخاص .. أجاب شاردين علو ، ورأيت أنا قلقاً يشوب عينيه .

- إذاً ، أليس من الأفضل بأنحانا ، ياملنا - قال أبي هامبرزا - أليس من الأفضل أن نقسم المصير المشترك نفسه ؟ ففي الوقت الذي يجارب فيه بعضنا ولا يضمنون بقواهم يلقي الآخرون بالسلاح ويسبقون الجميع الى ماوراء البحر ؟ كيف يمكننا أن نكون السابقين الى اتخاذ قرار باطفاء مواقد سلفنا بأيدينا ، وأن نكون الأوائل في ترك قبور آبائنا وفراق قديستنا بيتحا ؟ وماذا بالنسبة للأرض ؟ أسنحصل في تركيا على أرض أخرى عوضاً عن هذه التي نهجرها هنا ؟ ألن يرغمونا على شرائها هناك .

لم يته والدي حديثه بعد وأراد قول شيء آخر أيضاً ، لكن أمي قاطعته بعويلها : - من أين لي أنا البائسة أن أعلم بهاسيحيق باخوتي في تسييلدا ؟ كيف سأعلم بذلك وأنا أتركهم هنا وأمضي الى ماوراء البحر ؟ إنني أحسد أولئك الذين ماتوا ولم يشهدوا

هذا اليوم - أخذت أمي تبكي بمرارة ، أما أختاي الواقفتان خلفها فقد غرزننا رأسيهما في ظهرها ، وأخذتا تبكيان أيضاً .

لم تحب أمي البكاء أبداً . سمع شاردين بن علو بكاءها هذا لأول مرة فأخذ يؤنبها قائلاً :

- يا أختاه ، لقد كنت تبهرين الرجال دائماً بشجاعتك . فلا يجدر بك أن تسكبي الدمع الآن في هذه اللحظة الحرجة . إن إخوتك التسييليين رجال حقيقيون ، ولن يقبلوا بالعيش تحت نعال جنرالات القيصر . فهم حسب ما أعلم يتنظروننا ، أو أنهم أبحروا الى تركيا بعد أن طال انتظارهم لنا . إنك سترين إخوتك في القريب العاجل أصحاب معافين في الأرض المباركة . أما أنت يا حاميرونا - والتفت شاردين الى أبي - فلا تقلق : لن يرغمك أحد على شراء أرض هناك . هذا ما أقوله لك أنا شاردين بن علو . أما هنا فمن يتعهد لنا بأن الجنرالات سيرحلوننا الى كويان فقط وليس أبعد ؟ هكذا يقولون لنا مادام السلاح في أيدينا . ولكن من سيمنعهم من ترحيلنا حين نفقده لا إلى كويان بل الى سيبريا الباردة مباشرة ثم يجرموننا هناك من ديننا ويعمدون أطفالنا ؟
قاطعته في تلك اللحظة دوي المدافع فقد تناهى إلينا الصوت من بعيد ، من عند الشيطان . وصل الدوي إلينا بغتة دون توقع وكان الشيطان بعينه قد قفز فجأة من باطن الأرض قرب دارنا .

- كيف تقف هادئاً هكذا بخدشك الوضيع ، تاركاً ابنك هناك عرضة للسقوط صريعاً بهذه المدافع ؟ - سألت أمي ناسي مستغربة .

حين سمعت أمي دوي المدافع لم تعد تبكي ، بل أخذت ترمقنا جميعاً نحن الرجال بنظرات غاضبة .

- ما بك ؟ نهرها أبي - اصمتي ولا تكوني عجولاً .

وصمتت أمي ، ولكنها واصلت نظراتها تلك إلينا ، فوددت لو أغور في الأرض وأتوارى عن الأنظار . أما دوي المدافع فكنا نسمعه يهدر عالياً من هناك من الشيطان .

- إذا كنتم لا تريدون المسوت فإني أنصحكم بالاستعداد ابتداء من هذه الليلة للرحيل - قال شاردين بن علو ذلك ثم التفت إليّ : لا تنسى يا زاورقان أن العديد من الشباب قد تلهفوا كي يصبحوا حماة شخصيين للحاج جيراندوق ولكنك فزت بذلك أنت

بمساعدي الشخصية . لقد أردت تفريتك منه لكي تصبح سلاتك نبيلة ، ولكن البؤس والشقاء حالاً دون ذلك إذ تعاقبا واحد إثر آخر على رأس الأوبخ . لقد قربتك بنفسني من الحاج جيراندوق ولكنني أقول لك اليوم يجب أن تبعد عنه . إنه يخفي سره حتى الآن ، ولكنني أعرف أنه يستعد أيضاً للإبحار الى تركيا مع كل أقاربه ومواطنيه . وأنا لا أريد لحفيد مرضعتي أن يخدمه كعبد في الطريق لأكحام شخصي في الحرب . عليك الآن أن تتركه وتعود إلي - قال شاردين ذلك وكأنه يغرر نصل خنجره في قلبي .

- إنك لا تقول الحقيقة - اعترضت أنا - سيقاقل الحاج جيراندوق حتى الدقيقة الأخيرة من حياته . فهو ليس جباناً . لن أحتأ أبداً بقسمي ولن أتحمل عنه .
- ماذا حدث لك ؟ - قاطعني شاردين - لا يعجبني كيف تتحدث إلي .
ولكن ذلك لم يوقفني عند حدتي :

- أرجو المعذرة لأنني فتحت فمي أمام قريب عالي المقام مثلك - قلت أنا - ولكن كيف لي أن أفهمك ؟ ألم أسمع صوتك أنت حين أعلنت الغزوة ؟ ألم تذهب أنت في المقدمة لخوض العديد من المعارك ؟ ألسنت أنت الذي حدثنا مراراً وتكراراً - سواء قبل المعركة أو بعدها - بأن كل شهيد في الحرب المقدسة ضد الكفرة سيدخل الجنة مباشرة ؟ أما الآن فيبدو أن من الممكن دخول الجنة برمي السلاح وأن هذه الجنة هي تركيا وأنت تحاول إقناعنا بالذهاب الى هناك ، بم فكرتم في السابق ، أنت وأمثالك من الرجال الكبار المبجلين ؟ إذا أمسى الركض الى الجنة ممكناً هكذا وبكل بساطة فمن سيضمن هناك في السماء تلك الدماء المسفوحة في المعركة ؟ من سيحمل الى الجنة أرواح أولئك القتل هدراً وهتافاً ؟ أما أنت يا أبي فلماذا ريبتنا رجالاً ؟ لماذا علمتنا أنه لا ينبغي علينا أن نخاف الموت بل أن نحمي بيتنا .

لم أدر ماذا حدث لي ولكن لم يعد بمقدور شيء على الاطلاق أن يردعني مع أبي لم أجرؤ حتى ذلك الحين على رفع صوتي ليس بحضور قريبنا الذي كنا نقدسه كالرب ، بل حتى بحضوره أبي فحسب .

- اسكت - قاطعني أبي - إني أتحمل منك وعنك . لقد رفعت صوتك عالياً حتى بالنسبة لأذني . سربلتنا بالعار وتحدثت بقلة أدب مع قريبنا الغالي شاردين بن علو . هل طاب له أن يسافر إلينا من بعيد في مثل هذا اليوم الشتوي البارد لو لم يجينا - نحن

اليسطاء الأغبياء - حياً صادقاً ؟ !

أسكتني الوالد بهذه الكلمات وتوجه إلى شاردين بن علو:

- ساعنا لأننا لم ندرك على الفور كيف ينبغي أن نجيبك. إذا كنت أنت واثقا من أن علينا أن نسافر معك إلى تركيا وأن حياة جيدة بانتظارنا هناك فإن كل أسرتي ستسافر إلى هناك ولن نفرق عنك وأنت الأقرب إلينا وحامينا.

قال والدي ذلك وهو واقف أمام شاردين بن علو خنوعاً كأنه مذنب في شيء. لقد خشي أن يكون قربنا الأثير قد شعر بإساءة إليه. إلا أن ضيفنا على عكس ذلك - ازدادت به الحيوية ونهض عن السرير الذي جلس عليه وضرب بالسوط حذاءه ثم تحدث وكأن أحداً منا لم يفكر في مناقشة الأمر منذ البداية:

- عليكم الآن دون تضييع الوقت أن تبتدؤوا بجمع أشياءكم استعداداً للسفر. فكروا بالطعام أيضاً. سأذهب الآن، علي أن أستعد أنا أيضاً. وإذا احتجت لمساعدتكم فسأخبركم بذلك. أما أنت يا حاميروزا فمر على كل بيوت أقاربنا وجيراننا إذا شعرت بأن جرحك، حمداً لله ليس خطيراً. لم تصبح عجوزاً بعد ولكنهم يحترمونك جميعاً. فليسمعوا من شفاهك أنت ماستقوله هم على لساني. ليكفوا عن سفك دمانهم هدراً وهباء منذ الآن، وليستعدوا للإبحار وليكونوا مطمئنين على كل شيء. أكدّهم أن شاردين بن علو سيبقى في كل مكان معك ومعهم. أما إذا جاءهم من يسعى لإقناعهم بالإنقال إلى كوبان فليرفضوا.

وهكذا بعد أن قرر شاردين بن علو كل شيء نيابة عنا امتطى بغله ورحل على

عجل.

جرت العادة في ذلك الزمن أن يمتطي نبلاؤنا إذا مضوا في موكب جماعي أو لزيارة نبلاء آخرين خيولهم الأصيلة. أما حين يتوجهون إلينا نحن فلاحي المنطقة فيفضلون ركوب البغال. فمن الأسهل ركوب البغال عبر الدروب الجبلية وخصوصاً إذا لم تكن هناك دواعٍ للتفكير بالمظهر الخارجي.

انطلق شاردين بن علو على ظهر بغله ووقفنا نحن بعد وداعه واجمين ننظر بسكون

إلى النار، وكأننا عدنا لتونا من جنازة.

لم تطبخ السالدة المسالينا ولم تعلق القدر فوق الموقد، ولم تدخل الدجاجات إلى أقفاصها. بل جلست صامتة تدرفت الدموع. ولم يخرج الوالد للحلب الأبقار بل ركن إلى الموقد الذي أخذت ناره تخمد، وغرق في تفكيره. . . نفصد جيئه عرقاً، وأخذت قطراته تتجمع من حين لحين ليمسحها بنهاية قفلسوته.

حين أخذ كلبنا يعوي في فناء الدار وعلى الأغلب بسبب فرعه الواضح من هدير المدافع الذي وصل إلينا مع هبوب الرياح، لم يخرج والدي، ولم يسكت الكلب، أو يطرده مع علمه اليقين بأن عواء الكلاب قاتل شر.

وهاجت الأبقار في الفناء خائفة تدعوننا إلى حلبها. أما الديك فلم ينتظر طلوع الصباح بل أخذ بالصياح منذ المساء وكأنه يريد أن يعلن للملأ كافة في الأوول* أن رب الدار يقدم على إخماد موقده.

جلست مقابل أبي وأخذت أنظر إلى حائط كوخنا المضفور من الأغصان ثم إلى السقف الذي اسودّ من الدخان، ثم إلى السلسلة المعلقة فوق الموقد والتي قدّها جدي بنفسه. بدا هذا كله مألوفاً منذ الطفولة ولكنه أمسى الآن جميلاً وخبيراً بشكل خاص ومن المؤسف جداً تركه كله هنا.

بالأمس فقط تصورت على عاديّ أي سأتي في الحريف المقبل بفيلديش، ابنة جيراننا إلى هذا البيت. لم تسكن وأهلها قربنا تماماً بل في أوول آخر. لقد تقابلنا صدفة في درب الغابة الذي يصل بين أوولنا وأوولهم. كنت أعلم أن أسرتنا على دراية بأمرنا، وأنها تستعد للعرس المقبل. إلا أي أعجز الآن عن التصور. فكيف سأتي بها إلى بيتنا وليس لنا بيت.

- ثم هل سيقام عرسنا حقاً؟ - كنت أجلس وأنساءل وكلما أطلت الجلوس والتفكير بهذا الأمر ازدادت بي الرغبة لاستعجال طلوع الفجر ثم امتطاء الحصان والمضي إليها على جناح السرعة.

باتت أُمي تتهدد بعمق من حين لآخر، والدموع تفرقها، وشفتاها تتمتان باسم أخي الأصغر. وأختاي أيضاً تزفران أو تكيان من حين لحين. لم أدر كم من الوقت كنا

(*) أوول : قرية جبلية قفقاسية صغيرة .

جلسنا أيضاً لو لم ينبح الكلب فجأة. لقد اقترب من بيتنا شخص ما. ما إن تحطبت عتبة الدار حتى رأيت أخي، يجره أو على الأصح يحمله رجلان. سحبناه إلى البيت وأرقدناه على المصطبة. كان مدمى الجسم خائر القوى، وارتمت أمي وأختاي عليه صائحات باكيات. رجانا أحد الرجلين ألا نخاف عليه فجرحه ليس محبباً - كما قال - لأن إصابته جاءت في وركه ويمكن معالجته وشفائه، أما هما فمضطران للإستعجال إلى مكان ما. ودون أن بضيف شيئاً آخر خرج الرجل مع رفيقه.

أمر الوالد بإضرام النار لنحصل بسرعة على ماء مغلي، وخلعنا أنا وأبي أردية أخي من عليه. نزف أخي ماتا الكثير من دمه وانهارت قواه، ولكن جرحه لم يكن خطيراً على الرغم من كبره وسرعان ماعالجه الوالد بخفة وإتقان مستخدماً خبرته ومهارته الواسعتين في هذا المجال اللتين اشتهر بهما بين جيراننا. أوقف أبي نزيف الدم وضمّد الجرح بشكل جيد ثم سقى أخي أولاً شرباً من الماتسوني الممزوج بنفس القدر من الماء. ثم أطعمه عصيدة سائلة مع العسل. وبعد كل هذا فقط جلس قربه. ثم فتح فمه للمرة الأولى خلال كل هذا الوقت وقال:

- لقد رفع الله بك وينا، وعدت إلى البيت حياً.

- بل الأفضل لي لو أبي لم أعد - قال أخي الصغير ماتا وهو يسترجع أنفاسه وكان الهواء أسمى غير كاف له - ضاع كل شيء يا أبي كل شيء ضاع. لقد أبادونا. الأرض هناك حيث قاتلنا مفروشة بجثث قتلتنا. لقد بقينا قلة من الفرسان على قيد الحياة. نفذت ذخيرتنا ونضب بارودنا. انقضضنا صائحين هائجين على فصيل من الجنود المعادين، فهبت النار علينا وحولنا كالفرن حتى أخذ الدخان ينبعث من عفرات جيادنا. إلا أننا أفلتنا من هناك وبلغنا شاطئ البحر. وفجأة أصابت طلقة وركي وقتلت حصاني. سقطت تحتة وهمد بثقله عليّ. رأيت وأنا راقد على الأرض آخر الفرسان الذين بقوا على قيد الحياة مطاردين لبلوغ الجرف الساقط ثم قفزوا من فورهم إلى البحر مباشرة لبيتلعمهم البحر الجائع مع خيولهم. أين رفاقي؟ لماذا لم تقتلني الرصاصة؟ إنني أرقد الآن قرب هذا الموقد جالباً العار لشيخوختك ولا أكثر.

- اهدأ، - قال أبي - لا يقتل الجميع في معركة واحدة فهناك من يبقى حياً ليقاتل أو

يقتل في موقعة تالية.

أخذ أبي يمسد رأس ماتا وهو يقول هذه الكلمات. ثم لم يعد يقول شيئاً. بل بقي يمسد فقط. وغرق ماتا في النوم. جلسنا جميعاً حوله، ولم نتم حتى علت الشمس فوق القمم الثلجية.

أصبح بيتنا مليئاً بالأحزان، أما الشمس فأخذت تضيء كما في العيد. أمر الوالد أمي وأختي بإعداد طعام الافطار ثم أرغمنا جميعاً على الأكل حتى الشبع. . وأخي أيضاً. . فقد استيقظ أخيراً وشعر بتحسن كبير عن الأمس.

ارتدى أبي أفضل مالدیه من ثياب، وجلس وراء الطاولة في مكان الصدارة منها، وأخذ يجيل النظر فينا واحداً إثر آخر.

- عليكم جميعاً رجالاً ونساءً أن تتهاكوا وتصمدوا. لم نفكر في يوم من الأيام أن هذا سيحل بنا. إلا أن أختانا بالرضاعة شاردين بن علو محق: فإننا سنموت جميعاً إذا بقينا في هذه الأرض. علينا أن نبحث عن أرض لا حرب عليها، وأن الألوان فعلاً للإستعداد للرحيل.

- الرحيل؟ - إلى أين؟ عم تحدثت؟ - صاح أخي وهب جالساً في سريره مع أن الألم اعتصره للحظة، فيما سامنا طوال الليل ألوان العذاب كان بالنسبة له خيراً جديداً.

- اهدأ. سنبحر إلى الأرض المباركة، أرض كل المسلمين، إلى تركيا، سيقبلنا السلطان مواطنين لديه، وسيعطينا أرضاً. وقد وعدنا أخونا شاردين بن علو بحمايتنا في تركيا وأثناء السفر إليها. لم يبق أمامنا إلا الاستعداد للطريق والسير معه، - قال أبي بإذعان شديد وكأنه لم يبق لنا فعلاً مانفعله.

- ماذا تقول؟ - زعق ماتا حين سمع ذلك وجلس ثانية وقد رفقت عيناه من الألم. - ماذا بك؟ قبل أسبوع واحد أرسلتني لقتال الروس. قبل ثلاثة أيام لا أكثر جرحت. تذكر عدد المعارك التي خضتها. أحصي عدد الندوب في جسمك.

- ارقد، فأنت مغموم، - قال أبي، وأجبر ماتا على الرقود. - لا ينبغي لك أن تصيح. إني أذكر جيداً كل ندوب جراحي ولكننا إذا واصلنا القتال فلن يبقى منا نحن الأوبخ أحد على قيد الحياة.

- لا أؤمن أن شعبنا كله يفكر هكذا - قلت أنا لأبي - لا أؤمن أن قائدنا الحاج جيراندوق قد ألقى السلاح. لا أؤمن أننا سنسعد إذا هربنا إلى تركيا. لا أتق بأحاديث



شاردين بن علو، لا تخدع نفسك يا أبي.

جهدنا أنا وأخي ماتا واحدا إثر آخر في إقناع أبي بالعدول عما طلع به شاردين بن علو. جلس أبي منصتاً إلينا فلا يناقش ولا يوافق. صمت طويلاً، ثم أخذ عكازه. والتفت إلينا وهو في عتبة الدار وقال:

- حسناً، سننظر قرار الشعب. توجه يازاورقان إلى الحاج جيراندوق وابق حاميه الشخصي. طالما أنه جمع المجلس بالأمس فإن عليهم أن يقرروا شيئاً ما اليوم أو غداً - سامر على الجيران. لقد وعدت بإبلاغهم برغبة شاردين بن علو في انتقاهم معه إلى تركيا. سأخبرهم بذلك وأسمع ماسيقوله كل منهم.

- لا تذهب يا أبي - صاح ماتا وكاد يهب في إثر أبي - لا تذهب. كيف تستطيع، في الوقت الذي يحارب فيه الآخرون هناك حيث لاتزال المدافع تدوي حتى اليوم، كيف تستطيع أن تمضي من جاز لآخر لتقنعه بترك الأرض التي مازالت الدماء تسفك من أجلها.

- اسكت. - صاح أبي.

- إنه سيسكت، ولكنه محق، فلا يجوز لك أن تذهب إلى أي مكان يا أبي - هكذا تدخلت أنا.

- فلأمت أنا ولكنك لن تذهب - صاح ماتا ورمى بكل ما كان مغطى به، ووقف مترنحاً كأنه بتر من ساقيه وحمد قبل أن أهفو إليه غائباً عن وعيه.
ارتجت أُمِّي وأختاي بإثري إليه. والتفت أبي خارجاً من البيت لا يبالو على شيء.

المجلس الأخير في البيت الكستنائي

الاجتماع العام - أو كما اعتدنا أن نقول في تركيا فيما بعد المجلس* الذي سير أمور

(*) المجلس: (عن العربية) تستخدم بنفس المعنى في تركيا.

الشعب في بلاد الأوبىخ - كان يتألف من ثلاثين شخصاً وممثلين اثنين عن قبيلتين أبخازيتين: الساذرية والأختشيسوغ وكانتا في تلك الأزمنة مواليتين لنا أكثر من ولائهما للأبخاز.

قسمت بلاد الأوبىخ إلى أحد عشر قسماً وشابه ذلك الولايات*، التركية. مثل كل حاكم منطقة في المجلس. عن قسمنا نحن كان شاردين بن علو. ثم إلى جانب هؤلاء دخل نصاب المجلس شخصان آخرا: شيخنا الأعظم سحت قري وموسى الذي بدا لي عندها أكبر العلماء أما الآن فيبدو لي بكل بساطة أقلنا أمية وأكثرنا علماً نحن الجاهلين. واطب موسى على تسجيل كل ما يقرر في اجتماعات المجلس. لم أسمع صوته أبداً. فمن عادته أن يجلس حاي الرأس بهدوء وصمت وراء طاولة مثلثة الشكل عليها الكثير من الريش. اعتاد أخذ هذه تارة وتلك تارة أخرى. يكتب من اليمين إلى اليسار بأحرف عربية كل شيء بالترتيب دون أن يسهو عن أمر. جرت اجتماعات المجلس عادة في بلدة ميتخاس حيث يعيش الحاج جيراندوق وسلالته التي ينتمي إليها برزج. ينعقد المجلس في الصيف تحت ظلال أشجار الصنوبر الكبيرة المنتصبة على شكل نصف دائرة. أما في الشتاء ففي بيت بني بجهد جماعي من لب أخشاب الكستناء.

في هذا البيت الكستنائي بالذات اتخذ ذلك القرار الخطير بنزوح الأوبىخ إلى تركيا وبحريرة ذلك القرار أميت أنا الإنسان الوحيد والآخر الذي يتحدث بلغة الأوبىخ. حدث ذلك البلاء في البداية المبكرة للربيع. حل صقيع شديد عشية ذلك اليوم وهطل مطر غزير جداً في ليلته، بحيث ملأت الثلوج الوسخة الذائبة حتى الصباح الوديان كلها. ثم إثر توقف المطر ازرققت السماء وصفت. ولكن بينما سرنا برفقة الحاج جيراندوق إلى البيت الكستنائي أخذ المطر والثلج يتساقطان علينا من جديد ونحن في الطريق.

لم يكن لأحد من الناس في مثل تلك الأيام أن يخرج أنفه إلى فناء داره، بل كل يفضل الإصطلاء بناء موقفه في بيته. أما في ذلك الصباح فقد اكتظ المرج بمئات الناس المحيطين بالبيت الكستنائي. بدت وجوههم الحزينة شاحبة وكأنهم في جنازة حقيقية.

(*) ولاية: عن العربية بنفس المعنى.

ترجل الحاج جيراندوق قرب البيت الكستاني . وكان أعضاء المجلس الآخرون بانتظاره أمام الدار فدخلوا بإثره . إني أذكر جيداً كل ماجرى هناك داخل ذلك البيت الكستاني وسأحدثك به بالتفصيل . جلس الحاج جيراندوق منعزلاً عن الجميع في كنية كبيرة وجلس الآخرون إلى يمينه ويساره على مصاطب طويلة . ووقف وراء ظهور هؤلاء من أسميناهم «بالشخصيات ذات العقول النيرة» لم يتم هؤلاء إلى الذوات بل اشتهروا في أوساط الشعب بأحاديثهم الحصيفة ونصائحهم الحكيمة . جلس بينهم صلاح حارس قديستنا بيتحا . كان الحاج جيراندوق رئيس المجلس المعترف به من الجميع خلال سنين عديدة وحق لي كحاميه الشخصي أن أتواجد في البيت الكستاني خلفه عن بعد يسير .

آخر من دخل البيت الكستاني في ذلك الصباح هو الشيخ سحت قري . مشى بعمامة الضخمة مبطناً خطأ ، حذراً في مشيته وكأنه يحمل على رأسه قدراً مليئاً بالماء . سار بجوار الجميع ، وجلس دون أن يلتفت لأحد قرب الحاج جيراندوق .

وشعر مكاناً ممثلي الساذرين والأختشيسوغ . فلم يأتيا في ذلك الصباح إلى المجلس ولكن ، وبالمقابل جاء كل حكيم وكل مسن وكل من تأصل له الحق في أن يقول هنا كلمته . وقف هؤلاء جميعاً متجمهرين وراء مقاعد أعضاء المجلس وأخذوا ينظرون إلى الحاج جيراندوق ويترقبون صامتين كيف سيبدأ الاجتماع . اعتاد البدء بسرعة وكأنه يريد استباق الجميع في إطلاق الرصاص ولكنه أطال في صمته في ذلك الصباح . جلس معتمداً على ركبتيه براحتي يديه وأخذ ينظر إلى الأرض . بدت عيناه منتفختين من الأرق . ورفع رأسه أخيراً ونأمل الجميع ثم انتفض واقفاً . دفع بقبعته السوداء إلى نقرته ، وركز خنجره الكبير في موضعه ، ثم وضع يديه الاثنتين على المقبض وقال :

- «كيف تسير الحرب . . . أنتم تعلمون وليس بوسعي أن أضيف شيئاً إلى ماقلتة بالأمس . الروس يهجمون من كافة الجوانب وقد اقتربوا الآن منا كثيراً جداً ، ليس من جهة البحر فحسب بل من الشمال أيضاً . حدثني عن هذا بالأمس المستطلعون . لقد أرسلت بموافقتكم من ثلاثة أيام عمي اللزم إلى الجنرال غيمان لإجراء المباحثات حول الصلح ولكننا لانعرف عنه شيئاً حتى الآن . ربما قتلوه؟! أو أخذوه أسيراً؟! ترون بأنفسكم المكانين الشاغرین ، - فعل الأغلب أن الساذرين والأختشيسوغ لم يأتوا لأنهم مترددون . جيراننا الشابسوغ ألقوا السلاح - كما تعلمون - بعد قتال طويل والناجحواج بدأوا

بالنزوح إلى ماوراء البحر، أما الآخرون فيترددون جميعاً. إنني أأمل أن البسخوفتسين والدالتسين والتسيبيلدين لن يحنثوا بكلمتهم التي أعطوها لنا، وسيأتون لنصرتنا، هذا إذا لم يضع حاكم أبخازيا حمود بيه تشاتشبا العراقيل أمامهم. هل علي أن أقول لكم إن اليوم هو أصعب الأيام التي مرت علينا نحن الأوبيخ على الإطلاق؟ إننا لاندرى اليوم ماذا سيتوجب علينا غداً - الحرب أم السلم، الحرية أم العبودية . . . أم النزوح. إن شعب الأوبيخ ينتظر ماسنفره وإلى أين سنقوده. لنقرر إذاً كيف ينبغي أن نتصرف. فحتى لو أردنا تأخير قراراتنا لما أتيح لنا ذلك.

رمق الحجاج جيراندوق بنظرة قوية نافذة كل الجالسين والواقفين حوله في البيت الكستنائي ثم جلس ثانية معتمداً على ركبتيه براحتي يديه، وعيناه تنظران إلى الأرض. صمت الجميع طويلاً وحاولت أن أخمن: من سيبدأ الحديث أولاً. خطر لي أنه شاردين بن علو الذي قرر من زمن بعيد النزوح إلى تركيا، ولكن من المستبعد أن يجزم أمره ويجهز برأيه هنا في حضور الحجاج جيراندوق أما إذا فعل فإن الدم سيفسك على الأغلب. كنت وأنا أفكر بذلك أنظر إلى شاردين بن علو الذي جلس هادئاً وكان شيئاً لم يحدث، وأخذ يعث بأصابعه بطرف ذقنه السوداء.

وهكذا لم أحزر من سيتحدث أولاً.

أول من هب من مكانه الشيخ سحت قري. ضم راحتي يديه أولاً ثم رفعها إلى أمام لحيته الكثنة وأخذ يتحدث وكأنه يترنم بصلواته:

- آواه. إننا عبيدك يا الله. لانحرمنا من عطفك. باركنا يارب. ثم صالبا يديه على صدره، ورمق الحضور جميعاً بنظراته. بل إنه مطّ رقبته لكي يرى حتى أولئك المنحجيين عنه. - أقدارنا مرسومة على جباهنا بقدرة الله العظيم والنزوح عن هذه الأرض مرسوم لشعبنا. من المحتمل أنه نزوح لوقت قصير لا للأبد. هذا قدرنا والإعتراض على حكم الله - إثم. لقد أرغمنا الكفرة على اختيار طريق الهجرة الذي يقودنا عبر الأفاق البحرية إلى تركيا، إلى أرض السلطان المباركة، مالك نصف الأرض. هذه الأرض الشريفة تفتح أيديها بإرادة السلطان وتنادي كل المسلمين. أريد أن أسألكم يا أعضاء المجلس المجلين ما الذي يشدنا إلى هنا إذا بات الأمر على هذه الصورة؟ ماذا نتظر هنا؟ إن النوايا الشيطانية للجنرالات الروس بترحيلنا إلى سهول كوبان تبعث على النفور الشديد في

نفوسنا . كيف لنا أن نعيش نحن المؤمنين مع الكفرة في هذا الوكر؟ من منا يرغب في البقاء في جهنم هذه، في حين أن الطريق إلى الجنة الحقيقية على الأرض مفتوح أمامنا؟
لم تكن كلمات سحت قري بالنسبة للكثيرين من المجتمعين في البيت الكستاني شيئاً جديداً . ولكنه لم يتحدث حتى ذلك الوقت بصراحة كهذه وصوت عال كما فعل في المجلس . لقد تحدث خلال بضع سنوات خفية وهمساً مع هذا أو ذاك داعياً إلى الهجرة إلى تركيا بإلحاح وإغراء .

لاحظت قليلاً من الارتياح يرتسم على وجوه بعض الناس الذين رفضوا في السابق سماع تلك الأحاديث، ولكن، لم يكن ذلك الشعور عاماً بالنسبة للجميع .
انفضض أولاً وكأنه يعقص ناورز بن باركاي المعروف بطبعه الحاد . كان قصير القامة ولكنه متين البنية واسع الصدر . انتزع من على رأسه قبعته الفرائية ورمى بها أمامه على الأرض ثم ركز حاجبيه السوداوين الكثين وصرخ بصوت نافذ:

- هذا ليس اجتماع رجال، بل اجتماع عجائز ومنجحات . لماذا نجلس هنا لليوم الثاني ونضرب أحماً بأسداس في الوقت الذي يحارب فيه الرجال الحقيقيون؟ إذا كنا سنقوم بالنتجيم فعلاً فلنخلع - على الأقل - أردية الرجال لنحميها من العار ولنترد ألبسة النساء ولنطبخ المايغا للكفرة ونخدمهم وراء موآئدهم . ثم ليمتنع الفلاحون عن دفع الأتاوات لأننا - نحن النبلاء - لم نعد محاربين . صاحب الحصان لا يطلب استئذنة حصان . لدينا أرضنا فلماذا علينا أن نبحث عن أرض غريبة عنا؟ بيتنا هنا وليس في تركيا أو كوبان . فليذهب الجبناء إلى حيث يريدون، وليبق الشجعان للقتال حتى آخر أويخي .

رفع ناورز قبعته الفرائية عن الأرض ونفض عنها الغبار ووضعها قرابه وجلس .
- ناورز محق .. صرخت عدة أصوات عالية معاً .

- لم تكن عبيداً في السابق ولن تكون عبيداً في المستقبل - صاح مراد بن حيريس عاصراً خصره التحيل بيديه وكان طويل القامة، نحيف الجسم، أسود الذقن، حليق الرأس - إن صمدنا ولم نستسلم الآن فإن كل من يرفض التخاذل سيمضي في إثرنا إلى المعركة .

- نعم سنقاتل . وسنرى من سيقى حياً ومن سيرقد ميتاً، نحن أم أعداؤنا - صاح

شخص ولكنني لم أعد أذكر من هو بالضبط .

- تمهلوا من يقرر دون تفكير يقتل قبل أن يطلق رصاصة . - قال العجوز سبت الذي تميز بصوته الجمهوري البطيء وسط البلبلة العامة . كان سبت قريينا ، زوج كبرى عماتي ، وعرفه الفلاحون - إنساناً حكيماً وعادلاً . لطلما دعي لحل النزاعات الخطيرة بل وأكثرها حدة وقسوة . . أكانت بسبب الأرض أم بصدد دم مسفوح . حتى أن الحاج جيراندوق قدر آراءه دائماً حق التقدير .

حين سمع الحضور صوت سبت التفتوا جميعاً إليه ولكنه لم يجب بشيء .

- أنت إنسان حكيم ياسبت - قال الحاج جيراندوق - طالما أنك بدأت ، واصل كلامك فنحن نريد أن نسمع رأيك .

- إن عقلي الصغير لا يتسع لأمر كبير كهذا الذي نحن بصدده - قال سبت - لقد ذهب ثلاثة من أبنائي للمقتال ، ولأدري ماذا حل بهم . أما إذا عادوا سالمين فإننا نحن الأربعة موافقون على قراركم سلفاً وكيفما صدر . إلا أننا نرجوكم ألا تستعجلوا وأن تفكروا ملياً . لا تخطئوا . لا تخطئوا بين فجر الصباح والغروب . إن عيني الهرمتين تريدان رؤية فجر الصباح ولكنها تريان ما بعد الغروب . ويخيل إلي أنه فجر دام بدموع باردة .

أمعنت التفكير في كلمات العجوز سبت بعد مرور أيام عديدة . فلم أكن متفرغاً عندئذ للتفكير بها . كنت أركز النظر إلى شخصين اثنين ارتبط بهما أمران هامان . بالأول القرار العام وبالثاني مصير أسرتي .

جلس شارددين بن علو صامتاً دون مبالاة وكأنه اتخذ قراره في سريرة نفسه من زمن بعيد .

صمت الحاج جيراندوق أيضاً . بدا لي آنذاك كالقلعة المنبعا التي لا تستسلم لأحد في أي وقت من الأوقات . لعل من الإثم أن أقول إنني كنت أؤمن به أكثر من إيماني بالنبي ذاته .

بعد أن خيم الهدوء دقيقة كاملة تقريباً إثر كلمات العجوز سبت نهض الأخ الأصغر لناورز المتحمس المندفع دائماً . وقف أحمد بن باراكاي بكتفيه العريضين وقامته الجميلة النحيلة حتى بدا لي أن بالإمكان قص خصره الرفيع بالمقص . . وتميز بذقنه القصيرة . وظهر من تحت بزته الشركسية قميص صوفي أسود اللون . عرفت من قبل أن الحاج

جيراندوق يكن كرهاً شديداً هذا الإنسان في قرارة نفسه ولكنه كان يخفي كراهيته تلك خوفاً من الإصطدام المباشر الذي قد يسبب انتقال أحمد إلى الروس .

تحدث أحمد بن باراكاي بعد برهة من الزمن . لم يبدأ من فوره بل داعب أولاً مقبض خنجره المزركش ذي الغمد الفضي الجميل ، ثم أخرج ساعته الذهبية ؛ ونظر إليها ؛ ثم أغلق غطاءها ، وبعد كل هذا فقط تحدث بصوت رفيع مرتفع مسموع جيداً :
- لقد تناقشنا أكثر من مرة حول ما يجب علينا عمله وهاقد آل مألنا أخيراً إلى نهاية غصن جاف تتعلق بطرفه نحن الأويخ ويتدلى على حافة هاوية سحيقة بل ونسمع كيف يقطع فوق رؤوسنا ويتكسر . من المذنب في هذا كله؟ المذنب الأول هو نحن بالذات . ولن أخشى أن أجهر بكل صراحة الآن بما يعرفه كل منا ويضمرة في دخيلة نفسه . لم يحق لنا أبداً أن نخوض الحرب مع جيوش القيصر الروسي التي لاحصر لها . لقد حارب سلفنا وحاربنا نحن وعيوننا مغمضة جميعاً . خشينا دائماً أن نرى القوة الحقيقية لعدونا وأن نقارنها بقوتنا .

- وهل استيقظت أنت اليوم فقط يا أحمد بن باراكاي؟ - صاح الحاج جيراندوق قافزاً من مكانه - أأنت أنت بالذات الذي هب زاعقاً داعياً للحرب بأعلى صوت له منذ الأيام التي قاد فيها جيوشنا الحاج برزج بن أداغوا؟ أأنت أنت من سافر إلى تركيا وإنكلترا طلباً للمساعدة؟ . أأنت أنت من حمل إلينا المدافع والبنادق على السفن؟ . لماذا نتحدث اليوم إذاً وكأنك ولدت للتو؟

- أو كالأرنب الذي يريد إخفاء أثاره - قال الشيخ سحت قري ذلك صائحاً . ولكن أحمد بن باراكاي بقي واقفاً ولم يأت بحركة حتى هدا الجو من الصباح واللغظ والمهمة .

- أنت محق يا حاج جيراندوق - قال هو - لقد أخطأت كما أخطأتم وشهرت سيفي لأقل منكم ، ومع هذا وبغض النظر عن بسالتنا وشجاعتنا فإن الحرب تهددنا بالفناء . . تهددنا من زمن بعيد . . منذ أولى طلقاتنا . لقد ضربنا رأسنا بالحجر ، وتحطم الرأس ولم يتأثر الحجر . ولا يجب تحميل الذنب في هذا كله لجنراتال القيصر الروسي فحسب . كان هناك أزمته عشنا فيها نحن زعماء الأويخ في صلح وسلام معهم بل ووافقنا على نيل رتب ضباط ومرتبات شهرية منهم . ولكن فيما بعد . . حين توحينا الخبر من قوة السلطان بعثنا

الحرب من جديد ضد الجنرالات الروس . مصيبتنا أن السلطان الذي جعلنا نعتقد أنه أقوى الجميع وأرادنا أن نسفح دماءنا من أجله يخشى الآن ويتجنب محاربة القيصر الروسي لنصرتنا . هذا بالذات يصبح وضعنا بلا مخرج . كان لزاماً علينا وقد أدركنا هذا من زمن بعيد أن نتصالح مع الروس .

وهنا لم يتمالك ناورز نفسه وقاطع أخاه الأصغر .

- إذا وجد هناك من فقد رأسه فعلاً فهو أنت - صاح ناورز - لقد جئنا إلى هنا برأس محطمة ونصيحة وضيعة ، بأن نطلب الرحمة من الكفرة . لو وجد هنا بين الحاضرين شخص آخر غيرك يوافق على هذه النصيحة الجبانة لطلبت منك يا أخي أحمد أن تجيبي : كيف سيكون بإمكاننا ، أنا وأنت المولودين من أم واحدة أن نتصالح مع الروس الذين رفعوا على أسنة الحراب أخويننا؟ من سيدفع ثمن دمهما إذا أصبحت أنا وأنت من أصدقاء الكفرة؟! أقسم بأي شيء سأقطعك إرباً إرباً لو أنك كررت دعوتك هذه للتصالح مع الروس . لا تدفعني إلى قتلك يا أخي . اخرج من هنا واتركنا .

استل ناورز خنجره حتى منتصفه ولكن بالكاد هدوؤه .

- اترك لي الفرصة لأكمل كلامي - قال أحمد بن باراكاي متوجهاً إلى الحاج جيراندوق ، وافقاً وفتته السابقة دون حراك ، بل إنه لم يلتفت نحو أخيه - حتى لو حكمت علي بالإعدام فإني أملك الحق حسب العادة بأن أقول كلمتي الأخيرة :

- لقد قلت كل شيء - صاح ناورز .

- تحمّلْه ، لنسمعه حتى النهاية - قال الحاج جيراندوق .

الجورجيون كما تعرفون أكثر منا بكثير ومع ذلك فإنهم لم يلجؤوا إلى الحرب مع القيصر الروسي - قال أحمد بن باراكاي بعد انتظاره حتى عم الدار الهدوء - لقد أصبحوا مواطني القيصر ولكنهم احتفظوا بأرضهم ولغتهم ؛ ومن يدري فقد يحصلون في يوم ما على حريتهم .

- لقد كنت أنتظر منك الغرائب يا أحمد بن باراكاي ولكني لم أعلم أبداً أن بوسعك خيانة دينك - قال الشيخ سحت قرى - بمن نقارننا؟ الجورجيون والروس مسيحيون ، لديهم دين واحد وهذا تصالحوا؛ أما نحن المسلمين فكنا وسنكون إلى الأبد أعداء الكفرة .

تهض الشيخ سحت قري لقول كلامه ثم بعد انتهائه من ذلك جلس ثانية وكأنه لم يتوقع أي اعتراض على مقال.

ولكن أحمد بن باراكاي اعترض قائلاً:

- ياسحت قري، ياعالى المقام والإحترام، أنت تعلم أحسن منى أن الشعب يذكر حتى الآن أننا كنا نعتنق المسيحية قبل ألف سنة ومع أننا نعتبر أنفسنا مسلمين من زمن بعيد فإننا نواصل الإحتفال بميلاد المسيح وعيد الفصح. لم تكن أعداء أبديين للكفرة في الماضي وبإمكاننا ألا نكون كذلك في المستقبل أيضاً.

خلع ناورز في هذه المرة أيضاً قبعة الفرائية وقذف بها ثانية إلى الأرض ثم استل حنجره كاملاً، وليس إلى منتصفه فحسب.

- حاج جيراندوق، أسمعني كيف أقسمت بأبي المتوفى. إن لم تطرد الآن من هنا هذا الإنسان فإني سأذبحه كالجيفة هنا في هذا البيت. أما أنت ياأحمد فلست منذ الآن ابناً لباراكاي، أنت لست أخي، أنت معمد خفية عنا من قبل الروس ومرتد عن الدين، إنك خائن وأثم. ارحل عنا.

هَبَ الجالسون بجوار ناورز وحوله من كل الجوانب فأوقفوه بصعوبة بالغة أما الحاج جيراندوق فهض وأخذ يسير إلى الأمام وإلى الورا. ثم اقترب بعد ذلك ببطء من أحمد بن باراكاي.

- ماذا تريد أن تقول لنا أيضاً؟ أن الجنرالات الروس قد أغروك حين كنت في إنكلترا وأهدوك سيفاً ذهبياً؟ ولكن بماذا اشتروك؟ بعد عودتك من إنكلترا أخذت تبعث الآمال فينا بأن الإنكليز سيقدمون لنا العون بتعبثنا ضد الروس. وحين أمسينا اليوم معلقين - كما تقول - على غصن جاف تريد أن تؤكد لنا أنك لست مذبناً في شيء. لقد تجاوزت حدودك فعلاً.

- لقد تجاوزنا نحن جميعاً حدودنا. وأولنا هو أنت - قال أحمد بن باراكاي ذلك بهدوئه المعتاد دون أن يرفع صوته. - هل أنا مذب لكون الإنكليز قد خدعونا؟ لقد جلبت إلى هنا غير قليل من الأسلحة الانكليزية. ولكن كلما مر الزمن تبينت أكثر فأكثر أنهم لن يجاربوا بأنفسهم القيصر الروسي من أجلنا. من نحن بالنسبة لهم؟ حفنة من الناس المتوحشين. عندما كنت في لندن كانت ملاسي الغربية بالنسبة لهم تلقى انتباههم

أكثر من يؤسنا كله . ولا تخفي بالجنرالات الروس . فحتى في تلك الأماكن التي احتلوها بالقوة وسفحوا من أجلها الدماء لم يقتلوا من استسلم ولم يبيدوا زوجات أولاء وأطفالهم . إنهم لم يقتلوا حتى شامل مع زوجاته وأبنائه ، بل أخذوه إلى روسيا . لم يسحق الداغستانيون الذين خضعوا لقوة الروس ، بل مازالوا يعيشون في بيوتهم . أنا أعرف مثلك قسوة الجنرالات الروس حين يحاربون ولكنهم ليسوا قتلوا حين لا يحاربون . لقد سمعت أن هناك بينهم من وضع لنا نحن الجبلين حروفاً ويريد إصدار كتاب بها . إنى أرى مخرجين اثنين أمام شعبنا: إما أن نموت حتى آخر شخص في المعارك وإما أن ندرك أن العدو قد انتصر علينا وليفعل بنا الآن ما يشاء ، كما يقضي به ضميره . إنى أتق بمن جاء إلينا مشهراً سيفه أكثر ممن باعنا أسلحته سراً ولكنه ليس مستعداً في يوم من الأيام لأن يبذل قطرة دم من أجلنا . كنت في تركيا أكثر من مرة وأدرك أنه لا ينتظرنا هناك نحن الرجال أي شيء جديد . إننا رجال وليس بوسعنا أن نصبح جاريات في حريم هذا أو ذاك . من يهجر أرضه يشقى حتى مماته . إنى أدرك جيداً أنه إذا نرحنا عنها فلن يبقى لنا وجود . أما الآن فافعلوا بي ما شئتم . اطرردوني أو اقتلوني .

بعد أن قال أحمد بن باراكاي ذلك لم يجلس في مكانه ثانية بل بقي واقفاً بين الناس المحتشدين حول المجلس ، ولم يعد يعتبر نفسه منذ ذلك الوقت عضواً فيه . دوت كلماته الأخيرة قوية جداً بحيث أسكت بها الجميع . وقجأة سمع من الخارج وقع حوافر خيل ثم خطى سريعة مستعجلة . . . والتفت الجميع إلى الباب الذي فتح وظهر منه عم الحاج جيراندوق واسمه برزج أرسلان بيه الذي أرسل إلى الجنرال غيمان لإجراء محادثات حول الصلح . لم يلتفت برزج أرسلان بيه لأحد بل رمى عن ظهره برنسه المبلل فتلقفه حارسه الشخصي ، ووقف منحني الرأس بين أعضاء المجلس الذين هبوا للقاءه . هبوا وقوفاً وكان من المستحيل أن يتلقوا جلوساً ذلك الثقل الفظيع الذي سينهال على أكتافهم توأ .

- إنى أحمل أخباراً سيئة ، - قال برزج أرسلان بيه - لم يستقبلنا الجنرال غيمان على الفور بل أبقانا ننتظر طويلاً وكأننا موقوفون عنده . ثم حين قادنا الجنود إليه لم يرغب بالإنصات لنا وإنما قال : « فات الأوان لن يكون بيننا وبينكم سلام . من يرغب منكم بالإنتقال إلى سهول كوبان فليذهب عن طريقنا . إننا سنسمح له بذلك . أما بالنسبة لمن

يرغب بالنزوح إلى تركيا فإننا سنفسح ثلاث طرق . ليذهب هؤلاء عبر هذه الطرق الثلاثة إلى البحر وليركبوا السفن التي تنتظرهم . أما هنا فلن نسمح بالعيش لأحد منكم بعد الآن . ثم بعد ذلك أرسلنا في طريق العودة، أما هو فجدد الحرب حارقاً ومدمراً كل ما يصادفه في طريقه . إنه يتقدم بسرعة كبيرة وسيكون هنا بعد يومين اثنين أو ثلاثة . لم أفهم بعد ماذا سيحدث ولكنني شعرت بأن شيئاً ما فظيماً بانتظارنا، وأخذت أنظر إلى الحاج جيراندوق بأمل أخير.

حمد الحاج جيراندوق خائر القوي في مكانه وكان قوة خفية جذبته إلى الأسفل وتلقف رأسه بيديه .

جلس بعضهم في اثره وبقي الآخرون واقفين وقد أخذت ألباهم بما سمعوا . لعلك رأيت غابة حطمتها الإعصار . هكذا كان في تلك اللحظة منظر الأوبيخ الذين اجتمعوا في دار المجلس .

سمع من جديد وقع حوافر خيل وهرع إلى الداخل فارس يلهث ويستجمع أنفاسه من الطريق . قبض بيده على قلنسوته الشركسية وسوطه .

- حاج جيراندوق . أوعز القبطان الرئيسي للسفن التركية سليمان أفندي بأن ننقل إليك خطابه التالي : «إننا نقف اليوم الثالث في الضفاف ولا يدفع لنا أحد لقاء ذلك . إذا لم نحبرونا اليوم حتى الليل، هل نحتاجون إلينا أم لا فإن سفننا ستبحر مع سفن المهريين الانكليز والسلام» .

- انقلع من هنا - صاح الحاج جيراندوق بوحشية وغضب عارم . خرج المحارب مطرفاً، شاعراً بالذنب لأنه باح أمام الجميع بما وجب عليه أن يقوله سراً للحاج جيراندوق . وهكذا فضح الحاج جيراندوق الذي تبين أنه اتخذ قراره سلفاً قبل دعوته لانعقاد المجلس .

لم أفهم في ذلك الوقت وتلك اللحظة أي ذنب اقترفه المحارب . بل أدركت ذلك فيها بعد .

- فليخرج الجميع عدا أعضاء المجلس - قال الحاج جيراندوق - وأنت أيضاً يا أحمد بن باراكاي . اخرج ، فليس لك ماتفعله هنا .

خرجنا من الدار واحداً إثر آخر مفسحين الطريق أولاً للأقدم في السن . وخرج آخر

من خرج مفسحاً الطريق للجميع أحمد بن باراكاي .
أخذ النهار يعيل إلى الغروب، وتباعدت الغيوم . ولكن ريحاً قارسة هبت فجأة
بحيث بدت الشمس باردة .

غص المرح طوال الوقت بالناس - الخيالة والمترجلين . لم ألحظ أبي على الفور، بل
حين أخذ بكتفي منفرداً بي عن الناس .

- ماذا قرر المجلس : هل ننزح أم نبقى؟ - سألتني أبي .

- النقاش مستمر . أجبت أنا .

- لمصلحة من استمراره؟! لقد أنهاه الزمن - قال والدي - إن أخانا بالرضاعة محق
فعلا . انتظر أنت هنا، إلى أن يخرج أعضاء المجلس أما أنا فسأعود إلى بيت شاردن بن
علو . لقد كنت هناك . إنهم يستعدون للزوح وقد طلبوا المساعدة . تحدثت مع جيراننا .
بعضهم غير موافق . ليذهب إليهم شاردن بن علو بالذات ولتحدث وإياهم .

وقفت مبهوتاً تماماً . تحدث إلي والدي وكأن كل شيء قد أصبح مقررأ . أبعقل أنه
قد تقرر كل شيء بالفعل؟ وقفت مضطرب الأعصاب مستنداً إلى السياج المحيط بالبيت
المصنوع من الأغصان المجدولة . وخرج من البيت الكستاني أعضاء المجلس وعل
رأسهم الحاج جيراندوق .

مان رأهم المتجمعون حتى اندفعوا باتجاههم .

- استمعوا إلى قرارنا - قال الحاج جيراندوق . حين سمعت صوته القوي المألوف
ظننت أنه سيقودنا الآن إلى المعركة . كنت أريد ذلك وأترقبه بفارغ الصبر - ستهي اليوم في
منتصف الليل حربنا مع الروس . لقد تمكنوا منا . فلنمتلكوا أرضنا إذا لا أنفسنا . حين
علم السلطان بمصيبتنا خصص لنا أفضل الأراضي في تركيا وأرسل لنا السفن لتبحر
عليها إلى هناك . سنبحر إلى هناك ونحن مؤمنون بأن الوقت سيحين لنعود إلى هنا مع
جيوش السلطان . ولكن علينا الآن أن نرحل من هنا، لا كقطع شرده الذئب بل كلنا
معاً - أبناء كل منطقة مع قادتهم . غداً في منتصف النهار سنجتمع عند قديستنا بيتحا
وسنقسم أمامها معاً . فلتلعن قديستنا كل من يختار طريقاً آخر غير طريقنا . أسرجوا
خيولكم وتوجهوا لإخطار كل الناس في كافة البلدان والقرى، في كل أرجاء البلاد
الأويخية . أبلغوهم قرارنا هذا . سنبعث بالرسل إلى أختشيس وبسحا ودال وتسييلدا .

لقد قاتلنا وإياهم كتفاً إلى كتف، فليذهبوا إذاً معنا الآن. سننزل غداً بعد القسم إلى البحر ونركب السفن.

أقول لك الحقيقة، لقد كنت مستعداً للموت، لأي شيء على الإطلاق، ولكن لا لهذا. أيّ حاج جيراندوق هذا؟ أين بطل الأبطال الذي قادنا نحن الأويخ مراراً إلى المعارك الدامية؟! الذي آمننا ووثقنا به، ويأنه لن يركع أمام أي عدو. كنت اعتقد أني حارس شخصي لعملاق. أما الآن فكان يقف ويتحدث أمامي إنسان عادي تماماً يشير علينا بأفضل الطرق للهرب من العدو.

.. زاحم الجموع فجأة شخص ما دفعني بكتفه شاقاً طريقه إلى الامام ووقف إزاء

- الحاج جيراندوق - كان هذا افياسي الروسي - هكذا اعتدنا نضمينه كان افياسي جنديا في وقت ما لكنه انتقل بشكل طوعي من عشرين بيضة تماماً إلى جانبنا وتزوج من اوييخية وتعلم لغتنا وعاداتنا. وقف امام الحاج جيراندوق بعد ان سق طريقه بصعوبة كثيرة بين الجمهور ونزع عن رأسه قبعة الفرائية الشبثاء وانحنى قائلاً:
أرجو ان تسمح لي بان أقول كلمة واحدة فقط!

ولكن الحاج جيراندوق لم يجيب، لا بنعم ولا بلا. عندها التفت الجندي القديم إلينا وقال لنا بلغة اوييخية خالصة:

- إني بالدم والمعتقد واحد من يخاربونكم الآن. ولكم الحق ألا تتقوا بي. ولكن حين يأتي الجنرال الروسي إلى هنا فإنه سيعلقني قبلكم على هذه الشجرة، ولذا عليكم أن تتقوا بي. لم أفو على إطلاق النار عليكم. فهربت من جيش القيصر الروسي إليكم وأصبحت أجنسكم زوجتي وولدت لي طفلين. أستحلفكم بهما، أستحلفكم بالسماء والأرض، أستحلفكم بالسرب وكل القديسين ألا تستعجلوا بالزواج عن هذه الأرض إلى تركيا، لانتموا أرضكم. إنكم تعرفون ماذا ينتظركم هنا ولكنكم لاتعرفون ماذا ينتظركم هناك. هنا أرضكم فلا تغادروها وليكن ما يكون.

- إخرس أيها الكافر - صاح به الشيخ سحت قري وشد قبضتي يديه وكأنه مستعد لضربه.

- إنه روسي. إنه يريد أن يأتي الجنود ويعلقونا على أسنة حراهم - صاح شخص ما من بين الجموع.

أما العجوز الذي وقف إلى جانبي مقوس الظهر وهو يستند بكلتا يديه وكل ثقله على عكازه الذي غار عميقاً في الأرض الرطبة فقد زفر بعناء شديد وهمس قائلاً:
- سعداء أجدادنا - ماتوا ولم يشهدوا هذا الزمن القبيح .

- أحضروا القش - أمر الحاج جيراندوق، وسرعان ما هبّ عدد من الشباب إلى السقيفة حيث مربط الخيول وحيث القش المخصص للخيول. أخذ الحاج جيراندوق بحثهم على الإسراع، فيركضون واحداً إثر آخر إلى البيت حاملين حزم القش أو ماضين لإحضار المزيد والمزيد منها. وبعد أن نقلوا كل القش تقريباً إلى هناك أوقفهم الحاج جيراندوق وطلع إلى البيت وأحرق القش.

عاد الحاج جيراندوق واندلعت خلفه على الفور السنة الثيران الحادة مخترقة لجة الدخان الكثيف.

تحرك الجمهور مندهشاً صاحباً.

- ما ذنب هذا البيت؟

- ولم تريد أن تتركه؟

- ارحمنا يا الهي . .

- أفضل أن نقتل هنا من أن نغرق مع السفينة في البحر.

- إذا كنت شجاعاً إلى هذه الدرجة فلم تفف هنا، خذ سلاحك وتصدّ للجنرال.

وصدح فجأة صوت نافذ بائس تميز بين العديد من تلك الأصوات.

- هل نحرق بيوتنا أيضاً؟

اشتد أوار الحريق أكثر فأكثر، وتعدى البيوت القريبة حوله وأخذت الكلاب بالنباح

أولاً، ثم بالعواء كالذئاب.

توجه الحاج جيراندوق إلى مربط الخيل، حيث لجم حصانه وتوقف فجأة في

منتصف طريقه. فعلى ما يبدو أنه انتظر أن أسرع أنا كالمعتاد لأسوق له حصانه وأمسك له

بالركاب، لكي يمتطي الجواد.

ولكنني لم أقرب منه. كنت أقف بين الناس وأشاهد كيف يحترق البيت الكستاني.

وعلى ما يبدو أن هناك من ساعد الحاج جيراندوق في امتطاء الحصان. فقد رأيت بعد برهة

بطارد قريباً مني مضاءاً بهالة الحريق.

أما البيت فكان يحترق ويحترق، وحلق اللهب عالياً محترقاً السقف مندلعاً إلى سماء المساء، مبعثراً الشرر هنا وهناك.

لم يفترق الناس سريعاً... فكأنهم راغبون في أخذ آخر شحنة ممكنة من الدفء هنا، من هذا الحريق، قبل الإبحار إلى الأرض الغريبة. أما أنا فكان يبدو لي وأنا سائر في طريق العودة أني أطير إلى هاوية سحيقة لاقرارها. وبدت لي وأنا في الطريق وجوه شوهها الرعب والألم، وعيون تائهة، وشفاه تهمس بشيء ما وأفكاك ترتعش... هز شخص فجأة كتفي. التفت فإذا بي أرى شاردين بن علو جالساً على بغلته الوطيفة.

- امتط حصانك سريعاً وانطلق وراثي. أحمد لله لأنك عرفت أخيراً القيمة الحقيقية لسيدك الحاج جيراندوق، الذي كنت مستعداً للإحاطة برأسك الأحمق من أجله. - ضحك بسخرية شديدة ونخر بغلته.

«ألدبك قلب فعلا طالما بوسعك أن تضحك في مثل هذا الوقت؟». «فكرت بهذا وانتابني رعشة باردة من اليأس والكمند. لم أعد أحب الحاج جيراندوق فعلا ولكني في تلك اللحظة بت لأطيق شاردين بن علو أكثر فأكثر...»

حفنة تراب

بعد أن تأكد جنرالات القيصر من أن الأويخ سينزحون إلى تركيا أوقفوا جيوشهم، أما الأتراك فوعدوا بإرسال سفن أخرى جديدة، - وهكذا امتدت عملية انتقالنا أسبوعين تقريباً. لا أدري هل كان هذا أفضل أم أسوأ؟ ولكنه بدا لي أسوأ بكثير، فعندما تعلم أنك ستموت قريباً حتماً يمسي الموت السريع أفضل من الموت البطيء.

في ذلك اليوم الذي اجتمعنا فيه في المرح قرب القديسة بيتحا، قام حامي الضريح

صلاح بذبح عدد من العنزات البيض التي أعدت خصيصاً لتقديمها قرباناً للقديسة .
وغرز بغصن فستق مبري بشكل حاد كبدأ وقلباً طبخا على الفور . فكانا ساخنين ينبعث
منها البخار حين شرع بالصلاة . جلسنا جميعاً حوله على المرج وقمنا بالدعاء أيضاً . بدا
صوت صلاح متهدجاً ونفرت الدموع على خديه . أخذ يدعو لقديستنا دون أن يخبرها بأننا
سنغادر أرضنا ؛ ولكن وعلى الأرجح أن ذلك لم يغب عن باله طوال الوقت ، ولذا كان
يبكي باستمرار .

- لانتركينا نموت يابيتحا - صاح متضرعاً والدموع ملء عينيه خائفاً بهذا دعاءه
ونحن نردد وراءه بصوت واحد :
- آمين . آمين .

أخذنا بعد ذلك نقرب واحداً إثر آخر من القديسة ، فنؤدي القسم قائلين : «إذا
تخلف شخص منا عن المجموع فلنتمته القديسة ، ولنلغنه إلى الأبد ، ولنلغن أطفاله ، وكل
أقاربه أجمعين» .

أكلنا لحم العنزات المسلوق بعد الدعاء ، وتقديم القرابين للقديسة ، وقال لنا
صلاح :

إننا نرحل شعباً بأسره إلى أرض غريبة . من سيقوم بالصلاة هنا قرب القديسة ؟
أصبح لنا أن نتركها دون صلاة كما تترك رحي الطاحون دون مياه ؟! أرجو أن يسمح لي
الشعب بأن أقرب من قديستنا ، فأخذ بعضاً منها لكي نبقي تحت بركتها ونحن بعيدين
عنها .

لم يوافق شيوخنا - في بداية الأمر - على الاقتراب من القديسة معتبرين ذلك إثماً .
ولكنهم فكروا ملياً وامتثلوا أخيراً لرغبة صلاح . وهكذا تقدم ثلاثة من كبار السن ، عمر
كل منهم مائة عام ، فأخرجوا مع صلاح القديسة بيتحا من متواها تحت الأرض الذي لم
يلمسه أحد في يوم من الأيام .

رأيتها أول وآخر مرة في تلك اللحظة بالذات . كانت منحوتة من الحجر على شكل
شبيه بالنسر . عيناها مصنوعتان من قطعتين ذهبيتين سميكتين ، أما المنقار والجناحان
والمخالب فمن الفضة .

أعدناها بعد الصلاة إلى متواها تحت الأرض . كانت تلك بيتحا الكبيرة أو كما

سماها صلاح بيتحا الكبرى. وكانت إلى جانبها هناك بيتحا الصغيرة أو الصغرى وهي من الحجر أيضاً وفيها ذهب وفضة ولكنها بحجم الحمامة.

حملها الشيوخ الثلاثة، ومعهم صلاح، فلقوها بقماش مشع بالشمع ووضعوها في كيس جلدي مشين. وفي يوم الرحيل ربط صلاح ذلك الكيس بحزامه لترافقه بيتحا الصغرى في الطريق إلى الشاطيء وعلى السفينة وعند نزولنا في تركيا وفي كل مكان يارحناء، وسرنا فيه، ولترعانا يرعايتها معها مرّ بنا من مأس وأتراح ومعاناة. ولكن، بعد مرور سنوات عديدة ألمّ بها مصاب قتل من جرائه إنسان عزيز كنا نتطلع إليه كأمل أخير لشعبنا. ولكني لأريد أن أستبق الأحداث الآن بل سأحدثك عن ذلك حين نصل إليه.

في ذلك المساء أمسك زاورقان عن الحديث ولم تكن لديه أية رغبة بالكلام. وفي صباح اليوم التالي لازم الصمت طويلاً. جلس على جذع الشجرة وأخذ يفرم التبغ الذي جاءه به يريم ولم ينس بكلمة. لاحظت أنه يحب الإنشغال بإعداد تبغه بنفسه. فهو يقطعه أولاً إلى خيوط طويلة ثم يجفّفه بعد ذلك تحت أشعة الشمس ثم يفرمه ناعماً. جلس يفتت تبغه وأخذت أنا أستذكر حديث أمس عن بيتحا وأقارن ماسمعته عنها بما سمعت وقرأت سابقاً عن فديسات الجليليين الأخريرات الشبهات بها. كنت أقارن وأسجل ما يخطر على ذهني من أفكار.

كلمة بيتحا لا تعني الشيء الذي ينحتون له فحسب، بل تشمل كافة الصفات الغيبية التي ترتبط بها هذه الكلمة في تصورات الشعب، وتضم كذلك المكان الذي توجد فيه والثلة حيث أقيم الضريح والمفتاح البارد الذي يتوجب وجوده قربها دائماً. كل هذا يمثل كياناً واحداً. ولذلك على الأغلب لم يخطر ببال صلاح أو كبار الأويخ أن يأخذوا معهم بيتحا الكبرى بل أخذوا الصغرى فقط تاركين الكبرى في مكانها. وأصبحت الصغرى ممثلة عن الكبرى بل ممثلة لكل ما بقي هناك في أرض الوطن.

أما بخصوص اشتقاق كلمة (بيتحا) فإن القسم الثاني (نحا) يعني باللغة الأديغية الله. ولكن ماذا يمكن للقسم الأول (بي) أن يعني؟ كان بوسعي أن أطرح هذا السؤال على العجوز ولكن لم تطاوعني نفسي على القيام بذلك بل ومن المستبعد أنه كان قادراً على الإجابة عليه.

عرفنا نحن الأبخاز الكثير من الآفة القديمة أيضاً وارتبطت أسماؤها بتلك الأماكن المقدسة التي وجدوا فيها . . . ليدزا، ليخني، ديدريش، إنغال كوبا، بللير، لاش كيندار. . .

الربانية بالأبخازي مرتبطة بكلمة (أنيجا). وتحلل بعض علماء اللغة تلك الكلمة إلى قسمين: «أن» وتعني رب و «حا» وتعني رأس. أي رأس الرب. كلمة «أنيجا» تعني الربانية اللغوية، ولكن عناصر المسيحية متمثلة في مفهوم «رأس الرب». ومن الواضح أن كلمة «أنيجا» التي ظهرت قبل وصول المسيحية بوقت طويل قد اكتسبت مغاير مسيحية لاحقاً. وفي كل الأحوال فإن تلك الرموز المادية للدين لا تذكر بشكلها برأس الرب. فنلك الأحجار تشبه في بعض الحالات النسر الجبلي وفي حالات أخرى جمجمة خروف، وفي حالات ثالثة رأس كائن حي غير واضح المعالم. وثمة معطيات تاريخية تقول إن المبشرين الدينين البيزنطيين الذين قاموا بنشر المسيحية في أبخازيا في القرن التاسع استخدموا الأماكن الوثنية المقدسة القديمة وبنوا فيها بالتحديد الكنائس المسيحية في ليزغا، بيتسوندا، ليخني وبللير. وأصبح المعنى الأخير لكلمة «أنيجا» يدل في هذه الكنائس على رأس أم المسيح الربانية. أما في أماكن أخرى فقد بقيت كلمة «أنيجا» كما في القديم مرتبطة بالمراسيم الوثنية القديمة ولا أكثر.

من الواضح أن الأمور كانت لدى الأوبيخ مماثلة. وجدت هناك أيضاً المسيحية وعيد الفصح إلى جانب الديانة الوثنية القديمة. ولم يتمكن الإسلام إثر انتشاره بعد ذلك من انتزاع جذور نيك الديانتين السابقتين حتى النهاية. وفكرت أنا: لماذا لم يقرر الأوبيخ الذين ملكت نفوسهم الحراسة العارمة للغزوات، ودفعتهم إلى الإرتحال إلى تركيا المسلمة تاركين أراضيهم وجباهم أن يجتمعوا في المسجد، لا عند القديسة بيتحا؟ لعل السبب في ذلك أن الله مازال بعيداً عن وعيهم في حين أن القديسة التي اعتادوا عليها كانت قريبة منهم؟! اعتادوا القدوم إلى هنا فعلاً منذ القدم مرتين في السنة لكي يصلوا شعباً واحداً. ودأبوا يقصدونها فرادى أيضاً ليتباركوا بها قبيل السفر في طريق طويل. يأتي إلى هنا من اتهم بالقيام بأثام ما، فيبرأ ساحته أمام الشعب كله مؤدياً قسمه عند بيتحا. هذا فمن الجلي أيضاً أنه لم يسع الأوبيخ، وهم يستعدون للإنتقال إلى الأراضي المسلمة، أن يمضوا إلى هناك دون أن يأخذوا معهم بيتحا الصغرى.

لا أدري بماذا سيحدثني العجز عن الأحداث اللاحقة؛ ولكن شعوراً أخذ يتناهي منذ الآن بأن أفكار الغزوات لم تكن مستندة إلى تربة دينية راسخة في أرض الأويغ. جاءت تلك الأفكار من تركيا السلاطين وأخذت تنتشر وتعمد بالتدرج على النفوس وتجر الأويغ إلى تركيا السلاطين من أرض الوطن. حدث ما يبدو لي الآن بعد مرور عشرات السنين بلاهة فاضحة. لم يكن باستطاعة الأويغ الرحيل دون القديسة، دون الحجر والأقراص الذهبية والفضية؛ أما أرضهم المقدسة التي رووها بدعائمهم الغزيرة فهجروها فعلاً.

اقترب مني زاورقان بعد أن فتت تبغته ولف لفافته وأخذ ينظر باهتمام إلي وكيف أمرر قلم الرصاص بسرعة على الورق. تابعني دون أي استعجال؛ وما أن توقفت عن الكتابة حتى نطق فوراً وكأنه يترقب تلك اللحظة بالتحديد.

قلت لك يا عزيزي شاراخ إن أول النبلاء الأويغيين الذين قرروا من زمن بعيد التوجه إلى تركيا كان شاردين بن علو. ولكن لم يكن بوسع إنسان مثله أن يرتحل وحيداً؟ وطالما أنه عزم على الرحيل توجب علينا أن نتحرك نحن أيضاً لاسيما أن عمري الأخوة بالرضاعة تربطنا معه. كذلك الحال بالنسبة للأقارب والجيران والفلاحين كافة الذين اعتبروا أتباعاً له أو مدينين بفروض أو مساعدة أو حماية تلقوها منه. هكذا جرى حين دفنا في نفوسنا أرض الوطن التي أخذت تنسحب من تحت أرجلنا. وهكذا هب نبلاؤنا يتنازعون فيما بينهم على من سيذهب منا مع هذا ومن سيذهب مع ذاك منهم.

أراد الحاج جيراندوق أن يأخذ معه بالإضافة إلى الأربعمئة أسرة من الفلاحين الذين يعتبرون من أتباعه خمسين أسرة أخرى بما في ذلك أسرتنا نحن. فمن المؤكد أنه لم يثق كثيراً بتلك الأحاديث المتنوعة عن تركيا وأنه أراد حين انتقاله إلى هناك أن يبقى إلى جانبه أكثر ما يمكن من الناس القادرين على خدمته وحمايته. أرسل يستدعيني مرتين وأبلغني رسله بكلماته التي حفظوها عن ظهر قلب:

«لماذا تخل عني حارسي الشخصي؟ لقد اعتدت عليه وأريده أن يرتبط بحزامي أينما كنت، وحيثما سرت. أريده هو وأسرته كلها».

كنت عندها قوياً جداً يا عزيزي شاراخ وحين أفف إلى جانب الآخرين أعلنهم جميعاً بمقدار رأس رجل. برهنت للحاج جيراندوق أكثر من مرة على شجاعتي في

المعارك؛ وهذا بعث برسله إليّ. لقد أدركت كل هذا. ولكن الحاج جيراندوق كان بالنسبة لي ميئاً منذ ذلك اليوم الذي حدثتك عنه. لم أرغب في السفر معه أبداً وقوام أبي أيضاً؛ فكيف بوسع أسرتنا أن تسافر مع شخص آخر غير أخينا بالرضاعة؟
علم شاردين بن علو طبعاً بما بيته الحاج جيراندوق ولم تكن لديه نية التخلي عن أسرتنا أو غيرها من الأسر التي اعتبرها موالية له مؤتمرة بأمره حكماً.

وتكالب العدوان اللدودان في تلك الأيام على زيارة بيوت الفلاحين ولكنها تجنباً الإصطدام طوال الوقت كيلا تسفح الدماء.

مأن يأتي أحدهما إلى بيت من بيوت الفلاحين ويقول لرب الأسرة: «عليك أن تنأهب للسفر معي» حتى يأتي الآخر في إثره إلى ذلك البيت، ويُصدر أوامره بالإبحار إلى تركيا برفقته هو؛ أما الفلاحون فيختارون ويترددون إذ يختلط عليهم الأمر: في إثر من عليهم أن يمضوا في نهاية المطاف؟!!

في أحد الأيام وعندما اجتمعت أسرتنا للغداء في منتصف النهار بالتحديد قدم إلينا الحاج جيراندوق على ظهر حصانه الملهب. جاء وحيداً تماماً وبدون أي مرافقين. هرعت وأبي إليه فأخذنا بالركاب لتساعده على الترجل. فلم يسبق له أبداً في حياته أن شرفنا ونحطى عتبة دارنا. ولذا بهر أبي بظهوره عندنا أكثر من انهاري أنا بكثير. ولكن سرعان ما اتضح أن الحاج جيراندوق لم يعتزم الترجل. أخذ الحصان يدور في مكانه ويقرض لجامه، أما نحن فكنا نسمك بالركاب وندور إلى جانبه.

- ليس بعيداً ذلك الزمن الذي كان فيه الكثيرون على استعداد للعراك بالسيوف من أجل اكتساب الحق في أداء الخدمة لي - قال الحاج جيراندوق وهو على حصانه الهائج - أما الآن فكما ترون أمسيت وحيداً. أما أنت يازاورقان فكنت ملزماً أكثر من غيرك . . . بالأ لتخلي عني. ألم تؤد قسمك أنت بنفسك: «طالما أن سيدي على قيد الحياة فإنني مربوط بحزامه؟ أما إذا شارف على الموت فلأمت أنا قبله؟»

أخذ بفرعني بينما تجل في صوته الألم والحسرة والإرتجاف. أما أبي فأخذ يحاول إقناعه بالترجل ودخول البيت وكأنه لم يلاحظ شيئاً من كل ذلك:

- أنت لم تدخل في يوم من الأيام إلى بيتي. كرم أسرنا ونفضل بالدخول. المهالغا أصبحت جاهزة. جرب خبزنا وملحنا المتواضعين.

تركت ركاب الحاج جيراندوق وظل أبي ممسكاً بالركاب، يدور مع الحصان الهائج ولا يرفع نظره عني. «إذا ترجل عن حصانه فامض بلمحة عين واذبح الحمل. ألا ترى أي ضيف عندنا؟» هكذا كانت عينا الوالد تقولان لي.

لا أدري هل خطر للحاج جيراندوق أن يترجل عن حصانه أم لا إلا أن أبي واصل دعوته وإقناعه بالنزول إلى أن جاءنا شاردين بن علو ممتطياً كالعادة بغله الأثير. لم يعتبر نفسه غريباً عن الدار لذا نزل عن بغله دون أن ينتظر من يدعوه إلى الدخول، ثم اقترب فوراً من الحاج جيراندوق الذي مازال على صهوة حصانه.

- ليس لك ماتفعله هنا في بيت أخي بالرضاعة. تذكر الطريق الذي جئت منه، واترك هذه الأسرة وشأنها.

تفحصه الحاج جيراندوق من فوق لتحت وعيناه تشعان بالغضب:

- حيثما سرت وأينما كنت أراك ورائي متتبعاً أثارني ياشاردين بن علو. حذار، لعلك نسيت من أنا ومن أنت. إن لي الحق في أن أكون في أي مكان أريده وكلامي قانون دائماً.

- لقد أحرقت بيدك ما كان يجعل من كلمتلك قانوناً فعلاً - أجاب شاردين بن علو بلؤم.

- كل ما كنت قادراً عليه قبل الآن هو الرد علي بنعم - قال الحاج جيراندوق - أما الآن فيبدو أنك قررت أن تقف عشرة في طريقي؟ اسمع إذًا: إذا كنت لا تريد البلاء الأكيد فاعلم أن هذه الأسرة ترغب في الرحيل معي. لا تحاول أن تقف بينها وبينني.

لكن شاردين بن علو لم يكن مستعداً للتنازل:

- إني أعرف أنك فقدت ضميرك منذ زمن بعيد، ولكن إخش ربك؛ فحاميرزا أخي بالرضاعة، وسيذهب وأسرته معي. هكذا يقضي عليهم وعلي الوفاء لحليب الأم.

وهنا لم أقمالك أعصابي. لقد كانا في تلك اللحظة مقيتين بغضين إلي على قدر المساواة.

- حتى الماشية التي يجرونها بالحبل يتكون لها حرية تحريك رأسها إلى هنا أو هناك، صحت بهما - أما نحن فلسنا ماشية بل بشر. ليس إثمًا أن تسألانا: في أي جهة تريد أن ندير رؤوسنا؟

- اصمت. كيف تجرؤ على التحدث بوقاحة كهذه مع مثل هؤلاء الناس؟ - صاح

بي والدي .

- إذا كانت أسرتك لاتريد فليكن لها ذلك ، أنا لا أجبرها . ستذهب معي أنت وحدك - صاح بي الحاج جيراندوق .

ولكن ما أن فتحت فمي لكي أرد عليه حتى أسرع شاردين بن علو ليجيب عني :
- ليس لك الحق يا حاج جيراندوق بأن تفصل الأم عن أبنائها . أجب : كم من الشبان الأويغ بعث لتركيا ولقاء أي ثمن؟؟

- لعل هناك من يفكر بأن كلامك هذا صادر عن إنسان نظيف الضمير - قال الحاج جيراندوق ساخراً . - ولكن كم من الصبيان بعث أنت إلى تركيا؟ ليس من أبنائنا فحسب بل من الأديغيين والأبازينيين ، كم اشترت وبعث؟ كم عددهم؟ . . أجب . . صمت الاثنان ، وكأنهما افتقرا فجأة إلى مايسوقانه من سيء القول وفحش الكلام بعضهما عن بعض .

- أكرر : لاتقف في طريقي . - قال الحاج جيراندوق بعد صمت قصير .
- لأدري أين يمكنني ألا ألقاك - قال شاردين بن علو . - أنت كعباد الشمس تدور برأسك إلى الوجهة التي تبدو لك أكثر دفئاً .
- اصمت . إنك تدفعني إلى سفك الدم .

- حقاً؟ إنني لأرى هنا رجلاً قادراً على سفك الدم . - أجاب شاردين بن علو بوقاحة صارخة ناظراً إلى عيني الحاج جيراندوق مباشرة .
- بالك من محرض . الآن عرفت لماذا حافظت على حياتك ووقيتها في المعارك مع الأعداء . يبدو أنك ترغب في تلقي الموت من يدي ، وليس من أيديهم؟ - صاح الحاج جيراندوق هائجاً وقفز عن حصانه متوجهاً إلى شاردين بن علو شاهراً خنجره .
لم يتحرك الأخير من مكانه بل استل بدوره خنجره . ولكن قبل أن نهرع نحن إلى الفصل بينهما صرخت أمي بهما ناهرة :

- تذكرا أنكما ولدتما من امرأة . - ونزعت عن رأسها مندبيلها وألقته بينهما قبل أن يلتقيا .

توقف الاثنان بعد أن كانا على وشك العراك حتى الموت ثم أخذوا يشادلان نظرات الكره صامتين . وأخذت جعب الرصاص من سدرجها ترتفع تارة وتنخفض تارة وفق

تنفسها الثقيل المضطرب .

- ستندم على هذا يا زورقان . صاح بي الحجاج جيراندوق عندما اقتربت لأمسك له بالركاب .

قفز إلى سرح حصانه ونحز جواده فطار به من باحة دارنا . أما شاردين بن علو فأخذ يمشي جيئة وذهاباً في باحة الدار بضع دقائق .

- هل أنت جاهز للرحيل؟ - سأل بعد أن توقف وتوجه لأبي .

- وماذا علينا أن نجهز؟ - والتفت أبي برأسه إلى البيت - ليس بوسعنا أن نأخذه معنا . ما أن تشير لنا حتى نتجه جنباً إلى جنب معك دائماً .

- سنبحر على سفينة تركية كبيرة: «سوري بحري» . إنها كبيرة جداً كما يقولون . فيمكن لها أن تأخذ أربعة آلاف إنسان دفعة واحدة . وافق القبطان على نقلنا بسعر زهيد ، حوالي ستة روبلات لقاء الشخص الواحد ولكنه يريد النقود سلفاً أي حين نصعد إلى الباخرة . كيف حالك والنقود؟ - سأل شاردين بن علو والدي .

- لا أدري هل بوسعي تدبير ذلك ولكنني سأحاول . - قال أبي .

- لو كنا في وقت آخر - غير هذا لدفعت عنكم جميعاً . أما الآن فليس لدي ما أدفعه بعد أن ذهبت نقودي . - قلب شاردين بن علو يديه ومضى إلى بغله .
ألحت الوالدة عليه أن يتناول الغذاء ولكن همومه كانت بعيدة عن الطعام في هذه المرة .

- الحجاج جيراندوق الآن كالكلب المسعور - قال وهو يركب بغله . - أخاف أن يغري جيرانك أيضاً . اجتمع في المساء في بيت من البيوت ، وسأني بنفسني إليهم . . .
ثم بعد أن تجاوز البوابة التفت ثانية ليعطي إيعازاته الأخيرة لأبي : - وليجمع كل منهم حتى المساء مالديه من النقود .

كانت آخر كلمة صاح بها مودعاً هي النقود . أما نحن فوقنا طويلاً في منتصف باحة الدار حائرين ذاهلين . لم يكن بوسعنا أن نفيق إلى أنفسنا بعد مارايناها وسمعنا .
بقي مندبل أمني الأبيض على الأرض . اقترب أبي ورفع من مكانه ونفض عنه الغبار قائلاً لها :

- لبيق دائماً على رأسك الأشيب . وليبق دائماً أبيض لايحل محله مندبل أسود .

لقد أنقذتوا دماء ضيفين في بيتنا. ولكن ومع أن الدم لم يسفح الآن فأنا أشعر بالرعب. إننا نهجر أرضنا، ونمضي في درب لاندري إلى أين بقود. أما حماتنا فيتنازعون علينا وكأنهم يقتسمون فيها بينهم ماشية. لم يبق شيء يقتل أحدهما الآخر من أجله. أوه يا إلهي أيعقل أنك تكرهنا إلى هذه الدرجة؟

اقترب أبي من أمي ببطء شديد وأعطها مندبيلها. أما أنا فتذكرت كلمات الحاج جيراندوق: «ستندم بازاورقان» - وأخذ القلق يلهب قلبي. لم أتمكن طوال المساء وكل الليل من التخلص من تلك الهواجس التي أملت بي. وهرعت قبل الفجر إلى الينوع، حيث كانت فيلديش تأتي عادة في الصباح جلب الماء. كان ذلك المكان بعيداً عنا قريباً من بيتها. وكنت أعلم في أي وقت وفي أي مكان يجب علي انتظارها. كنا نلتقي خلال سنتين هناك في ذلك المكان. والثقبنا في هذه المرة أيضاً عند التبع تحت شجرة كستناء. كنا ننف نفثتها دائماً وكاننا تحت خيمة خضراء تقينا المطر أو الشمس. ولكنها أصبحت الآن جرداء بخرقها المطر الذي يهطل بشدة على الأغصان المبتلة وعلى وجوهنا. ولكننا لم نرغب مع ذلك في مبارحة المكان. ذكرتني فيلديش أكثر من مرة بأنهم ينتظرونها في البيت ولكنني أخذ يدها بيدي في كل مرة فتمتل لي وانتظر وقتاً آخر.

- كيف سيكون حالنا الآن يا فيلديش؟ - سألتها أنا. - هل مايقولونه عن حاميكم

الحاج جيراندوق حقيقة؟

قال لي أبي إنها الحقيقة. تحدث مساء أمس إلى جيراننا فقال إن الحاج جيراندوق قد حصل على موافقة جنرالات القيصر بنقل الفلاحين الموالين له عبر البحر على حساب الدولة.

- وماذا سمعت أيضاً؟

- سمعت أيضاً أن الحاج جيراندوق قد فرز الفلاحين وحدد لهم السفن التي سيبحرون عليها، كما حرم عليهم الخروج من قراهم إلى سواها حتى موعد الإبحار. ومنع الفتيات والشبان من الزواج من قرى أخرى. . .

- ولكن ألا يريد أن يوقف الحياة أيضاً؟ - صحت أنا بيأس قاتل.

لاحظت ياسي وضغطت بيدها على يدي.

- وعد أبي اليوم بالذهاب إلى الحاج جيراندوق ليتضرع إليه راعياً كي يسمح

لأسرتنا بالسفر مع أسرنا . إنه لا يريد أن يفرق بيننا .
كم كانت رغبتها في مواساتي صادقة ! . كم كان مرأً وصعباً علي أن أسمع أن أباه
مستعد للركوع والرجاء الذي لا أمل فيه .
- قولي لأبيك ألا يهين نفسه عبثاً . لن يوافق جيراندوق على هذا أبداً . إنه يسعى
للإضرار بأخينا بالرخصة شاردين بن علو وإغاظته .

صمت فيلديش ونحارت قواها إثر تلقيها هذه الضربة الجديدة ثم ساعها صوت
أمها المضطرب الذي تنهى إليها من بعيد بدعوتها بإلحاح . ارتشعت فيلديش وتلففت
الإبريق وأسرت بالنزول نحو الينوع .

- لا تطلبي شيئاً من أحد ، - قلت لها وقد لحقت بها - تعالي بعد غد - حين تيزغ
الشمس - إلى هنا ، إلى شجرة الكستناء هذه سأخبر أهلي وأتزوجك . ثم تذهبين من هنا
معي بعد الغد .

- ولكن ماذا سيحل بأهلي؟ - قالت فيلديش وبكت .
ضممتها للمرة الأولى إلى صدري وأخذت أمسح دموعها عن وجهها الباكي .
انتفضت فيلديش لتأخذ الإبريق ، إلا أني تقدمتها وملأته بنفسي بالماء . فحسب مايقال :
الإبريق الملىء - طالع حسن . ولكن ، أكان بإمكانها أن أعلم أن ذلك اليوم كان
آخر يوم سعيد بالنسبة لكليتنا؟ .

رفعت الإبريق ووضعتة بنفسي على كتفها ، ولم أمض وراءها بل أخذت أنظر
بإثرها ، كيف تسير عبر الدرب الملتوي كالأفعى صاعدة الجبل . . وكيف يميل قدها
النحيل إلى اليمين تارة وإلى الشمال أخرى وكيف تنساب على ظهرها صغيرتها
الكستناويتان الطويلتان .

- أين أنت يا فيلديش؟ وصل صوت أمها إلينا من فوق .
- آتية ، آتية لا تخافي يا ماما . - ردت فيلديش .
أكان بوسعي أن أعلم عندها أني أسمع صوتها لآخر مرة؟
بل ، لا ، ليس هذا صحيحاً ، لقد سمعته مرة أخرى في حياتي ولكن سنتحدث
عن هذا فيما بعد ، فيما بعد يا عزيزي شاراخ . ولن نصل إلى ذلك قريباً . فلنكي أسرد
عليك سيرة حياتي كلها ينبغي علي أن أقصها أولاً بأول ، وإلا فإنني سأخلط الأمور .

قضت أسرنا طيلة ذلك اليوم منهكة في الاستعداد للرحيل . لم يبق أحد منا عشيّة الرحيل طوال الليل . حضرنا كل ماأرذنا أخذه في سفرنا وجلسنا صامتين قرب موقدنا الذي اتقد لأخر مرة . منع أبي أمي من البكاء معتبراً أن البكاء والدموع قبيل السفر في الطريق الطويل فال شر كما قبيل السير إلى الحرب . ولكن لم تقو أمي على تمالك نفسها ، فغطت وجهها بمنديلها لكي تخفي دموعها ثم أخذت دموعها تنز من خلال المنديل ، فطرة فطرة وتسقط على ثوبها . أه ياإلهي كم سكبت من الدموع عندها! أين كان غيباً بحر الدموع لديها؟ كانت تبكي خوفاً علينا وعلى أخوتها في تسييلدا ، فهي لاتعرف شيئاً عنهم ، كما لاتدري بحال ابنتها الكبرى المتزوجة سوى أنها أبحرت أيضاً .

هكذا مرت تلك الليلة العصيبة وأطل الصباح فخرجنا إلى باحة الدار . خرج أخي على عكازتين صنعتهما له أنا وأبي . أجبرنا أبي على تناول الفطور وكرر على النساء أن يأخذن أكثر مايمكن هن من الطعام في السفر . لم نحلب البقرات ولم نظردها من باحة الدار . بل تركناها هناك على هواها .

انشغل الأهل بآحر أعمالهم قبيل مغادرة المكان وخرجت من الدار مسرعاً إلى الينسوع حيث اتفقت مع فيلديش . لم يعقني شيء ولم أسأل أحداً عن شيء . فلا يجدر الكلام في مثل هذه الأمور ، ولكنني أفهمت أمي وأبي عشيّة اليوم بأنّي سأتيها بفيلديش وكنت أعلم أنها مستعدان لذلك .

ركضت عبر الغابة مسرعاً ، وعلى الأغلب أنه لم يكن بوسع أي فارس أن يدركني . فالشباب يطفح بالأمل دائماً رغم الصعاب . ركضت دون أن ألثغ إلى الأغصان التي أخذت تخر جسمي وتصورت كيف سأخذها إلى البيت ، وأناادي أختي لاستقبالها قائلاً : «هاهي كنة البيت» .

كنت أعلم أن لدى الحاج جيراندوق الكثير من المشاغل ، فليس من السهل جمع كل تلك الأسر الأربعمائة من الفلاحين الموالين له وسوقهم في الطريق . وبدا لي أبي سائئك من إنقاذ فيلديش في ذلك اليوم بالتحديد وفي غمار تلك البلبلة . وصلت أخيراً إلى شجرتنا الكستنائية ولكن لم أجد هناك أحداً تحتها . درت في مكاني على عضي حول شجرة الكستناء تلك ، وأنا لأدري إلى أين أمضي . بت كجريح على حافة الموت عاجز عن الحركة ، يترنح في مكانه خائر القوى محطم النفس . ولحظت

عند الينبوع إبيرقاً محطماً على العشب الربيعي الذي بدأ بالنمو من وقت قصير.
لماذا هو مرمرى هنا ومحطم هكذا؟ لعلها كسرتة عن غير قصد، حين حاولت رفعه
إلى كتفها؟! بل لعلها فعلت ذلك إشارة إلى أننا لن نلتقي بعد الآن؟ شعرت بأن ماحدث
لا يمكن رده أو إصلاحه. وركضت إلى الجبل دون حجل من أن يراني أبوها وأمها.
اندفعت إلى بيتها، فبلغت بوابته بعد دقيقة واحدة.

باحة الدار فارغة؛ لاماشية ولا كلاب. أبواب البيت موصدة بإحكام شديد؛ أما
حوله فكل شيء ساكن وفارغ. ولمحت قطعة سوداء على السطح ماأن رأنتني حتى ماءت
فجأة وكأنها تسألني: «أين كنت حتى الآن؟ وماذا بوسعك أن تفعل هنا بعد أن انقضى
كل شيء؟».

ولقد انطلقوا في طريقهم قبل الموعد الذي توقعته. «حين أدركت ذلك أمسيت
مستعداً لأن أمزق الحجاج جيراندوق بأسناني كالوحش الكاسر وأن أقطعه إرباً إرباً مع أني
كنت إلى وقت قريب مستعداً لتقديم حياتي فداء له. ولكن ماذا بوسعي أن أفعل الآن
والسفينة التي تحمل فيلدبش قد أمست بعيدة في إحارها الطويل؟

عدت إلى البيت وأخرجت حصاني بزاو وهو آخر حصان عندنا. فقد قتل حصان
أبي وحصان أخي في المعارك الأخيرة. نزلت مع حصاني إلى النهر فغسلته، وعدت به إلى
البيت، أطعمته للمرة الأخيرة قليلاً من الذرة الصفراء وأخرجته ثانية من البوابة. حين
رأتنا أمي وأختاي أغمضن عيونهن وأخذن يبكين. أما حصاني بزاو فلم يفهم شيئاً، أخذ
يخطر مرحاً نشيطاً ورائي، فيداعبني برأسه أحياناً أو يدفعني من كتفي، وكأنه يقول لي:
«امتط صهوتي».

وصلنا إلى المرج الفسيح حيث كنت أقوم هناك في بعض الأماسي بألعاب الفروسية
ممتطياً حصاني بزاو. أخذ الحصان يدور حولي فرحاً ويشد لجامه.

- يا صديقي المخلص بزاو كم مرة أنقذتني من الموت! أما الآن فإنك ستموت على
يدي. - قلت ذلك وبكيت بحرقه شاداً حصاني إلى رقبتي.

بعد ذلك خلعت لجامه، وأطلقته في الحقل. فحسب أعراف شعبنا لا يجوز أن تقع
خيولنا - كما لا يجوز أن تقع نحن - في أيدي الأعداء. وينبغي أن يقتل الحصان بيد
صاحبه الذي رباه.

لَقَمْتُ مسدسي ووضعت إصبعي على الزناد . لم يتعد يزأو عني ، كان يرعى قربي
ملوحاً بذيله الطويل الجميل .

والأسهل علي لو أن الذئاب مزقته إلى قطع . - فكرت وأنا غير قادر على إطلاق
النار .

ثم أخيراً سددت إلى أذن الحصان وضغطت على الزناد . إلا أن المسدس لم يطلق
النار .

شدت الزناد بصعوبة وألم مرة أخرى فانفض الحصان بجرحه المميت بضع
مرات ، وكأنه يتأهب للقفز وتخطي الموت ، ولكنه وقع على المرح ورأسه باتجاهي . ودوت
بضع طلقات أخرى في البعيد . كانوا يقتلون خيولهم هناك أيضاً . لعلي أحسست بأنني
لا أعرف الرحمة أول مرة في حياتي في تلك اللحظة .

واريت بزأو بنفسي التراب ، ووضعت حجراً فوقه ثم توجهت إلى المقبرة . كنت
أعلم أن أسرتي كلها هناك . وهكذا كان . سمعت من بعيد بكاء وأنين الناس الذين
اجتمعوا حول قبور ذويبهم . وحين اقتربت أكثر رأيت أبي راكعاً على ركبتيه أمام قبوري أمه
وأبيه ، يبكي حانياً رأسه الأشيب ، ضارباً صدره بقبضة يده . وكان أخي الأصغر واقفاً
قربي متكئاً على عكازتيه . فلم يسمح له الجرح بأن يركع على ركبتيه . أما أمي وأختاي
فوقفنا بعيداً عنهما بجوار قبر صغير لأخي الأكبر الذي مات طفلاً . وقفن جميعهن
بشعورهن المنفوشة ، يبكين بحرقة ومرارة وينزعن عن القبر الأعشاب الضارة التي نمت
هناك منذ مطلع الربيع . نادراً ما رأيت أهلي دموعي حتى في طفولتي ولكنني في ذلك اليوم
بكيت للمرة الثانية في ذلك الصباح وأنا إلى جانبهم .

بكت والدتي عند قبر ابنتها ثم اقتربت من أبي وندبت عبر دموعها والديه قائلة :

«ارقدوا بسلام أيها الجد وأبنتها الجدة فحفيدكما قريب منكما ولن يدعكما تشعلان
بالملل . أما نحن المساكين فإننا ذاهبون ولا ندري إلى أين ؟ » .

بكت في ذلك اليوم بلاد الأوبيخ كلها وكان كل بيت من بيوتها يشيع ميتاً في آن
واحد .

عزيزي شاراخ ، هل تبيأ لك أن ترى في وقت ما كيف يبكي الشيوخ والأطفال
معاً ؟ إذا لم تر ولم تسمع ذلك سابقاً فلا قدر الله أن تراه وتسمعه في يوم من الأيام . فليس



هناك على الأرض ماهو أفتقع من هذا . لا أدري كيف قدر لجبالنا أن تتهاك ولا تنهار
إثر سماعها ذلك البكاء والنواح . كيف صمدت أنهارنا وجداولنا ، فلم تصبح مالحه
كالبهار من الدموع التي انهمرت في ذلك اليوم .
بكيينا طويلاً ثم تركنا (عند القبور) أباريق الحمر والطعام التي جئنا بها للموتى
مواسين بهذا نفوسنا وتوجهنا كل إلى بيته .

أمسى البيت بارداً بعد أن خمد موقده . خرج والدي من باحة الدار حاملاً قدر
الماليجا الباردة ونادى كلابنا إليه . رمى بالماليجا إليها خلف البيت لكي تأكل وتشتغل عنا
فلا تلحق بنا ، ثم عاد إلى داخل البيت . وقفنا جميعاً بلا حراك ونحن ندرك أننا سنذهب
الآن إلى حيث لا عودة على الأغلب . ماأشد ما يصبح الإنسان ضعيفاً ذليلاً حين يجهل
ما ينتظره .

- حان الوقت - قال أبي - أرى الجيران يخرجون من بيوتهم .
رفع والدي رأسه وهو يقف في منتصف البيت وأخذ ينظر إلى السقف وكأنه يرى
السما من خلاله .

- أوه بالهي باركنا نحن المساكين .
ثم اقترب بعد ذلك من الموقد .
- لقد أعطيت دفاك لأجدادي وأبي وأمي وأدقاتي وأدقات أطفالي . سامحي لأبي
أطفؤ نارك .

سحب أبي السلسلة المسودة من سخام الموقد وقبلها . ثم استل خنجره ، وحفر به
الأبض عند الموقد ثم أخذ حفنة منها ، فوضعها في كيس صغير متين مربوط بحزامه .
- حين أموت انثروا هذا التراب على صدري - قال أبي ذلك لي ولأخي - أما الآن
فعلينا أن نمضي . أغلق أبي الباب وكان آخر الخارجين من البيت فصرّ الباب بصوت
ثاقب وكأنه يشكو قائلاً : « ماذا تفعلون ؟ » وأخذ أبي يدعو من جديد :
- أوه بالله ، لتُفتح الأبواب أمامنا هناك حيث نقصد ، فليكن لنا بيت ناوي
إليه .

كلما ابتعدنا عن بيتنا ازداد عدد الناس الراكبين أو السائرين إلى جانبنا . كان
جيراننا ينقلون على عربة أمهم المريضة التي لم تنهض من خمس سنين من سريرها .



- لماذا تحملوني ؟ - كانت تن من خلال دموعها - ادفنوني هنا واذهبوا .

أخذ الشعب يتجمع أكثر فأكثر على الطريق . فإذا التفت الانسان إلى الوراء فلن يرى نهاية الراحلين . كانوا يسرون صامتين منكبي الرأس .

وبعد بضع ساعات سمعت أصواتاً عالية تنبعث من مكان النقاء طريقنا بطريق آخر : كانت جبهة من الناس تعترض الطريق . ركضت مع بعض الشباب الآخرين إلى أمام فتخطينا الشيوخ والنساء ورأيت هناك أمام الجموع التي توقفت أحمد بن بركاي معترضاً المسير شاهراً سيفه . أما حصانه ذو اللون الثلجي فيخطر قربه مربوطاً بشجرة عند الطريق .

- اقتلوني ، ولكن طالما أحي فإنيكم لن تمروا قربي . - كان يصرخ ملوحاً بسيفه - عودوا مادام الأوان لم يفت بعد . عودوا إلى بيوتكم التي تينمت وأشعلوا مواقدتها التي لم تحمد بعد نهائياً .

- ابتعد عن الطريق يا أحمد بن بركاي . السفن بانتظارنا .

- تنتظركم السفن . ولكن حين تعلمون أنكم خدعتم فلن يعيدوكم من حيث أتيتم . لقد كنت في تركيا أكثر من مرة وأعلم أن بانتظاركم هناك الجوع والعبودية أو الموت . سيأخذ السلطان أبناءكم ويسوقهم تحت أسنة الحراب إلى الحرب ولن يعودوا بعد ذلك إليكم . لهذا يدعوكم إليه ، لهذا فقط .

صاح أحمد بن براكاي . ولكنه وإن أوقف الجموع السائرة بضع دقائق لم يكن لدى أحد رغبة في الاستماع إليه .

- ماذا تريد أنت ؟ - سألوه - أتريد أن يعمد الكفرة أطفالنا هنا بالقوة : نحن مسلمون ونبحر إلى أرض مسلمة .

- إنكم سائرون إلى الهاوية ، إلى الهاوية - صرخ أحمد بن بركاي وكأنه فقد عقله .

- أيها الناس أليس لدى هذا المجنون أهل يستطيعون تهدئته ؟

- أخوه ناورز أبحر من زمن بعيد .

- لانتقربوا مني - واصل أحمد بن بركاي هياجه وتلويحه بالسيف أمام الجموع التي اختلط عليها الأمر - طالما أنكم لم تقتلوني فإني لن أسمح لكم بالمرور . من ذهب قد ذهب ولكن أنتم على الأقل . . عودوا ، وحافظوا على أصلكم .

إيه يا أحمد بن بركاي . لو كنت ترجو لنا الخير لوجب عليك ألا تتخلف عن شعبك ، ألا يجب عليك أن تُضفي معه إلى حيث يتوجه ؟
- لماذا لا أرى فيكم رجلاً حقيقياً واحداً يقتلني كيلا أرى كيف يلاقى شعبي حنفة ! واصل أحمد بن بركاي صياحه دون أن يتراجع خطوة واحدة .
ولكن الجموع دفعته وفي مقدمتها النساء والأطفال ولم يكن يوسع المساس بهم ، فتنحى جانباً والناس يدفعونه أبعد فأبعد ثم يتجاوزونه دون أن يلتفت أي منهم إليه بعد أن يتخطاه .

بات عددنا يزداد كلما اقتربنا من البحر . سار أمامنا العجوز الأعمى ساكوت الذي أمسك حفيداه بيديه من الجانبين . . . لقد سمعته منذ وعيت نفسي يعزف على آلة الأبخيارتسا* في كل الأعياد . حين سرنا في البداية لم نلاحظه على الفور ولكن حين اقتربنا من البحر رأيناه وقد أخذ آتته فد وزنها ومرر عليها القوس . عزف أولاً ، ثم بدأ الغناء . كان يسير بخطى ضعيفة ولكن صوته صدح قوياً وصافياً كما عهدناه دائماً حتى صعب عليها أن تصدق أنه صوت عجوز .

أوه أي مصير مر
أي مصير عسير
حفنة من تراب الوطن
وبحر زاخر كبير
تفرغ الأرض من البشر
والوقوف يجمد على الغصن
فلن يتنبأ بطول العمر
وأي مصير عسير
أود عثم موتاكم يا بشر ؟
أقلتم لهم إلى أين نسير ؟
قولوا لهم إننا لن نعود

(★) الأبخيارتسا : آلة موسيقية شعبية أويخية شبيهة بالربابة .

فلا يمدح الموتى . . . إلا الحفير .

كان الناس يتوافدون ويزدادون بإطراد ويسمعون وهم سائرون أمام ساكوت وخلفه
صوته وأصوات آله الأبخيارنسا .

لنلتفت إلى جبالنا الآبية
فهي لا تدرى إلى أين نسير
ونترك لها أغنية شجية
فتصدح هنا دائماً كالنفير
تفقد الأم طفلها وهو يجبو
فهل هي حقاً مذنبه
تسأل الأرض عنا وتشكو
لمن أبقى يا قوم سائبة ؟
لماذا الرحيل أيها الأطفال
تبكي أرضنا وتطلب المحال
ساعيننا نحن حقاً يؤساء
نحن لا نقوى هنا على البقاء
أرواحنا ستبقى هنا
قبل أن يأخذها الفناء
أرواحنا ليست لنا
فلتبق في هذه الأرجاء

أوه ياإلهي كم سنة مرت ، كم سنة طويلة مرّت منذ ذلك الزمن وأغنية العذاب
هذه ترنّ في أذني . رأيت مرات عديدة كيف تنبت وتنمو سنبله سامقة من بذرة تقع عل
الأرض رأيت مرات عديدة كيف تولد الحياة من العدم ولكني سمعت مرة واحدة فقط
كيف تولد الأغنية . لقد شهدت ولادتها في ذلك اليوم الفظيع ونحن في طريقنا إلى
البحر ، وبقيت معنا إلى الأبد . فحين تنوء أكتافنا بخطب من الخطوب نجتمع معاً ونردد

تلك الأغنية مع من يعرفها أفضل من غيره . نغنيها حتى ينالنا التعب ولا أدري هل تصدقتي إذا قلت لك باعزيزي شاراخ : كان ذلك التعب يريحنا ويمتعنا .

حين وصلنا الى الشاطيء ، لم نجد هناك موطيء قدم . كان الناس والماشية محتشدين متزاحمين . لقد حذرنا شاردين بن علو سلفا ونبهنا إلى مايمكن أخذه معنا ولا يجب أخذه . ولكن الكثيرين منا أملوا أن يتمكنوا من أخذ الماشية معهم فساقوها إلى الشاطيء .

كانت البواخر والسفن الشراعية راسية بعيداً قليلاً عن المنحدرات الشاطئية ، أما الزوارق فكانت تنقل الناس جيئة وذهاباً الى تلك البواخر والسفن الشراعية .

نقل أخونا بالرضاعة شاردين بن علو أسرته وكل ماحمل معه على إحدى السفن الشراعية . الحق أنه وعدنا في السابق بالإبحار على باخرة كبيرة ولكن اتضح أن ذلك مجرد وعد.لقد عاد من السفينة إلى الشاطيء كيلا يتخلف عنه أحد وكيلا يسرق منه في تلك اللحظة الأخيرة أحد ممن يعتبرون مواطنيه ثم أخذ ينتظرننا على الشاطيء عابثاً بسبحته . كانت على رأسه عمامة تركية ، لا قبعة فرائية . لم أتمكن من أن أقول له شيئاً جهراً إلا أني قلت في نفسي : « إذا كنا لا نقدر على أن نتعرفك هنا فكيف سنعرفك هناك ؟ » .

- هل جاء الجميع ياحاميرزا ؟ - سأل شاردين بن علو والذي .

أجاب والذي بأن الجميع هنا .

لانتظروا إذا ، ابدأوا بنقل الناس على القوارب . ولكن لا تأخذوا معكم أي كائن حي . لاشيء عدا الناس - كرر تحذيره لنا بإصرار .

لم يكن هناك فائدة من الإنتظار وبدأنا العمل . أخذت القوارب تحمل الناس من الشواطيء وتعود فارغة لكي تُثقل بهم من جديد . أخذ الأتراك يستعجلوننا ويصبحون بنا . ولكن كما يقال عندكم أنتم الأبخاز « غن مع صاحب القارب الذي تجلس فيه » وهكذا بنتا تتحمل صامتتين الشتائم بل والرفسات أيضاً .

مالت الشمس إلى الغروب ولم تبق هناك روح واحدة عدا الماشية الجائعة الهائجة . كنت أنا وبعض الشباب آخر الناس.نقلنا كل جيراننا ثم قبلنا الأحجار هناك وقفزنا إلى القارب .

لماذا لم أمت ؟ لماذا لم ينفجر قلبي حين وطئت بقدمي الأولى قعر القارب وقدمي

الثانية على الشاطيء ؟ أية سعادة كانت عندئذ وكم من البؤس والشقاء كنت تجنبت في حياتي الطويلة ؟

وابتعد قاربنا الأخير أكثر فأكثر عن الشاطيء ، وهو يهتز ذات اليمين وذات الشمال وفجأة التفت إلى الوراء لأرى ويرى معي الجميع فارساً طارداً على حصان ثلجي اللون ثم بلغ الشاطيء وعرفنا فيه على الفور أحمد بن بركاي . قفز عن حصانه ، ونزع عنه اللجام وأطلقه في حال سبيله ، أما هو فبقي واقفاً وسط الماء على حافة المنحدر . لوح بيديه وصاح بصوت عال لنا ، ولكن الريح هبت من ناحيته وبددت كلماته فلم تصلنا . - لنعد ونأخذ معننا ، - قلت لجيراني في القارب . - لا يجوز لنا أن نترك هذا الإنسان وحيداً تماماً .

صمت جيراني في القارب وترددوا في أمرهم وكيفية التصرف ، إلا أن أحمد بن بركاي حسم ذلك بنفسه . سمعنا طلقة مسدس وبدا لي أني رأيت هالة صغيرة من الدخان الأزرق . صدحت الطلقة إلا أن أحمد بن بركاي بقي واقفاً على حافة المنحدر ثم ترنح قليلاً بعد ذلك وهوى إلى البحر . أما حصانه الذي أصابه الذعر فقد أخذ يعدو في الشاطيء الصحراوي .

ذهلنا جميعاً . فهناك في الطريق حيث أوقفنا لم يرغب أحد في الإنصات إليه . ولكن موته الآن ملاً قلوبنا بالقلق بعد أن هزها هزاً . من تصرف هكذا مع نفسه كان عالماً حتماً بحقيقة غابت عنا جميعاً . هكذا فكرنا ونحن في القارب بعد أن أصبح تفكيرنا هذا متاخراً . بلاد الأوبيخ أمست فارغة أما جثة أحمد بن بركاي البائسة فتتقاذفها الأمواج جيئة وذهاباً بين أحجار الشاطيء وكان البحر والشاطيء يتجادبان ويتنازعان فيما بينهما .

مالت سفينتنا الشراعية الطرافحة بالناس إلى أبعد حد على جنبها وتوجهت إلى عرض البحر . ثم كلما ابتعدنا عن الشاطيء أخذت مشارف جبالنا على الأفق تختفي أكثر فأكثر . تلك الجبال التي ألفتها منذ نعومة أظفاري ونموت على صدرها . إنني أذكر حتى الآن كل ننؤ فيها كما رأيته في آخر لحظة .

كلما ابتعدت السفينة أكثر غمرت زرقة سماء المساء الجبال الحبيبة ، ثم اختفت تماماً بعد قليل عن الأعين كلها .

وعزف العجوز الأعمى ساكوت على آله الأبخيارتسا . لم يعد يغني ، بل أصبح يعزف عليها فقط . كانت أصواتها تسمع بشكل جيد أحياناً وسيء أحياناً أخرى فتارة يطغى هدير الموج وأخرى يعلو أزيز القسوس ، ولكنني سمعت فعلاً كيف صمت الأبخيارتسا فجأة . صمتت وتجمد قلبي توأ . واقتربت من العجوز . كان يجلس على ظهر السفينة مرتدياً بزته الشركسية واضعاً تحته قلنسوته . نام حفيده اللذان سارا معه طوال اليوم ، ناما على جنبيه واضعين رأسيهما على ركبتي جدهما . يبدو أنه نام هو أيضاً ، فكرت أنا ولكنني حين اقتربت منه أكثر وجدته يقظاً تنساب دموعه قطرة قطرة على وجنتيه وحبته الشائبة ثم تتساقط على آلة الأبخياريسا التي يضمها إلى صدره وكأنها الحفنة الأخيرة من تراب أرض الوطن .

«أوه يا الله - فكرت أنا - أيعقل أنه يرى الآن بعينه الضريرتين من خلال ضباب البحر تلك الملامح الغامضة الأخيرة لأرض الوطن التي لا عودة لنا إليها !»

الفصل الثاني

أين أرض الجنة الموعودة ؟

لم أنم تلك الليلة وقبعت منذ الفجر الباكر أنتظر العجوز في فناء الكوخ مجهزاً
دفترتي وأقلامي + عم سيحدثني اليوم ياترى؟! .

السماء ملبدة بالغيوم منذ الصباح . نعم الأرجاء سهوب هادئة تبدو وكأنها تصيخ
السمع معي إلى صوت الأوبيخي الأخير ، لتعرف ما حل به لاحقاً على الأرض الغربية
التي لم يتسن له أن يبحر إليها بالأمس عبر حديثه الحزين .

هل وسعني أن أتصور حين قصدت هذا المكان أني سألتقي هنا في أطراف تركيا
هذا الإنسان الأبر الذي مازال يتكلم بلغته الأوبيخية الأم ؟

بودي أن أعبر عن إمتناني ثانية لكون أمه أبخازية ولأن لغة وطني أصبحت خيطاً
رفيعاً صار بوسعه بالأمس وسيكون بوسعه اليوم أن يربطني به . فلو أنه لم يعرف اللغة
الأبخازية أو أنه نسيها بعد مرور الزمن الطويل لما وجدنا مخرجاً مناسباً لنا ، ولوجب علينا
لهذا السبب من جهة ولمعرفتي الضحلة بالأوبيخية من جهة أخرى أن نتنقل إلى اللغة
التركية . ولاشك أنه لو حدث هذا لكان من سخریات القدر المرّة .

أوه يالتلك المهجرة . . . المهجرة التي بدأت منها مأساة الأوبيخ . هذه الكلمة
اللعيبة عرفتها منذ الطفولة مع أني لم أدرك معناها كاملاً في ذلك الوقت .

لقد أفرغت هذه الكلمة البلاد الأبخازية من أهلها ثلاث مرات متتاليات .
حين يجلس كهولنا معاً ويتحدثون عن أمر أو حادثة قديمة من الماضي فإن بعضهم

يؤكد أنها جرت في زمن الهجرة الأولى بينما يؤكد الآخرون أنها جرت في زمن الهجرة الثانية . ولو سئل أبي لومان متى ولد لأجاب على الفور أنه ولد في السنة الثانية بعد الهجرة الثالثة .

نعم لقد حفرت هذه الكلمة في ذاكرتنا بقوة . وحين يقولون أمت الهجرة بشعب من الشعوب أتصور بخيالي الطفولي أن مياهها دافقة كثيرة اختطفت الناس وحملتهم إلى مكان بعيد .

ومع أن هذه المياه الدافقة الكثيرة ابتلعت عشرات الألوف من الأبخاز فإن مصير شعبنا في نهاية الأمر أمسى مختلفاً عن مصير الأويغ ، فلم يحدد موقد الأبخازيين الذين بقوا في وطنهم بل واصل اضطرامه وتوقده . ولم يكن مستبعداً أبداً أن يحدث عكس ذلك ، فيسير شعبنا بجموعه كلها طوعاً أو إكراها في طريق الأويغ المؤدي إلى الهلاك المبين .

ويتساءل المرء هنا : « من تسنى له عندها أن يأتي إلى هذا المكان متتبِعاً آثار الشعب الدامية ليدرس اللغة الأويغية أو الأبخازية . من كان ذلك الإنسان ؟ » في كل الأحوال : شخص غربي بالطبع فلم يكن مجيبي ممكناً وكذلك ولادتي .

كل مالدي اليوم ، دراستي اختصاصي ، وطني ، أساتذتي ، تلاميذي - كل هذا ما كان له أن يكون بكل بساطة وجلافة .

.. ماسمعته من هذا العجوز الأبر ، من هذا الحي الأخير بين الأموات يقول لي : إن طريق الأويغ المميت قد فرض عليهم كالقضاء والقدر ولم يتسن لهم إطلاقاً اختيار مصير آخر . ومع هذا فأنا ابن شعب عانى الكثير الكثير أيضاً وتاريخه مشابه جداً وإن اختلف مصيره . لقد جئت إلى هنا من بلد يقول ماضيه :

« نعم لقد تحتم فعلاً وقولاً أن يحدث معنا كل ما حدث معهم » . تحتم أن يحدث ولكنه لم يحدث . وطالما تم الأمر كذلك فإن المنطق الذي يقضي بحتمية فناء الأويغ منطوق أخرق مبني على تناقض حاد لا يمكنني التفاوضي عنه .

... أجمع في ذاكرتي كل ماهو متشابه في تاريخنا وتاريخ الأويغ ، ولا يسعني أن أوافق بل ولا أريد أن أوافق على أن مصيرهم قد قُدَّ على هذا النحو منذ الأزل وإلى الأبد . إن وجودي - أنا الأبخازي - هنا في هذا المكان يناقض ذلك المنطق الذي لا خير

فيه ولا جدوى منه على الإطلاق .

- بإذا تمنع التفكير ؟

إلتفت فرأيت زاورقان .

انفضت واقفاً وسلمت عليه وأجبت عن أسئلته الطيبة العجولة : كيف نعمت؟

هل كان سريري مريحاً ؟ هل جعت ؟ . . .

ثم هبط بيظه جالساً على مقعدة الذي صنعه بنفسه واستند إلى جذع الشجرة . . .
ومضت نظرته من فورها بعيداً إلى مكان ما . لم يلفظ بعد ذلك كلمة واحدة سواء
بصددي أو بصدد المكان الذي يحيط بنا، بل وسرعان ما عاد إلى هناك . . . إلى السنوات
المئة الماضية حيث تواصل أفكاره حياتها الخاصة .

واكبت الأمواج طريقنا كله وكأنها تريد اللحاق بالسفن التركية التي غادرنا عليها
أراضي الألباء . لا أخفي عليك ياشاراخ أن نفوسنا صنعت أعشاشا ليس للإضطراب
والقلق فحسب بل وللأمل أيضاً . ها قد أصبح البحر خلفنا . ثم ها قد وصلنا مختارين
مصر النازحين شيوخاً وشباباً ، نساء ورجالاً . . . وصلنا إلى شاطئ الأرض التي لم نرها
سابقاً . ولكن بالأسف . . . لم يستقبلنا أحد هناك . لقد جئنا دون أن نتظننا أحد
بالفعل . ولم تكن بانتظارنا الدعوة اللطيفة الموعودة من السلطان . توزع الأوبخ الضفة
كلها . أمسوا شبيهين بأسراب الطيور التي ضلت طريقها إذ أدركتها العاصفة فهبطت
خائسة القوى إلى أمكنة غريبة عنها . طببت أسرتنا بين خدم وحشم شاردين من علو .
وصلنا على متن سفينة « نصرت بحري » التي اعتبرت في تلك الأزمنة سفينة كبيرة . بعد
أن نزلنا السلم توزعنا قرب الخليج في أطراف مدينة سمسون . سعينا إلى التجمع
والإلتصاق ببعضنا ببعض وكأننا قطع خيل يحس بالخطر الذي يدنونه . أمتعتنا القليلة
التي حملناها معنا ضمت أشياءنا الضرورية فحسب . . . بل وأمكن من النظر إليها
الحكم قطعاً بأننا من المتضررين من حريق ما . . . وكأننا نجونا بأنفسنا من بيوت نشبت بها
ألسنه النيران فانتزعنا منها على عجل ما استطعنا حمله بأيدينا ولا أكثر .

آه ياإلهي كم يشعر الإنسان بأنه كائن بائس تنتظره نهاية شنيعة حين يقضي عليه

حكم القدر بالعيش والموت على أرض غريبة .

حل أول أشهر الربيع . بدت لي الأرض التي وطئتها والتي علي أن أدب فيها

صحراء موحشة ولا ناس عليها . صعب علي التنفس فيها ، وكان هواءها أمسى شحيحاً . ولكن . . . لعل الأمر بدا كذلك بسبب الحزن الذي وقع كحجر ثقيل على قلبي فهبت روحي تنشد الهواء كل الوقت بعمق أشد ؟ ما أن تتوارى الشمس وراء غيمة من غيوم الشيطان حتى أمسي مفروراً ، وما أن تخرج الشمس من وراء الغيمة حتى يتبدل البرد خلال ومضة عين إلى حر قانظ . وكلما انجھت نظراتي إلى الشمس بدت لي في كل مرة ذات لون قريب من البياض وكان لا لون لها البتة .

أيها العزيز شاراخ لقد أنت بداية مصرعنا متواقنة في ساعة واحدة مع خطوة القدر تلك التي قادتنا إلى السفن الممهورة بالهلل الأخضر . ألا لا كانت تلك السفن . . . أخبرتك أني أبحرت على سفينة «نصرت بحري» . رست هناك بضع سفن مثيلة من ذوات المداخن الثلاث . كم مر من السنين وأنا أذكر أساءها : «محمدي» ، «شوكت أساري» ، «عشمانی» . وجاءت سفن شراعية للمساعدة أيضاً . دفعوا لقبطان كل سفينة لقاء نقل الناس وكأنهم يقاضونه لقاء نقل ماشية - على كل رأس . ليس عبثاً أن يقال : إن البخيل يعصر الماء من الحجر . لقد غصت السفن بالحمولة البشرية حتى الثمالة . وتأسف قبطاننا قائلاً : «بودي أن آخذ أكثر ولكني أخاف أن نغرق» . أبحرنا طويلاً . وسرعان ما نفذ احتياطي الطعام والماء . وهبت عاصفة بحرية . . . أصيب الناس بدوار البحر . غزا الرعب حتى نفوس الشجعان . وحلت اللعنات مكان الصلوات . أما توخي العون والمساعدة من الطاقم فكان عبثاً . . . إذا خارت قواك ولم تعد قادراً على تحمل العذاب مت . ثم إن عملية الدفن لا تشكل عبثاً . فليس هناك حاجة لحفر قبر . والرياح تجري بما لا تشتهي السفن . . . خلال عاصفة هوجاء حمل الريح شرع إحدى السفن بعيداً جداً إلى الغرب باتجاه فارنا . وتفشت الحمى الإرتعاشية والتيفوئيد على متنها من جراء تحبط السفينة أياماً عديدة وشح مياه الشرب وتراكم القاذورات . حصد الموت الناس حصداً .

وحين اقتربت السفينة الشراعية من حرس سمسون اتضح أنه لم يبق على قيد الحياة سوى حفنة ضئيلة العدد من الناس لا أكثر . لم يسمح لهم بالنزول إلى الشاطئ خوفاً من انتشار العدوى في المدينة . ورمت السفينة الشراعية بالمرسة إلى الصاري . ولحظ هؤلاء المهاجرون البؤساء أناساً يرتدون البسة شركسية فاستنجدوا بهم . ولكن ماذا أمكننا أن نفعل لهم ؟ ليس أكثر من أن نسبح إلى السفينة الشراعية وأن نربط بالحبال التي تدلت منها

أباريق تحوي مياهاً للشرب. إلا أن حرس الشاطئ هددنا بأقذع الشائم بأنه سيفتح النار علينا إذا استمرينا بتقديم هذه المساعدة المتواضعة.

البشر يقنون بشراً أينما كانوا بإسارخ. قرية السادزين الصغيرة تحركت إثرنا على سفينة شراعية بيضاء. أخذت عاصفة بحرية هائجة تتلاعب بالسفينة الصغيرة وكأنها قشرة فستق. لم تسمح لها الأمواج الصاخبة بالإقتراب من اليابسة. فقد الناس عقوهم من العطش، وأخذوا يشربون ماء البحر. بدأ الأطفال يموتون أولاً. باتوا يلاقون حتفهم كالفراشات الصغيرة في ليلة ممطرة واضطر البحارة إلى رمي جثثهم الصغيرة إلى البحر. . . صدف وجود أرملة بين النساء لم يبق لها أحد على وجه الأرض كلها عدا صغيرها بين يديها. أصاب المرض ابن هذه المرأة المسكينة وسرعان ماتت. إلا أن الأم البائسة استمرت تهدهد له ضامة جثته إلى صدرها. حين يقترّب منها البحارة تغني له أغاني المهدي: «بايوشكي بايو، بايوشكي بايو. نم يا طفلي الصغير». وحين يتعد البحارة تنقلب أغنيتها إلى حدب وندب. علم الناس بذلك كله منذ البداية إلا أنهم بقوا صامتين. . . اشتم البحارة في اليوم الثالث رائحة الجثة فانتزعوا الطفل الميت من يديّ أمه وألقوا به إلى البحر. انتفضت المرأة وفقدت عقلها فألقت بنفسها في إثر ولدها الصغير، ولم يتمكن أحد من الإمساك بها أو إيقافها قبل فوات الأوان.

الإنسان حيّ وليس كالوقواق لاذاكرة له. اعتقد كل من رأف به الموت في عرض البحر فبلغ الضفة الصحراوية أن هذه الأرض مقدسة أما في حقيقة الأمر فلم تعد أن تكون جرداء قرعاء متجمدة القشرة تذكر بوجه محصي ولا تقارن بشيطاننا الخضراء خضرة أزلية والتي نزحنا عنها. الحق بإسارخ أن قيمة الشيء تعرف حق المعرفة بعد فقدانه. كيف لنا ألا نذكر غاباتنا العذراء المليئة بالشعاب حيث تتلون أوراق شجر الدلف بجلد السنسار، وحيث يدوي خرير ينابيع الباردة بإغرائه الخاص عند الأشجار الضخمة؟! وكم يتهيج القلب بالجثو أمامها! . . أرضنا بساط سندسي. . . حين يقف الإنسان تحت سائها مفتقراً إلى بيت يأويه أو مكان يستقبله - وهذا لا يمكن حدوثه أبداً بالطبع - فإن بإمكانه أن يقضي على أوار الجوع ويتجنب قسوة البرد لأن الطبيعة تهتم به بنفسها وتدعوه ضيفاً ينهل من خيراتها بلا حساب - تفضل أيها الإنسان وتنعّم بالطيبات. . إليك التوت الأرضي ذي العبق الفواح أو الأعشاب النافعة الطيبة المذاق. . . وهاك الكرز البري وقد

أينع على أغصانه محاطاً بأشواكها . أما في الخريف فيكفي الإنسان أن يتوغل قليلاً في الغابات الكثيفة ليكتشف النعم الفريدة التي تبها له الطبيعة بسخاء فريد . . عناقيد العنب القائمة المغطاة بصغار خفيف وثمار النيذ السرية والجوز والكستناء ذي الغشاء المخملي والخوخ الأرجواني، أما في ثقبوب الأشجار فإليك خلايا العسل البري الذي يهب الإنسان صحة وقوة . . خذ ماتريد أيها الإنسان . كلّ ماحولك ملكك لك . . تنعم . . تفضل واقطف أطيب الثمار . أما إذا حمل الإنسان سلاحاً أو أمكنه نصب الأفخاخ فليس ثمة مكان أفضل للصيد لوجاب العالم كله . مأكثر الأيائل والحنازير والثيران البرية والماعز الجبلي وغيرها من الغنائم الملوكية وكم هناك من الطيور البرية التي لاعد لها ولاحصر ؟ وإذا عفوت عن اللحم فلك كامل الحق والإرادة . أوقد ناراً على الضفاف واغتنم أشهى أسماك الغوريل الذهبية المنقطة، فيمكنك اصطياها حتى بيديك المجردتين . ليس هناك في عالمنا الأرضي جنة أخرى مثيلة . أما حين يهرب الإنسان بنفسه من الجنة فإن كل الطرق تؤدي به إلى جهنم . لقد أدركنا هذا فور وصولنا إلى هنا ياعزيزي . أدركنا حقيقة حالنا . . إلا أن الوقت فاتنا، فأبواب جهنم توصلت جيداً وراء الداخلين إليها .

خلق الله عباده سواسية إلا أنه منحهم أكياس نقود متباينة . ماإن وصلنا إلى الضفاف التي قصدناها حتى أخذ حاكمنا شاردين بن علو يبحث على مهله عن تاجر تركي من معارفه القدامى . وسرعان ماالتقى به فعلا ليحصل على المأوى المريح والطعام الوفير في بيته قرب سمسون . . أما نحن البسطاء البائسين فلم ندر أين سيكون مثوانا بعد أن حكم علينا بالموت الأكيد . لا بد لنا من الاحتناء من وطأة الطقس قبل أي شيء . ولكن صح مايقال : «حين يجل البلاء» عليك الإعتماد على نفسك وحدك تفحصنا المكان حولنا فوجدنا أبنية حجرية قريبة منا . قارب عددها العشرة وتبين أنها مستودعات يخزن فيها التجار الأتراك الذرة الصفراء التي يأتون بها من الشيطان الففقسامية . اكتشفنا أن تلك المباني فارغة باستثناء واحد منها فقط . نسجت العناكب خيوطها الكثيفة في زوايا الأبنية بحيث بدا أنها قادرة على حمل إنسان يرقد عليها بكل ثقله . . وعلى الجدران رأينا فراشات أشبه بالجراد تزحف بكسل في الظلام أو تحوم تحت السقوف . شغلنا تلك المباني الموحشة التتنة دون أن نستأذن من أحد، وشعرنا عندها أن

الحظ قد واتانا بها . والحق أنه أمسى بوسعنا في هذه الحال أن نحتمي من الأمطار والرياح . حين جاء سيدنا وصاحب الأفضال والنعم علينا شاردين بن علو أصيب بذهول شديد وهو يرى إلى أي حال بانس تردينا .

- من الواضح أن سوء تفاهم قد وقع - قال مخففاً عنا - سأستفسر عن كل شيء وأسعى لتدبير الأمور . أما أنتم فاستجمعوا عزيمتكم وتسلحوا بالصبر والجُلْد أثناء غيابي القصير .

- منحنا ركاب الأمل واستعد للسفر إلى استانبول . من المعروف أن الثروة لا تترك دون حراسة . اجلس شاردين بن علو زوجته قبالة وقال لها بصوت صارم :

- انتبهي جيداً لأختي الوحيدة في بلاد الله هذه . المرأة هنا تعدّ بضاعة حلوة . من يسرقها أو يخذعها يربح الكثير . إذا حدث شيء لشاندا أنت المسؤولة مباشرة .

ليس صعباً أبداً فهم شاردين بن علو . فالقلق على تلك الحسنة ذات العشرين ربيعاً - أخته شاندا - جدير به وبكل أخ على أخت مثلها . لقد ذاع صيت جمالها الساحر - بل الذي لا يوصف - في كافة الجبال منذ كانت في بلاد الأوبيج وقد أرسل لخطبتها الكثير من الفرسان الجديريين بها من أبخازيا وأديغيا وقابارديه ، ممن امتازوا بجراتهم وإقدامهم أو أصلهم ومقامهم أو ثروتهم وممتلكاتهم أو بكل هذه الصفات معاً . ومع أنها أعجبت بأحد الفرسان الشجعان من غير هؤلاء لم تجرؤ على مجابهة أخيها في هذا الأمر . كان الخطاب المجلول يعودون في كل مرة بكلمات الإعتذار والرفض المنمقة . فشاردين بن علو معتد بنفسه ومن ذوي العنجهية المفرطة . . ولم يكن بوسعها إذ يقرر مصير أخته أن يتجاهل مصالحه الشخصية . كان يحلم بصهر قادر على كل شيء يقتبس من نور أشعة عظمته الذهبية مايزين اسمه المكتوب بالفضة فقط .

الحق يقال إن شاندا الرائعة عرفت قيمتها حق المعرفة . نشأت لعوباً منذ الطفولة ، متفتنة بالإختيال بجهاها الأخاذ في الأوساط الأوبيخية النبيلة ، متأنفة كالطاووس ، متأنفة بالملايس الجميلة التي شغفت بها حتى العبادة .

تبدو أثناء تلقيها نحيات الرجال وانحناءاتهم لها باسمه بعدونة ودبعة إلى درجة مذهلة . لهذا أمسّت الصفة الأخيرة مبعث قلق شديد لدى زوجة الأخ التي حملها زوجها كل الهموم والأعباء تجاه أخته .

تذكر جيداً اسم شاندا أيها اللطيف شاراخ . سأحدثك كيف غدر بها القدر الماكر .
فالسعادة والشقاء يسيران في درب واحد . شاندا . . الرائعة . شاندا! من كان بوسعه أن
يفكر أنها ستمسي سبباً لمقتل أخيها وتأزم وضعنا الذي لا يخرج منه بطبيعة الحال .
حيث توجد الحياة يوجد الإيمان بالأفضل . سافر شاردين بن علو إلى استانبول ، أما
نحن فكنا نتظر واليأس ينخر قلوبنا . انتظرنا أسبوعنا فثانياً والغائب لا يعود . .
الجوع يأكل الحجر . . . كل ماجئنا به من بيوتنا تبدد كموجة منحسرة . أخذنا
نشترى بنقودنا الشحيحة خبزاً من الأفران القريبة . ثم حين فرغت الجيوب وكان الريح
قد ذرمتها أخذنا نبيع مانملك من الأشياء العائلية القليلة ذات القيمة . بعنا مالدينا بأثمان
بخسة فالجائع لا يفاضل . وأقفل أصحاب الحوانيت والدكاكين محلاتهم مرعوبين إذا رأوا
تلك الجموع الغفيرة الجائعة . فلم يجهلوا أبداً أن الجوع يطرد الذئب من الغابة .
ألبست حكومة السلطان حليها المزيفة معاصم الموالين الساذجين وفقدت زمام
أمورها غارقة في حيرتها حتى أذنبها . فبعد أن تأكدت الحكومة التركية من أن الجبلين
المهاجرين مسلحون حثت بوعودها لنا بإعطائنا حق اختيار المكان الذي سنعيش فيه .
شعرت السلطات بالذعر منا وقررت تشتيتنا في أصقاع مختلفة من البلاد . ومن السهل أن
يجزر المرء أنها مناطق نائية منعزلة ، أراضيها جرداء ولا خير فيها . وسرعان مابارت الوعود
بجنات النعيم وأثمار الحليب . بقيت الوعود وعوداً لا تغني ولا تسمن . لم نعط ماشية ،
ولم نحظ بعناية كما وعدنا سابقاً وأغرينا طويلاً . بل لم نحصل على شيء على الإطلاق .
بدأ الناس يتذمرون ويطالبون - حافظوا على العهود . هناك اتفاق بإعفاء الأوبخ
من الضرائب الزراعية خمس سنوات ابتداء من اليوم الأول لنزوحهم أما أنتم فتطالبون بها
اليوم .. أقسمتم بالقرآن بأنكم لن تأخذوا أبناءنا إلى الجيش أما اليوم فتجندوهم عساكر!
كيف هذا ؟

- نعم . ممن تطالب ؟ ممن يتسهم لنا بخبث ويلعب بنا بأصابع يده :
«أين الوثيقة التي تنص على هذا والممهورة بتوقيع السلطان ؟» - أوأه أعطونا كلمة ،
ولا ضرائب على الكلمات . الكلمة ليست فرماناً*» بعرفهم .

(*) فرمان : (بالتركية) بمعنى قانون أو قرار .

كنا نشعر بشيء واحد : أنهم أخذوا يخافوننا . وأنى لهم ألا يفعلوا واليائسون قادرون على كل شيء .

- من الجائز أنهم لهذا بالذات تركونا دون عناية واهتمام في الفترة الأولى ، وأنهم فكروا كالثالي : سيضجون ويهيجون ويمسون كالمسورين ثم يرضخون ويدعون في آخر المطاف . اعتمدوا على أن معنوياتنا ستضعف وأن نفوسنا ستصبح خنوعة ذليلة وفكروا أيضاً بأن « رحى الطاحون كفيلة بسحق الحبة الواحدة » .

كان أحد المياني الحجرية مليئاً بحبوب الذرة الصفراء كما تذكر . وهكذا أعطى الجوع إيعازاته المحددة . ماكنت لأحسد الإنسان الذي سيجرؤ على الوقوف في طريقنا . انتزعنا الأقفال من الأبواب وأفرغنا المستودع مما فيه . سحب كل شخص حسب قدرته . لم يكن هناك طواحين بالقرب منا . وهكذا أخذ بعضهم يكسر الحب بالأحجار وتصرف بعضهم الآخر ببساطة أكبر ، فسلقوه . الجوع أفضل طباخ . لكن الغنيمة لم تكف وقتاً طويلاً فأخذنا نجوس الدروب والبلدات المحاورة . أقول لك الحق : لقد اقتسم الفلاحون الأتراك معنا ماوسعهم اقتسامه . أخذوا يأتون بما لديهم من البسة مستعملة ويقدمونها للمسحوقين منا المرتجفين من البرد . . . يقتسمون الخبز معنا ولا يقدمونه لنا صدقة . ولكن أكان ممكناً إشباع ذلك العدد الهائل من الأفواه ؟ الجموع البشرية الجائعة تبحث كسيل الماء الجارف عن مخرج لها ، ولا يقبل السيل أبداً أن يعترض طريقه شيء . . . تحولنا رغماً عنا إلى سارقين . أمسى هندامنا رثا ، وشعرنا منقوشاً . ولكن أسلحتنا بقيت محفوظة في القصة . أما الشبان الصغار فشكلوا عصابات لصوص بقودها الجوع ذاته . أخذوا يسرقون الماشية ويوزعون لحم الضأن على أبناء العشيرة ، يقومون بالغارات على المدن للسلب والنهب ، ويسرقون ورشات صنع الأحذية ، ومحلات بيعها . لا يمكن إخفاء الحقيقة بإشاراخ . لقد أريق دم غزيرة من الطرفين . وهكذا انتشرت إشاعات السوء عنا بصفتنا لصوصاً وباتوا يخيفون بنا الأطفال ، يتسكع الجيليون في شوارع سمسون كالصعاليك . عيونهم تلمع من الجوع بلهيب جنوني ، وتبرز من بزاتهم الشركسية الممزقة ضلوع عظمية نحيلة ، وتطل من الجرزات المهترئة أصابع وسخة . . . يدخلون كالمخبولين بنظرات تائهة فظة إلى المطاعم الصغيرة أو المقاهي ، ويملؤون بالفزع قلوب أصحاب تلك الأماكن وروادها . . . المرضى والعجائز يرقدون

تحت ظلال الأشجار على أردبتهم المهترئة المليئة بالغبار والأقذار منهكي القوى ، مهدودي الحيل ، سائرين بخطى بطيئة إلى الموت ، وجوههم نافرة وجناتهم منهذلة يطردون الذباب اللجوج الذي يحوم حولهم ولا يفارقهم .

فقدت فيلديش كما تفقد الطيور السابحة في السماء بعضها بعضاً . لعلها ماتت وهي في البحر على السفينة حين أبحرنا إلى الأراضي الغريبة ؟ أو . . . وأخذت تراود رأسي الملتهب صور قائمة . كنت أعرف أن والديها كبيران في السن وليس بوسعها أن يدافعا عنها عند الضرورة . فيلديش ذات شعر كستنائي وقامة ممشوقة وعينين لوزيتين وصفيرة تصل إلى كعب قدمها . إنها تبدو في كل ذلك جذابة مغرية ويستحيل ألا يلفت جملها البديع أنظار الجميع في ضفاف أناتولي على البحر الأسود .

ازداد حريم الباشوات الأتراك والتجار الأغنياء من الفتيات الغريبات كما ونوعاً . فيلديش فتاة أويغية . إن هذا يعني الكثير ، ولاسيما وأن أقاويل عديدة عن جاذبية ومحاسن الأويغيات قد انتشرت في الشاطئ التركي قبل وصولنا إليه بكثير . . . لعل فيلديش الآن شريفة طريفة تجوب الطرقات في أسماها البالية ، وتتضور من الجوع والبرد في مكان قريب من هنا ؛ بل لعل الشيطان نفسه يعثب بي ويحرمني من فرصة اللقاء بها .

« فيلديش ، يا حبيبي ، لبي ندائي ، ردي علي » هكذا كنت أصبح في داخلي دائماً .

« من أسأل ؟ ممن أعلم بحالها ؟ من يحدثني عن مصيرها ؟ » هكذا فكرت ليل نهار منذ ذلك اليوم ؛ بل منذ تلك الساعات التي وصلنا فيها إلى هنا . أمسى بودي أن أعرف شيئاً واحداً فقط : إلى أين توجه قائد الأويغ الحاج برزج جيراندوق ؟ من الطبيعي أن كل ما يخصه شخصياً لم يعد يشير أدنى اهتمام لدي . فليذهب هذا « الجيراندوق » إلى الجحيم وبش المصير . إلا أن مصير فيلديش بات يؤرقني ويملك علي أنفاسي . من المفروض أن تكون ووالدها بين جماعته الآن . وحسب الشائعات التي دارت فإن السفينة التي حملت الحاج جيراندوق إلى هنا مع من هم تحت إمرته من الفلاحين رست بعض الوقت في خليج سمسون ، ثم سرعان ما رفعت مراساتها وتوجهت إلى استانبول . أخذت أتردد على شاطئ البحر آملاً أن تهب لمساعدتي الأمواج القادمة أو النوارس

الصارخة فتهديني إلى فيلديش أو تمنحني خبراً صغيراً عنها . وبالفعل : اقترب من الضفة في أحد الأيام مركب صغير وصلت إلي صرخة منبعثة منه ، ثم رأيت أربعة بحارة أتراك يجرون شخصاً موثق اليدين في بزة شركسية ويلقون به إلى المرسى .

- أدليا* - صاح ساخطاً ملحقاً أذع الشنائم بتلك الكلمة .
ابتعد المركب فوراً . اقتربت من الشخص وساعدته على النهوض ، وكم دهشت وفوجئت حين اكتشفت أنه سعيد داشان ، أحد اخوة الحاج جيراندوق بالرضاعة .

- ماذا حدث ؟ لماذا رموك إلى الشاطئ ، مربوطاً هكذا ؟
- ماذا حدث ؟ ! ردُّ بصوت كأنه صدى وأضاف دون أن تهدأ ثورته : - حدث ماحدث للجميع على السواء ، أسوأ شيء يازاورقان .

عرفت سعيداً في الماضي فارساً عتيداً بوسعه كنارت الجبار أن يمزق الحبال الغليظة أو يبطح ثوراً ضخماً من قرنيه . أما الآن فأمسى شبيهاً بظل ذلك الفارس العظيم الذي كانه بالأمس وبالكاد يقف على قدميه .

- جفّ حلقي - مررّ لسانه على شفتيه الجافتين - إذا كنت رجلاً فإني ولو بجرعة ماء واحدة .

- الآن ياسعيد ، الآن . شجعته وقطعت الحبل الذي يربط يديه .
تحركنا بمحاذاة الشاطئ ، سار متكئاً عليّ . أخذت الشمس تميل إلى الغروب ، لتختفي أشعتها الأخيرة في البحر ، وأظلمت السماء . أمست المدينة جانباً ، ويات سعيد يتهالك بثقل أكبر على كتفي . أدركت أنه منهك القوى تماماً ، ويجر أقدامه جراً . أرقدته بجوار شجيرة كثة ، وذهبت للبحث عن ماء بعد أن وعدته بالعودة سريعاً . حصلت بصعوبة كبيرة على قطعة خبز وزجاجة ماء . شرب سعيد بشره عنيف . تحركت تفاحة آدم لديه مع جرعات الماء ، وسمعت بوضوح بقبقة الماء في حلقة الجفاف ، وأطفأ لهيب ظمئه قليلاً ، واستجمع أنفاسه . رفع أخو الحاج جيراندوق بالرضاعة عينيه المليئين بالأسى ، وبانث الدموع المحبوسة في موقبه .

- حلت نهايتنا يازاورقان . . هذه نهايتنا نحن الأويخ نهايتنا جميعاً . لقد انتحرننا

(★) أدليا : (بالأويخية) كلاب .

بأنفسنا . . . ثم سعيد وكأنه يدين نفسه والآخرين جميعاً على الخطيئة المهلكة .
. . انتزعت أنشودة اليأس القاتل قلبي من مكانه بكلماته تلك ، ليس لأن نبوة
سعيد قد صدقت في الواقع القاسي بالفعل ، وإنما لأنه هو الذي قال ذلك - الإنسان
الذي عاش قوي المعنويات دائماً لا يفقد الأمل في أحلك الظروف وأعتها .
احمر شعاع الوداع هناك في البعيد حيث يلتحم البحر بالسماء ، وبدت أمامي
فيلدش لومضة عين وكأنها حلم . هاهي صورتها تتبدد سريعاً في الأجواء . أفت لنفسي
وخيط رفيع رفيع من الأمل في يدي فسحبته متأنياً :
- سعيد ، ألا تقول لي أين أخوك الحاج جيراندوق الآن ؟ .
خصص له حكام هذا البلد الأصدقاء المضياقون أرضاً شاسعة في جزيرة رودس .
يقيم معه هناك كل الخدم والحشم عدا أسرنا - أجاب بسخرية مرّة .
صعد تيار الدم إلى صدغي . اضطربت نفسي ، وسألت بحذر كي لا أخيف
بادرة النجاح هذه شاداً من جديد خيط الأمل ذلك .
- قل لي أيها اللطيف سعيد: هل بقي بين جماعة جيراندوق الفلاح أبيج
وردان ؟ . . .

- هل هو صديقك ؟

- نعم - أجبت فرحاً .

أصاف سعيد ناظراً إلى باهتمام كبير وهو يضمده جرحه بعناية متوخياً في الوقت نفسه
الدقة في الإجابة :

- قبيل خروجي من هناك رأيت أبيج حيا وبصحة جيدة . إن لديه ابنه جميلة ،
جميلة جداً . . . لقد ذهبوا جميعاً إلى الجزيرة . . . ثم حنى رأسه قائلاً :- مقتل النساء
الجميلات سيحلب لنا العار .

بدا لي أنني لم أسمع كلماته الأخيرة ، بل شعرت وكأن جبلا انزاح عن كتفي .
يعيش الإنسان همومه ومآسيه في يومه الحاضر ، إلا أن بوسع شرارة صغيرة مضيئة أن
تبعث السعادة والبهجة لديه . أما الشرور والمنغصات التي ستأتيه غداً فليست بذات
أهمية لأنه لا يعيها ، ولا يرغب في إدراكها بعد عقده هدنة قصيرة بين ماعاشه بالأمس
ومايجب أن يعيشه في الغد .

« إن حظي السعيد قد أخرجني اليوم من كهف حجري مظلم - هكذا فكرت أنا :
فيلديش ، حبيبي . . . فيلديش على قيد الحياة . بوسعي الآن أن أبحث عنها وسأجدها
حسباً ولو اقتضى ذلك أن أسبح إلى جزيرة رودس . . . التي تعيش فيها الآن » شعرت
بعزيمتي القوية وقررت بزيادة مهية مايجب علي عمله .

جلس سعيد أمامي حافي الرأس ، ولم يلحظ وهو في حالته تلك فرحتي المفاجئة
القصيرة . فتت كسرة الخبز الجاف وأرسلها إلى فمه بلا مبالاة ظاهرة . شعرت بالحنج
فجأة إذ نظرت إليه وأدركت أنني انتقصت من لياقتي معه فلم أنفرغ حتى الآن لسؤاله عن
حاله ، ولماذا أمسى هنا ؟ . . . ولماذا رماء البحارة الأتراك إلى الشاطئ في هذا المكان
بالذات بينما كافة أتباع الحاج جيراندوق في مكان آخر ؟ . . .

عندما أبدت اهتمامي بهذا توقف سعيد عن إرسال فتات الخبز إلى فمه وأخذ يقهقه
حتى شبع ثم قال كالصقر الجريح وكأنه يتحدث من مكان بعيد :

- أتذكر يا زورقان كيف شهرنا في أحد الأيام أسلحتنا وكنا مستعدين لأن يقتل
أحدنا الآخر وكاننا أعداء بالدم ؟ أما سبب مشاحتنا فهو استيائي لأنهم . . .

عدل سعيد من جلسته مستنداً بظهره إلى نتوء في الأرض وتابع حديثه ناظراً إلى
البحر حيث أمسى شعاع شمس الغروب أشهب اللون أخذاً في الخمود :

- . . . منحوك شرف أن تصيح أحد الحراس الشخصيين لزعيم الأوبيخ ، أخي
بالرضاعة الحاج جيراندوق . إلا أنك رفضت ذلك بعد فترة فجأة رفضك بمثابة إهانة
بليغة . صعّد الدم الحامي إلى رأسي آنذاك ولو لم يحولوا بيننا بالقوة فما أدراني إلام انتهى
الأمر عندها .

تنفس سعيد الصعداء ولم يتوقف عن النظر الى بعيد . تسمرت نظراته وبدت
كانها مثبتة بشيء ما في الأفق مع أنه لم يظهر على سطح البحر المائج أية سفينة .

وعلى أية حال فقد انتظرت لحظة فأخرى كي لا أقطع حديث جليسي ثم ذكرت
قائلاً :

- أنت تعلم يا سعيد أنني بدأت أحترم الحاج جيراندوق منذ فتوي . لقد اعتبرته
عندها إلهاً ، وأمسيت مستعداً لأن أهب حياتي دون أي تردد من أجله . . . ولكن لا
ينبغي أن يتوجه المرء في وقت واحد الى السماء مصلياً وإلى الأرض آثماً فيدوس كل مقدس

عليها . حين وافق الحاج جيراندوق على رمي السلاح والتزوح الى تركيا أصبحت حياة زعيمنا هذا بالنسبة لي بلا قيمة . ولهذا رفضت حمايتها . عادة يتوججون الرأس لا الرجلين . اعذرتني إذا قلت لك إنه زعيم هروب - أخوك بالرضاعة هذا .

وهنا تذكرت فجأة أنه لا يمكن لسعيد تحمل المسؤولية عن النبيل الذي تربى في أسرتهم والذي ألهه بالفعل ؛ فهذه الكلمات يمكن جرح وقتل إنسان بريء تماماً . إلا أن سعيد أصغى لكلامي الذي لا احترام فيه للحاج جيراندوق ببرودة الحجارة واعتري الأسي وجهه الشاحب لومضة عين واحدة لا أكثر .

- الحاج جيراندوق مات بالنسبة لي . - هكذا أضفت .

بدا صوتي ينشد المصالحة وكان لسان حالي يقول : « له رب ، جيراندوق هذا ولن تحرك الماضي » . ولكن . . . وعلى غير ماتوقعت رمى سعيد حجراً إلى الهدف ذاته :

- مات بالنسبة لكل الأوبخ . فتح العميان أخيراً وقد أمسوا على حافة القبر .

اختلط عليّ الأمر ولم أفهم تماماً قصده . فمن نطق بهذه الكلمات ليس شخصاً عابراً بل من اعتبر الحاج جيراندوق أكثر من قريب له بكثير .

- اسمع يازاروقان :- همس لي بصوت خافت لافتاً انتباهي وكأنه يجر إليه حصاناً من لجامه - لا اعتقد أي سأحدث شخصاً آخر عن هذا . . . وتابع وكأنه سوط يلهب جسدي :

- من المعلوم والمعروف تماماً أنهم باعونا كالحرقان بثمن بخس . الرحيل . . أطربوا أذاننا بوعودهم وحيث توجهواهم توجهنا نحن . حير بائسة . . كان أخي بالرضاعة الحاج جيراندوق بين أولئك الذين ربحوا مالاً وقبراً أيضاً فليأخذ الطاعون إذا .

- يكفي ياسعيد ، الرأس المخلوق ليس أصلع بعد . لا يمكن تخفيف المصائب بالغضب - قاومت تلك الفكرة الفظيعة التي انطوت عليها كلماته وخفت من الإيهان بها . أوقفت سعيداً . . ولكنه لم يستسلم .

- أقسم بقديستنا بيتحا أن لساني ينطق بالحقيقة وأنه سيحل أمامك عقدة سر كبير . هل تعتقد أن من الصعب عليّ تحمل الألام الجسدية ؟ كلا يازاروقان ، كلا . تحل بالشجاعة واستمع إلي بأذنيك الاثنتين : ماهو شعورك إذا علمت أيها الجليل الشجاع أن جنرالات القيصر الروسي اشتروا زعيم الأوبخ ؟ . .

صعقت وأردت أن أعبر عن شكّي ولكن سعيداً لم يدعني أفتح فمي :
- اسكت ، اسكت . لقد أملوا عليه صفقتهم : « إذا أوقفت سفك الدماء وقدت
شعبك الى النزوح الى تركيا حصلت من قيصرنا الحاكم على ما يكفي أحفاد أحفادك
لافضل حياة يريدونها . إيقاف الحرب خير للطرفين وسيبدو ذلك كله على أفضل
وجه » . .

- هذا افتراض فأين البراهين ؟ - لم أتحمل أنا .

- ليس لدي أدلة مباشرة ولكن غير المباشرة كافية تماماً . لقد كنت حارساً شخصياً
لأخي بالرضاعة ولم أتخلف عنه خطوة واحدة . . في اليوم الذي حملنا فيه الى السفينة جاء
إليه ضابطان روسيان من الأركان . رأيت بأمر عيني كيف قدّما له بعد حديث ودي سفظاً
ثميناً . لا أستطيع أن أؤكد وجود ذهب داخل ذلك السفظ ، ولكنك أنت أيضاً لا
تستطيع أن تخمن أنه روث نعاج . ثم بالإضافة الى ذلك سمعت بأذني الإثنتين كيف
طلب قائدنا نقل شكره الى الوالي على الففماس وهو عم القيصر . ألا يبدو لك هذا
غريباً ؟

أصبح شعوري يشاراخ وكان انهياراً جبلياً أدركني على حين غرة وأنا في درب جبلي
ضيق ثم أخذت تنهال على رأسي الصخرة إثر الأخرى . . . نزلت كلمات سعيد التي لا
أنر للرحمة فيها وكأنها جلاميد ثقيلة تنساقط من القمة التي منعت نظري طويلاً بها من
قبل . أما سعيد فقد عزم بسعيه الخثيث على إخراجي عن طوري . بدا كلامه كتعذيب
النفس ، وأخذت تبرز بين كلماته - من حين لآخر - فكرة مشبعة باللوم والعتاب : « هذا
مانستحقه نحن الأغبياء » وقال لي جلمود جديد ضربة أخرى في صدري .

اقتربت أشام الحاج جيراندوق من خلال حديث سعيد بتأكيد وإصرار دامغين ،
ويدت تصرفاته مستحيلة التبرير على أنها جرت بالصدفة ضمن سياق الأحداث أو ماشابه
ذلك .

- سفيتنا - تابع سعيد داشان - توجهت أولاً ككل السفن الى سمسون . وحين
أمسينا على بعد عدة فراسخ من الشاطئ ، اقترب منا قارب صغير وصعد منه إلينا شخص
تركي يشبه موظف ميناء . اتضح فيها بعد أنه الممثل الشخصي للسلطان . اقترح هذا
الرسول على الحاج جيراندوق التوجه مع كل أتباعه الى استانبول : « ينتظرك هناك الوزير

العظيم « هكذا أفاد التركي . حين يحونك الحظ تغرق على اليابسة لا في البحر فحسب . . . تجاوزنا البوسفور فوصلنا الى المدينة التي علت في سائها قبة مسجد سهاوي اللون . أذنوا للزعيم الأويخي بالنزول الى الشاطئ ، وحيداً . ولكننا طالبنا - نحن الأخوة الثلاثة الذين أرضعتنا وإياه أم واحدة - بأن ترافقه كحراسه الشخصيين . دار استقبال الوزير « أرز أداسي » تنضح بشراء فاحش ولها نوافذ نصف دائرية ، حراسها يقفون عند الأبواب .

قادونا عبر مخادع مفروشة بسجاد وثير مزركش أمسى وقع خطانا عليه كتخليق الطير وحفظنا أخيراً أمام عجوز متربع على أريكة حمراء فخمة ، وعلى رأسه طربوش أحمر . جلس أمامنا الوزير العظيم بشحمه ولحمه . بدا لنا عجوزاً هرمأ يفترسه النوم . لم ينهض عن الأريكة ، ولم يمد يده للحاج جيراندوق ، بل شبك راحتي يديه وهز رأسه بحركة لحظناها بصعوبة . ودخل القاعة كالطيف خادم محني الظهر يحمل فنجان قهوة ذات عبق فواح . وضع الفنجان على طاولة صغيرة أمام الوزير العظيم . رشف الأخير وهو يغالب النعاس رشفة من فجانته ثم أطبق جفنيه نصف اطباقة . إلتفت إثر ذلك الى الحاج جيراندوق الواقف أمامه في بزته الشركسية البيضاء - التي تزيناها على جانبي الصدر ست عشرة طلقة - واضعاً راحة يده على المقبض الفضي للخنجره :

- ولي الله العظيم على الأرض الراعي الجليل لكل المسلمين المؤمنين ؛ سلطانتا ؛ وخليفتنا العظوف الرحيم يعبر عن رضاه واستحسانه لأنك أنقذت شعبك من الهلاك من حقد الكفرة ونارهم الجهنمية وقدمته إلى الخلاص وأوصلته إلى ربوع جنان مولانا الذي لا مثيل له وحملت جنسيته وخضعت لحمايته .

قطع الوزير المعظم كلامه وأغمض عينيه .

انحنى الحاج جيراندوق - واضعاً يده على جبينه - للوزير المعظم الذي تابع بإتسامة ثعلب لوحظت بالكاد :

- لقد توجه السفير الروسي إلينا برجاء خاص بأن يعطى الحاج جيراندوق برعاية متميزة من جانبنا الرفيع ، وقد تكرم سلطانتنا القادر على كل شيء ، مالك نصف العالم ، فوافق على تلبية هذا الرجاء ، وبناء على ذلك ونظراً لخدماتك بإحاج جيراندوق فقد منحك مولانا الكريم الخبير مالك نصف العالم إكراماً لله ونبيه محمد لقب باشا تركي وأمر

بدفع مرتب لك من الخزينة يليق بهذا اللقب المشرف . كما يهيك أيضاً مبدياً عطف
السمح تجاهك ضيعة في جزيرة رودس . ستأخذ الأربعمئة نفس من فلاحيك وتتوجه الى
هناك لتقوم برخاء ونعيم بالدعاء لسلطاننا العظيم لقاء خيره ورحمته الواسعة .

عبر الحاج جيراندوق عن شكره للسلطان العظيم والوزير المعظم . ولكن أخي
الكبير همس - كمشترار خاص خلال المحادثات - محذراً الحاج جيراندوق :

- أستحلفك بحق ابن العشرة الواحدة أن تفكر ملياً . لقد تحملت الكثير من الأرزاء
في سبيل شعبك الأريب . كنت في العلاء دائماً كراية حريرية وأنت تقودنا . لا يجدر بك
الخلود الى الهدوء في مثل هذا الوقت . الأوييخيون كافة ينظرون إليك بأمل كبير ، وخيانة
ثقتهم وأملهم حرام وعار حتى الممات . لا يجدر بك في سبيل رفاحك الخاص الحكم على
أبناء العشرة كلها بالموت .

غضب جيراندوق ، ولكنه ابتم كيلا يظهر أنه وأخي في خصام . قال مخرجاً
الكلمات من بين أسنانه :

- كف عن توصياتك . ليس مكانها هنا . بعث الميت أهون من استعادة سلطاني .
لقد احترق هناك خلف البحر مع البيت الكستنائي . الإله الغريب والشيطان القريب
سواسية .

رمى الحاج جيراندوق الى افهام أخي الكبير أن على من يلاعب النمر الأرقط
الإعتياد على خدوشه . واقترب جيراندوق مبدياً احترامه الزائد للوزير المعظم واضعاً يداً
على جبينه وأخرى على قلبه وانحنى حتى ركبتيه وقال :

- لا حدود لساحة السلطان وعطفه . أعاهدكم أيها الوزير المعظم - تحت هذا
السقف المبارك - بأنى سأكون مستعداً دائماً بعقيدتي وحقيقتي لخدمة النجمة الأولى في سماء
الشرق - السلطان العظيم - وخدمتكم أنتم .

- زادت حيوية الوزير العظيم فجأة . التمعت عيناه السوداوان وبدت في نظراته التي
رمانا بها جميعاً شرارة مستبدة متوهجة تعبر عن رضاه النفسي الخاص .

- أن تصبح باشا السلطان العظيم شرف رفيع - قال الوزير - ولكي تكون عند
حسن الظن وأهلاً للثقة والضيافة من قبل سلطان نصف العالم عليك أن تنفذ شرطين
اثنين وبعد أن غير من جلسته منتقلاً من الكنبه الى الأريكة القريبة منها ،

أضاف : - لانها ينسجمان مع ديننا وعقيدتنا .

وأخى جيراندوق رأسه دلالة على الإهتمام ولكنه لم يسأل عنها .

قدّر الوزير الحاذق لزعيم الأوبخ حذره وقال وكأنه يؤدي الصلاة :

- لا إله إلا الله محمد رسول الله* . من وهب لقب باشا عليه أن يجعل اسماً من

وحي القرآن . ليس لدينا - خلافاً للمسيحيين - نسبة . لذا سيكون اسمك منذ اليوم

الحاج سليمان باشا بدلاً عن الحاج برزج جيراندوق . وسيسجل اسمك في كتاب دولتنا

بأحرف ذهبية . هذا أولاً . ويجدر طبعاً بكل باشا ارتداء ألبسة ملائمة للقبه . لذا ينبغي

عليك أن تخلع الأردية الشركسية . هذا ثانياً . قال الوزير المعظم ذلك بنبرة حازمة لا

تقبل الاعتراض . أين ذهب نعاسه ياترى ؟

شحب وجه الحاج جيراندوق . وبدا أن صراعاً حاداً يدور في نفس قائد الأوبخ

فأمامه مجلس الوزير المعظم وخلف ظهره كنا نقف نحن . . ثلاثة أخوة من شعبه

وعشيرته . لم يتمالك أكبرنا سناً نفسه فقال :

- ولد أبناء سلالة برزج من ذهب لكي يحكموا ويسودوا مكللين بمجد الفقفاص .

لا يمكن لأية نسبة نبيلة أن تفارق بنسبتك أنت بعراقتها ورفعتها . يقترحون عليك أن

تبدلها بلقب عابر . راجع نفسك . قل له إنك لست عبداً ولست أسيراً لديه .

- اصمت ، - قافها جيراندوق هائجاً مائجاً ولكنه توخى الهمس في إخراجها من

بين أسنانه المتراسة .

إلا أن أخى الأكبر لم يرضخ :

- تذكر كيف منحك القائد العسكري الأبيض لقب عقيد لكي بضمن صداقتك

وودك ولكنك استجمعت عزتك وشجاعتك فرفضت ذلك الشرف وقذفت بالرتب الذهبية

الى النار . أما الآن فقد بيّت هؤلاء تحويل الصقر المحارب الى أوزة . هذا عار . أنت

لست جارية في حريمه لكي ترتدي سرواله المزركش . أما إذا رضخت فسيلبسونك

ملاءة . قل لصاحب اللحية السوداء هذا أنه ليس هناك من لباس للرجل أفضل من البزة

(*) « لا إله إلا الله محمد رسول الله » تنطق باللغة العربية كأغلب الدعوات والتسابيح وأداء

الصلاة لدى المسلمين .

الشركية .

لم يعرف الوزير المعظم اللغة الأويغية ولكنه استتج من خلال ملامح أحمي - عل الأرجح - أن كلماته الهامسة تشبه النار المدفوعة إلى برميل بارود ، ومع ذلك لم يبد الوزير الأول للسلطان - وهو ثعلب خبير - أي تأثير ملحوظ ، بل على العكس من ذلك أخذ يتقل حبات سبخته الكهرمانية بكل سباحة نفس وهدوء .

- إني أنتظر قرارك - قال الوزير - .

ولكن المسؤول تغافل بشكل ظاهر عن سؤال السائل ولم يجب بشيء .

اتسعت حدقتنا الوزير المعظم :

- جاء في قرآنا الكريم أن تطيع ولي نعمتك - واعتزت القسوة صوته فجأة - بودي

أن أعرف هل تقبل بإقتراح السلطان الرحيم بعد أن استشرت أتباعك - ورمانا الوزير بنظرة ماحقة - أم أنك لا تحمل ولا تربط وأنهم يقررون عنك وكيف يجب عليك أن تتصرف ؟

برزت عظام وجنتي الحاج جيراندوق وانفخت أوداجه من الغضب . صرّ على

أسنانه والتفت فجأة الى الحائط ثم استجمع قواه إثر ذلك واقترب من الوزير المعظم .

- أرغب برؤية السلطان نفسه فقد أخذت جنسيته مع شعبي .

- نحن الآن في الشهر التاسع حسب التقويم الإسلامي . . . رمضان : شهر

الصيام العظيم . إن ولي الله ، جلالة السلطان لا يستقبل أحداً بل ينصرف خلال كل

هذا الشهر عن شؤون الحياة الدنيا . إنه يخصص كل وقته للدعاء والصلاة . ففي العبادة

صلاح للنفس . « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

لم يخف على الحاج جيراندوق أننا في شهر رمضان وأن المسلمين المؤمنين يصومون

عن الطعام والشراب منذ شروق الشمس وحتى مغيبها ، ولكنه لم يكن واثقاً من صلاح

السلطان ، وذكر محاولاً تجنب المصيدة التي نصبها الوزير :

- أم السلطان أديغية الأصل ، وهي قريبة بالدم من الأويغ ، ويسهل عليها

لذلك إدراك معاناتنا وعاداتنا ، ومن صلاحيات الوزير العظيم أن يهيء الأمور لكي

تستقبلي هذه المرأة الفاضلة ولو للحظة .

وأجاب الوزير العظيم بعد أن شبك يديه أمامه وكأنه يؤدي الصلاة :

- « أقيموا الصلاة وطهروا النفوس ، واركعوا مع الراكعين » . عندما يناجي قائد المسلمين كلهم ربّه ينصرف المقربون منه كذلك عن شؤون الدنيا ويتوجهون بأفكارهم الى السماء لمناجاتها .

وأغمض الوزير المعظم عينيه من جديد وكأنه بات في سبات عميق .
أدرك الحاج جيراندوق أن العجوز لن يتراجع . أما أن يعانده - لا سيما بحضورنا - فمن السذاجة والبلهة بمكان . وهكذا أمرنا بالتوجه الى الميناء وانتظار عودته هناك .
- سيكون أسهل عليّ أن أثني هذا الشعب عن عزمه ونحن منفردان - أضاف هو - انطلقوا . .

وحذرناه نحن :

- إمسك بلجام غضبك . لا تطلق العنان لثورتك . الغضب نصوح سيء .
- لا تقلقوا . لن أفقد رأسي وسأقبل شروطاً لائقة فحسب - هدأنا بقوله هذا .
ذهبنا من هناك وانتظرناه في المرفأ بفارغ الصبر حتى بزغ القمر . ثم يازورقان أن ذلك اليوم أمسى أشدّ أيام حياتي سواداً وظلاماً .
كيف تصرف - برأيك - هذا الانسان الذي قاد الأبطال ولم يحن رأسه أمام الجيوش الجرارة للجنرال يفداكيموف ؟

هذا الإنسان الذي دار اسمه على شفاه الشعب الأوييخي طوال العديد من السنين والذي غنّت عنه الامهات أغاني المهد لأطفالهن : « إنمّ وأكبر يا صغبري لتصبح شجاعاً كالحاج جيراندوق » .

لا تخدع نفسك بالامل يازورقان ، لقد باعنا ، وبذل اسمه محابة وتفاقاً وأصبح باشا تركياً يلبس السروال ، لو علمت أننا بتلك الخيانة لرمت بنفسها من السفينة الى البحر ، شاعرة بأنها المذنبه في تربيته تلك التربية الشائنة .

بعد منتصف اليوم التالي فارقت السفينة استانبول متوجهة الى جزيرة رودس وعلى ظهرها خمسمئة أسرة من المهاجرين . لم نبحر على متن تلك السفينة التي رافقتها سفينة شراعية ثلجية اللون تابعة للوزير العظيم .

وبقيت معنا والدتنا المسكينة التي أخذناها مسبقاً الى الشاطئ . اعتقد الأوييخ المبحرون الى رودس أن وراءهم - على ظهر السفينة الشراعية الرائعة بلون الغيوم - رايتهم

الحريرية ، الحجاج بزج جيراندوق . لم يعلموا بعد ؛ أن من يبحر في إثرهم ليس
جيراندوق بل الحجاج سليمان باشا ذو الطلعة البهية الجديدة .

وبقيت أمنا جاهلة بكل ماحدث . فلم نجرؤ على إخبارها بشيء . ولكنها ظلت
تردد دائماً وأبداً :

- لا تتركوه بالأطفاي . حين أموت سيدفني بكل مهابة واجلال .

أخذت تلهب عقلي بعد كل ماحدث فكرة واحدة وحيدة : العودة الى الوطن . أما
إذا عجزت عن تحقيق ذلك فسأنتحر . لقد انفردت بشقيقي جانباً وطلبت منها منحني
حق التصرف كما يمليه عليّ تفكيري وعقلي فأبيا .

- إذا كان لا بد من الموت فعلينا أن نموت معاً . هكذا جاء ردهما على طلبي .

... غادرتهم سراً وتمكنت من التسلل الى سفينة متوجهة الى سمسون . علمت
من أحد البحارة أن ثمة سفينة ستتجه من سمسون الى إدلر لتتقل من ذلك الشاطئء
حفنة من الأختسيسوغ . كنت مستعداً لأن أربط نفسي بصاري السفينة كي أعود الى
الوطن . ولكن الحراس الأتراك اشتعوا رائحة تسلي الى السفينة الخارجة من « القرن
الذهبي » فربطوني ورموني الى الشاطئء .

صعد القمر المدور أعلى فأعلى الى السماء وبدا شبيهاً برأس مقطوع مدمى . بكت
الأمواج بخفوت كرجع الصدى لحديث سعيد .

سقتل نفسك دون جدوى إذا فكرت مرة أخرى في العودة إلى ركوب السفينة
خفية . انضم اليها ، فقد يأذن الله وتحمل أزمته أفضل - حاولت إقناع سعيد ولكنه بقي
أصم إزاء وعظي ونصحي . ثم نهض بعد أن زمّ طرفي قلنسوته وقال :

- تصرف أحمد بن باراكاي كرجل . . . لقد صدقت نبأته . . الوداع يا زاورقان ،

قد نلتقي فيما بعد . . . - وأضاف : في بلاد الأوبيخ .

توجه أخو الحجاج جيراندوق بالرضاعة باتجاه المرفأ وسار منطقياً على ظله .

«إيه ياسعيد ، ياسعيد . . . الأفضل لو أننا افترقنا أعداء ألداء» فكرت . . . وأنا

أنظر في إثره . . بعد سنين طويلة قتل سعيد على يدي دون أن أتقصد ذلك . إن الشعور
بالذنب الذي اقترفته دون إرادتي لازمني وأقض مضجعي طيلة حياتي . . كيف حدث
ذلك ؟ ستعرف فيما بعد . .



الجمال تحرق

بات المهاجرون الصعاليك يبحثون بعيون ذاوية من الجوع عن مأوى لهم في كل بلدة ومدينة على امتداد ضفاف آسيا الصغرى على البحر الأسود، ابتداء من مدينة تراپزوندا وحتى استانبول. لقد تحول حلمهم بأرض الجنة إلى ندم وخيبة قاسيين. ولكن لا يمكن إعادة ما فقد. وصل إلى شاطئ البحر كثيرون أيضاً من أمثال هؤلاء قبل الأويخ بكثير . . . وهكذا أخذ هؤلاء وأولئك يدبّون، معاً على الأرض جنباً إلى جنب كمداحل الحقل. منهم الناتوخاج* والبجدوغ والشابسوغ (أقرباء الأديغيين بل والقبابارديين الذين عقدوا أواصر القرابة في وقت ما مع القيصر الأبيض . . . ولكن عدداً كبيراً منهم أبحر إلى هنا مع المبحرين). أما أقرباء الأبخاز السادزيون والاختشيسوفتسيون فقد وصلوا إلى هنا حتى آخر شخص منهم.

حارت السلطات التركية في أمرها وأفلت منها زمام الأمور في إحصاء عدد النازحين من الشمال، جرّبت القيام بمحاولة لايقاف زحف أبناء الشعوب الغربية تلك، ولكن بعد فوات الأوان. من لم يدخل جلدنا بإشاراخ لم يعرف المصائب ٠٠ ربح الموت لا تحدد الساعة التي منتهب فيها ٠٠ أما الجائع الذي تداخمه الأمراض فشبه بالأعزل من السلاح إزاء العدو. التيفوييد والكوليرا لايعترفان بأي قصاص عليها ولذا أقاما حصاراً أسود. لقد حصدا في تلك الأيام أفواجاً لاتعد ولا تحصى من الناس بحيث لم يبق منهم من يبكي موتاه ويدفنهم، لو أمسى البشر خالدين وتكاثروا بلا حساب لما اتسعت لهم الأرض

(*) الناتوخاج ، البجدوغ ، الشابسوغ ، الأديغية ، القابارديه : من العشائر الفقفاسية التي تربطها ببعضها صلات الدم والقرابة .

بالطبع إلا أن موتاً عن موت يختلف . شيء آخر تماماً أن تموت في المعركة مقاتلاً في سبيل
 حق عادل : هذا الموت مشرف ومنشود فالرجل الباسل الذي يسقط في ميدان القتال
 لا يخنفي أثره ، بل يترك خلفه اسماً خالداً . وليس عبثاً أن يغني الجريح المشرف على الموت
 قبل أن يضارق الحياة أغنية الفخار والاعتزاز . هل من الغريب إذا أن يحسد الناس قبل
 أن يفاروا الحياة هنا على هذه الأرض الغريبة كالكلاب الشريفة أولئك الذين سقطوا
 هناك على أرض الوطن؟ الموت - كأس لا يمكن لأحد أن يتجنبها ، أما أن يموت المرء
 بهدوء بجوار بيته فسعادة حقيقية يشارخ احكم بنفسك : أنت ترقد على فراش الموت ،
 وأهل البيت يفقون قرب رأسك . وجوههم طافحة بالحب والحزن وفي عيونهم تلمع دموع
 حقيقية لامتزيفة . تودع الأهل والأقارب وترجو لهم حياة مديدة وهدوء وسكينة . كلمتك
 قانون بنقذ . تعطي إيعازاتك الأخيرة حول الدفن وتوزيع الارث وتصفح بساحة نفس
 عن ذنوب افترت بحقك كما تسامح أنت على ذنوبك . وعندما تلفظ أنفاسك الأخيرة
 ويقبل الله روحك يأتي الأقارب والأصدقاء من كل حذب وصوب ، من القرى المجاورة أو
 تلك البعيدة وهم في ثياب الحداد على خيولهم أو عرباتهم ليقوموا بواجبهم الأخير تجاهك
 ويبكوك كما يجب . ثم يحملونك على أيديهم المرفوعة بكل أناة ورفق ويسيروا بك بخطى
 هادئة مهية إلى مثواك الأخير حيث يرقد أسلافك الراحلون بهدوء خالد ، ثم يودعونك
 الأرض ، الأم الخنون . يردمون القبر ، ثم يمضون بمهابة وإجلال وعيونهم مملأ بالحزن ،
 وأحاديثهم كلها خافتة هامسة ، وكأن موتك قد سما بهم إلى مكان عال مقدس ، مملوء
 بالأسرار العظيمة ، ثم يقيمون بعد ذلك مأتماً لتشييعك ويشربون دون أن يقرعوا الأقداح
 نخب كل سنة عشتها ويتحدثون عنك ٠٠ أنك كنت إنساناً جديراً بالاحترام ، نزيهاً طيباً
 ٠٠ في هذا العالم الناقص ٠٠ وسيجوزون بكل عناية واهتمام قبرك العالي حتى لا يبدسه
 ذئب أو كلب أو وحش وقيمون الحداد طويلاً إحتراماً وإجلالاً لك ولذكراك .

لم يكن يوسع المهاجرين البؤساء حتى الحلم بميتة راثعة كهذه . بل انصب جل
 اهتمامهم قبل أن يواروا في العراء والبؤس أن يردموا جيداً لا أن يتركوا غنيمة للغربان أو
 أبناء أوى . لقد اكتشفنا قبل غيرنا حين تكدسنا بين جدران العنبر الحجري أعراض
 المرض الذي لامر منه . وسرعان ما أدرك العجائز أن الكوليرا قد تفشت بيننا نتيجة تناول
 الذرة الصفراء المتعفنة والممزوجة ببراز الفئران . بدا لي أن ذلك المرض الخطير قد مر جانباً

منا فلم يصب أسرتنا بفعل معجزة حقا، فقد بقي أبي وأمي وأخي وأختاي سالمين تماما، ولكن الدموع لم تحف عن وجنتي أمي، لقد ذابت أمي كشمعة باكية حزناً وقلقا على أختي الكبرى عائشة، وباحت لنا مرة وهي عرضة هواجس مقلقة وخلجات قلب مؤلمة بأنها ترى أحلاماً مرعبة في نومها، بدا هذا نذير شؤم. « أه يامصبيتي وحزني، - باتت تردد مهدودة الروح من الذعر. - قلبي يحس بأن عائشة لن تقوى على تحمل المصائب والأحزان التي أملت بنا. كم كان أفضل لي لو أني مت هناك في الوطن من أن أعاني هنا من عذاب الأم التي تعيش بعد ابتها ٠٠ إن في أحشائها طفلا ٠٠ » انتظرت عائشة طفلا بالفعل. تمنع بالتفكير بإشراخ، الموت محقق بالجميع، نحس، بؤس، مصيبة والحامل تذوي. لم يكن بوسع الشيطان نفسه إجراء قرعة كهذه. لقد أنزلوا عائشة وزوجها إثر وصولها معنا بجوار سمسون ثم توجه كثيرون سيرا على الأقدام نحو الغرب ومحاذة الشاطيء، أين توقفوا واستقروا؟ لم تكن نعرف ٠٠

طلما الحياة باقية يبقى الأمل. هزني دموع أمي، وحاولت تخفيف القلق عن أسرتنا. ثم قررت المضي في البحث عن عائشة. انفتحت مع أبي وأخي أن أسعى لضمها وزوجها إلينا إذا وجدتهما. سرت في طريقي بمحاذة الشاطيء. اشرفت الشمس إثر استيقاظها المبكر وراء ظهري. لا يمكن وصف ما رأيت في طريقي أيها المحترم شراخ. أقسم بالخيز أني لو علمت بذلك من شفاه من أثق به كل الثقة لشككت بها سمعت. لم أغب طويلا ولكنني عدت أشيب. باللماجرين المساكين، باللماجرين الساذجين. ما حل بهم من عذاب وأذى أمر من أية كارثة تهبأ لهم تصورها. عاثت الأمراض المميتة فتكأ وحشياً بالنازحين متسللة إليهم مع الطعام والشراب والهواء. كيف لها ألا تنفخ بهم وهم يقتاتون من النفايات. الأويحيون الأباة أبناء الجبال من كانوا لا يقربون مياه الأنهار بل يرففون منها ويقصدون الأنهار الجليدية في قمم الجبال فوق الغيوم فيطفثون ظمأهم من ينباع العذبة الرقاقة ماكانوا ليطنخوا المهالغا من الطحين إلا بعد تنخليه مرات ومرات. إنهم الآن كالكلاب السوقية العليلة ينقبون في أكوام القاذورات عن شيء يقتاتونه. باتت الفتيات والنسوة وهن في هيشاتهن المهينة يخبثن أو يلتفتن جانبا حين يرينني أو يحجن وجوههن عنى حجلا من مظهرهن وعريهن ونشوههن، أما الأطفال الحفاة العراة الوسخون فأشبه بالهياكل العظمية الحية يركضون للقائي مادبن أيديهم إلى متوسلين:



- خيزة . أعطني خيزة .

لم يكن بوسع قلب رجل ألا يهتز ولو قد من الحجر لدى رؤية أولئك الأطفال .
في أحد الأيام توجهت إلى السوق بحثا عن شقيقتي وزوجها . لن تصدق ياشاراخ
أنهم باعوا واشتروا البشر هناك . الأرملة كازيرخان التي عرفت زوجها من زمن بعيد جرت
ساقبها المتورمين إلى السوق ماسكة بيدي ابنيها الغضين وأخذت تنادي عليهما :

- صبيان للبيع .. صبيان للبيع ..

صعقت بذلك وأمسكت بمقبض خنجري متجها إليها .

- اللعنة على شيخوختك . كيف تجرؤين على بيع ولديك أيتها الغولة .

رفعت نظرها إلى وبانت عيناها غارقتين في الأسى والحزن وحولها نصفا دائرتين سوداوين .
هزت رأسها وكأنها تسامحي على فظاظتي وقالت :

- من سيعيش حتى الشيخوخة يا زاورقان؟ عم تتحدث؟ - وتابعت مشيرة إلى

الطفلين : - الأفضل أن يشترهما ويطعموهما قبل أن يموتا من الجوع أمام عيني .

تراخت يدي عن مقبض الخنجر بشكل عفوي .

- فليصرع البرق والكوليرا الحاج جيراندوق الذي قضى على سلالة الأوبيخ كلها -

قالت المرأة حزينة مودعة وتابعت سيرها مع الطفلين : - أبيع صبيين .. من يشترى
صبيين؟

كانت روحها معلقة بمصير ابنيها ومن المستبعد أن تعيش يوما آخر بعد فراقها .

وجاء إلى السوق الصاحب بعد قليل أحد البكوات المكتنزين بالشحم واللحم
وعلى رأسه عمامة زرقاء يخطر كذكر البط السمين مثاقلا على رجله اليمين تارة واليسرى
تارة أخرى وفي إثره خادمه النحيل يدب على الأرض محي الظهر .

اقترب البيك من كازيرخان ، وأخذ يتفحص الصبيين بعد أن أوقفها بإشارة مقتضية
من يده ، ثم عرض بأصابعه الثمن الذي ينوي دفعه لقاءهما . لم تفاصله على السعر
وسرعان ما أخرج الشاري نقوده من جيب سرواله ورمى بها إلى أقدام المرأة . ارتعشت
شفاه كازيرخان المشفقة ، وجمعت يدها مرتجفة وذهول ضائع النقود المبعثرة ونظرت مرة
واحدة فقط إلى طفليها المتبعدين قبل أن تفارقهما إلى الأبد . ولكن أية نظرة كانت تلك
النظرة ياشاراخ . كازيرخان أم محبة لأطفالها وبوسع الأم فقط أن تتحمل مالا يقاس من

الآلام والعذاب ومواجهة الموت الزؤام في سبيل انقاذ حياة طفلها . جر خادم البيك الصبيين ودس لكل منها قطعة خبز . غطبت بيدي عيني وقد أحسست بألم مريح في قلبي ، وكان سيفاً تركباً محدياً ذا حدّين قد غررز في صدري .

الأوبخ الأحرار ٠٠ الأوبخ الأعزاء . حين يولد طفل في أسرة أوبخية ، يهب من حلت عليه هذه السعادة ليخبر الجبال الأوبخية والشمس وكل الجيران بأن وريثاً قد ولد من صلبه ويأتي الجواب كرجع الصدى :
- فلتزدد سلالة الأوبخ ٠٠

غادرت السوق مترنحا كالجرريح . لتحل اللعنة ثلاثا عليه . مدينة بورنا العثمانية اخترعت التجارة بالبشر ، وأسى ثمن أجمل الفتيات الجليليات في تلك الفترة اللعينة لا يزيد عن سعر التعاج ، وكان بانتظار الفتيات المبيعات مصير الجوّاري في الحريم في استانبول وأنقرة وترايبزوندا وغيرها من المدن التركية . بيع الصبيان بأسعار أبخس أيضا . أواه . أوليس من الأفضل لو أنهم لم يولدوا ٠٠ بالأولئك الصبيان الأوبخ البائسين . ليت لأنفاسي القدرة والهدوء لكي أتحدث عما فعلوه بهم . يشترهم التجار الأثمون ويقومون بخصيهم راسمين له إلى الأبد دور المخصي في حريم سلاطين البلاد ، الكبار منهم والصغار .

ألتقي أحيانا بأبناء العشيرة في الطرق فأراهم قد أمسوا أشلاء جثت حية . لم تعد لديهم القوة في بعض الأوقات على رد تحبتي إليهم ، اضطرت الناس الذين لا مأوى لهم أن ينصبوا على عجل وكيفما اتفق ما يشبه الخيم للاحتباء بها من الأمطار والرياح بهذا الشكل أو ذاك ، وشكل بكاء وأنين الأحياء وهذيان الحمى لمن أمسى في الرمق الأخير ما يشبه جهنم مخيفة أمت بالناس وسط الناس . ونصحني بعض الجليلين من معارفي بالعودة :

- لن تصيح حالة أمك أسهل إذا نفقت أنت أيضا . عد إلى حيث تقودك قدمك .
ولكني لم أصغ إلى تحذيراتهم . فقد شغل مصير أختي وزوجها كل كيائي . فتك . الطاعون بأبناء عشيرتي بالجملة . وذعر السكان الأتراك المحليون كل الذعر فأخذوا يجاؤلون إبقاءهم بعيدين معزولين فنصبوا الحواجز أمامهم وحولهم . ثم إن الدنيا تبقى دينيا ولايتهم لشيء على الإطلاق ، وحتى حين يشبع تبقى عيناه جائعتان . وهكذا أدرك أصحاب المقاهي والمطاعم الصغيرة وغيرها من المحلات أن من

الممكن الاستزاق بشكل ما من مصائب الآخرين . أخذوا يستأجرون للقيام بأصعب الأعمال وأوسخها المهاجرين الفققاسيين الذين كانوا معززين مكرمين دائماً في ديارهم لا يعرفون الذل والخنوع . باثوثفاضون الآن لقاء أعمالهم تلك أجوراً بخسة تقتصر غالباً على حساء سيء مخلوط بالماء . . دفع الجوع المهاجرين إلى العمل منذ طلوع الفجر وحتى حلول الظلام لقاء أردى طعام . بل كانوا يشكرون من يستأجرهم ويعتبرونه صاحب فضل عليهم . الثراء الفاحش يولد النزوات . أخذ المسؤولون الماكرون في النواحي والأفضية يقبضون عمولة خاصة على بيع الصبايا الأوبيخيات . أما المؤذن فيصعد خمس مرات في اليوم إلى مثذنة المسجد هناك داعياً المسلمين المؤمنين لأداء الصلاة :

- بسم الله الرحمن الرحيم . الله أكبر ٠٠

يرتفع صوت المؤذن الجهوري فوق رؤوس الأوبيخ المخدوعين المنوذنين هناك ولكنه يعجز عن التخفيف من آنيهم ويؤسهم وظلمهم . بدا لي هناك بإساراح أن أرواح النساء تحولت إلى سحب وطارت فوق البحر بانحاء الوطن الذي تيتهم لتبكي كل موقد لحد ناره . كلما ابتعدت عن مدينة سمسون سائراً بمحاذاة الشاطيء أصبحت لوحة الكوارث التي لحقت بشعبي مريعة أكثر فأكثر . سرعان ماأخذت أصادف في طريقي جثث الموتى . كانت جثثاً متعفنة لأبناء وطني . انتشرت الثنانة الكريمة في الجو المحيط دلالة على أن المهاجرين الذين خيموا هنا قد ماتوا جميعاً ولم يبق منهم من يوسع موارة الموتى الأرض . تملك نفسي هاجس مشؤوم أخذ يتجلى ويبرز أكثر فأكثر . تجاوزت مرتفعاً مفروشا بالخصى ، ونزلت إلى المنخفض فوجدت نفسي قرب نهر عكر . نال التعب مني كل منال وأنقل على قدمي بثقل رهيب مع أني لم أقطع في ذلك اليوم الكثير من القراسخ . قطع مسافة كهذه لم يشكل أي عبء إطلاقاً بالنسبة لي حين كنت شاباً فتياً يحسده الماعز الجبلي على قوة أوتاره وعصبه . حين ركبتني أمام مياه النهر الخرساء وغسلت يدي وبللت وجهي ولم أشعر بعطش فاكتفيت بتلمس الماء بشفتي . انساب سيل ماء النهر ساخناً وجارفاً . الماء يختلف من مكان لمكان بإساراح . هناك حيث عشنا سابقاً قرب شجرات الدلب التي عمرها قرون يحملون لمن يشعر بتوعك ما ماء مثلجاً من ينبوع صاف عذب بإبريق من الفخار وسرعان مايشفى الجبلي ويتصب على قدميه معاق .

لم تعتبر هذه المعجزة هناك معجزة . أخرجت كسرة خبز جافة كانت ملفوفة

بقلنسوتي، غمست تلك القطعة الشحيحة في ماء النهر وخففت قليلا من أوار الجوع . ثم بعد توفي القصير هذا مضيت بقلب مثقل بالأسى ورميت قلنسوتي على ظهري . سرعان ماظهر في البعيد كوخ فقير بدا لي أنه مسكن صياد سمك فعند العتبة نشرت الشباك لتجف . ولاحظت وأنا في طريقي إلى الكوخ امرأة منكبة على وجهها عند حافة الدرج، ضامة إلى صدرها طفلاً رضيعاً ٠٠ قربها أبريق مرمي على الأرض وحوله بركة ماء صغيرة لم تجف بعد . أبسط مأمكنني افتراضه أن المرأة ملأت إبريقها من النهر ثم وقعت هنا إثر عودتها . اندفعت مسرعا إليها لكي أساعدها على النهوض، وصحت من وقع المفاجأة . لقد كانت أمامي أختي عائشة .

- أوه، يا الله . ماذا بك؟ إصحي، إنهضي، لماذا أنت صامتة؟ .

حين رفعت أختي شعرت ببرودة خفيفة وأدركت أنها ميتة . ولكن وعلى ما يبدو أن الموت قد جاءها من وقت قريب، لأن جسمها احتفظ حتى ذلك الوقت بشيء من الحرارة أيضا . بقي الرضيع حيا ولكنه لا يكي بل يمتص ثدي الفقيدة بنهم شديد . خانتني للوهلة الأولى شجاعتي ولم أعرف ما يجب علي أن أفعله . غطت قطرات رصاصية من العرق البارد جبهتي أما يداي فأمسنا مشلولتين . ثم عادت إلي أخيرا القوة على تمالك نفسي . انتزعت الطفل من صدر الأم بحذر ولكن بحزم . ورأيت على شفثيه قطرات الحليب البيضاء . أوه ياشاراخ . يبدو لي أنه قد مرّ مئة عام من ذلك الوقت وحتى الآن ، ولكن بكاء الرضيع - الذي بقيت آخر قطرات حليب أمه على شفثيه - يرن في أذني كل الوقت . أتدري ياعزيزي أي اليوم فكرت بأن هناك معنى لكوني قد عمرت طويلاً . فمن الضروري أن يلقاني أحد ما هنا فتعيش على الأرض قصة فناء الأوبخ . . السفينة تبلغ الشاطئ ، والحقيقة تبلغ الناس . . .

بدا واضحا أن عدوى المرض المميت قد وصلت إلى الطفل . أصيب جسمه بحمى وأخذ يشد قبضتي يديه الصغيرتين اللتين تشبهان أيدي اللعب فهما بحجم جوزتين لا أكبر . بات يكي بحرقة وكأنه سيفارق الحياة توأ . ضممته إلى صدري وهرعت راكضاً إلى البيت الطيني . صحت قبل أن أبلغ عتبه وكان أطلب النجدة :
- فليخرج من في البيت .

ولكن لم يجب أحد ولم يظهر أحد بالباب . وصلت إلى العتبة ونظرت إلى داخل الكوخ المتداعي فسمعت أنينا معذباً . قمت بخطوة أخرى فرأيت مقابل الضوء الذي انبعث من خلال الباب المفتوح صهري هارون الذي جلس متكوراً وظهره منشث بالحائط، مثلواً مقوس الظهر، ضاغظاً بقوة على بطة يديه المشابكتين. برزت عيناه ملتهبتين وبدا جفناه وكأنها تفحما. أصبح أنفه المحذب مدبياً أكثر وشحبت وجنتاه مرتجتين ورسم على جبينه شبح الموت. الفارس الشهير في أويخيا بمهارته وقوته، الذي روض خيولاً نصف مشوحشة، الإنسان الناجح الباسل . . . أصبح شبيهاً الآن بكيس مجعد نصف فارغ.

عرفني هارون بصعوبة بالغة وقام بمحاولة للنهوض.

- أخ يازاورقان، اعذرني، ليس لدي القدرة على القيام لكي أرحب بك. عائشة ذهبت لتجلب الماء. ستأتي حالاً.

بدا صوته متهدجا يعتره الأنين المكتوم، عليلاً معلقاً بشعرة ساعته الأخيرة. من الواضح أنه لم يلحظ من خلال غشاوة وعيه المتكدر أني أحمل طفله بيدي، أدرك ذلك فجأة وحشرج بصوته وقد ضاقت به أنفاسه: - إذا كنت رجلاً يازاورقان فخلص عليّ. اعمل معروفًا وخلص عليّ. ماتت عائشة وسأنفق أنا كحصان مصاب بالنحطة*! حتى لو بقيت عائشة على قيد الحياة ٠٠ كلا. لا أريد ٠٠ إني أكبر منك بالسن ٠٠ إني أمرك: خلص عليّ ٠٠ إقتلني ٠٠

اعتري التشنج وجهه، تصلبت ساقاه، مال رأسه إلى جنبه وملاّت رغوّة دموية شفثيه. اعذرني ياشاراخ فقد أثقلت عليك بحدبتي الحزين. ولكن إذا كنت مستعداً للاستماع إليّ لاحقاً فلا تقطع بأن حدبتي سيكون شبيهاً بجرح نازف رمت فيه يد شريرة حفنة ملح. قيل قديماً: لا يوجد دواء حلو المذاق.

مات صهري هارون وبقيت أنا والصغير على يدي ٠٠ مريض، جائع يتيم الأبوين.

وضعت ابن أختي الرضيع على أرضية خشبية مخصصة للنوم وأسبلت جفني صهري

(*) النحطة: مرض يصيب الخيل.

المستوفي وذهبت لإحضار جثة عائشة . رفعتها بعناية فسقطت صغيرتها السوادوان بلون
القطران على رجلي . إن تذكر ذلك بحد ذاته مرعب للغاية . لقد الزوج الذي توفي إثر
زوجته جنباً إلى جنب معها . أما ابن أختي الصغير والذي لا أعرف حتى اسمه فواصل
بكاءه وزعيقه بكل ما أوتي من قوة . ولكنه صمت فجأة حين تركته . هذا الغر الصغير
المسكين الذي ارتعشت حياته كلسان طب شمعة ضعيفة ترتجف في وجه الريح ، هدأ
فجأة وأخذ وجهه الصغير الساخن يرشح بالعرق . التفت نظرتي بعيني الرضيع واختلج
قلبي على الفور فقد قرأت فيها معنى صريحاً إنه يطلب العون . جلبت الماء من النهر
بالأبريق الذي أوقعته عائشة وسقيت الصغير وبللت قطعة قماش مسحت بها وجهه ففرق
في النوم واضعاً راحة يده الصغيرة تحت خده الملتهب . «ماذا أفعل؟ - فكرت وأنا أقف
قرب رأس الفقيد - قد يرأف القدر الشرير بهذا النطف الرضيع فأتمكن من إيجاد
مرضعة له؟ ولكن أين لي أن أعثر عليها؟» ثم لا بد أولاً من دفن الميتين .

اقتضت العادة بأن يواريا التراب وأن يبكيهما ذوهما . ولكن أين ذلك الرسول
الذي يمكنه إخبار الأهل بموت عائشة وهارون؟ «أيعقل أني لن أجد أحداً من الأحياء في
الجوار بوسعه مساعدتي؟» خرجت من البيت بعد أن أوصدته بعضاً كي لا تدخل إليه
الكلاب وانطلقت باتجاه شاطئ البحر متعلقا بقشة الأمل الوهمي تلك وصحت بعد أن
مشيت قليلاً هناك منادياً أحداً ما ثم أطلقت من مسدسي ثلاث طلقات في الهواء :

- أوو ٠٠ سمعت الرد بعد مضي بعض الوقت وخرج للقائني من وراء شجيرة مترية
ثلاثة رجال وامرأة عجوز بدوا جميعاً منهكين ، يجرون أقدامهم بصعوبة بالغة . حمل
الرجلان معولين على كتفيها أما المرأة الغارقة في السواد فسارت هادئة وشعرها منقوش .
أدركت على الفور أنهم من عباد الله المؤمنين الذين أخذوا على عاتقهم عن طيب خاطر
واجب دفن الموتى الذين لم يبق لهم من يوارهم التراب . أخبرتهم بوفاة أختي وزوجها وعن
صغيرابن أختي الذي يرقد على المصطبة الخشبية في الكوخ ويتصبب عرقاً من حمى
المرض .

- أخ ياعزيزي - أسفت المرأة - ماحدث مع أقربائك الفاضلين حدث مع
الكثيرين ، لقد أشاح الله بوجهه عنا نحن الأويخ لأننا اقتربنا إثماً عظيماً بمغادرتنا وطننا .
والعقاب حسب الإثم غالباً .

- إننا نشاطرك أحزانك أيها اللطيف، ومنساعدك على دفن الفقيد، ولكننا عاجزون عن فعل المزيد - أضاف الرجال غارزين معاوهم في الأرض - أخذتهم إلى الكوخ. بدأ الرضيع مجددا بالبكاء وأخذ يمضّ بشفتيه ويغالب أنفاسه - أخذته المرأة بيديها وضمتّه إلى صدرها وهزّت رأسها بأسى :

- لن يعيش هذا طويلا أيضا .

وخرجت المرأة جاهدة في تهدئة الصغير وهددته بعد أن تحطت عتبة الكوخ . ركّز الرجلان وضعية الميتين . وخلعت عني قلنسوتي وأخذت أبكي المرحومين ضاربا صدري بيدي . بكيتهما باسمي وباسم أمي وأبي وأخي وأختي . بكيتهما باسم وطن الأوبخ الذي نتم . هذا الوطن القريب على القلب البعيد عن الجسد الآن . إنخفضت الشمس إلى مستوى ارتفاع شجرة وقمنا بنقل الميتين إلى سفح الرابية ، ثم أخذنا نواربها التراب مات الرضيع وكأنه لم يشأ أن يبقى دون أب وأم على هذه الأرض التي أحبها الشيطان وجال فيها وصال . دفنا الصغير قرب والديه دون أن يحصل حتى على اسم له .

- الوداع يا زاورقان - قال لي الناس الطيبون الذين ساعدوني - ليكن الله بعونك كي لا ترى بعد اليوم حزنا أكبر مما عانيت هنا . ليس باستطاعتنا أن نعينك في شيء آخر لأن الموت مقدر علينا جميعا ، وليس بوسعنا ألا نلاقي حتفنا خلافا لبحر البشر كله . - وأشاروا إلى القبور الندية قائلين بحسد : سعداء ٠٠ قد تمسي قسمتنا أكثر سقما ، ولا يبقى لنا من يدفنا ، فتفقا الغربان عيوننا وتبعثر عظامنا ٠٠ ترحم على أرواحنا يا زاورقان . بقيت بعد ذهابهم وحيدا محاطا بصمت القبور ، صبغت الشمس سماء الأفق بلون الدم وأخلدت إلى السكون . ثم أخذت السماء تظلم رويداً رويداً بعد أن طالت الظلال واستطالت . قررت أن أبقي لحراسة القبور في الليلة الأولى كما اعتاد الأسلاف دائما كي لا يقترب وحش من الوحوش ويدنس مكان الحفر .

أظلمت السماء تماما وأوقدت النار عند رأس الموتى . صبغت السنة النيران يدي بلون أرجواني ورسمت لي وجوه من رقودوا عند قدميها ٠٠ ثم سرعان ما ظهر القمر ناقصا وبدت الغيوم السابحة في السماء مضاءة أكثر من الأرض .

شعرت بكل عضلة في جسمي تعبئة منهدة من وطأة الإرهاق واختلطت الأفكار في ذهني ، وأطبقت أجباني من تلقاء ذاتها وما أن وضعت رأسي على قلنسوتي حتى غرقت في سبات

عميق وحلمت بجدي . لم أره في حياتي فقد مات قبل ولادتي ولكن والذي حدثني عنه أكثر من مرة، ولذا عرفته على الفور. جاء مرتدياً بزة شركسية بيضاء اللون وكأنها خيَّطت من الثلج البكر الذي لم يغطه أحد. كان رأس جدي أبيض أيضاً. حمل بيديه قدراً أسود هائل الحجم ينساب من حافته ماء عذب رقرق.

- زاورقان، - قال لي معاتباً - كيف تجرؤ على التناقس في هذا الوقت الذي هب فيه الشعب كله للقضاء على البلاء؟
- ولكن ماذا حدث؟ - سألت أنا.

- هل أصبحت أعمى؟ أنظر إلى الجوار - الجبال تلتهب بالنار - ومد يده باتجاه القمم راسماً قوساً في الهواء.

القيت بنظري إلى الأجواء التي خطها بيده ورأيت الجبال تحترق. كانت النيران الشعشاء هائجة تتسلق الجبال من سفوحها وكأنها قطع ثيران برية سلخت وهي حية. وامتد وهج النار إلى قمم الجبال الأبدية احمرت الغيوم، وتصدعت السماء كحزمة حطب جاف في أتون نيران هائلة. وانبتق شرر لم يشهد مثيله أحد يفوق السفن الشراعية في الحجم.

- ما هذا؟ - همست بذعر متسائلاً:

- هذا عقاب الله. لقد أبعدها الرب عنه وقرر محو سلالة الأوبيخ بأكملها عن وجه الأرض.

سقط طوال الليل ثلج لبادي وتراكم بحيث عطى الجبال ومحا معالمها. ثم أبرقت السماء فجأة واندفعت إلى العلاء نيران كونية. «اركض يا زاورقان اركض يا حفيدي . أنقذ الجبال . . .»

انتزعت من يدي العجوز قدر الماء الهائل واندفعت لأطفىء النار. ولكنني أفقت في تلك اللحظة. لم أع فور صحوتي من النوم أين أنا. ولكنني سرعان ما تذكرت إذ رأيت تبات القبور على ضوء الصباح الذي انبلج. وسمعت أننا خافنا وراء ظهرنا. التفت فرأيت كلباً يمكن إحصاء أضلاعه ٠٠ يشن والأشواك مغروزة في جلده وذيله ملفوف بين رجليه.

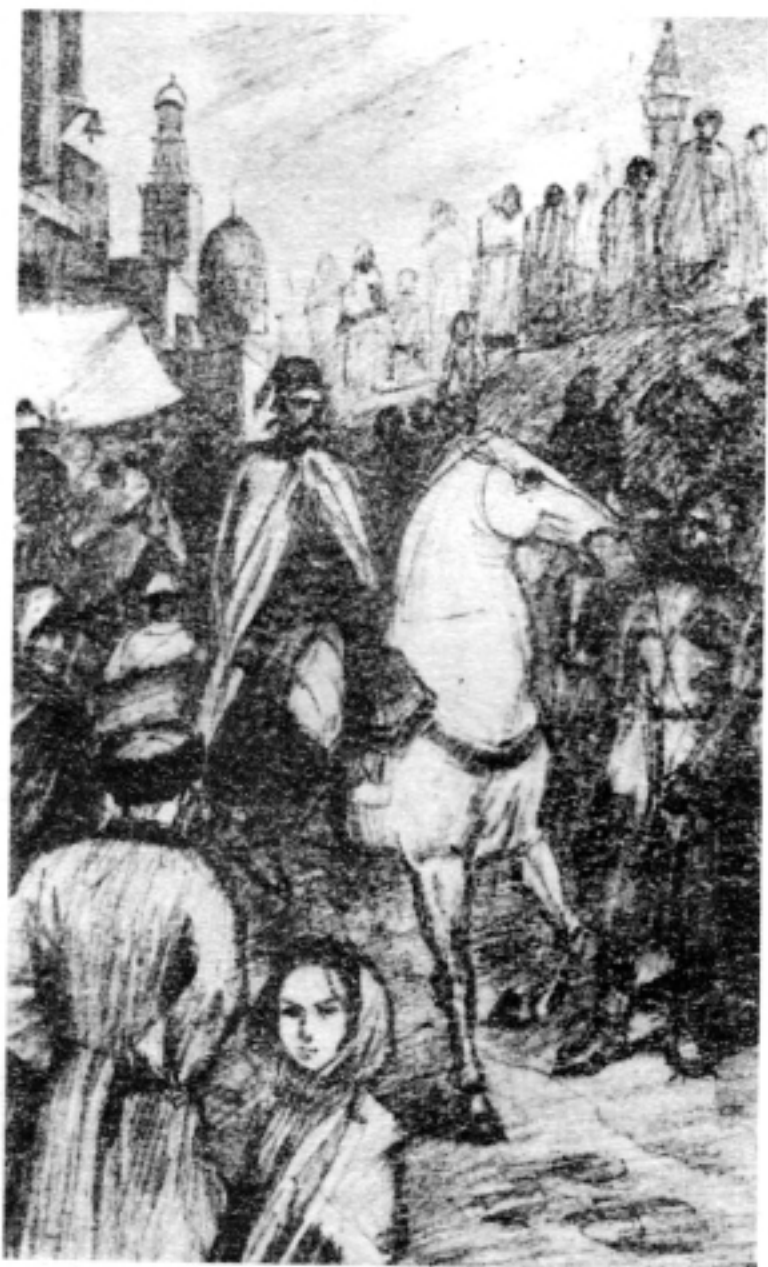
- ابتعد من هنا . - صغرت له ملوحاً بيدي وكأنني عازم على رميه بحجر.

ركض الكلب خائفاً ٠٠ ثم جلس بعيداً وأخذ يعوي . حاولت طرده مرات عديدة ولكن دون جدوى . يتتعد لعدة خطوات ثم يعوي طويلاً. فكسرت بأن الكلب عائد للصيادين أصحاب الكوخ وخطر لي عندها أنه صاحب الدار وأني هنا ضيف ٠٠
 - الدفن، الحلم الفظيع، عواء الكلب، كل هذا اختلط في رأسي . . . هل بقي من تركت هناك من الأهل على قيد الحياة؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك؟
 أغمضت عيني فبدأ كل شيء أحمر كالدم كما لو أنني نظرت عندها إلى الشمس . نهضت وأسرعت في طريقي العودة .

لا إله إلا الله

لدى اقترابي من المكان الذي خرجت منه بحثاً عن אחتي وزوجها لحظت من بعيد جمهرة شاحبة اللون من المهاجرين، وسمعت لغطاً وكلمات متفرقة . أدركت عجوزاً متوجهاً إلى الجمع وسألته :
 - ما مناسبة هذا التجمع؟
 - سيأتي عمر باشا والي سمسون . إنه يرغب في التحدث إلينا - أجاب العجوز دأباً بعصاه على الأرض الصلبة .

بلغنا الجمهرة . رأيت فيها عدا أتباع شاردين بن علو جبليين آخرين لا أعرفهم . تحدث المجتمعون بحساس وانفعال وتناقشوا ملوحين بأيديهم . بدأ بعضهم مأخوذاً بتوقعات متشائمة وبعضهم الآخر بأمال مشرقة . جحظت عيون الجميع وكأنها شرر متطاير من نار متوقدة قذفت بحجر . وقففت النساء في ثياب سوداء إلى جانب الرجال ، وغطت العجائز النحيلات اليايسات أفواههن بأطراف مناديلهن ذات اللون القائم زافرات متأوهات من لحظة لأخرى . رمقت الجميع بنظري فلحظت أبي بين الناس . وقف



جانبا معتمدا على عصاه من خشب السامشيت والتقت نظراتنا «سيفهم الآن كل شيء» من هيئتي ومعباي» فكرت أنا بشيء من اليأس.

- حا مبرزا - نادى شخص ما أبي فالتفت إلى جهة الصوت.

وركض إليّ أخي لاهثا.

- الحمد لله لأنك أنيت حيا سليبا - هتف بكلامه هذا عوضا عن السلام، وحين

لامس كتفي نظرت في عيني مباشرة:

- هل وجدت عائشة؟

أخفى السؤال العجول المباشر في طياته رعبا مكشوفاً ولكن .. قد أقتل أمه

فجأة؟

- وجدتها، وجدتتها - كذبت مترنفا بحاله - كل شيء، على مايرام لديهم - ولكي

لايتمكن من طرح سؤال جديد بادرته بسؤالتي: - وكيف حالكم أنتم؟

- لا بأس يازورقان. كانت الوالدة قلقة جدا لطول غيابك ولم تنهض خلال ثلاثة

أيام من فراشها. اليوم فقط قامت وكأنها علمت بأنك وصلت.

زاحم الواقفين جبلي عربض الكتفين مرتدياً بزة شركسية مذهبة تبدو عليه ملامح

الشباب رغم شعره الشائب وقال بنبرة لاذعة:

- بودي أن أعرف أين اختفى راعينا الروحي سحت قري الفاضل؟ - قال ذلك

متوجهاً لا لشخص محدد، بل للجميع دفعة واحدة - لقد جاب هذا الشيخ الفاضل قبل

النزوح بوقت طويل كل البلدات والقرى وحكى لنا جميعاً نحن الأغياء حكايات طويلة

جاهداً في إغرائنا بالرحيل الى هنا.

قال ذلك مقلداً صوت سحت قري مترنفاً مغتبطاً: - «تعلمون أيها الناس

الطيبون، تركيا فردوس مزدهر. بساتين وجنان للمؤمنين. في تلك الجنان الفواحة لا

وجود للحر ولا وجود للبرد. لا بدنس أحد هناك شفتيه باللعنات بل تتألق على الشفاه

صلوات الشكر والإمتنان» - أين هو... ذلك الأفاق السافل؟ لو أنه يقع بين يدي

لا تترعت أنفاسه بومضة عين - وهز ذلك الجبار قبضته المتقبضتين في الهواء وكأنه يمسك

بيديه بحلق سحت قري .

- إبحث عن الريح في الحقل .

- ما أن نزل عن الباخرة حتى ضاع أثره .

- يقال إنه ذهب الى مكة للحج .

- فليسحقه الحجر الأسود هناك - تدخلت العجوزة حميدة في خليط أحاديث

الرجال ماسحة دعة على خدها بمنديل رأسها .

- تركيا . بلاد واسعة . . . لعلنا نزلنا في أطراف سمسون مثل دجاجة لا ترى أبعد

من مكان تفريخها . ولكن ماذا لو أن سحت قري توجه حقاً للبحث لنا عن أماكن

للعيش !؟ ثم إن زعيمنا شاردين بن علو لا أثر له أيضاً قال شربن الطيب (من

عشيرة الساذيين) متمسكاً بغصن الأمل .

- من يملك النقود بوسعه أكل الحلوى حتى في جهنم . إننا نختق أيها العزيز

شربن ولكنك ما زلت مؤمناً بأن اصحاب الفضل علينا سيأتون ويقودونا الى نعيم

الحنان . لا تكن أعمى . قال الجليلي الغاضب الذي يادر بالحديث عن الأفاق سحت

قري . جاءت كلماته هذه كضربة قوية لغصن الأمل الوردي ولاذعة كلسعة السوط .

تأملت الحضور وكانى أبحث عن شخص ما بين الجموع فلقيت زياشي ناورز بن

باراكاي . عرف طبع هذا الإنسان بالطيش دائماً . . . فهو يشبه مسدساً مهيباً الزناد كل

الوقت . . لم ينهض زياشي ناورز بل أخذ يتوثب في مكانه . . فبوسعه مقاطعة المتحدث

قبل أن يتم كلامه والتصرف بتهور وبلا حساب .

- نهض لتسوه من الفراش . - قال أخي ماتا مشيراً إليه . وبالفعل بدا ابن براكاي

شاحب الوجه كالأموات منظوياً على نفسه . بحيث لا يمكن النظر إليه دون تأثر

وانفعال .

- لا أجد معنى في البحث عن المذنب في شقائنا وبؤسنا - بدأ حديثه بصوت محشر

وكان حلقه ملتهب - ولكن من الواضح شيء واحد . نحن مخدوعون ومبيعون كالخرفان .

أين غطس الحاج جيراندوق واحتفى أثره ؟ آآ ؟ لا تعلمون . بوسعي أن أقسم أنه في

نعيم رغيد خلافاً لحالنا . الوطن لمثله كالأرض الغربية سيان . هذا ليس مجلساً ، حيث

الألسنة الثرثرة والنقاشات والمناطحة بالجباه كالثيران . سأكون موجزاً : أعلنت للأقرباء

والأخوة بالرصاعة والأصدقاء كافة : أني مستعد للسير في طليعة الراغبين في العودة الى الوطن . وإذا لم يتم لنا هذا سلمياً فسنلجأ الى السلاح . أفضل السقوط في المعركة ورأسى باتجاه أرض الوطن من أن الأقي حتفي هنا من الجوع . لا أدري لأي شيء نحن هنا في هذه البلاد الغريبة . حان الوقت للعمل - وقذف بيده الى جهة البحر وصاح قائلاً :- غداً المسير . .

جاءت كلمة زياشي ناوز بن باراكاي بالنسبة لأغلبية المجتمعين غير متوقعة . ومع أن الناس اعتادوا على تصرفات ناورز السريعة المفاجئة فإن « غداً المسير » وضعتهم في مسألة معقدة . فكل منهم مسؤول عن النساء والأطفال والشيخوخة . اصطحاب أهل البيت جميعاً قول سهل ، أما تركهم هنا لعبث الأقدار ؟ من يجرؤ على هذا ؟ لم يخف ذلك على زياشي ناورز . وانتشرت في صفوف الناس همهمة التردد .

ولكن ناوز عرف أيضاً أن الحدين لا يحميان إذا لم تضرهما قليلاً .
عرفت فيكم الفضلاء الجريئين الذين حذروا من الوقوع في المصيدة ، ولكنكم دخلتم مع أطفالكم ونسائكم في ثغر الكوليرا كالنجاج في إثر التيس الضال .

- الحقيقة حقيقة ياعزيزي ناورز- لم يتسالك العجوز سبت نفسه ورمى بطرفي قلنسوته الى وراء ظهره متابعاً قوله - لقد حاول أخوك أحمد إيقاف الشعب عن القيام بهذه الخطوة المميتة . . ولكنك أنت عندها . .

- الباشا يقترب . الباشا . .

لم تدع تلك الصيحة فرصة للعجوز سبت لكي يقول كل ما أراد .
اقترب عبر الطريق الأبي من سمسون فارس محاط بحرس مرافقة من عشرة عساكر ، وسرعان ما وصل الى الجمع المحتشد الذي فسح له الطريق فتابع سيره حتى وصل الى الوسط تماماً . كان ضخم الجثة وجهه أسمر اللون ، يرتدي طربوشاً أحمر له شرائيب سوداء قائمة . رمق الجميع بعينيه البنفسجيتين وحرك فوق شفته العليا المنفوخة المقلوبة شاربه الأحمر الشبيه بالشارب المستعار . بقي الباشا على ظهر جواده الضخم السمين الأشهب .

تدلى الركاب حتى النهاية وبدأ أن الفارس يكاد يبطأ الأرض بساقيه الطويلتين . عرف الكثيرون من الأوبيخ اللغة التركية معرفة بسيطة عامة باداد شراخ . فقد أنقها الى

حيث يجتمع الرجال . عليكم أن تنسوا نظم الكفار هذه . هنا تركيا لا روسيا . فلتنقلع النساء من هنا فوراً .

- إذا سمحت أيها السيد ، أنصت لي - قال صلاح ذو الذقن الشائبة وانحنى للفراس الوجه مشبكاً راحتي يديه - لدينا نحن الأويغ قد يستنا بيتحا القادرة على كل شيء ، وإن لي الشرف أن أكون الكاهن الأكبر لها ، وحين نؤدي الصلاة تمجيداً لقديستنا تغف النساء الى جانب الرجال . هكذا العادة وقد ورثناها عن أسلافنا .
عندما ترجم مزوتش أبو خبا ماقاله الكاهن كلمة كلمة ، علق الباشا سوطه على السرج ورفع يديه الى السماء وقال :

- لا إله إلا الله . . . ثم قطع دعاءه وصاح بالناس مهدداً متوعداً : اذهبوا الى المسجد أيها الأثمون . اذهبوا جميعاً . كفروا عن ذنوبكم بالصلاة وإلا فلن تروا الجنة .
وأخذ الغضب يخنقي :

- دعونا نعيش مثل البشر على هذه الأرض ونحن نتنازل لكم عن الجنة .
واستعد ماتا من جديد للعراك منتصباً أمامي لتغطيتي . ولحظت أيضاً نظرات أبي التي لم تتم عن الإستحسان : « أين قدرتك على ضبط أعصابك يا بني ؟ » .
التفت عمر باشا الذي قاطعت خطابه البليغ إلي ، وأشار قائد العسكر بمقبض سوطه باتجاهي .

- شيطان - شتم والي سمسون وأعلن ملقياً بقناع فاعل الخبير الفاضل : - باسم السلطان العظيم ولي الله على الأرض أمر بتسجيل أسماء الشباب القادرين على الخدمة العسكرية . من يسجل اسمه يدعى للجيش . ومن يذهب الى الجيش بشكل طوعي يحصل على مكافأة وتحظى أسرته بحماية الدولة .
وساد هدوء لفترة قصيرة أخل به أبي أولاً :

- يريدون سوق أبنائنا وحرماننا من كل أمل وسند .

- إيه يا حامي ميرزا - قال شخص مابشيء من الخنوع - لا تعطهم أبناءك اليوم طوعاً يتزعوهم غداً بالقوة . سيف السلطة طويل . . .

وقع الناس في ارتباك وبليلة ، وهنا انتصب امام عمر باشا فجأة ناورز الذي غرز عكازه القصير في الأرض وعلق عليه سيفه وقال بفصاحة ووضوح وبنون أية مواربة باللغة

جانب الأسر النبيلة وخدمها وحشمها التجار والمهربون وليس عامة الشعب . لذا لم يسع عمر باشا التحدث الى الجموع بدون مترجم لا سيما وأنها من سواد الشعب وبسطائه . وهكذا وقف مزاونتش أبو خبا إلى جانب الركاب الأيسر لحصان الباشا ليقوم بدور المترجم . كان متعلماً حاذقاً جديراً بالمسؤولية ، وهو سادزي - أبخازي من غاغرا .
بعد أن ألقى الباشا التحية ، سأل :

- هل الجميع مسلمون ؟

- الجميع أيها الوالي - أجاب العجوز سبت .

- إذا كان الجميع مسلمين فلماذا لا تذهبون الى المسجد وتقومون بالصلوات الخمس كما ينبغي على المؤمنين ؟ - بدء الحديث بالحساب والعقاب أمر أقل مافيه أنه خال من اللباقة .

- أيها الباشا المحترم اسمح لي أن ألفت انتباهكم الى أن الله أعفى العريان من غسل ثيابه . يمكننا الذهاب الى المسجد ولكن لا يوجد هناك خبز لنخفف به أوار الجوع ، ولا يوجد دواء لتطفيء به لهب الوباء الذي يسحقنا عن بكرة أبينا .

أدهشني وقع صوتي . لقد نطق فيه الفولاذ عينه . ضغطت يدي اليمنى على مقبض الخنجر . . . تلالشي أمامي وجه الباشا وكأني في هذيان . . . وثرأت لي كالطيف صورة عائشة الميتة ورضيعها الحي يلثم ثديها بجوع ونهم . . . وقعت ضفيريته أختي السوداء على قوائم حصان الباشا . اقترب مني ماتا ووقف أمامي بلمحة عين كي يحميني ، ولكن المترجم جعل من الثور الهائج حملاً وديعاً .

- نحن جائعون ، ياسيادة الباشا . هكذا ترجم معنى كلماتي . .

- كل أسرة ستحصل منذ الغد على رغيف خبز - قال عمر باشا بمهابة وصوت

رزين وكأنه بعظمته الفاضلة يفتح أمامنا أبواب الجنة منذ الغد .

لم يسمع الباشا صيحات ابتهاج بل على العكس وثبت إليه العجوز حميدة وكأنها طير مريض وزعقت :

- وما الفائدة من الخبز اليابس وحده ؟ سيموت الأطفال جميعاً بدون حليب .

- بالناسكري الجميل هؤلاء . - لمعت في عيني الباشا نظرات الإشمئزاز - هذا لا

يقبله الإسلام - قال وقد ثارت ثورته - لا يحق للنساء - لاسيما أنهم بلا ملاءة - التواجد

التركية :

- اسمع أيها الرئيس ، أرض جنتكم هذه لا ثلاثنا . فإمّا أنا غير جديرين بها وإمّا أنها غير جديرة بنا .

نصف الذين أبحروا الى هنا أصبحوا في القبور . وياتنظار الباقين مصير مماثل .
اسمع أيها الرئيس ، لقد قررنا العودة الى الوطن . أعطنا سفناً . وإذا رفضتم هذا فاننا سنعود مشياً على الأقدام . افتحوا لنا الحدود فقط . إذا تعطفتم علينا بهذه الخدمة العظيمة فسندعو لسلطانكم بالصحة قرناً من الزمان .

حمد الحضور ، ولكن كلمات ناوز بن براكاي لم تبهر عمر باشا لأنه كان مستعداً على الأرجح لمطلب المهاجرين هذا ولهذا لم يطل التفكير :

- هذا غير ممكن . لو أن الأمر بيدي ولكن هل أنا قادر على إلغاء شروط الاتفاقية بين دولتين عظيمتين . مثل تركيا وروسيا ؟ لن تضعوا أنتم تحت لواء هلالنا . فحتى النبي لم يعترف به في البداية . لن تنسى تضحياتكم . الصبر مفتاح الفرج . لا إله إلا الله . لا تنسوا أن تذهبوا كل جمعة الى المسجد لكي تطهروا نفوسكم . . . ولكن عمر باشا حصانه بعد تلك التوصية وخطر أماننا ثم ابتعد مطارداً مسرعاً .

مضى حراسه وراهه ، وغطت سحب الغبار الفرسان . . . أخذ الناس يتفرقون مفهورين ، وسرعان ما التفتت وجهاً لوجه بأبي وأخي . ألقى والدي نظرة ثاقبة الى عيني فلم أجلد وأحنيت رأسي .

- أرى من خلال عينيك أن بلاء حل بعائشة . حدثت بها جرى ثمناً طالماً أنا وحيدون هنا . . . وأضاف واضعاً يده على كتف ماتا - ورجال .

أخبرتها دون أن أخفي شيئاً بكل ماحدث وارتعش فكأ أبي ولكنه لم يظهر أية علامات أخرى إثر وقوع الخبر الأسود على قلبه بل سحب يده عن كتف ماتا وبقي معتمداً على عصاه من خشب السامشيت أما أخي المسكين - وكان لعمره الغض أثره بالطبع - فأخذ البكاء كالطفل الصغير . سمح له أبي أن يسكب الدمع كما أراد ثم قال بصوت إنسان تجاوز أفضح الهزات في الحياة .

اكتنا هذا الخطب كسر الأسرار خلف جدران أسنانكا المنيعه . . فلا يجوز أن تعرفه أمكم ولا يجوز أن تعرفه أختاكم . فلو عرفته لأمسى سيباً كافياً لموتين . . أسرع إليهن

يازاورقان وحاول سكب الزيت في مصباح أملهن . اذهبا ياولدائي .
افترقنا مع أبي الذي مضى وحيداً الى منطقة الوادي الحجري حيث تنمو هناك
شجيرات ذابلة قليلة .

كانت روحه معلقة بابنته الكبرى عائشة . فهي البكر في الأسرة ، ولا بد له الآن
من الإنفراد بنفسه تحت ظلال الأغصان المتربة هناك ليكيها . بحث عن الوحدة اللائقة
بالتفكير العميق والصلوات والدموع .

جرّ ماتا قدميه جرّاً ورائي . لم يعد ينشج بل يزفر متأوهاً فقط . لاحظت حتى
قبيل انطلاقي للبحث عن عائشة أنه ينحف وأنه فقد هدوءه وغالباً ما يصرخ في نومه .
وشعرت أن المأ روحياً لا جسدياً يسومه صنوف العذاب . يتألم ويتعذب ولا يجد القوى
لقتل الحزن الذي ينشئ به الرجال العتيدون . ما أن يفتح فمه حتى تصدر
عنه : « أحزاننا » ، « بيتنا » ، « أرضنا » .

- في الفترة الأخيرة - اعترف لي - أرى أحلاماً موحشة . شاهدت مرة وكأني أعود
بكيس مليء بالذرة الصفراء ونوراً يضيء طاحونتنا القديمة قليلاً . رأيت باباً مفتوحاً على
مصراعيه وفي عتبته كلب أغبر اللون لا أعرفه يتحفز للوثوب الى صدري والتشبث
بحلقي . ينبح ذلك الكلب اللعين ولكن نباحه غير مسموع . كلب أخرس .

التقطت حجراً وقذفته به فابتعد الكلب جانباً ثم دخلت الطاحون ودهشت :
الدولاب السفلي يدور بأقصى سرعة أما الرحى فلا حركة فيها . يكسوها الغبار بسمك
ثلاثة أصابع ، وعوضاً عن الوعاء الخشبي حيث يجب أن ينهمر الدقيق أرى تابوتاً أسود .
تملكني الفزع وقفزت الى العراء فوجدت الباب مظلماً مع أن ضوء الشمس كان من دقيقة
خلت ساطعاً . ثم ظهرت في السماء السوداء كالبارود دائرة كدراء بدلاً عن الشمس
شبيهة بقلب الجبن الأحمر المسلوق . . . ثم على الأغلب أني صحت في نومي وأن أبي
أيقظني

« قُطعت يد شخص في المعركة ولكنه تصور بعد ذلك أن أصابعه تتحرك وتؤله » -
راودتني هذه الفكرة .

- تجلّد ياماتا فقد بتغير كل شيء نحو الأفضل .
- اصمت يازاورقان - قال لي وقد وثب إلى رشده - اعلم أنه إذا لم تنهياً لي العودة الى

الوطن فساموت .

أتلج البرد القارس ظهري . أدركت أن هذا ليس كلاماً عابراً .

- لا تكن غيباً ولا تنفخ في بوق التراجع . حاولت تهدئة أخي ساعياً في الوقت نفسه الى إبعاده عن المخاطر وصرفه عن التفكير المظلم ، ولكنه لم يعر أذناً صاغية لما قلته له :

- ناورز وأصدقائه يستعدون للعودة الى الوطن . إذا علمت أمي وكذلك أبي بنيتي بالإنضمام إليهم فإنها سيلقيان حتفها قبل أن يوافقاني على ذلك . أتوسل إليك يازورقان أن تكون الوسيط بيتنا . يقال إنه عمل بنطوي على مجازفة كبيرة ويمكن أن نفقد رؤوسنا بكل بساطة ، ولكن المصيبة لا تعترف بأية قوانين . جوهر القضية في نجاحها بأخي . طبيعي أنك ستبقى مع الأم والأب والأختين إذا مت أنا . ولكني . . . إذا تمكنت من الوصول الى البيت الحبيب المهجور أشعل النار في موقده الذي خمد وبرد ، وأتولى شؤون الدار وأفلح وأبذر وأحصد . . . وهذه الأمور ليست جديدة علي . . . وأربي الماشية وأقوم بالصيد ثم بعد ذلك كله أستأجر سفينة شراعية مهما بلغ أجرها وأبحر إليكم لأخذكم من هنا .

كان من يقف أمامي ويتحدث إلي شاباً جليلاً شبيهاً بالصقر الذي حرموه من حريته ولكنهم لم يفلحوا في حرمانه من حلمه بالصعود الى السماء . بقيت حذراً محافظاً على الحلول الوسط فلم أرغب في بتر جناحيه أو إغرائه بالثقة الأكيدة بالنصر . - نبذ عمر باشا لتوّه آمالك بالعودة ، وتحدثت السلطة التركية نفسها إليك بلسانه الآن ، ثم إنني أسأل : من يثق منكم بأنه سيحصل على الحق بالسكن في أوبيخيا التي كانت قائمة ؟ هذا إذا تمكن من العودة الى هناك .

يجب « اجراء القياس سبع مرات » في هذه المسألة . ولكن إذا قرر ناورز والمؤتمرون معه اختيار هذا الطريق الخطر وأنت عازمت على المضي معهم حتماً فلن أقف عقبه في طريقك . إرادة الحر ملكه . .

شعرت عندها برغبة عارمة لأكون بين رجال ناورز بن باراكاي . ورسم خيالي لوحة قزحية الألوان : في موقد بيتنا نار تصفق بأجنتحتها كالديك الأحمر وباب البيت المضيف مفتوح على مصراعيه . ولكني لم أشعر بأية أحاسيس في داخلي ولم ترتعش عضلة

واحدة في وجهي . فعلى الأغلب أن والي سمسون قد قال الحقيقة فعلاً حول الإتفاق بين البلدين العظمين . وبحكم هذا الإتفاق بالموت على أولئك الذين عبرَ ناورز عن عزمهم وعلى الآخرين الباقين سواء بسواء . أين المخرج من هذه الحلقة المفرغة ؟ مَنْ من الناس يوسع أن يرغم قيصر وسلطان هذين البلدين العدوين عداوة مزمنة على إعادة النظر في قرارهما بصدد المهاجرين ؟ أمسى رأسي شبيهاً بخلية نحل طارت منها الأفكار كما يطير النحل ولكنها لم تأت برحيق العسل . جاءت مرارة الحقيقة أقوى . اقتربنا من بيتنا الذي يشبه الضريح . لمس ماتا كتفي بيده :

- تمهل يازاورقان . لا تسرع .

- ما بك ؟ تعبان ؟

هز رأسه وطلب :

- نعال نستمع للعجوز ساكوت . . . لوقت قصير . .

- فكر بأمك وأختيك . .

- سيتاح لك الوقت لتحكي لمن حكاية مناسبة ، ولكني لم أعد إلى رشدي بعد ، وأخاف أن يلاحظوا عليّ . . ليس الوقت مناسباً لساع الموسيقى يامانا . . ليس مناسباً .
- كلا يازاورقان إنه الوقت المناسب . الأبخيارتسا فقط قادرة على تبديد أحزاننا ومواساتنا قليلاً . . لنذهب ، أرجوك .

توجهنا الى شجرة شبيهة بتلك المنتصبة على شاطئ البحر . جلس ساكوت ذو الذقن الشائبة مستنداً بظهره الى جذعها ساهما بعينه الضريرتين الى بعيد . . . حيث تظهر الأمواج في الأفق صاحبة عريضة كالحقول الهائجة .

تحلقت حول ساكوت بعض العائدين من الإجتماع المشؤوم . بلغ عددهم خمسة عشر شخصاً تقريباً . رأيت قرب المغني الأعمى آلة الأبخيارتسا وقوساً على سرج باخ لونه . اعتاد الصبي أستان على الإتيان بجذعه عند غروب كل يوم إلى هذه الشجرة وكأنه احترف هذا العمل . علمت بهذا من زمن بعيد وبأن الناس يتجمعون هناك كل يوم ، فيستمعون لأغاني وموسيقى الأشوغ(*) العجوز ويزرفون دموعهم خفية بسخاء كبير

(*) أشوغ : مغني شعبي قفقاسي يؤلف ويعزف ويؤدي الأغاني بنفسه .

ويشعرون بضياء ما في ظلمة أحزانهم القائمة . عرف عن ساكوت أنه لا يكرر أغنيته أكثر من مرة ، في كل يوم أغنية جديدة يقدمها هدية للناس . فمن يقدم الهدية لا يكررها في كل مرة ؟ أمسى بوسع العجوز ساكوت منذ أصابه العمى معرفة الناس بأصواتهم . يرد التحية عادة ويذكر اسم من ألفاها عليه .

- يوم طيب ياسكوت - اقتربت أنا منه .

- أوه زاورقان . إني أعرفك بخطواتك . فليبارك الرب الابن الأكبر لحاميرزا .

أندري ياعزيزي زاورقان أنه يكفي أن أسمع صوتك حتى ينبعث في ذاكرتي أبطال زمان أسلافي . لقد عاشوا طويلاً كالنا رتين . . أرجو لك عمرهم الطويل ياداد . كم هو طيب أنك جئت . لدي ما أكفلك به . . . حفيدي أستان فتى وقليل الخبرة . لقد مات كل أقربائنا . كن رقيقاً عطوفاً عليه يازاورقان ولا تتركه بعد موتي بدون نصحك وإرشادك . كن له بمكانة الأخ الأكبر . أما أنا الأثم فقد وصيت الناس بأن يدفونوني هنا تحت هذه الشجرة وليكن رأسي باتجاه قمم الوطن . فيه - قال مشيراً الى كيسه الجلدي المربوط بحزامه - حفنة من تراب الوطن . اثروها على صدري حين تنزلوني القبر . وعلقوا التي هذه على هذه الشجرة ، فبوسع الريح أن تداعب أوتارها لتصل إلي أصواتها - ومرر ساكوت براحة يده الرعشاء على جذع الشجرة الأعوج . . ولكن أين أخوك يازاورقان ؟

- تحبني إليك يا جدي . - ردُّ مانا بصوت خافت .

- هيا اقترب هيا . . اقترب مني أكثر . انحنِ إلي . . . انحنِ . . .

انحنى مانا أمام العجوز ومرر الأخر أصابعه الدقيقة التي ترى جيداً على وجه

مانا :

- هل بكيت يا فتى ؟

- نعم . .

- لا بأس لا تحجل . الدموع ليست عاراً فلتتحول دموعك الى رجولة حقة .

بحث بيده حوله عن آلة الأبخيارتسا والقوس فتحسبها بسرعة . وضع آله كالاعتاد على صدره الضئيل ومرر أصابعه على الأوتار ، وتر إثر آخر لكي بعدها للعزف . أوتار الأبخيارتسا مصنوعة من شعر الخيل . لم يكن ساكوت في عجلة من أمره ، وبقيت عنياه تحمقان في السماء وكأن بوسعه رؤية ضوئها ، وغيومها السابحة ، وظهورها المحلقة

وحتى علوها الذي لا يعرف له حدود وقعها الذي لا قرار له .
لهذا اليوم أغنيته أيضاً .. أعلن ساكوت .

واي داريدا . واي داريدا .
لا تصمتي ياألتي أبخي يارتسا .
هات لنا الأمل هات .
ركاباً راعماً للفارس الآتي .
أداعب الأوتار أنا الأعمى .
فينبلج الضوء من الظلمة .
وينبعث الأمل ثانية .
لقلوب الحزن والنقمة .
جف الطفل من الظماً .
- أماه . . أعطني لأشرب .
- أماه . . أين الكلا ؟
- أماه . . هدي التعب . .
- قصدت أختك البنوع .
- وأبوك يطحن الشعير . .
- صبراً ياواهن الضلوع .
- تجلد إذا ، تقبل المصير .
في القبر زوج وابنة .
والأم تصبر الصغير .
ليضيء الأمل ليلكم .
ليضيء يومكم العسير .
واي داريدا . واي داريدا .
لا تصمتي ياألتي أبخي يارتسا .

العودة إلى بلاد الأويخ

كان القنصل الروسي يقيم في ترابيزوندا ، ونسبته موشينين . علمنا بأن هذا الإنسان بذل جهداً كبيراً لتهجيرنا إلى تركيا . فحسابات أمثاله بسيطة : « إذا طردنا الجبلين المسلمين من أرضهم التي تقع قرب الغيوم أصبح إخضاع القفقاس كله أمراً مفروغاً منه دون سفك المزيد من الدماء . ثم إن توطيد المواقع في هذه المنطقة المتمردة من زمن بعيد كان حلاً قديماً للقيصر الأبيض » . وهكذا حين أدى النقص في عدد البواخر - لنقل المهاجرين - إلى تشييط عزيمة والي القفقاس والمقربين إليه بادر موشينين الحازم والعجول فاتفق مع السلطات في مدينة بورتا على تخصيص المزيد من السفن الشراعية لذلك . اعتمد موشينين على نفسه في جمع المعلومات لا عن طريق الآخرين ، لاسيما إذا تبيأت له الإمكانية لأن يقتنع بنفسه وعن كتب بصحة الأحداث التي تهمه . فإثر حصوله على إخبارية بالوضع الكارثي للمهاجرين ؛ توجه بصحبة عدد من مرؤوسيه إلى هناك مباشرة سيراً على الأقدام بمحاذاة البحر . وسرعان ماأمسى أسير تلك اللوحة البائسة التي

رأها بأمر عينه ، واهتز لها ضميره . خصوصاً وأن المهاجرين منحدرين في كافة الأحوال من الإمبراطورية الروسية . وهكذا طلب موشينين ، - فليذكر اسمه دائماً - مقابلة الوالي عمر باشا ، وعبر له بلباقة وتأكيد عن استهجانته للمعاملة اللا إنسانية للسلطات التركية تجاه ألوف القفقاسيين الذين انتقلوا إلى حماية السلطان :

- إنهم يلاقون حتفهم من الجوع والأمراض ، أما مواطنوكم الميسورون ، فيستغلون ذلك ليشتروا بأسعار بخسة أطفالهم وخصوصاً فتياتهم الجميلات . لقد وعدتم زعماء الأويخ بأنكم ستكونون مضيافين معهم . . . إن كلمة السلطان في بلادكم توازي القانون ، وقد أوصى الرسول بالرحمة .

- اعذروني أيها السيد القنصل ، ولكن لأسفي الشديد ، أنا لا أملك الوقت الكافي اليوم للتحدث إليكم بالتفصيل عن المهاجرين . - أجاب عمر باشا مخفياً رجفة أعصابه . ثم نهض لكي يوحى بأن لا وقت لديه بالفعل وقال : - إني يا صاحب البهاء قد التفتيت بهم . إنهم ناكرو نعممة ، صعاب المراس ، لا يحترمون قوانين البلاد التي

أوتهم . . . يعيشون فساداً ويمتنعون عن تقديم أبنائهم للجيش ، يسرقون وينهبون . .
كما ظهر لدى أغليبتهم رغبة عارمة بالعودة إلى الوطن ، ولا أدري كيف تنظر إلى هذا
حكومتكم ؟ - وابتم عمر باشا ابتسامة النصر .

أدرك موشينين وهو يغادر الوالي أن من المستبعد أن يغير لقائه هذا شيئاً في مصير
المهاجرين ، لاسيما وأن الوالي على هذا القدر من الفظاظة . لم يخف على القنصل أيضاً
أن عمر باشا الذي سُمى المهاجرين لخصوصاً احتفظ لديه بخمسين جيلية اشتراهن بشمن
بخس بعضهن خادماً لديه وبعضهن جاريات في حريمه . كان عمر باشا أحد المذنبين
في كارثتنا ، ليس المذنب الأكبر ولكنه يستحق الإعدام شفقاً . إلا أن أيدي الإنتقام بقيت
قصيرة . ومع هذا فتعاطف القنصل الروسي معنا الآن يعني الكثير بالنسبة لنا بإشاراخ .

لقد أعطانا موقفه هذا بصيص أمل بالعودة . وهكذا قام مزاونش أبو خبا بتكليف من
الراغبين في العودة إلى الوطن بالسفر ثلاث مرات إلى ترابزون ، حيث التقى بموشينين .
أذكر المرة الأخيرة التي عاد فيها من هناك واجتمع به الناس إثر عودته فوراً . لم يقتصر
الاجتماع عندها على الأوبيخيين فحسب بل حضره ممثلو العشائر الجيلية الأخرى . أتعلم
باشاراخ أن الإنسان يرى أبعد وأفضل كلما تقدم به العمر ؟ ياإلهي كم سنة مرت حتى
الآن ولكن ، وكان كل شيء حدث بالأمس ، وهاهو مزاونش أبو خبا يتمثل الآن أمامي
حيّاً يرزق . إنه عريض الكتفين ذو شارب أسود اللون . بيته وحقله المهجوران قرب
قلعة غاغرا . عاش بعد أسفه وندمه على تلك الهجرة الجبرية - مثله مثل الأغلبية
الساحقة منّا - على أمل واحد فقط : العودة إلى الوطن . ولكنه خلافاً لناورز بن باراكاى
المستعد لحمل السلاح من أجل ذلك بقي مزاونش ميالاً إلى المباحثات السلمية مع
سلطات البلدين . أكدّ لدى لقائه بالناس المجتمعين على ضرورة العمل من خلال
السفير الروسي ايغنايف في استانبول الذي عرف بنفوذه الكبير وخلفه الكريم .

- القيصر بالذات يصغي لكلمته وهذا الأمر معروف للأتراك . لنكتب عريضة
لعظمة الإمبراطور نستسمح فيها كمواطنين من عهد قريب للدولة الروسية ونشرح له
المصائب التي وقعت على كاهلنا ويجب أن يحمل هذا الكتاب ثلاثة أشخاص
نتخيم من بيننا ليقدموه إلى السفير الروسي في استانبول . . . هكذا بنصحنا القنصل
موشينين . . . فهو - ليمنحه الله الصحة - سلمني بيده هذه الرسالة ، ويجب إرفاقها

بعريضتنا ليقبلوها في السفارة . . . لن نضيع الوقت الثمين . . .

عم الهدوء طرفة عين ، وصدح فجأة صوت جهوري :

- أستمحكم عذرا . بودي أن أذكركم بأنكم صحنم بالأمس القريب : « الموت

للكفرة » وحاصرتم الطرق إزاء جنود القيصر في الجبال . . . - نطق بهذا الأمير الساذجي

واخسيت رضبا وهو من أعضاء المجلس الأوبيخي السابق . كانت ذقنه الفضية الرفيعة

شبيهة بسيل ينساب على منحدر شاقولي ، وبدا صاحبها المعتد بنفسه ذا قامه ممشوقة ودلّ

مظهره على منبته العريق الرفيع . تميز الأمير في الأونة الأخيرة بموقفه المعارض لمساعي

الأغلبية من الناس للعودة إلى الوطن وأكد بعضهم أن الأمير يتزعم أعداء العودة .

- فضلنا تركيا بأنفسنا لكونها قريبة من الوديان القفقاسية . لا يجوز أن نعرض نارة

عن القيصر وأخرى عن السلطان . من سيحترمنا بعد هذا كله إذا ؟ وماذا سنجد لو عدنا

جميعاً إلى أرض الأباء ؟ بلغني أن القوزاق يعيشون في أملاكي الآن . . . هل تريدونني أن

أرعى الأوز القوزاقي هناك بعضاً صغيرة ؟ - مسد الأمير لحيته الناعمة بيده الرفيعة وألقى

نظرة كبرياء على الجمع . صدح وراء ظهر الأمير ضحك ساخر لا ذع :

- تأملوا هذا الإنسان الموالي لساحة السلطان . . ولكن علام حصلت يارفع المقام

واخسيت في هذه البلاد المجيدة ؟ حياة جنان ؟ سلام ؟ .

- نعم ، سلام . إذا عدنا إلى هناك فستوجب علينا أن نحمل السلاح من

جديد . الحرب جيدة لمن ينظر إليها من بعيد فقط . هنا على الأقل لا يدوي ويصفر

الرصاص - أجاب رضبا .

- تمهل . تمهل أيها الأمير . ومن قال لك ان الرصاص هنا لا يدوي ويصفر ؟ إنه

لا يسمع فعلاً ولكنه يقتل مثني شخص كل يوم . . . لم يبق لدى الأحياء قوى لدفن

الأموات . إن هذا أسوأ من الحرب . إنه جريمة قتل . . .

أمسى وجه ناورز شاحبا وأكثر بياضاً من الكفن وأخذ يسعل .

وذكر مزاولش مستغلاً هذه الفرصة بأن القنصل موشينين قد كتب العريضة للقيصر

ومن الحكمة البدء بالعمل .

- إيه ياناورز ، أين شرفك النبيل ؟ من رعى الخرفان بالأمس يجري المحادثات

الرسمية اليوم ! ماذا سيحل بنا غداً إذا ؟ - قال الأمير ذلك ساخراً .

ارتعش مزوتش وكأن لسعة سوط أصابته ، ولكنه غمالك نفسه .
 وخرجت العجوز حميدة من حلقة النساء فجأة . تقدمت مرتدية ثياب الحداد
 السوداء . . . باتت تحت عينها الحزبتين بقع قاتمة . صرخت بعد أن نزعت عن رأسها
 المرفوع عالياً منديلها الأسود فشر شعرها الشائب على كتفها وكأنه الثلج :
 ماذا بكم ؟ . . . لعلكم أمسيتم في العالم الآخر؟ أو أن لديكم الكثير من الوقت
 لكي تجروا هنا مباحثات فارغة عن المقامات والثروات المفقودة والأشياء التافهة الأخرى .
 أحصوا القبور على الشاطئ . فليعذرنا نبلاؤنا ولكن هذه القبور تثقل ضمائرهم . أين
 كان أربابنا وقادتنا ، أين؟ إني أسأل؟ . إنكم أيها النبلاء الفاضلون مسؤولون عن مصيرنا
 هذا وعن وصولنا إلى هنا في نهاية الأمر . إنكم حتى اليوم تتحدثون بغطرسة مفرطة عن
 عقاراتكم المفقودة . لا تريدون رعي الأوز ، ولكننا لم نعتد على ذلك أيضاً . كان أفضل
 لأحفادي أن يرعوا الأوز هناك على أرض الوطن من أن يبقى من الأربعة واحد فقط على
 قيد الحياة . مات ثلاثتهم . . . انقطع صوت حميدة ولكنها بلعت الغصة في حلقها
 وتابعت . . من أجل حفيدي الحبيب طاهر أنشبت الآن بالحياة ولست مستعدة للتوقف
 أمام أي شيء في سبيل عودته إلى الوطن . . . واعتري صوت حميدة من جديد قسوة
 واضحة : - أنا لا أرى جيلين أمامي . لقد عرفت الرجولة مقياساً لكرامتكم منذ
 الأزل . أما الآن فكانكم ترتدون المناذيل . أتريدون أن أصبح أنا برأسي الحامس زعيمة
 لكم فأقودكم إلى تلك الضفاف؟ يكفيننا كلاماً . افعلوا شيئاً ما . إذا كان لابد من كتابة
 عريضة فكتبوا وسأوقع أولاً ، وإذا كان يجب استراحة القيصر فاستسمحوه . إني مستعدة
 لأن أركع أولكم أمامه . . لا تليق الأنفة بنا الآن ، فلدينا هم واحد - العودة إلى بلادنا
 أوبخيا .

لم يرغب أحد بالتحدث بعد حميدة . خيم الهدوء ثم قطعه سبت :
 - أيها العزيز مزوتش . من سيكتب لنا العريضة وقد لاقى الكاتب حتفه
 بالتيفويد؟ لقد عرف قبل وفاته أصول الكتابة والقراءة باللغة الروسية وليس بيننا من يملك
 الآن . لم يرحمنا القدر حتى في هذه المسألة .

- يوجد هنا الشخص المطلوب - أجاب مزوتش ولوح لشخص بإشارة من يده .
 خرج من بين الصفوف عجوز غريب في بزة مدنية وعلى أنفه نظارة . سرح شعره

الأشيب إلى الخلف فوصل إلى كتفيه وأخرج العجوز المجهول من جيب صدرته سلسلة ذهبية مربوطة بساعة .

- هذا السيد المحترم يوناني الأصل . جاب روسيا في الماضي مترجماً مع التجار . أما الآن فيعمل مترجماً في الفنصلية الروسية . إذا قلنا له كل مايجب عرضه بالتركية فإنه سيكتب كلماتنا بالروسية - هكذا عرفنا مزاتش بالعجوز .

أخرج العجوز من حقيبته الجلدية المهترئة ورقة وريشة ودواة ورتبها جميعاً بشكل يناسبه على طاولة صغيرة جلبت من مكان ما . ثم بعد أن مسح نظارته بطرف منديله الشخصي ركع على ركبتيه وراء الطاولة ورمق مزاتش بنظرة وكأنه يقول له إني مستعد . قال الأمير واخسيت رضباً ساخراً .

- ماذا بوسع اليد المسيحية أن تخربش عن أحزاننا الإسلامية ؟ « لانتظر خيراً من النبي الغريب » .

- كف عن النعيق ياأمير . - بترت حميدة كلامه .

جلس الكهول من رجال ونساء كحدوة حصان حول الكاتب . أما نحن الشباب فوقفنا بعيداً قليلاً عنهم . أخذ سبت على عاتقه النطق بالكلمات الأولى للعريضة . تذاكر الناس تلك الكلمات ، فاخترلوا هنا وأضافوا هناك ، وعندما انتهى الكهول من تعديل مقاله سبت ، ترجم مزاتش كلماته تلك إلى التركية ، وسجلها العجوز اليوناني بالروسية ضاغطاً بريشته بقوة على الورق . أمسى السكون سلطناً على الجميع بينما واصل اليوناني كتابته وبتنا نسمع صرير الريشة . تقدم بعد ذلك جبلي آخر فأدلى ببعض الأفكار إلى محكمة ومجلس المسنين . نوقشت تلك الكلمات ثم ترجمت مرتين وسجلت . تكرر هذا مرات عديدة . امتزجت أفكار وآمال الناس وكأنها جداول تصب في سيل واحد . وانسابت أفكارنا وآمالنا من أعلى لأسفل وفق أسطر العريضة لتصب أخيراً في الأمل الكبير المشترك . منذ أخذ العجوز اليوناني ريشته مسك الحضور أنفاسهم ومدوا رقابهم مركزين أنظارهم على صفحة الورق المضاءة بلون الشمس وأيقنوا أن مصيرهم متعلق الآن بتلك الورقة .

« لو تحول البحر الأسود إلى محبرة كونية وانقلبت الأشجار على شطآنه إلى ريش للكتابة وأمست الأرض كلها ورقة ملفوفة لما كان كافياً ولا الريش والورق وافيين لتسجيل

ماعاناه المهاجرون - فكرت وأنا أنظر إلى صفحة الورق تلك .

« ولكن لماذا لا تحدث معجزة ، - راودني الأمل - لقد حدثت في العالم معجزات عديدة . . . قد نظير هذه الصفحة من بين راحتي السفير الروسي في استانبول كحمامة بيضاء الجناحين فتقطع البحر والوديان والغابات الروسية . . . وتصل أخيراً إلى مقر القصر في بطرسبورغ*» . . . في القصر الأبيض نوافذ كثيرة إلا أن الورقة وقد تحولت إلى حمامة بيضاء الجناحين تجد طريقها عبر النافذة المطلوبة إلى طاولة الإمبراطور بالذات . . . لماذا يستحيل حدوث معجزة كهذه ؟ . . . يستيقظ مالك نصف العالم في ذلك الصباح ضاحياً على غير عادته بالحيوية والسعادة وسعة الصدر . . . يأخذ ورقتنا المسطرة بأحرف منمقة فيستدعي مسؤول ديوانه « ما هذا » - « عريضة من الأويخ يا صاحب العظمة » - يجب الضابط مسؤول الديوان مبتسماً إثر انتقال مزاج القيصر إليه وإلى كافة موظفي البلاط .

« آه . . . الأويخ ؟ نعم . نعم إنهم قوم شجعان . . . شجعان . . . يعصر الإمبراطور جبينه متذكراً ثم يقول بكل احترام : عاش هؤلاء على شاطئ البحر الأسود ونعنتهم وصينا على الففقاس في تقاريره لنا بأنهم لايركعون » . « هكذا تماماً يا صاحب العظمة » - يضرب مسؤول الديوان بكعبي حذائه . - « وحاربوا ضدنا ببسالة ، كما رفضوا شروطنا ونزحوا إلى تركيا . إنهم أعداء جديرون بالإحترام . . . جديرون حقاً . . . كيف تعتقدون أيها الجنرال هل يستحق خصم كهذا الإحترام ؟ » - « حتىًاً يا صاحب العظمة » ، - سيجيب الضابط وصدرة مزين بميدالية رفيعة « لقاء اخضاع الففقاس » - « آه باللؤساء - يخفي القيصر تعاطفه ويصيح - لم أتوقع أبداً أنهم سيمسكون في بلاء كهذا . . . فبين المهاجرين الكثير من الشيوخ والنساء والأطفال . . . طبعي أنهم مذنبون - هؤلاء الأويخيون - ولكن ليس إلى درجة حرمانهم من عفوي وعطفي » .

ويتناول القيصر بيده البيضاء ريشة يكتب بها على عريضتنا كلمتين فقط : « تلبية الطلب » ويتنصر العدل . تأتي السفن لأخذنا ونعود إلى الوطن ، إلى بلادنا الأويخية . . . نفتح أبواب مساكننا المهجورة ونخرج فلاحونا ثانياً إلى الأرض لحرثها وبذرها . . . وتبعث الفرحة والسعادة من جديد وتقام الأعراس والأفراح كل يوم . . . ويولد الأطفال . . .

(*) بطرسبورغ : عاصمة روسيا في الماضي (ليننغراد حالياً) .

ولكن ، قد يحدث عكس ذلك : يقف القيصر ومزاجه سيء قاس ، متجههم
وغاضب من ممانعة زوجته الجميلة له بالأمس ، وحين يجري الحديث عن الأوبيخ يقدم
ضابط الديوان نصيحة قاسية له « العفو عن هؤلاء اللصوص باصاحب العظمة غير
معقول أبداً . . . ثم لدينا اتفاقية مع تركيا » ، ويتناول زعيم البلاد الكبرى بيده البيضاء
ريشة ويكتب بها : « بت في القضية ولا يمكن إعادة النظر فيها » وهكذا نفى نحن
الأوبيخ حتى آخر شخص فينا . اتضح لي أن تحديد مصيرنا بات مرتبطاً بنهاية ريشة
القيصر . حياة أو موت شعب بأكمله متعلقان الآن بنزوة أو صدفة ، بمزاج القيصر ،
بسلطان يد واحدة تمسك بريشة رفيعة المقام .

بينما تضاربت في رأسي التخيلات المتعلقة بعريضة الأوبيخ وتوقيع القيصر عليها
أنهى الكاتب المترجم - العجوز اليوناني - عمله تماماً .

يسدو لي أن دهرأ مر منذ ذلك الوقت بإشراخ إلا أني أذكر كلمة بكلمة وحرفاً
بحرف محتوى العريضة التي أرسلها الشعب الأوبيخي للقيصر . . . كأن ذاكرتي شاهدة
حجرية وكلمات العريضة كتابات على الشاهدة منقوشة عليها . إنك تسأل ياعزيزي ماذا
حوت تلك العريضة ؟ لقد سردت مآسينا التي لم تلم بأي شعب آخر منذ بدء الخليقة
وجاء فيها أن الحكومة التركية التي دعنتنا إلى ديارها لم تلب أي شرط من شروط الضيافة
التي وعدتنا بها . (إننا ونحن على حافة الموت الأكيد نشعر بالندم الصادق ونعترف بكل
نزاهة بوبال الخطيئة التي ارتكبتها ، إننا نحن الأوبيخ بعددنا الباقي من نساء ورجال ،
من شيب وشباب نحني رؤوسنا أمام عظمتكم الإمبراطورية وننوسل إليكم والدموع في
مآقينا أن تسمحوا لنا بالعودة إلى الوطن ، إلى بيوتنا التي تبتعت . إننا نتعهد مقسمين أنه
إذا وهبتمونا سباحكم لنا بالعودة إلى أرض الأباء فإننا وكل أحفادنا سنذكر إلى الأبد
عظفكم القيصري ونخدم الدولة الروسية بولائنا الأكيد وإخلاصنا الشديد . إننا اذ نركع
أمام جلالتكم . . ننوسل إليكم : ألا تدعوا شعب الأوبيخ ينقرض عن وجه الأرض .
هذا ياداد شاراخ بعض ماجاء في العريضة .

بعد إعلان نص العريضة دعانا مزاونتش أبو خبا إلى التوقيع عليها ، وقامت
العجوز حميدة التي لا تعرف منذ ولادتها حرفاً واحداً فغمست إبهامها في دواة الحبر
وبصمت على الورقة . ولكن لم تكن العجوز الأمية الوحيدة بيننا بل حتى كاهنتنا المبجل

صلاح حدًا حدوها بإبهامه . عليّ أن أقول لك ياداد : إن عدد الذين حملوا بيدهم الريشة ليرسموا اسمهم كان قليلاً جداً ، بل لعلهم شخص أو شخصان لا أكثر ، ولا حظت أيضاً أن كل من وقع أو بصم على الورقة شعر لتوه بشيء من الإرتياح وتحسن المزاج وكأنه تلقى خيراً طيباً . ووصل الدور لأبي . إلا أنه تردد . . .

- حاميرزا ، ما بك تبطىء ؟ - اندهش سيت .

- مايقرره الشعب قانون بالنسبة لي ولكن ربينا وسيدنا شاردين بن علو غير موجود هنا وأنا لا أقوى بدونه على البصم .

التفتنا أنا وماتا إلى بعضنا بعضا واقتربنا معاً من الطاولة :

- سنوقع نحن عوضاً عن الوالد .

واقترت أنا أولاً لكوني الأكبر في السن .. ثم ماتا وبصمنا بإبهامين ضخمين على

الورقة .

- وأنت ياناورز ، لماذا تبطىء ؟ أم أنك متفق مع رضبا ؟ سأل مزاونش .

رفع ناورز رأسه المحني ودق الأرض بعكازه القصير ثم قال :

- تأكدوا أبي لو وثقت قليلاً جداً بأن ثمة فائدة ترجى من كل هذا لوقعت عشر

مرات . لن ينتج شيئاً عن هذه الترهات إن خيراً أو شراً . هات الريشة ، سأوقع . . .

كفانا بناء قصور في الهواء . . . هاهو صلاح سياركنا غدا أمام القديسة بيتحا وعندها تقوا

بأني سأعرف ما عليّ أن أفعله . أما اليوم فإذا سمحتم . . . ووقع ناورز بن باراكاي

باسمه إلى جانب بصماتنا .

لايبد من الإعتراف بأن عدد أنصار الأمير واخسيت رضبا كان غير قليل . وقفوا

جانباً ولم يجرؤوا على الإنسحاب المكشوف من الإجتماع لأن من الممكن اعتبار ذلك

التصرف تحدياً لأغلبية المجتمعين . كلف الحضور ثلاثة أشخاص على رأسهم مزاونش

أبو خيا بمهمة تسليم العريضة إلى السفير الروسي ايغنايف ووجب عليهم التوجه دون

إبطاء إلى استانبول .

لم نجد في تركيا مكاناً مناسباً لقد يستنا بيتحا . تذر الشعب قلقاً لوجوب بقاء

القديسة في كوخ الكاهن الفقير وكأنها إبريق عادي أو مغزل صوف . أما حين تفتت

الكوليرا بيننا اعتقد بعضهم وقد أصيبوا بذعر شديد أن القديسة التي أسيء إليها ترفض

بالمقابل الدفاع عنا وحمابتنا وبات الكاهن صلاح ، كي لا تثبط همم الناس وتضعف نفوسهم ، يحمل القديسة بيتحا بيديه ويزور كل من أوقعه المرض المميت داعياً بالشفاء له .

بقي الناس مؤمنين بتلك القوة الخارقة لبيتحا بل وحدث الكثير من الحالات التي يتجاوز المرضى فيها وعنتهم القاتلة فعلاً . كان لابد للناس من الإيمان بشيء ما بإشاراخ . . .

اجتمع كافة المهاجرين باستثناء المرضى على شاطئ البحر قرب الشجرة الوحيدة هناك حيث جلس من وقت قريب عازف الأبخيارتسا ساكوت . أدرك كل منا أن صلاة اليوم ذات معنى خاص . فعلى القديسة بيتحا أن تبارك من سيمضي الآن تحت قيادة ناورز بن باراكاي الى بلاد الأوبيخ بالذات لا الى مكان آخر . تقدم صلاح في ثيابه البيضاء . . . قام بالدعاء أولاً ثم أخرج القديسة بيتحا من كيسه الجلدي ووضعها قرب جذع الشجرة . . . وركعنا جميعاً . . .

- بإحامبتنا الجبارة القادرة على كل شيء . . . باركيننا .

حملت رنة دعاء كاهنتنا دفناً خاصاً دخل الى قلوبنا جميعاً ، وبدا لنا أن الدخان السكري لمواقدنا المهجورة لمس فتحات أنوفنا ، وتراءت لناظرينا أحلام لطيفة وتذكرنا الوطن وتذكرنا الموتى وانهمرت الدموع حتى على حدود الرجال . نضرع صلاح بيديه الى السماء وتابع :

- أوه ياواسعة الرحمة يابيتحا ، سيمضي الكثيرون منا اليوم الى الوطن . أزييل العقبات أمامهم في الطريق . افتحي لهم جسوراً فوق الوهاد التي لا قعر لها . امنحهم حين يحرون ريحاً يشتهوونها . احمهم وتولي رعاية نفوسهم .
- آمين - آمين - ردد الراكعون .

انتهت الصلاة وغمرت الناس معنويات عالية . تنكب الرجال بنادقهم ، وحملوا مسدساتهم وخناجرهم التي أودعوها جانباً قبل الصلاة .
- ها قد تباركنا . . . هلموا بنا إذا في هذه الساعة الطيبة بحماية الرب . - صاح ناوز بن باراكاي .

ودبت الجموع خلفه من نساء ورجال حاملة ماجهزته للطريق من صرر وأكياس

على الأكتاف . . . لم تلتفت العجوزة حميدة الى وراء بل سارت بعزم ممسكة بيد حفيدها الصغير طاهر . . توجه الجميع نحو مدينة ترايبزونند على أمل الحصول على سفينة يبحرون عليها الى « سوخوم - قلعة » . أما إذا تعذّر حصولهم على سفينة كما قررو فسيترتب عليهم عندها أن يجتازوا الحدود مشياً على الأقدام . أمل العائدون بالوصول فعلاً الى البلاد الأويخية - إلى ارض الوطن وتوكلوا على ربهم وسلاحهم ورافة القدر بهم . وقتت أسرنا كلها على الشاطئ . تعانقنا أنا وماتا ، ثم سرت معه بعض الوقت وأنا أحمل أمتعتي . . بعد ذلك تعانقنا مرة اخرى . وقتت طويلاً على المنحدر أودع بنظري الذاهبين . لا يجوز أن يحسد المرء أخاه بالدم ولكني وقتت أحسده . . كم هو سعيد : إنه يعود الى البيت . أما أنا ؟ . . إن الله شهيد بأني غنيت من كل قلبي أن أدرك الراحلين لو لم يبق هنا أمي وأختاي ولكن هل هم فقط ؟ . . تراءت أمام ناظري جزيرة رودس البعيدة البعيدة . في تلك الجزيرة بقيت حبيبي فيلبديش . وثزقت قلبي إلى أجزاء .

العطالة عن العمل بالنسبة للإنسان الشغيل توازي المرض . ماذا يوسع أسرتي أن تفعله ؟ لم نملك أرضاً لكي نعتني ولو بحقل صغير منها على الأقل . لم نملك بقرة أو حتى عذرة جعفاء لكي نرعاهما . ماذا بوسعنا أن نفعل ؟ نعمة كبيرة أن الوالد جلب معه من البيت شبكة صيد . بات يقضي كل أيامه في البحر . . وأصبح السمك الغذاء الوحيد لأسرنا . شعرت في البداية وكأنني ساموت من الفراغ ، ولكني أخذت أجوب هنا وهناك في القرى والمدن . . وأعود الى البيت برغيف خبز . . عملت حمالاً في المرفأ ، قطعت الخشب لموقد أحد الأغنياء الأتراك ، قمت بتنظيف حظيرة لفاء أجر . . لم أترفع عن شيء ولكن هل يمكن كسب الكثير وقد أصبحت الأيدي العاملة رخيصة بخسة ؟ أنت على الأرجح لا تعرف أيها اللطيف شاراخ ماذا يعني تماماً العيش بجوع دائم . اذا بقي بطنك فارغاً فهذا نصف مصيبة أما عندما تجوع أسرنا كلها فهذه مصيبة كبيرة ، وهنا ستمضي الى حيث يمكن وحيث لا يمكن . حاسبي أو ارحمني ياداد ولكن اعلم أني آثمت رغماً عن إرادتي . خرج خمسون رجلاً مسلحاً تسليحاً جيداً « للصيد » ومضيت معهم . كانت إشاعة السوء عنا نحن المهاجرين قد عمّت الأرجاء التركية كلها . باتت الأبواب ثقفل جيداً أمام من يرتدي البزة الشركسية . . وجرى بين الجبلين المسلحين

والجندرية تبادل إطلاق نار مرات عديدة . حتى أن الجيش استنفر قواه استعداداً للتدخل في حال عدم تمكن الجندرية من السيطرة على الجبلين . حاولنا التحرك في بعض الأماكن المنعزلة التي لا تصل إليها الطرق ، وحيث لم ير من قبل أي شخص من جماعتنا . لم تقرب الفلاحين أبداً . ماذا يمكن أخذه من أولئك الحفاة العراة الجائعين وحالمهم مثل حالنا نحن ؟ اعتدنا تسليح التجار الغرباء وأصحاب المحلات المسورة : تسلب النقود ونسطو على الورشات ومحلات الأحذية والأطعمة ولا نبقى على شيء . حتى أننا توصلنا في نهاية الأمر إلى سرقة الخيول . فلم يكن بوسعنا التحرك - وفهمك كفاية - بدون خيل . لعالمنا وقعت خلال الإضطدامات مع الجندرية ضحايا من الطرفين . لاداعي للتغال عن ذكر هذا . أما حين يقع أحدنا بين أيدي الجندرية فيلقى عقاباً شديداً .

انضمت لأولئك الشبان الشجعان بعد وداعي لأخي ماتا . لم تكن كل الغارات ناجحة بالطبع . . . وفي أحد الأيام قرر الجندرية محاصرتنا . . . اكتشفنا أن عددهم كبير . تسللنا كل اثنين أو ثلاثة وقلتنا من حصارهم .

أخذنا نسير ليلاً كالظلال عبر الغابات والجبال باتجاه الشاطئ . ووقع أثناء غيابنا حدث على صعيد كبير من الأهمية في منطقة سمسون . لقد عاد شاردين بن علو . هب للقائه الكثيرون بمن فيهم أبي . كانت عيننا سيدنا تنظران بمرح وبهجة ولم يلمح أحد في جبينه أية سحب حزينة . جاء يرتدي عوضاً عن البزة الشركسية ألبسة تركية ، واضعاً على رأسه طربوشاً أحمر بريشة سوداء ، عابثاً بأصابعه بسبحة من الكهرمان . بدت في مشيته وصوته معالم الغرور والعنجهية المفرقة ، وبانت حركاته بطيئة كسولة . سأل كيف سارت الأمور وكيف عاش الناس بدونه وماهي الأحداث التي جرت . . أخبره الناس دون أي تلميح - حسب العادة القديمة - بالمصائر الماحقة التي ألمت بكل منا تقريباً .

- لم تقضي الحرب على مثل هذا العدد من الناس الذين نفقوا في بلاد الغربية خلال نصف السنة الماضية .

لم يحزن هذا الخبر أختانا بالرضاعة ، بل انزعج شاردين أكثر مما نزعج لأننا كتبنا عريضة للقيصر . . ولأن كثيرين منا ذهبوا مع ناورزين باراكاي إلى أوبيخيا .

أين قدرتكم على التحمل ؟ - عتفناً هو ، هل حدث طوفان ؟ أم هزة أرضية ؟ إيه بالكم من حمقى . إنكم كالاطفال الصغار الذين لا يمكن تركهم بدون رعاية ولو يوماً

واحداً . أي وغد حقير هذا الذي فكّر بكتابة عريضة استرحام للقيصر ؟ هل نسيتم كيف

قام الروس بثقب صدوركم برصاصهم ؟ تريدون أن تصبحوا عبيداً للكفرة ؟

عار وأيُّ عار . تذكروا أننا قبل أي شيء مسلمون وموجودون على أرض مسلمين

وأن ولي الله على الأرض سلطان هذه البلاد الفاضل هو المواطن الأول في هذه البلاد .

حين تفكر بهذا الشرف ينتفض قلبك بالإعتزاز وكأنه صقر مقاتل يسمو الى العلاء . لا

أخفي عليكم أي تشرفت بالمثل أمام والدته السلطان العظيم عبد العزيز .

إنها كما تعلمون أدبغية . . . أسلافها وأسلاف أقرباء . . في عروقنا دم واحد . لقد

كلفت أم السلطان إنساناً يعتبر اليد اليمنى لحاكم البلاد بمصيري اللاحق وهذا يعني

مصيركم أيضاً . أعطتنا أراضٍ مثمرة بغاباتها وحقوقها ومياهها . ستسون هناك كل

مأسيتكم . استعدوا للرحيل فيجب أن تبلغ المكان قبل حلول البرد .

أحدتلك عن عودة شارددين بن علو ياداد من خلال أحداث الأخرين . ففي ذلك

الوقت مضيت مع الفرسان الكدعان بشكل عفوي الى الشاطئ . إثر غارتنا الفاشلة . ثم

بعد أن قطعنا القسم الأكبر من الطريق رأينا جمعاً أشهب اللون من الناس . كانوا يجرّون

أقدامهم جرّاً وهم على شفا الموت وسار خلفهم جنود مسلحون بينادقهم . اقتربنا منهم

على الفور .

هل يوسعك أن تتصور ياداد شاراخ أي شعور انتابنا حين اكتشفنا بأم أعيننا أن

أولئك الحفاة العراة المكوددين هم من بقي على قيد الحياة من الأوبخ الذين نشدوا العودة .

الى الوطن .

- ماتا - صحت كالمجنون ورميت بنفسي الى الجمع .

سار مقوس الظهر معتمداً على عصا ضاماً الى صدره فتى صغيراً عرفته على الفور .

إنه طاهر حفيد العجوزة حميدة . أخرجنا من أكياسنا كل مايمكن أكله ووزعناه دون أن

نلتفت الى صيحات الجنود على أولئك المنهكين من التعب والجوع المهوورين من القشل

والخيبة السائرين إثر الهزيمة تحت الحراسة المسلحة . ثم بعد التوقف الجبري الذي

اضطر إليه الجنود لأنهم ارتعبوا بشكل جدّي من ظهور فرسان مسلحين فجأة حملنا

الجرحى والمرضى الذين خارت قواهم تماماً وقدمنا لهم خيولنا وامتزجنا بهم .

أجلست ماتا وطاهراً على حصاني ، وأخذ ماتا يحدثني توأ كيف حاولوا السفر إلى

ترايبزوند . . صاحب السفينة الذي وعد بنقلهم الى الشاطئ ، القفقاسي لقاء أجر مضاعف ذعر في اللحظة الأخيرة ومضى الى البحر دون أن يأخذ معه ركباً واحداً من جماعة ناورزين بركاي . توجه الجميع إثر ذلك نحو خط الحدود سيراً على الأقدام ولكن سرعان ماقابلهم حرس الحدود التركي على نهر تشوروك - موجهاً أسنة الحراب نحو صدورهم . بحث أولئك الجلبون طيلة اسبوعين عن ثغرة ينتقلون عبرها الى الضفة الأخرى ولكن عبثاً فقد حرس الحدود عيون قوية . عزموا أخيراً وقد ملكهم اليأس أن يعبروا من خلال معركة . جرى إطلاق النار . . . وقتل أولاً ناورزين باراكاي ، فقد ثقت الرصاصة قلبه مباشرة .

- إني أحسده - همس ماتا - أخ ، لماذا لم أكن بين أولئك الشبان الذين سقطوا هناك على بعد نصف فرسخ عن أرض الأباء ؟ زفر ماتا وكأنه كبير حداد وأضاف :
- أما حميدة البائسة فرمت بنفسها الى النهر ولم ترحم حفيدها الصغير . . قبل ذلك تبنتني في الطريق وكلفتني بمصير حفيدها . صار طاهر أخي وأحاك يازاورقان . إذا حدث لي شيء فستهم به . . .
كان طاهر الصغير غارقاً في النوم بشكل يدعو الى الشفقة . وضّمه ماتا الى صدره بحنان .

الأخبار الطيبة لا تريح مكائنها أما السيئة فالرياح تذروها . علم من بقي من الأويخ في منطقة سمسون أن أبناء جلدتهم الذين مضوا مع ناورزين باراكاي لم يتمكنوا من عبور الحدود وأن الكثيرين منهم لقوا حتفهم .

وهكذا عاد الباقون على قيد الحياة كالأشباح المتحركة الى الشاطئ ، ليستقبلهم الناس بالصخب والصياح والبكاء والعيول . . فمن الناس من لم يجد بين الراجعين أخاه ومنهم من لم يجد ابنه ومنهم من لم يجد قريبه الحميم . . . أليس لهذا السبب ياترى أن الحبر الطافح بخيبة الرجاء ومرارة الواقع الذي جاء به مزوتش أبو خبا من ترايبزوند قوبل بالصمت الحزين فحسب ؟ جاء ذلك الحبر بأقسى وأعتى مايمكن : خط القيصر على عرضتنا بيده بالذات : « المسألة الأويخية قد فصل بها ، ولا تخضع لإعادة النظر » .
- قلت لكم إن الرد سيكون هكذا - قال شاردن بن علو بمرح لثيم حين سمع بقرار القيصر .

كان يلعب النرد مع عمر باشا تحت مظلة بيضاء في مقهى على شاطئ البحر
أضاء الخبز الأسود الذي جاء به مزاولش ظلامه الداخلي وأرضى غروره الذاتي .
أدرك جيداً أن على الشعب - سواء أراد ذلك أم لم يرد - أن يخضع لإرادته هو ،
شاردين بن علو . حالفه الحظ في اللعبة اليوم أيضاً . أنجده الزهر العظمي إذ أخذ
بمنحه في كل مرة شيئاً . أخذت محفظة الباشا المصنوعة من السختيان تنحف على مرأى
العين متحولة من متفخة الى هزيلة . أما الشيء الوحيد الذي عكّر مزاج سيدنا فهو أن
الباشا ذكره بالحاج جيراندوق .

- فليذهب الى الشيطان الآن - لم يتسالك شاردين بن علو نفسه . وعنى هذا
أيضاً : « أنا السلطان الوحيد للأويغ » .

انتابني كل الوقت شعوران متصارعان فيما بينهما كتورين بتناطحان . الأول -
حزين ، فنحن نتبعد أكثر فأكثر عن بلاد الأويغ والثاني - مفرح . فسفنتا تقرب من
جزيرة رودس . لثرق السهائ قليلاً . . . فأرى فليديش .

وقفت على متن السفينة أمعن النظر في خط الشاطئ ، حيث الشجرة الوحيدة
هناك . تحت تلك الشجرة انتصب حجر أبيض اللون كشاهدة فوق قبر المغني ساكوت .
وتأرجحت على غصن عال فوق الشاهدة آلة الأبخياريسا التي عزفت لنا من وقت قريب
مؤثرة على قلوبنا المضطربة . بدا لي فجأة أن أوتارها تعزف وأن أذني تلتقط كلمات الأغنية
الأخيرة للمغني الأعمى :

سأل الفارس : أين حصاني . .

وسرح القتال عليه ؟

امتطى الفارس حصانه

واعتمد الركاب عليه

نسأل ونيكي الزمن . .

أين أرض الجنان ؟

فلا نرى سوى المحن . .

الجنة هجرناها ومتنا . .

حين غادرنا الوطن .

أبحرت السفن باتجاه استانبول ، ثم ألقى بالمرساة في اليوم الثالث على صاري مرفأ استانبول ، ولكن لم يسمح لأحد بالتزول الى الشاطئ . فقد تخوفت سلطات الميناء من أن نصيب المدينة بعدوى التيفويد . أمسى الماء وراء المرفأ يغلي وكأنه في قدر ، وارتجفت الأمواج متلاطمة وكأنها في حمى ارتعاشية مرتجفة على المرسى . رمى البحار التركي وهو على متن السفينة نظرة غضب الى الماء المبقق وراء الميناء ، وبصق من خلال أسنانه :

- شيطان أكيتاسي . (*)

تخوف الموسوسون وهمسوا : « نذير شؤم » ..

توجهت السفن من استانبول الى إزميد . ولكنهم لم يسمحوا لنا هناك بالتزول الى الشاطئ . أما الشخص الوحيد الذي لم يسر عليه هذا الحظر فهو شاردين بن علو . وتفأخر شاردين بعد عودته من غيابه الطويل فقال مبتسماً .

- يعيش هنا أيها المحترمون صديقي سليم باشا متفدكم جميعاً وطالما أنا تحت حمايته فليس لنا أن نخاف شيئاً .

توجهت السفن جهة بانديرما ، ثم رست ونزلنا وسرنا على أقدامنا في إثر العربات التي حملت أسرة شاردين بن علو باتجاه منطقة عشان كوي . (***)

أخبرنا السكان المحليون بعد ذلك أنه قبل انتقالنا الى هذه المنطقة جاء إلى هنا شخص أوييخي اسمه عشان . جال هنا وهناك وتفحص المكان . وتفكر بأموره طويلاً ثم اختفى إثر ذلك فجأة مثلما ظهر فجأة . لعل هذا كلام فارغ ولعل ذلك الشخص شاردين بن علو نفسه ؟ !

(*) شيطان أكيتاسي : تبار شيطاني .

(*) (*) عشان كوي : قرية تركية صغيرة تحمل اسم عشان ، تقع قرب إزميد خصصت لإسكان قسم كبير من الأويخ المهجرين من بلادهم .

عثمان كوي

بلغت مع حلول المساء باحة الدار حاملاً على كتفي كيساً مليئاً بالذرة الصفراء . . . دخان مائل الى الزرقة تصاعد ببطء فوق سطح البيت الطيني . . . كلبنا الأبيض ذو البقعة الشقراوية هرع إليّ وأخذ يداعب رجليّ ويتمرغ بهما . . . الدجاجات تنفق استعداداً للتفريخ . . . أمي ناسي تعنف الصغير طاهر الذي يشد العجل من ذيله . . . لظالمنا أدخل صوتها الناعم الحنون الطمأنينة الى قلبي . . . والذي يجلس على مقعد صغير ويحلب بقرتنا ذات القرون المتورة . . . صوت انهار الحليب في الوعاء الخشبي يتناهى بخفوت الى سمعي . . . كونا القادمة من الحقل بحزمة من البصل الأخضر تسرع الى الدار خوفاً من أن يطف ما يغلي ويفور في القدر لصنع المايغا . . . الأخت الصغرى تنهال بالعصا على الفرشات التي أخرجتها لتهويتها وتنظيفها . قلت في نفسي « قد نستمر في العيش على هذا النحو بقدرتك أنت وحدك يا إلهي » .

انشغل كل منا بعمل . وعندما جلسنا للعشاء جاء ماتا الذي بدا ممتعضاً من شيء ما .

- هل حدث شيء يابني ؟ - سأله الوالد بعد أن انتهى من عشاءه .
- لن أذهب بعد الآن الى مزرعة السادة - أجاب ماتا مبتعداً عن المائدة - لقد قطعت اليوم وعداً بذلك . قلت عندما غادرتها : كفي . لن أعود إلى هنا أبداً .
- إنها فورة عابرة ياداد - قالها الوالد بحنان محاولاً تهدئته .
- تأخرنا كثيراً في تعزيق أرضنا وطغت الطفيليات على عرائس الذرة . أما التبغ فيتعفن على جذوره لأن الأختين لا تملكان وقتاً كافياً لقطعه .
- أعرف هذا ، ولكن ما العمل ؟ ليس الأمر بيدنا ، بل هذه عادة أقرها الأجداد : « أن يعمل في أرض النبيل شخص من كل أسرة يومين في الأسبوع » ثم إن

شاردين بن علو من أعز وأقرب أقرابنا .

أشعل الوالد شمعة وجلس على مقعد يرفو جزمته .

- لست أنا الوحيد - قالها ماتا بحزم وحماسة - كل الشباب الذين عملوا هناك اليوم

أقسموا على ألا يأتوا غداً .

- حين يجمع الجميع على أمر يعني أنهم محقون - أشرت أنا .

توقف الوالد عن الرفو قليلاً ونظر إليّ صارماً :

- أرى أنك بطل في صب الزيت على النار . لقد زاح عقله - مشيراً إلى ماتا - وأنت

توافقه الرأي . أنسيتم أن شاردين بن علو هو أخي بالرضاعة ؟ أليس لديكم ضمير ؟ إن

كل الأويخ الذين استوطنوا عشمان كوي - لآسرتنا فحسب - مدينون له على الجميل

الذي صنعه لهم . أم أنكم نسيتم كيف عشنا قرب سمسون ؟ حرام عليكم أن تصبحوا

ناكري جميل إلى هذه الدرجة .

- ولكن هل فكر أخوك بالرضاعة بغير رفايته الشخصية حين جاء بنا إلى هنا ؟ لو

أنه لم يفعل ذلك لما وجد لديه من يعمل له . ثم إنه لشرف هزيل أن تكون نبياً بدون

فلاحين خدم . ها هو يعيش الآن في يسر ونعيم . وهاهو سليم باشا ضيفه منذ مساء

الأمس . . استيقظا اليوم في ضحوة النهار . . بعد ليلة شراب ومنادمة ، وهباً على الفور

إلى طاولة النرد . . لقد أنفق شاردين مبلغاً هائلاً من المال . . لم أصدق عيني عندما

أخذ يعد الليرات . . لن أملك مثل هذا المبلغ لو عملت طيلة حياتي . . ليس لدينا

قرش صديء واحد لشراء ملح . . وهذا العطال البطال يبعثر الأموال التي نكسبها له

بعرق جبيننا وكأنها أوراق لا قيمة لها . لا يصح الكلام أمام الأختين ولكني سمعت بأذني

تلك الكلمات البذيئة التي أخذ يطلقها هو وصاحبه عن تلك الفتيات اللواتي يأتين بالشمار

والهدايا للسيدة النبيلة .

أنت مازلت صغيراً بابني . . ولا يحق لك أن تحدد المسموح به لهذا أو ذاك من

الناس . هناك من ولد للأمر والنهي وهناك من ولد للإمتثال والخضوع . هذه ليست نزوة

شخص فما ، بل إنها إرادة الله وتذكرا أنتما الاثنان - أشار الوالد لنا بإصبعه مهدداً - نحن

في بلاد غريبة ، وإذا حصل شيء لا سمح الله فليس لنا أحد نستند إليه سوى شاردين

بن علو .

إنه حامينا - وبعد أن أبعث الجزمة جانباً وأطفأ الشمعة ، أضاف - بعد الغد يوم
جمعة . . لا تنسوا الذهاب الى المسجد .

بوسعهم الإستغناء عنا هناك - قلت دون أن أتمالك نفسي .
- ليغفر لك الرب - همست أُمي خائفة .

بعد تعب ذلك اليوم خلدنا الى النوم أبكر من المعتاد ولكنه لم يطرق أجباني أبداً .
أمعنت التفكير وأنا راقد بعيون مفتوحة في كلمات أخي وكلمات أبي . لقد حصلنا فعلاً
على قطع غير كبيرة من الأرض وبيننا مساكن لنا . . ولكننا مع ذلك لم نشعر بالكفاية .
بقيت حياتنا شاقة يعذبنا فيها الجوع . ثم إن كنا في بلاد الأوبخ نعرف سيداً واحداً
نعمل أو ندفع له من خيراتنا فإن لدينا هنا العشار* - أتم الأبخازيون تسمونه هكذا
عشاراً - أي علينا أن ندفع لسيدنا معاً . أحدهما شاردين بن علو نفسه والآخر
صاحب الأرض سليم باشا . ويبقى الجزء الثالث من نصيبنا . ولكن هل توازي مساحة
حقلنا هنا - الذي يمكن تغطيته بجلد ثور - مساحة أرضنا هناك في أوبخيا ؟ ثم عليك
أن تطعم الأسرة كلها من ثلثه فقط . هذا بالإضافة الى عدم إعفائنا من الضريبة
الحكومية . أطبقت جفني في وقت متأخر من تلك الليلة ورأيت أحلاماً سيئة .

في منتصف النهار التالي - حين انتهت الوالدة من إعداد مائدة الغذاء - جاءنا
شاردين بن علو كالمسعود ممتطياً جواداً عربياً أصيلاً . كان الحصان يرغي ويزيد . فعلى
ما يبدو أن صاحبه أطلق له العنان وزاد . أخذ يقرض اللجام وينظر من طرف عينيه
البنفسجيتين ويتخطر بأرجله الرفيعة الرطبة بالزبد والعرق .

صرخ الفارس دون أن يترجل ويلقي التحية : - هيه ، حاميرزا . . لماذا أخذت

تكرهني ؟

- ماذا حدث يا أخي العزيز ؟ ماذا حدث - سأل الوالد برعب ووجل .

- أم أنك لا تعرف أن فتاك المغرور - وغرَّ شاردين بن علو بيده القابضة على السوط

(*) العشار : ضريبة أو أتاوة تدفع لأكثر من جهة .

تجاه مانا - قد فكر بالإنفاضة ؟ ثم اقتداء به لم يأت أي شخص اليوم الى أرضي . إنها تربيثك يا حاميروزا - ولوح بسوطه ودفع بجواده باتجاه مانا الذي امتنع لونه .

- لا تجرؤ - رميت بنفسي معترضاً طريق الحصان وخطفت لجامه بيدي .

بدت لدى شاردين بن علو وهو في أوج غضبه رغبة جامحة في أن ينهال بالسوط على رأسي . ولكن تعابير وجهي - على ما يبدو - أوقفته وبقي السوط معلقاً في يده ، وبانت أنفاسنا تتلاحق بتوتر شديد .

- اسمع يا شاردين بن علو - قلت له بعد أن استجمعت أنفاسي أولاً - فلنكن قريباً حميماً لنا ولكن ليس لك الحق في رفع السوط علينا . احترس - وأخذت بلجام فرسه وقدمته الى البوابة قائلاً - الوداع يا شاردين بن علو .

- لن أنسى هذا أبداً - قالها بصوت مخنوق وغمز بمهيازيه فانطلق حصانه كالسهم .

ماذا فعلت ؟! - تتمم أبي بشفاه مرتجفة - كيف تجرات على طرد إنسان أرضعت جدتك ؟

ذات مساء توجهت الى دكان الحدادة لكي استرجع المعزقة التي أودعناها هناك لشحذها ولكي اتحدث في الوقت نفسه مع دورسون ابن الحداد ، فهو صديقي . اما دكان الحدادة فغير بعيد عنا ، مسافة بضعة فراسخ لا أكثر . هطل في ذلك المساء مطر غزير أرغم الكثيرين على الانقطاع مدة ما عن العمل .

وهكذا جلس عدد من الفلاحين امام دكان الحدادة يحنون بسقيفته من المطر . اخذوا يثرثرون ويتبادلون الاخبار ويصرحون بأرائهم وتخميناتهم ، ثم يغتابون هذا تارة وذلك تارة أخرى . الطرق التي تنتقل عبرها الأخبار بين الناس خفية مجهولة ، وهكذا لا أدري كيف علمت القرية كلها بالشجار الذي وقع بيني وبين شاردين بن علو . لقد ارتاح للشجار كثيرون منهم .

- مرحباً بك يا زاورقان - نهض للقائي عمر الطيب - لقد كنت باسلاً في مواجهة قريكم .

لقي جزاءه - صاح العجوز رشيد مدخلاً يد المعول في فتحته .

لم أرغب في القاء الفش الى نار حديثهم عن خصامي مع شاردين بن علو

فسألت :

- ألم يأت دورسون ؟

الحداد داود جورجي(*) الدم . أرغم سلفه في وقت ما على اعتناق الاسلام . وبعد احتلال الاتراك للمناطق الجنوبية من جورجيا اضطرت أسرته للإنتقال الى هنا . ولد داود في تركيا . وماتت زوجته مبكراً تاركة له ابنه دورسون . كبر الصبي وتعلم مهنة الحدادة منذ صغره وأصبح مساعداً لأبيه . كان داود وابنه دورسون من الكادحين الطيبين ذوي الأريحية . وعندما وصل المهاجرون الى عثمان كوي ، هبا من فورهما لتقديم العون لهم جميعاً . أخذوا يشحذان المعاول والفؤوس بالمجان ويقتسمان الخبز مع الناس ويقدمان الحليب للأطفال المرضى . . لا أدري كيف حدث أن صداقة خاصة نمت بين أسرنا والحدادين . لقد ساعدانا بكل ماأوتينا من قوة . حين نفتقر الى المال لدفع الضريبة يقرضنا داود بساحة نفس وطيبة خاطر . وأصبحت انا وابنه دورسون صديقين حميمين لا يمضي يوم واحد دون أن نلتقي . ووجد تعلقنا الشديد ببعضنا صدى طيباً في قلب والد دورسون .

- أنتما الإثنين - قالها لنا مرة - خلفا شعبيين يرتديان البزة الشركسية ولهذا عليكما أن

تبقيا متحدين دائماً كنصلي خنجر واحد .

عرفت دورسون مقداماً بأسلاً . أمثاله لا يحترقون بالنار . لقد جاب كل الأراضي التركية تقريباً بغض النظر عن صغر سنه . وكما قال بنفسه : « لم أصل بعد إلى قرون الشيطان » . حدثته في أحد الأيام عن فيلديشن ، في لحظة أطلقت فيها العنان لمكتونات قلبي . وسرعان ماتهاب مع مشاعري وقلقي وأطلق الشراع لسفينة أحلامي .

- تقول إنهم أخذوها إلى جزيرة رودس ؟ . . إنها - ومدّ يده باتجاه البحر - ليست بعيدة كثيراً عنا . لا قنط . سندبر شيئاً . . . لو ترجمت كلماته تلك إلى لغة الرفاق لعنت : « أعلم أني منذ اليوم حليفك المخلص » . أظلمت السماء وهدا المطر ، وهمّ الفلاحون الجالسون أمام دكان الحدادة بالتوجه كل إلى منزله بعد أن تحدّثوا حتى شعبوا .

(*) جورجي : أصله من جورجيا التي تقع في القفقاس وهي جمهورية جورجيا السوفيتية الاشتراكية الآن .

إلا أن جانتيمير أقبل في تلك اللحظة عائداً من المدينة مبتل الملابس حتى آخر خيط .
- ماالأخبار يا عتيق ؟ - سأل عمر .

- سيئة . دخل السلطان حرب البلقان . وسيقوم محارب القرى اليوم أو غداً
بالتجوال على البيوت لتجنيد كافة القادرين على حمل السلاح .

أثقلت تلك الكلمات كاهل المجتمعين وفرضت عليهم صمتاً مهيباً بحيث أمسى
وقع فطرات الماء من سطح السقيفة مسموعاً بجلاء .

- إذا أخذوا أبناءنا فباع كل شيء هباء - قالها ساعت حزيناً شاردأ بفكره .

- وكان المصائب التي وقعت على رؤوسنا قليلة !

- الحكام يقتسمون الأراضي فيما بينهم ليدفع أبناء الآخرين حياتهم ثمناً لذلك .
ساد القلق والإضطراب أقوال الجيران .

وجاء وقع الخبر شديداً علي فلم أفو على الإتيان بحركة وكان ضربة قوية قصمت
ظهري . ارتبسطت الفكرة الأولى التي طرأت على ذهني بفيلديش على الفور . « إذا
سُحبت إلى الجيش انتهى كل شيء ولن أرى فليديش على الإطلاق » . الحاجة إلى
الصديق المخلص في ساعة الخطب أشد من الحاجة إليه في ساعة الفرح . تبحث معه
الوضع الناشئ ، فلا يطول الإنتظار لإيجاد المخرج المناسب . ولكن دورسون لم يعد إلى
البيت في تلك الليلة .

ظهر القمر بدرأ . وتلألأت نجوم خضراوية في السماء السحيقة . أثار هبوب الرياح
ضجيجاً وحفيفاً صاحباً لأوراق الأشجار . أما الإنفعال الداخلي والحب العارم لفيلديش
فقداني إلى حالة أحجل من الإعتراف بها . أخذت أتحدث إلى الريح . . « كوني لطيفة
أيتها الريح وطيري عبر البحر . . . إلى هناك . . . حيث تقع جزيرة رودس . ابحثي في
تلك الجزيرة عن محبوبتي فيلديش . . . ولكن حذار أن تلطمي باب نافذتها فتستيقظ من
نومها . أما اذا وجدت الحر شديداً هناك فاجعلي نساتك الباردة علية عليها ، وإذا رأيت
دمعة مناسبة على خدها فجعفي تلك القطرة المألحة . كوني لطيفة أيتها الريح وطيري إلى
جزيرة رودس . انتظري حتى تفيق محبوبتي البعيدة إبان الفجر وتبدأ بضمفر خصلات
شعرها الكستنائي الحريري فتهمسي لها : « لاتفقدي الأمل يا فيلديش . . زاورقان في
طريقه إليك . أمامه ستزاح الجبال وتحمسر البحار فانتظريه . . » . تسكعت طويلاً تحت

ضوء القمر المفجوع لا أركن إلى مكان . اقتربت مرات عديدة من بيتنا ولكني لم أقو على اجتياز عتبة . لو أني رقدت في فراشي لخلدت إلى النوم إلا أنه غاب في تلك الليلة عن جفني .

سرعان ماتوجه والدنا خفية عنّا إلى بيت شاردين بن علو ، وارتمى على رجلي أخيه بالرضاعة ورأسه مثقل بالذنب :

- أتوسل إليك ياداد أن تصفح بسعة صدرك عن ابنيّ عديمي العقل . لقد أزعجك ولكني أفهمتها عاقبة ذلك حقاً . كن رحيماً بهما ولا تغضب فراسهما فارغان .
- لا يستحقان العفو يا حاميروزا . ولكن إحتراماً لك أنت سأحاول نسيان ما اقترفاه . - أجاب شاردين بن علو بترفع .

- إن ابنيّ أويخيان حقيقيان فأرض المعركة بالنسبة لهما ميدان مألوف ومعروف ، وقد برهن زوارقان على ذلك فعلاً لا قولاً ، وماتا كما تعرف ليس من الضعفاء الجبناء . هناك إشاعات تقول إن الشبان الأويخ سيساقون قريباً إلى الجيش . . .
- إن مكان أولاء الشجعان هناك فقط .

- إنه كذلك ولكني أصبحت عاجزاً وزوجتي مريضة دائماً . سنضيع إذا أمسينا في هذه البلاد الغريبة وحيدين بدون أبنائنا . سننق كخيول هرمة لا علف لديها . أستحلفك بذكرى أمنا التي أرضعتنا معاً أن تفعل شيئاً كي يتركوا لي واحداً منها على الأقل .

- وهل تعتقد أي ساجر؟ .. اتظن يا حاميروزا أن من السهل إعفاء المطلوب للخدمة ؟

- وهل أجهل أنا أن ذلك صعب ؟ ولكنك أنت . . .
- . . ثم إن ابنيّ أخني بالرضاعة ليسا جدبرين بتضحية كهذه .
- لا يمكن إطفاء النار بالزيت ، ولا يمكن محو الإساءة بالغضب ياداد .
حسناً لا تعلمني . القراية تعني القراية . وإكراماً لها سأحاول تدبير الأمر إذا أرادوا سوق ابنيك إلى الحرب . . .

بدا شاردين بن علو خلاقاً لكل توقعات أبي لطيفاً مضيافاً . . . احتفى بأبي ولعب معه بطاولة النرد ثم أهداه طاقية من الفراء ، وقال صاحب الدار أخيراً وبشكل عفوي

مودعاً أبي :

- حررت ابنيك من العمل في أرضي وخدمتي ، لينصرفا إلى شؤون حقلهما . أما أنت يا أخي فتردد على بيتي دائماً ، وراقب الخدم عندي . عين القريب عين مخلصه وسديده . أوه كدت أنسى . طلبت الأميرة أن تأتي ابتناك مرتين في الأسبوع إليها . . . إنها تفضل أن تقوم القريبات لا الغريبات بتنظيف غرفتها وغسيل أردبتها . لم يسع الوالد رفض تشريف كهذا ، بل عاد إلى البيت وكأنه أمسى شاباً معتبراً أنه جلب السعادة للأسرة كلها . فمن أين لهذا الطيب المسكين أن يعرف أن وراء تلك المودة التي أظهرها شاردين بن علو مكرماً أسود . أخذت أختاي كونا وجونا منذ ذلك اليوم تذهبان بالتناوب إلى بيت الأمراء مرتين في الأسبوع لتقوموا بخدمة سيده المنزل منذ الفجر وحتى الظلام . وأصبح الوالد يقضي أغلب أوقاته في بيت السادة ممثلاً لكل أمر وكلمة للأمير الجليل . كانت كونا وجونا فتاتين مقدمتين مجيدتين . سجيتهما طيبة سمحة . وجه كونا أبيض وشعرها طويل بلون الحمر الذهبي . عيناها رماديتان كبيرتان تعبران عن تفكير عميق وحزن وأنفة ، هادئة دائماً ، حنون رقيقة القلب ، نادراً ماتضحك . لكنها سرعان ماتبكي ولأنفه الأسباب . . . تسير بخطوات دقيقة قصيرة كالجمامة . أما جونا فكانت سمراء ، شعرها أسود بلون جناح الغراب ، كث مجعد يعجز المطر عن تبليبه حتى آخره . . . عيناها رماديتان بنفسجيتان تذكوران بالكرز ، مكسوتان بغشاء ضبابي . كانت مرحة الطبع ، تضحك بصخب دائم ولا تهدأ . . . تفهقه وترقص كل الوقت . . . ليس بوسعها كتنان سر ولا تلبث أن تبوح بما يزعجها دون أية مواربة . تميزت الأختان بقامتيهما الجميلتين السامقتين ، ولكن يصعب على من لا يعرفها أن يحكم بأنهما أختان من أب واحد وأم واحدة . لقد كانتا لذلك كله مبعث سعادة الأسرة كلها .

لم تعد جونا في أحد الأيام من بيت السادة في موعدها المحدد . حدث لها في السابق أن تأخرت طويلاً هناك ، ولكنها في كل الأحوال تعود حتماً للمبيت في المنزل . لم نستطع إغماض جفوننا طوال الليل . فلم يتصف بيت الأثرياء أولاء - كما هو معروف لك - بالتزامه بقواعد صارمة . والفنأة - كما تقولون أنتم الأبخاز - تشبه الكأس ، إذا وقعت من اليد ضاعت . . . ما إن حزمت أمرى على الذهاب لأبي بأختي حتى بلغت بوابة دارنا عربة حمراء مشدودة إلى ثلاثة جياد شهباء قوية تحظر بأجراسها الصغيرة

الرنانة .

- من هؤلاء الذين توقفوا عند بوابتنا ؟ لعلهم يريدون السؤال عن الطريق ؟ -
قالت أمي مندهشة . - باللمصيبة . لقد خرجت جونا من العربة إياها .
- ماذا حدث يا ابنتي ؟ - صاحت أمي مندفعة إليها .

- لاشيء أبداً . كان في زيارة شاردين بن علو ضيوف رفيعو المقام . . وامتدت
الوليمة كل الليل . . . وجب علينا أن نقوم بخدمة الضيوف وقد أخرجني الأميرة . . ثم
حين رأني منهكة القوى أرسلتني على عربة الضيوف .
لاحظنا جميعاً في المساء حين اجتمعت أسرنا للعشاء أن جونا حزينة وصامتة كل
الوقت « لعلها ستقع على الأرض من التعب » - بدا هذا لكل منا .

في اليوم التالي وصل إلى دارنا حين بلغت الشمس منتصف السماء وجلسنا للغداء
شاردين بن علو بشحمه ولحمه ممتطياً حصاناً عربياً راقصاً . جاء عجبولاً لجوجا في هذه
المررة وهي الأولى التي يأتي فيها هذا الفارس الجليل ويتخطى عتبة دارنا بعد ذلك اليوم
الذي طردته فيه . . . سعى بكل جهده ليدل مظهره وسلوكه على أنه لا يذكر تلك الإهانة
التي لحقت به وكان تلك الحادثة لم تقع قط . ابتسم لنا فرحاً وقبلنا واحداً إثر آخر وربت
على كتفي بمودة وطيبة قائلاً :

- عفارم . . عفارم

« غريب !! - فكرت أنا - لقاء أي شيء يبدي اهتمامه بنا ؟ » لم يغب عني بالإضافة
إلى ذلك أن جونا توارت عن الأنظار ما إن ظهر الضيف الكبير في دارنا . « كلا . ليس
كل شيء هنا على مايرام » - توجست شراً .

- أشكر الرب - يا حاميروزا . أشكر الرب - قالها شاردين بن علو مظهرأ فرحته متكتناً
على المخدة الجلدية التي أعطتها له أمي .

- ليس صعباً أن نشكر الرب ولكن لنعرف على ماذا أولاً .

- جاءت السعادة لإبتكك جونا بل لن تداعبها أشعة السعادة وحدها مدى الحياة
فحسب بل وأنتما أيضاً والداها ستسعدان معها ونحن أيضاً أقرباؤكم ، بل سيارك بها كل
الأويخ .

- من الضيوف الطيبين تنتظر أخبار طيبة .

- استمعوا اذا . قبل ثلاثة أيام حل ضيفاً عليّ الوالي سليم باشا المحترم الذي قدم

لنا هذه الأرض . فلولاه لأمسى مربعاً حتى التفكير بما حل بنا . استقبلته كسلطان .

ورأى سليم باشا جونا فجن بها . أحبها وأرادها .

لاحظت أن وجه أمي أبيض تماماً ، أما شاردين بن علو فقد تابع حديثه وكأنه

يدع خيراً عظيماً .

- لتفكر فقط . . . صديق السلطان نفسه ، صاحب الثروات التي لا تعد ولا

تحصى فقد عقله من حبه لايتكم جونا . كاد يركع على ركبتيه وهو يتوسل إلي أن أنقل

لك يا حاميروزا رغبتك في الزواج من الحسنة جونا « فلتحول نساء القصر كلهن - كما قال -

إلى خادمات مخلصات لها . فلتنتقل مفاتيح صناديق المجوهرات كلها - كما قال - الى

أيديها . . لتلَوْنَ جونا غروب حياتي . . » أما أنتم فلم ينسكم أيها السعداء .

« فلينتقلوا - كما قال - إلى إزميد . . على الرحب والسعة . أما إذا كانوا غير راغبين في

الانتقال فليبقوا هنا . وفي كافة الأحوال فإني أعتبر أن من واجبي منذ الآن الإهتمام بهم »

لم يعبر أحد عن أية فرحة سوى شاردين بن علو .

- لماذا أنت ساكت يا حاميروزا . أم أن الحظ حالفك فقطعت المفاجأة السعيدة

لسانك ؟

نظرت إلى الوالد . أمسى وجهه عبوساً وشفتاه مبيضتين ثم قال حزيناً ولكن حازماً

ودون أن يرفع صوته .

- كلا يا وحيدتي . ليس بوسعي قبول نصيحتك . والحق أنها لا تدخل رأسي :

فكيف بوسعك أن تبيع ابنة أخيك لذلك التركي العجوز لتتضم إلى حريمه ؟ لم نرب

ابتنا لحريمه . وصاحبك سليم باشا إنسان فاضل حقاً فهو يحافظ على الرسميات . .

فيوسع أمثاله ولاسيما بوجود وسيط مثلك أن يقدم المال لقاء ابنتي وتنتهي المسألة .

- النفود لا تثقل على الجيب . وبدونها لا ينظر إليك أحد في العرس حتى لو كنت

أنت العريس .

- عرس عن عرس يختلف . اشكر سليم باشا المبجل . فليكبر قصره وتزدد

مجوهراته لديه وليبق على صلاته بزوجاته وألا يفترق عنهن أما ابنتي فلتبق في هذا البيت

الفقير .

مسد شاردين بن علو شاربه بعصية . فلو واتته الظروف هاج وماج غضباً إلا أنه تمالك نفسه في تلك اللحظة .

- هذه إرادتك يا حاميبرزا . لقد فكرت بإفراحك ولكني إذ كدرت لا تظلمني بحكمك علي . فما على الرسول إلا البلاغ . ولكن أرجو ألا تنسى أنه إذا اختارت الفتاة نفسها خطيباً لها حسب رغبتها وأرادت الزواج منه فإنها ستفعلت منك حتى لو وضعتها في زنزانة مظلمة تحت الأرض . وإذا حدث هذا لا دخل لي .

امتطى شاردين بن علو حصانه قائلاً تلك الكلمات ومضى . في اليوم التالي والوالدة وحيدة في البيت وصلت من جديد تلك العربة الحمراء التي تمنيت لها أن تحترق . أخرج رجلان صندوقاً ثقيلاً وعلبة ثمينة من العربة . وضع الرجلان تلك الأشياء أمام والدة وانحنيا قائلين .
- هذه لكم . أرسلها سليم باشا .

رفضت والدة قبول الهدايا وطلبت من حاملها إعادتها . ولكنها انحنيا من جديد وجلسا في العربة الحمراء - عليها أفدع اللعنات - واختفيا عن الأعين . أما الصغير طاهر فهروا إلى الحقل .

- طلبت الجدة أن تأتوا إلى البيت بسرعة - قال ذلك لاهتاً يلاحق أنفاسه .
شعرنا بأن هناك شيئاً ونخيم العاقبة . ركضنا إلى البيت لنجد والدة واقفة قرب الصندوق والعلبة وتمسح دموعها السخية . فتحنا الصندوق فوجدنا فيه كما في دكان غني : الجسوخ والمخمل والحرير . . . وكلها مطرزة بالورود والطيور . ورأينا في قاع الصندوق معطفاً لجونا من الصوف الأبيض . نظرنا إلى داخل العلبة . . ياساتر يارب . امتلأت العلبة بالمجوهرات التي لا تقدر بثمن . . . خواتم وأساور من الذهب الخالص . . . حلق من اللؤلؤ . . أطواق من الفيروز الخالص . . حين رأنا جونا ذلك كله جفلت ثم صاحت « أعطوني هذا . إنه لي » . خطفت العلبة وانزوت في غرفتها وصعدنا بتصرفها هذا . ثم مالبت أن دخل إلى دارنا جارنا عزمتم الذي لم نصدق آذاننا عندما أخذ يشرح لنا سبب مجيئه .

- إن جونا خجولة مثل أية فتاة أويخية . وليس لديها الجرأة على مفاخرة أبيها وأمها بقرارها بالزواج من سليم باشا . لقد اختارتني وسيطاً لكي أخبركم بنفسى بأنه ليس هناك

من يرغمها على الزواج منه . إنها تريد ذلك بنفسها . وغداً عقد القرآن .
وانقصت رجلاي على الفور .

- ماذا وجدت في هذا العجوز الفاجر ولديه من الزوجات ما يزيد عددهن على
أصابع اليدين ؟ - تساءلت بحرقه .

- طرق الحب مخفية - قال عزمت وكأنه يُخفف عني - عندما أحببت عجوزي الحالية
أخذ الأصدقاء يسخرون مني ولسان حالهم يقول : « إلى أين تنظر عينك بأحق ؟ ألا
تجدان مانتظران إليه ؟ » ولكن لو أعطيتهم عيني لحظة واحدة فإني أقسم لك أنهم
سينقلبون من ساخرين إلى منافسين . لا تنظر إلى الأمور من مثذنتك أنت . سليم باشا
مسن فعلاً ولكنه رجل متين والنقود في الحياة ليست سيئة فحيث ينحف الغني يموت
الفقير . أرجو ألا تؤنّبوا جونا فمن المحتمل أنها لم تفكر بنفسها فقط حين اتفقت معه على
العرس . كان الجار يعرف ساعته . . ثمنى لنا التوفيق ثم مضى في حال سبيله .

جلسنا صامتين مصعوقين . وجهدنا ألا ينظر أحدهنا للآخر . باتت الأم تهز رأسها
وتشهق بأنفاس عميقة وتمسح دموعها من حين لآخر بطرف مندبلها الأسود .

- لا يمكن أن يسمعك السوط أكثر من هذا . محاولة إقناعها لن تجدي الآن طالما
أنها أرادت ذلك بنفسها . - نهض الوالد وأخذ الحاصدة ومضى إلى الحقل لا يلوي على
شيء .

« ولكن ربما بهروها في بيت السادة ببريق الثروة وسهولة الترفل بأثواب النعيم
والكلمات المعسولة ! » فكرت أنا - « ينبغي التحدث إليها بصراحة وجهاً لوجه ومن القلب
إلى القلب » وتوجهت إلى أختي . فتحت الباب لأرى جونا في الثوب الجديد الذي قدم
لها ، جالسة أمام المرأة مرتدية الخلي اللماعة وفي أصابعها خواتم ذهبية . رأيتها ثملة
مهووسة بما تفعله حتى أنها لم تلتفت إلى صرير الباب . بُهرت على الفور وعدت أدراجي
دون أن أقول كلمة واحدة لأختي وابتعدت بكل هدوء .

اتضح أن شاردين بن علو كان محقاً فعلاً .

في اليوم التالي اقتربت من بيتنا عربات الفايوتون والبراليتكي والكالياسكي* برفقة

(*) عربات فاخرة خاصة بالنبل والأسياد .



الخيالة . دخل جارنا عزمت إلى دارنا . كانت جونا بانتظاره . . ثم خرجت معه إلى الشارع مرتدية أفخر ثيابها والإبتسام يملأ عيهاها . جلست في عربة الفايوتون واختفت بلحظة واحدة عن أنظارنا في الغبار الثائر .

أطرقنا بأسى عميق . . . بدالنا وكان شبح المرحومة عائشة تحظى عتبه دارنا ونفخ في نفس كل منا بحزن سقيم لا مواساة فيه . توافد الأقارب والأصدقاء والجيران إثر ذلك إلى بيتنا . . جاؤوا فرحين مهئين . بدت لي نظراتهم الفرحة تافهة وسخيفة وكأنها ضحك سافر في مقبرة .

- إننا سعداء لاجلكم . سعداء جداً .

- أحسنت يا جونا . إن زواجها رائع . . . رائع جداً .

- ستعيش كما في الجنة . سليم باشا غني ومن الذوات .

- بالسعيدة!!

« أوه . . . رياه - قلت دهشاً - كيف بوسعهم أن يقولوا كل ذلك ؟ . أمست אחتي إحدى جاريات عجوز يهيم بالملذات والفجور ، وهم يهثون . . . بل حتى أن الكثيرين منهم كانوا يحسدونها » . لا أدري كيف خطرت على ذهني كلمات أغنية أبخازية قديمة :

« الزهرة تلقى الموت ولا أكثر

إن أمسكها منقار حداة عجوز »

في ذلك الوقت بالذات ظهر في عثمان كوي دون توقع أو سابق إنذار سحت قري . اعتقد الجميع من زمن بعيد أنه فقد مذ وطئت قدماء هذه الأرض الغربية أو أنه بات في خبر كان وسلم روحه لله . إلا أنه ظهر فجأة - وكأنه انبعث من جديد - برفقة أهل بيته كلهم . لم يأت بأسبال جوال أو درويش متشرد ليخطر أمام أبناء جلدته ، وإنما في هيئة حاج غني متوج بعمامة بيضاء كالثلج .

- قمت بالحج إلى مكة أيها المحترمون . دعوت لكم ولخلاصكم وأنا راعع أمام الحجر الأسود في الكعبة . وكما هو واضح فقد سمع الله دعائي وهياً لكم حياة هادئة في هذه الجنة . فليمجد اسمه تعالى . لا إله إلا الله محمد رسول الله .

- سرعان ما افتتح في عثمان كوي مسجداً جديداً أصبح سحت قري إمامه . . . وفرض الإمام بقرار من عنده ضريبة على كل أسرة تدفع « للمسجد » على الرغم من

تفاضيه راتباً من الخزينة . أمسى من الصعب تماماً معرفة سحت قري السابق في الإمام الحالي . أصبح إنساناً مترفعاً متعجرفاً متعظراً . وأضحى الناس حذرين متخوفين لا من التحدث إليه بصراحة فحسب بل حتى من فتح الحديث معه . كان يرمقهم بنظرات شريرة من طرف عينيه بما يتناقض ومنزلته الروحية تماماً .

أدت عودة سحت قري إلى وقوع أحداث شبيهة بحرب بين اقطاعيتين . تفاقم النزاع بين الإمام الجديد والكاهن صلاح وتحول إلى نزاع في سبيل الموت لا الحياة . جهد كل منها إلى توطيد أركان تفوقه على منافسه . ووصل بها الأمر أيها العزيز شاراخ إلى أن كلا منهما اقتنى لنفسه خفية عن الجميع مسدساً بات يحلم بإطلاق رصاصة على جبين الآخر بعيداً عن أعين الشهود . لا يجدر برجال الدين - كما تعلم - حمل السلاح . إلا أن كلا منها قرر بينه وبين نفسه أن بإمكانه أن يصبح مفتياً عاماً ولو في الآخرة وأن الأوان لم يفت بعد لذلك . اشتد أوار الخصام وانفضح أمره بعد سرّيته الشديدة . ثم جرّ عفواً أو قصداً كل الأوبخ في عشان كوي - تقريباً - إلى الصدام والمجابهة العنيفة .

يعرف كل شيء على حقيقته بالمقارنة مع غيره . بدا لنا حين انتقلنا من سمسون إلى عشان كوي أن نعمة الله نزلت علينا أخيراً . ولم ننس حين كنا نفكر بشؤوننا الدنيوية قديستنا بيتحا . اخترنا لها مكاناً مناسباً على رابية خضراء متوجة بشجرة صنوبر مترامية الأغصان ، وقدمنا لها قرباناً من الماعز وقمنا بصلاة احتفالية لها هناك . كانت قديستنا توحدهنا بذكرى الوطن المهجور ، وتربطنا بعرى العشيرة وتصرفنا عن هموم الدنيا . بل تراءى لنا أوبخيا أثناء صلاة القديس التي نقيمها لبيتحا من حين الآخر .

اعتبر سحت قري العائد أن من الإثم الإحناء لغير الله في بلاد الله ، لذا دعا الكاهن صلاح الى المسجد ليقول له دون أيّ تقيّد بالرسميات :

- ما بك يا ذقن الماعز . . تدعو الناس إلى عبادة الأوثان ؟

- كلمائك صحيحة ، ولكن . . .

- بدون أي « لكن » - قاطعه الإمام - ادفن في الأرض حجرك الذي يمثل شكل

باشق واقطع الشجرة على قمة الرابية حيث اخترت لها ملجأها .

ولكن الكاهن استنكر ذلك .

- مالذي تقوله ياسحت قري : كيف يمكن هذا ! ؟ ردم القديسة التي أوصانا

الأجداد برعايتها أكثر من حياتنا الخاصة ؟ أوي . انتظر إذا غضبها عليك . . .
- لا تخيفني .

- ولكن هل يمكن أن يقال هذا ؟ ! « ردمُ القديسة » ! - لم يهدأ صلاح - إن
انتزاع القلب من صدر الأوبيخ أسهل من مواراة بيتها التراب .

- أنت عجوز أخرق - بقي الإمام مصراً على موقفه ، - بقيت عظام الأجداد هناك
خلف البحر . . . في أرض أخرى . أما هنا ؟ . . . في هذه الأرض فقانون الإسلام هو سيد
الأحكام على الجميع . وينبغي الخضوع له تماماً .

- إذا علم أبناء العشيرة بمطلبك هذا فلن تسمي راضياً منهم .

- وإذا وصل إلى أسمع السلطان العظيم ، ولي الله على الأرض أن الأوبيخ
يفضلون حداتهم الحجرية على المسجد فإن الأمر سينتهي بشكل أسوأ يا صلاح .

منذ ذلك اليوم بدأت بينها الحرب .

لم يتورع الإمام سحت قري عن عمل أي شيء لكي يوطد موقعه في منصب
الزعيم الروحي الوحيد للأوبيخ . سافر عدة مرات إلى إزميد للإلتقاء بسليم باشا .
وتحدث هناك هامزاً لا مراً عن أبناء عشيرته . وهكذا دخلت أسماء الكثيرين من الجبلين
المحترمين في القائمة السوداء . سجلوا كأشخاص خطيرين بناء على رأيه هو وسجل على
رأسهم بالطبع اسم الكاهن . « لإنقاد القطيع كله ، يجب إبعاد النعاج المعديّة » - قالها
سحت قري مقدماً تلك القائمة السوداء لسليم باشا واعظاً ومنتزراً .

حين اشتكى الناس إلى شاردين بن علو من أن سحت قري يفرض على الجميع
رسوماً غير قانونية للمسجد تجاهل شاردين شكواهم ولم يكثرث بها . ثم علّل في المرة
الثانية تحادله ولا مبالاة به بغير وإه قائلًا : إن خدم الرب أحرار في التصرف كما يعلي
عليهم ضميرهم ، وأنا لست حكماً على الإمام .

ولكن الكاهن صلاح لم يتم أيضاً . . . فلم يخف عن الناس طلب الإمام بردم
القديسة بيتها وقطع الشجرة فوق المكان المقدس . وهكذا بعثت في نفوس الأوبيخ نيران
العصيان وكان الكاهن لقم بشرارة متوهجة فتيلًا جافًا قرب مستودع بارود .

- فقدنا وطننا بفضلهم . . . مات ألوف الناس بالطاعون، ويفكرون بدفن شفيعتنا

وحاميتنا القديسة بيتها . . . وكأنها ميتة . . . لن نسمح بهذا أبدًا .

- إذا تجرؤوا على المساس بالقديسة فسنحرق المسجد .

هكذا قال الشباب الأوييخ ذوو العزة الفطرية والروح الحربية الجموحة التي لاتعرف الحذر . فمن يزعج برأسه في المخاطر لا يفكر بالعواقب . «حرق المسجد ليس صعباً ولكن ماهي نتيجة ذلك ؟» حذرهم آخرون ممن يحسبون لكل شيء حسابه في فعلة خطيرة كهذه .

بدا واضحاً كيباض النهار أن سحت قري باع نفسه للأتراك مع كافة شيوخه . ولكن ماأثار جنوني هو شيء آخر : كيف يجرؤ - وهو أوييخي - على تجاهل اعتزاز الأوييخ بأنفسهم ؟ لماذا يدعو إلى القيام بخطوة رعناء بوسعها أن تؤدي في ذلك البلد الإسلامي إلى مقتل الكثيرين من أبناء جلدته ؟ اجتاحتني الرغبة في الإلتقاء بالإمام وجهاً لوجه .

بلغت بوابة المسجد إثر الإنتهاء من الصلاة . انتظرت حتى خرج آخر المصلين . تأكدت من عدم وجود مخلوق في المسجد عدا سحت قري نفسه . دخلت بحذر وهدوء إلى المسجد . رأيت واقفاً بين شمعتين متقدتين منشغلاً بعد النقود غير شاعر بوجودي . . . ولكنه مالبت أن أحس بسمعه المهف بأن هناك من يقترب منه خاطباً بهدوء على البساط . دس الإمام نقوده في جيبه وانحنى للقرآن . اقتربت منه أكثر والتفت نظرانا .

- تأخرت . انتهت الصلاة - قال ذلك بعتاب متكلف وأخذت عيناه تتحركان يميناً وشمالاً بخوف وقلق تحت ضوء الشموع المتراقصة - لماذا تحمل الخنجر؟ أم أنك لاتعلم أن الدخول بالسلاح إلى بيت الله محظور على الناس ؟ - سأل سحت قري وعيناه تواصلان قلقلتها بجبن وخسة .

- ولكني أريد بلوغ الجنة مسلحاً ، تحسباً لأي طارئ . - واقتربت منه بتلك الكلمات المزدرية لشخصه .

قال بشفتين مرتجفتين :

- ماذا تريد؟

- هذا ماأريد - وأخرجت خنجري من غمده ووضعت على صدر الإمام .

- هل فقدت عقلك أيها الشقي؟ إيه . . . النجدة . . . من هناك؟

- أخذ يزعق ويصيح وارتسمت علائم الموت على وجهه الذي امتقع لونه تماماً .

- لاتصرخ . لا يوجد هنا أحد والرب العالي بعيد لن يسمعك - وضغظت قليلا

بالخنجر.

ترجع سحت قري وأخذ يصدر نعيماً متقطعاً.

- توقف عن الخوار. أنت لا تؤمن لا بالله ولا بالشيطان أيها الكلب بل تخون أبناء قبيلتك أيها المرتد.

تقهقر الامام الذي وخز الخنجر صدره وأخذ يحذب ويندب:

- عد إلى رشدك. ماذا تريد؟ أووه . . أيها الناس أنقذوني.

- لماذا ينبغي هم أن يتخذوك؟ لكونك ضللتهم داعياً إلى الرجيل عن أرض الأجداد؟ أين تلك الجنان الإسلامية التي لا توجد فيها عداوة ولا فاقة، لاجر ولا برد لامصائب ولا جوع؟ أين ذلك كله؟ إني أسألك. أين اختبأت حين كنا نموت عند ضفاف سمسون؟ كيف نجوت عندها بجلدك؟ - غرزت نصل خنجري في صدره أكثر.

- لماذا تقتل صديق أيبك؟ سأل الإمام محزقاً مصطك الأسنان.

وترجع سحت قري خطوة إلى الخلف فتقدمت خطوة إلى الامام. التصق ظهره إثر ذلك بالحائط واخترق خنجري ملبسه ليلمس جسده في جنبه الأيسر. ثم مالبت ساقا سحت قري أن بدأتا تنقصان.

- اعترف - صحت به أمراً - جاءت ساعتك أيها المنافق. اعترف أين قائمتك السوداء؟ - وضغظت على صدره بالنصل قليلاً . .

امتقع وجهه من الرعب والألم أكثر فأكثر وأخذ يتمتم بشفتيه:

- القائمة عند سليم باشا. هو الذي أمرني بذلك ولست أنا المبادر. لست أنا. ولكي تسود عليك أن تفرق من هم تحت إمرتك. هذا قانون الدولة التركية. ولكن اعلم أنك إذا قتلني فإنهم سينصبون غيري.

قدرت صدقه في هذه المرة وأسكنت الخنجر غمده. لم تعد ساقاً سحت قري تحملانه فهوى جالساً على الأرض. أحضرت له القرآن:

- اسمع أيها الإمام ماسأفوله لك: سيجري اليوم أمام القديسة بيتها اجتماع عام. عليك أن تذهب إليه.

- وماذا بوسعي أن أفعله؟ - أجاب وهو يرتجف.

- ستأتي وتظهر الندم قائلاً: طالما أن الأمر هكذا أيها الأخوة بالدم فإن ما بيننا هو

سوء تفاهم . أنا أوبخني وأنتم أوبخيون وليس لدي أية مطالب تجاهكم . صلوا كما ترغبون للقديسة بيتحا ولتكن بعونكم .

- كما تريد يازاورقان - وافق سحت قري .

- من المؤسف أن قائمتك السوداء وقعت في أيدي سليم باشا ولا يمكن استرجاعها .

- نعم من المؤسف - أجب الإمام - ولا يمكن استرجاعها .

- احلف بالقرآن بأنك ستنفذ كل ما وعدتني به .

- أتوسل إليك يازاورقان أن تعفيني من الحلفان بالقرآن - نهض العجوز وقد غطت الدموع المتهمرة وجهه .

- الوداع ياسحت قري . سري كيف ستكون عند كلمتك . أريد أن أتقن من أن

دماء الأوبخ مازالت تجري في عروقك . واذكر أنني لم أكن في المسجد ولم يحدث شيء من قبيل ما حدث - وضعت يدي على مقبض الخنجر وتركت الإمام وحده .

تنازل سحت قري بعد ذلك بوقت قصير عن منصبه متذرعاً بسوء صحته وانتقل إلى مدينة إزميد . لم ألتق به بعد ذلك أبداً ولم أسمع عنه أي شيء على الإطلاق .

طاف ضابط وصل من مدينة إزميد بالمساكن السكنية لليوم الثالث على التوالي وقرا على الناس بصوت جهوري «إرادة»* السلطان . أصبح الضابط يعرف كلمات القرار عن ظهر قلب ، وكان يقلب الأوراق دون أن ينظر إليها ويصيح كمنادٍ مركزاً على الأهمية الفائقة للموضوع .

«ترمي إرادة السلطان العظيم ولي الله على الأرض إلى الدفاع عن الحقوق المقدسة للمسلمين في كل العالم . فمن الواجب عليه دعوة المؤمنين إلى الجهاد إزاء غدر الكافرين .

على كل المواطنين الخاضعين لحكم السلطان ، القادرين على حمل السلاح القيام بواجبهم المقدس تجاه الله والنهوض للدفاع عن الإسلام والقضاء على أعدائه» خرجت الكلمات مبسوطة من حلق الضابط الذي غالب غصته بصعوبة .

قضى القرار بأن على كل الأشخاص المذكورين في القائمة أن يتواجدوا صباح الغد

(★) إرادة : (عن العربية) بمعنى قرار .

في الساحة العامة بألبستهم المناسبة ومؤونتهم. ونص القرار على الوعود بالمساعدة لأسر المدعومين للجهاد وإعفائهم من دفع الضرائب الحكومية. كما حذر السكان من أن التخلف عن الخدمة العسكرية يستوجب الإعدام شنقاً.

- الحمد لله رب العالمين.

أقبل صباح اليوم التالي... اغتسلت الأرض بدموع الأمهات لابندى الصباح. ودّع الكثيرون أقرباءهم في ذلك اليوم الوداع الأخير. إلا أن اسمي واسم أخي ماتا لم يردا في قائمة المودعين.

الإنسان إنسان وليس وحشاً. لقد كان موجعاً لضميري إزاء المسجونين إلى الجيش وخصوصاً دورسون أن تخلف عنهم، ولكن فرحة عارمة ملأت صدري في الوقت نفسه، لم أشعر بمثل لها من زمن بعيد. إلا أنني توجهت بذهني إلى دورسون قائلاً: «إعذرني أيها الصديق ولا تلمني على سعادتي المفاجئة. فلو حدث العكس لما فكرت بلومك أبداً». وتراءت لي جزيرة رودس بين صحب أمواج البحر الشائب. وعذني صديقي اللطيف المخلص دورسون بأن يرافقني إلى تلك الجزيرة... كم هو مؤسف ومؤلم أنهم فرّقوا بيننا... توجهت إلى صاحب السفينة الشراعية الذي عرفني عليه ابن دافيد قبل فترة من الزمن. علمت أن صائد السمك يعرف الطريق إلى الجزيرة المشوذة كما يعرف أصابع يده. ونصافحنا متفقين.

نما لدينا في تلك السنة تبع جيد جداً. وحسبت أنه إذا جمعناه بدون هدر ودفعنا الضرائب المستحقة علينا فسيبقى لدينا وفر من النقود وسيكون بوسعي أن أدفع لصاحب القارب الأجر المتفق عليه. أخذت أستعد للإبحار الذي انتظرته وقتاً طويلاً. يصعب التفكير بأن أربع سنوات مرت منذ فرّقني القدر عن المحبوبة إلى جهات متضاربة. بتُّ مشعباً برغمة جامحة أخفيها عن الجميع كل الوقت. كنت أعيش أملاً عارماً مشعباً باللقاء بفيلديش. فلم يكن ثمة ضياء في حياتي بدونها.

مصير بنات الجبل

مضت ثلاثة أشهر على سفر جونا. سافرت وانقطعت أخبارها تماماً. بات شاردين بن علو يحمل إلينا تحياتها من خلال الرسائل الودية التي يتلقاها من سليم باشا كما يزعم. وحمل إلينا ساعي البريد مرة رسالة منها مباشرة. لم يكتب لنا أحد قبل ذلك ولذا أدركنا على الفور أنها من جونا. لقد كانت أمية ولكنها كما توقعنا طلبت من أحد ما أن يكتب لنا رسالة باسمها عن أخبارها. لم يكن بيننا من يعرف القراءة والكتابة. ثم إن الرسالة مكتوبة باللغة التركية. لجأنا إلى العجوز مزوتش أبو خبا الذي يقرأ ويكتب. أخبرتنا جونا في رسالتها أنها حية وصحتها جيدة وأنها راضية بمصيرها إلا أنها مشتاقة لكل فرد منا خصوصاً لأختها كونا. «كم هو مجيد - لم تحف الأخت رغبتها - لو توافق كونا على القدوم إلى إزميد فتضيف عندي أسبوعاً أو آخر وتروح عن نفسها وتفرحني بزيارتها». جاءت الرسالة قصيرة كالليلة الصيفية ولكنها حملت اطمئناناً كبيراً إلى قلوبنا.

واقتربت من بوابتنا بعد ذلك بوقت قصير عربة فخمة خرجت منها امرأتان في أردية سوداء تغطي جسميهما بشكل كامل.. كما غطنا وجهيهما بمنديلين سميكين. انحنى المرأتان إثر دخولهما:

- السلام عليكم - عرفنا على نفسيهما - نحن خادمات ابنتكم جونا. سيدتنا المحسنة، الخانم جونا ترسل إليكم حبها وتمنياتهما الطيبة. الحمد لله لأنها تعيش في بحبوحة ويسر وأن جمالها يزداد ويتألق ليضيء القصر كله، ويحمل السعادة إلى المحيطين بها جميعاً. ولكنها مغمومة لأمر واحد فقط وهو الفراق عنكم. فإذا كنتم لا تريدون أن ينصب علينا غضبها فإننا نتوسل إليكم أن تسمحوا لكونا بأن تزور أختها. إن سلطانتنا البديعة تستحق هذه الفرحة.

وأدخل الخوذي إلى البيت صندوقاً كبيراً.

- هذه الهدايا لكم من واليتنا جونا.

سرتنا تلك الزيارة المفاجئة لخادمتي جونا وخصوصاً شهادتها بأنها تعيش في بحبوحة ويسر، أما بخصوص كونا فإن محبوتنا أخذت تطلب بنفسها أيضاً السماح لها بزيارة أختها.

رضخ الوالد والوالدة بعد أن جمعا قلوبهما ووافقا إزاء الإلحاح في الطلب. وسافرت كونا بعد أن ارتدت أجمل ثيابها مع خادمتي أختنا المحترمتين. من كان بوسعه أن يتوقع أن تسمي تلك السفرة مصيرية مأساوية.

مرت الأيام، ومرت الأسابيع وكونا لم تعد. أمسينا في حالة بائسة.

- يا إلهي، قد تكون هناك مصيبة ما وأنتم رجال ثلاثة تجلسون هنا هادئين ساكنين ولانأتون بحراك. - دعتنا أماناً إلى حزم أمرنا.

واندفع الوالد وقد ملكه قلق شديد للقاء شاردين بن علو ولكن الأخير هبّ معاتباً محذراً:

- تصخب وتضج أيها الديك العجوز وكأن ابتيك قد غرقتنا في عرض البحر أو ناهتا في غابة كثيفة ! إنها تلهوان على هواهما في القصر المرمرى الأبيض، وتنفذان هناك كل نزوة من نزواتهما. أما أنت فتصيح وتستغيث: بالفداحة الأمر تأخرت ابنته كونا عشرة أيام ! كيف لها ألا تتأخر وهي وأختها تسرحان وتمرحان ولاتفرقان بين الليل والنهار!؟ الأفضل لك أن تفرك عينيك عند الفجر فتتوضأ وتقوم بالصلاة شكراً وحمداً لله الذي أرسل لنا سليم باشا. انظر إلى الهدايا التي أرسلها من أيام لزوجتي. السجادة التي تقف عليها من كرمه وكذلك تلك المزهرة على الصينية الذهبية وهي لاتقدر بثمن. اذهب. اذهب إلى بيتك بسلام. ساحل في وقت قريب ضيفاً على قريتنا سليم باشا وأعود شخصياً بجوهرتك كونا معززة مكرّمة. ثم ليذكر ابنك أنه بمساعدة سليم باشا بالذات أعفيتها من الجيش. اذهب. اذهب.

داب شاردين بن علو على الإشارة كلما سنحت له الفرصة إلى قربه من سليم باشا. أمسى ذلك مفيداً له لأن بعض الناس يتزلف للزعيم الأوييخي وينشد حمايته وبعضهم الآخر يخافه ويرضخ له دون أي تذمر. فلا يمكن رفع شكوى على من هو بمنزلة أو التجرؤ على اعتراض أمره. أضمر شاردين بن علو في قرارة نفسه حلماً خفياً بالتحليق عالياً

وتخطي سليم باشا نفسه . فبعد أن انطفأ بريق الحاج جيراندوق وأمسى في الظل أخذ شاردين بن علو يتحدث باسم الأوبىخ في كل مكان . أمسى غنياً فعلاً ، ولكن ماذا تعني ثروته بالمقارنة مع كنوز سليم باشا التي لاتقدر ولاتحصى ؟ نعم وسلطته أيضاً . . . ليست كسلطة حاكم إزميد . . وهكذا أخذ النبيل المهاجر يبحث بحذر وخبث عن درجة يرتقيها نحو قمة سلطانه الذي يريد . استطاع منذ السنة الأولى للهجرة أن ينفذ إلى حرم أم السلطان . قلت لك ياشاراخ إنها امرأة أدبغية . ويجب هنا ألا نبخس شاردين بن علو حقه . فقد استطاع أن يكسب تلك المرأة إلى صفه . وساعدت هي فعلاً في إعطاء الأوبىخ الأرض في عثمان كوي . لقد امتازت حاسة الشم لدى شاردين بن علو بالحساسية المفرطة كالنسعيرة في البازار . درس شاردين بطرفة عين كل التحليقات والسقوبات في القصر ، وتفاعل معها كالصدي . ثم أخذ يجيك خيوط لعبته معتمداً على مشاعر الحسد لدى المقربين من السلطان ، أخذاً بالاعتبار جشعهم الشديد ومكائدهم الخفية . ولم يقتصر على تسخير الجلبين المهاجرين لخدمة أغراضه وعلائه ولو درجة واحدة يرتقيها دون أن يرف له جفن . ولم يخف على سليم باشا غرور صديقه الففقاقي ولكن لم يخطر له على بال أن لدى الأخير النية والأمل بتخطيه شخصياً بكل ماوسعه إلى ذلك من سبيل . أخذ شاردين بن علو يسافر إلى استانبول أكثر فأكثر . يقضي أحياناً أشهراً بحالها في العاصمة التركية ويردد كثيراً على السلطنة الأدبغية .

بات يطرب آذان تلك المرأة عالية المقام التي لم يفلح الزمن في محو آثار جمالها . ثم قدم شاردين بن علو لها زوجته وأخته شاندا . البداية هي أصعب مافي الأمر . . وهكذا لم تعد تقام حفلة استقبال واحدة في القصر إلا وتستلم الأميرة وأخت زوجها دعوة إلى القصر . أما حين شاهدت السلطنة شاندا للمرة الأولى انبهرت بمحاسن هذه الفتاة الجبلية البديعة وأخذت تؤنب شاردين بن علو :

- ماذا بك أيها المحترم؟ لماذا خبأت بكل غلاظة جمال أختك الأخاذ عني؟ .

أما أن تمتدح امرأة جمال أخرى بصوت مسموع حتى لو كانت الأخيرة أصغر سناً . فهذا له معناه بالطبع .

قربت أم السلطان التركي شاندا إليها وأخذت ترعاها أفضل رعاية . كما قدمت لها خاتماً نزعته عن يدها هدية للحسناء الجبلية ، ومنحتها أيضاً لقب إطرء والماسية

القفقاس». ينبغي الإعراف هنا بأن محاسن شاندا سامية فعلا وخلقها أرضي بديع . أتقنت شاندا جيداً عملية إظهار تواضعها ورسائنها اللطيفة بل وورعها وصفاتها . . وأحسنت أن تختار لكل صفة ظرفها ووقتها . ولم يعد نادراً أن تظهر أخت شاردين بن علو في القصر أو ترافق السلطانة في نزهاتها فتصبح الأخيرة سمعها المرهف بلهفة واهتمام مفرطين لأحاديث شاندا عن التطريز أو أغانيها الأويخية الشجية .

تمكن عبد العزيز بعد تسلمه زمام العرش من قمع مؤامرة حاكها أعداؤه الداخليون «العشانيون الجدد» . ولكنه اعتاد العيش على هواه وملذاته غير آبه بالحرب الجارية . ولم يكن سلطان البلاد الشاب خلافاً لأبيه يحب الشرثرة مع المقربين إليه حول الأحداث العالمية . واتصف أيضاً بالكسل وعدم النظر في الكتب . ثم سرعان مايشعر بالملل إذا كان المستشارون كثيري الكلام . « أوه لو أن شؤون الدولة كلها تنهال على كتف الوزير لاكتفى هو بمشاهدة صراع الديكة وركوب الخيل والصيد والتمتع بمعاشرة النساء» .

استحقت شاندا - المحظية الجديدة للجددة - تقديره السامي . فأصبحت على الفور زوجته الثالثة . وبدا ذلك الانعطاف في الأحداث بالنسبة لشاردين بن علو حلماً سحرياً . ثم مالث أن شعر بعد أن أمسى نسيباً للسلطان العظيم بأنه لايليق بمقامه العيش في منطقة نائية كعشان كوي . انتقل صاحب الحظ السعيد مع كافة أهل بيته والمقربين المخلصين له إلى استانبول . فيجب طرق الحديد وهو ساخن .

تعم عبد العزيز بالسعادة والهناء بتعرفه زوجته الجديدة . ومن المعروف أن الأزواج لايرضخون تماماً لزوجاتهم ، فيوافقهن على طلباتهن ويكرمونهن بلا حساب ، كما في شهر العسل . وهكذا ، أمسى من السهل على شاندا الحصول على رتبة ضابط لأخيها وتحديد راتب كبير له . وهكذا عاشت تلك الحقيقة في الواقع وكأنها حلم أكيد . قرأ الوزير العظيم بنفسه القرار المعظم القاضي بمنح شاردين بن علو رتبة ضابط . وهنا لا بد من إيفاء العم بالرضاعة حقه - لقد كان ماهراً خبيراً فعلاً قادراً على ذر الرماد في العيون . عبر عن شكره وامتنانه لولي الله على الأرض وأبدى على الفور - جهاراً على الملأ كله - رغبته الشديدة في المضي إلى القتال .

- عمل يستحق الشناء والإقتداء به - هكذا حياَ الوزير العظيم قرار شاردين بن

علو .

أدرك شاردين جيداً أنه لن يعيش طويلاً على مفاتن أخته . خصوصاً وأن عبد
لعزيز لم يشتهر بالإستقرار في حبه وغرامه . ثم وإلى جانب ذلك سيقضم الحساد ألسنتهم
ويتوقفون عن الثرثرة بأن رفعة الأخ هي من منجزات شاندا على فراش الزواج فالاستعداد
ليذل الدماء حتى الموت في سبيل السلطان - ورقة رابحة بيد شاردين بن علو في لعبته
الكبيرة . لذا توجه إلى الجبهة .

اتفق أنه وصل إلى الموقع الأمامي على الحدود البلغانية قبيل المعركة بقليل حين
بانت الجيوش التركية بطرايشها الحمراء تطرد من المدينة على أيدي الروس . أتعبت قيادة
الموقع رأسها وتخبطت في أمرها : كيف يمكن إيصال هذا الخبر المقيت إلى استانبول بدون
أية عواقب . . الهجوم اليائس بالبطقان* على العدو أسهل من الذهاب إلى السلطان
بأخبار سيئة كهذه . يقال إن ناقل الخبر غير مسؤول عنه . ولكن هذا كلام فقط . فيمكن
لرسول أسود كهذا ألا يخرج من القصر حياً . . وهنا ذكر أحدهم اسم شاردين بن علو .
«أوه . إنها فكرة مفرحة : نسيب السلطان بالذات . . » حاول شاردين التملص من هذا
التكليف الذي لاحمد عقباه إلا أنه لم يجد مخرجاً من ذلك . فهنا . . حرب ، ترفض . .
تعاقب وقد تختار رصاصتك بنفسك . «فليكن ما يكون» قرار شاردين بن علو وانطلق
إلى استانبول على حصانه . ولدى وصوله إلى العاصمة لم يظهر في القصر فوراً بل اختبأ
أولاً في بيت صديق له ، صاحب مقهى . ودعا الأخير شاندا إلى أخيها . ثم بيّنا الأمر
بحيث أن شاندا ستجد الضحية الذي سيتقدم ظهور شاردين بن علو في القصر ، ويخبر
السلطان بوقوع المصيبة في البلقان . . وهكذا خرج من أوصل الخبر إلى السلطان بصعوبة
بالغة من القصر والدم ينزف منه . أما شاردين بن علو فدخل لعند السلطان خاطباً بورع
على السجاد الوثير مضطجعاً بدور الموسي ، واضعاً بلسماً على الجرح . خابت آمال الكثيرين
في القصر في جر جثة الأوبيخي على الأرض وهي مقطوعة الرأس . بل حدث عكس ذلك
تماماً . . خرج ولي الله على الأرض بوجه حزين ولكن بهيج راض بالحال . . بلغ القاعة
العامة متأبطاً ذراع سلفه الذي ارتدى زيه العسكري وخوذته ودرعه وقال السلطان متوجهاً

(*) البطقان : سيف تركي محذب ذو حدين .

إلى الذوات المنحنيين له :

- أُمّح شاردين بن علو المجيد لقاء بقائه حياً سليماً بعد معركة فاسية شارة البسالة .
كان رجال القصر قد سمّوا شاردين بن علو فيما بينهم من وقت قريب «حشرباً» أو
«مشرداً» و«غريباً» . أما الآن فباتوا يخشون التصريح بأرائهم السيئة فيه حتى وراء
ظهره ، لاسيما وأن وزير الشرطة جعله مدير مكتبه الخاص .

لاستطيع أن أجزم هنا بإداد شاراخ أكان الأمر بهذه الدقة أم لا . ليس بوسعي
التأكيد على هذا أو ذلك . ولكنني أنقل إليك هنا ماسمعت عن شاردين بن علو بعد رحيله
إلى استانبول ، وكما يقال : بعث كما اشترت .

حاكم الأويغ الباقون في عثمان كوي الأمر على نحو آخر بصدد تقرب شاردين بن
علو من السلطان . رأى بعضهم في ذلك مؤشراً إلى أن أحوال الأويغ مستقر .

- إذا حدث شيء ما يمكن التوجه إليه مباشرة . لن يتركنا عرضة للتهلكة - قال

بعضهم .

- تسمون الباشق نساً . لقد تنكر لأبيه وأمه . الأجدد بكم أن تصلوا لله كي يبعد

عنا الأذى والضرر بجزيرة شاردين هذا - قال الآخرون حذرين محذرين .

قلق أبي على أخيه بالرضاعة واشتاق إليه . أما أنا فكنت مسروراً لرحليه ، وغميت

ألا أراه قرناً من الزمان .

أخذت أدرس في الأصابع اللغة الأويغية بمساعدة العجوز . أما بعد الظهر

فأسجل مايسرده علي من أحداث - هكذا استقر حالي أول الأمر . ولكن هذا النظام اختل

بعد فترة قصيرة . لأن زاورقان زولاق ذاته انهمك بسرده للأحداث بحيث أمسيت أبداً

التسجيل تبعاً لرغبته هو . وجرى ذلك في الغالب منذ الصباح الباكر .

حظيت بالطبع بمعلم فريد من نوعه ولشد ماكانت قصة حياته ممتعة . إلا أني

سعت مع ذلك لاستراق الوقت لأتابع ملء قاموسي الأويغية الذي بدأت بتأسيسه منذ

الأيام الأولى لوصولي . سجلت بالأمس وقبله مصطلحات القرابة أما اليوم فأساء لوازم

البيت وأدوات الإنتاج . وبالمناسبة فإني أجد - أكثر مما توقعت في السابق بكثير - جذوراً

مشتركة للغة الأويغية مع اللغات الأخرى القريبة في شمال غربي القفقاس .

مزاج زاورقان اليوم سيء منذ الصباح . بدا متفعلاً مضطرباً يكثر التدخين . انكب منذ الصباح وأثناء الفطور يشتم بيرم دون سبب يذكر، ثم مالبت أن توقف عن مواصلة الطعام ونهض من مكانه، ولم يرقد في منتصف النهار كعادته بل أخذ يسير إلى أمام ثم إلى وراء في فناء الدار . وحين لاحظ كيف يضع بيرم الأطباق والملاعق في المحفظة قبيل ذهابه إلى البيت أخذ يشتمه فجأة . ولكن بيرم لم يجب بشيء .

استمر زاورقان في مراوحته في فناء الدار ولكن ما أن فكرت في نفسي : «أصبح أن أزعجه اليوم؟» حتى جلس فجأة ودعاني إليه .

جلست قربه مستعداً للتسجيل في أية لحظة ولكنه لم يستطع أن يبدأ وأخذ يمسح كل الوقت بيده الخشنة على جبينه المتجدد وكأنه يجهد في جمع وتركيز ما بقي في ذاكرته . حين بدأ حديثه أخذ على غير عادته ينتقل من مكان لآخر . بدا أن الاضطراب والغضب الداخلي يسكنان نفسه في ذلك اليوم، وعلى الأرجح أن ما لحق بيرم هو بسببها فحسب .

ولكنني مع ذلك سجلت اليوم بعض الأشياء . تحدث زاورقان بأن الأتراك أرسلوا إثر مغادرة الإمام سحت قري لعثمان كوي شيخاً آخر تركي الأصل اسمه أورخان . وجد الأخير لجنة مشتركة مع الناس وتحدثوا عنه كخادم حقيقي للرب . ولكنه إثر ذلك أخذ ينفذ خطه المرسوم بشيء من الدهاء والحث وعلى المدى الطويل . أصبح لزاماً - حسب رأيه - أن يجري العرس أو تتم مراسيم الدفن لاكما اعتاد الأويخ من قرون وقرون بل حسب القواعد الصارمة للأتراك . ويات الشيخ أورخان يجمع الناس كثيراً في المسجد ليعلمهم الذكر قائلاً : «إن الله سميع مجيب لمن يذكره ويمجد اسمه» . لم يعد مسموحاً حين يولد طفل أن يمنح اسماً بدون موافقة أورخان . كما أمسى محظوراً على النساء بشكل خاص الخروج بدون ملاءة . وفرض على من يتخلف عن الذهاب إلى المسجد ولو مرة واحدة أن يدفع جزاء ذلك . كما أوجب على أبناء الجبل تعليق أسلحتهم في فناء المسجد قبل دخولهم إليه .

كان زاورقان يتقزز لدى ذكره اسم سحت قري لأنه أسم مقيت مكروه من قبله . ومع ازدرائه للشيوخ الأتراك المزيفين لم يتحدث كثيراً عن العادات الدينية الإسلامية لأنه - على ما يبدو - عرفها بشكل بسيط .

- لا أتق بهم جميعاً، أولئك الذين يعيشون بنعم وفيرة باسم الله دون أن يبذلوا قطرة من عرفهم . إيه أيها اللطيف شاراخ . لو أن بوسع الصلاة والحقيقة تقديم شيء مالم الناس لتحسنت أحوال أبي قبل أي إنسان آخر. إن لم يكن هو قد صلى بها فيه الكفاية فمن قام بذلك إذا؟ ولكنه مع ذلك بقي أكثر الناس شقاءً وبؤساً.

عندما ذكر زاورقان أباه حتى رأسه وصمت طويلاً . ثم نطق فجأة وتحدث عن تلك المصاعب التي ألمت بالأوبيخ في المناطق الجديدة التي لم يعتادوا عليها سابقاً . كانت الأرض - حسب كلامه - شحيحة جداً بالمقارنة مع الأرض الأوبيخية وعطائها الخير المتنوع . وكان يشكو من القيط اللاهب في الصيف ، والصقيع الشديد في الشتاء بحيث اضطر الأوبيخ إلى دهن بيوتهم بالطين أو الزيل وهذا ما اعتبر عاراً شنيعاً في بلاد الأوبيخ الأصلية .

وكان العجوز يشكو أيضاً من أن العنب الذي يمكن هنا تربية كرومه - وهذا ما فعله الأوبيخ فور وصولهم - يتحول إلى زبيب «كيش ميش» لا إلى نبيذ . فالخمر ممنوع منعاً باتاً في تركيا . أما إذا ضبط لدى شخص ما شيء من الخمر فإنه يطرد فوراً من القرية .

- من رأى في السابق أوبيخياً يعيش بدون نبيذ؟! وما الخبز والملح بدون خمر؟ الخمر في حياة الإنسان كالدالية التي تلف حول جذع الشجرة ولا يمكن فصلها عنها . من منا بوسعه استقبال ولادة طفل بدون خمر؟ أين جرى عندنا عرس بدون خمر؟ من يجرؤ على الحفاوة بالضيف بدون خمر؟ بل حتى عندما يموت الإنسان ترفع الكؤوس لوداعه إلى مشواه الأخير . إنها لنهاية مرةً هنا .

على أي شيء يمكن للإنسان أن يعتاد ؟ ! أتصدق ياشاراخ اللطيف أنه لو قدّمت لي الآن قرناً كبيراً مليئاً بالخمر(*) فلن يكون بوسعي أن أرفع نخب مائدة . لقد نسيت ذلك تماماً كما نسيت طعم الخمر نفسه .

أمسّت تلك الشكوى ٠٠ الأخيرة من شكواواه التي نضح بها صدره في ذلك اليوم .

* يقدم الخمر في القفلاس في قرون الثيران المجوّفة ومن هنا كلمة النخب في الشركسية بجة التي تعني في أصلها قرن .

بهذا افترقنا على أمل اللقاء غدا في الصباح .

كان ذلك اليوم يوم جمعة ٠٠ أدى رجالنا الصلاة بعد تعليق أسلحتهم على المسامير في فناء المسجد . وجهر شيخنا الجديد أورخان بصوته :

- لا إله إلا الله ٠٠ باركنا يارب ودلنا على الطريق القويم ٠٠ لاتركنا يارب .

- آمين - آمين ٠٠ ردد المصلّون .

- على المؤمن الصادق أن يتوكل على الله العطوف الرحيم الذي إن قال : كن

فيكون . ارحمنا يارب .

- آمين - آمين .

لاحظت شخصا مرتدياً قليفاً يقف بباب المسجد المفتوح عند العتبة . وطالما أنه لم يدخل المسجد فهو غريب إذاً عن هنا هكذا فكرت ٠٠ ولكن وجهه بدا لي مألوفاً .

انتهت الصلاة فخرجت ووضعت خنجري في مكانه وسمعت :

- يومك طيب يا زاورقان .

قال ذلك بلغة أديغية خالصة . التفت إليه :

- محمد ! أية أقدار جاءت بك إلى هنا؟!

وقف أمامي أحد أبناء عشيرة جدي لقد قلت لك إنها أديغية لم ألتق بمحمد منذ

زمن الهجرة . وصلنتني أقاويل بأنه يقيم قريبا من إزميد . اقترب الوالد وماتا منا وسرهما

رؤية محمد . عانقاه وقبلاه .

- لماذا نقف هنا؟ لتتحرك بسرعة إلى البيت . قالها الوالد مبديا احتفاءه بالضيف

من فوره .

- كنت عندكم في البيت ورأيت ناسي التي قالت إنكم هنا . قال محمد ذلك وهو

يمعن التفكير في مسألة أخرى ونظره مسمر في الأرض . شعرت بأنه لا يميل إلى الجلوس

وراء المائدة والتمتع بالحديث .

- ليس لدي وقت يجب أن أعود قبل حلول الليل ٠٠ من الخير أننا الآن وحدنا .

إن كلامي يبحث له عن أذان رجال .

أدرك كل منا أن عبثاً جسيماً يثقل كاهل محمد . . وأن عليه أن ينقل خبراً مرّاً .

- أتوسل إليكم أن تتسلحوا بالشجاعة .

- ماذا حدث؟ همس والدي بشفاه الموتى .

- سليم باشا . . تزوج من كونا .

- ارتددنا عنه وكان قذيفة مدفعية انفجرت للثو أمامنا . أما محمد فتابع حديثه

بوجهه المساوي قائلاً :

إني أعمل في حراسة قصر هذا الباشا اللعين . . نادتي الأختان خفية في يوم من الأيام وقالتا وهما يتلغان دموعهما : «ياقربينا الغالي ، أخبر أخويننا بأننا نموت هنا . أخبرهما بهذا ولو تعرضت لفقدان رأسك . دعهما لا يصدقان أبدا بأننا نعيش في بحبوحة وسعادة . لقد خدعنا وسُلينا شرفنا . أما إذا انعدمت الإمكانية لأن يأتي أخوانا لإخراجنا من هذه الدار الأثمة فليأتيا لوداعنا» .

- كيف يمكن أن يسمح الرب بهذا ؟ ! - قلت وأنا في فورة غضبي أمام المسجد .

- يمكنكم الاعتماد عليّ .

مضى محمد بعد أن أخبرنا كيف يمكننا إيجاده في إزميد . واستلأت عيناها بالدم .
أوه . . لقد ملكتني رغبة أسرة في أن التحول إلى برق يحرق كل الظالمين والسلاطين الأتراك .

عدنا إلى البيت ودعونا أقاربنا إلينا وأخبرناهم بما وصل إلينا من أخبار حزينة .
وامتزج حزننا الأليم بمشاعر تعاطفهم معنا . أما أمي فوضعت ألسنة ابتيتها على السرير وأخذت تكيهها .

لم يحدث في بلاد الأويخ شيء من هذا القبيل . . أن يتزوج رجل واحد من أختين . أما لو حدث شيء كهذا هب العالم كله يستنكر ويلعن خلط الدماء هذا .
وقررنا أنا وأخي مانا : الأجدد بنا أن نموت قبل أن يرانا الناس عاجزين عن الثأر للعار الذي لحق بأختينا .

قرر الوالد اللجوء إلى شاردين بن علو وطلب حمايته ومعونة شاندا . ولكن صح مايقال : إن العام الأسود يتألف من خمسة عشر شهراً . عاد الوالد من المزرعة خالي الوفاض . . فشاردين بن علو في ذلك الوقت في الجهة البلقانية . أما زوجته وابنها فيجوربان فرنسا . وكانت السلطانة شاندا حاملاً ولاتظهر أمام أحد لاقتراب موعد وضعها . جاءت توقعات الوالد كالخوخة العفنة . ولم يبق أمامنا سوى الاعتماد على أنفسنا . المهم

هو عدم الجلوس مكتوفي الأيدي .

استعددت وأخي للسفر . خرجنا من البيت مع بزوغ الفجر . أخذت أنلقت كل الوقت وحتى بلوغي الطريق لأشاهد والدي ووالدي . وقفت الوالدة متلفحة بوشاحها الأسود معتمدة على عكازها . أمست نحيفة الجسم كحد السكين . أما الوالد فوقف مشبكاً يديه على صدره ، مستنداً بظهره إلى البوابة وكان رجليه لانحماله . عذب الأسي قلبي - أيعقل أني لن أراهما بعد الآن؟ حلقت فوق الدار بقايا دخان ، تريت في مكانها وكأنها تنبأ بأن موقدنا سينطفئ ، بعد قليل إلى الأبد . . .

أخذ غبار الطريق الثائر يلون جزماتنا وألبستنا ووجوهنا بلون واحد «إيه - نأسفت أنا - ليس لدي الآن جوادي بزوا العنيف . ذلك الجواد جواد فعلا . . جواد مجيد . . نصف بري . . عمره خمس سنوات ومدرب على الجري كالريح العاتية . لو جاء إلي الآن لطار كالريح الثائرة إلى إزميد ولصقرت له أمام سور حديقة الفاسق سليم باشا فيتجاوزه بقفزة عنيفة» .

في زمن الخير الذي عشناه في الوطن ملك حتى أفقر الناس حصانا يمتطيه ويقطع طريقه على ظهره . نذهب على ظهور الخيل دائماً سواء إلى وليمة أم مأتم أو أية جهة كانت . أو أننا نركب العربات . . ننقل العرائس على عربات الفابتون المكشوفة التي تجرها ستة أحصنة بلون ونوع واحد . حين يولد صبي في أسرة ما نربي له مهراً لكي ينمو الصبي فارساً منذ صغره . وإذا مات جبلي أو قتل . . نورث الحصان أسلحة صاحبه ونبكي الفارس الفقيد . ليس عبثاً أيها العزيز شاراخ أن أجدادنا قالوا: «في عروق الحصان تجري دماء بشرية» . وليس عبثاً أنهم غنوا دائماً:

«روح الرجل . .

وروح الحصان . .

منذ الأزل . .

منحدثان . .

أمسينا في بلاد الغربية بلا خبول . واحتل الحمار هنا مكانة الحصان هناك ، فمن يملك هنا حماراً يعتبر إنساناً غنياً .

عشنا أسبوعاً كاملاً في بيت الأديغي محمد الواقع قرب مدينة إزميد بجوار البازار . أخذنا هناك ندور حول قصر سليم باشا - عليه أقدع اللعنات - كل يوم إلا إننا لم نستطع أن ننقل إلى أختينا خبر وجودنا قريهما . وكانت قد وقعت في إزميد قبيل ظهورنا فيها حادثة سرقة في حريم القصر ، فمنعت النساء إثر ذلك من الزهات وشدت الحراسة أكثر من السابق . اقترح ماتا يائسا :

- يجب أن نذهب إلى الباشا ونطلب منه أن يعطينا أختينا بشكل طوعي .

- اسمع ماذا يريد - قالها محمد بسخرية حزينة - لو وضعت ذيل الكلب في قالب فسيفى أعوجاً . وجد أخيراً أصحاب حق . . . هه . . .

أما أنا فكنت أعنف نفسي على شيء واحد : « كيف لم يخطر على بالنا أن نذبح شاردين بن علو في عثمان كوي ؟ » فلن يتمكن أي عدو من أن يفعل بنا ما فعله قريتنا هذا . بت أوقن أكثر فأكثر بأنه باع أختي لسليم باشا لقاء بعض المساعدات التي تلقاها منه . لم يكن بوسعه الإقدام في أويخيا على فعلة كهذه أبداً . لعل الشعب الذي يفقد وطنه يفقد السمات التي ورثها أبا عن جد وحفرت في ثناياه قروناً طويلة ؛ سمات النبل والعزة والكرامة . إننا نرى العالم غارقاً في النفاق والكذب وهدر الدماء . كما انعدمت فيه الرحمة والرفقة بالغير .

بدأ الركود والجمود يعذبانا . ومرّت الأيام ونحن لانقوم بشيء على الإطلاق . ولكن محمداً تحينّ أخيراً لحظة مناسبة لكي يمسس لأختينا بأننا هنا في إزميد . وأخبرتانا بدورها عن طريقه بأن جونا لم تكتب لنا أية رسالة وأن المرأتين اللتين أخذتا كونا بالخداع تصرفنا بدون تكليف منها .

وعلمنا أيضاً أن جونا اعتبرت نفسها مذبنة في شقاء أختها فحاولت ذبح نفسها بالزجاج .

جاء الربيع وغمر المدينة بدفء مبكر . حمل لنا محمد خبراً جيداً : « يسمح غدا للجواري المحتجزات بالخروج إلى الحديقة للنزهة » جاء تغير الأحوال هذا لصالحنا . استلم محمد منذ الصباح الحراسة عند البوابة الرئيسة . علمنا مسبقاً أيضاً أن سليم باشا

يتمدد في منتصف النهار على الأريكة قرب النافورة تحت ظلال شجرة الماغوليا وأن الجوّاري يروّحن عنه هناك وقررنا: سأنسلل قبيل منتصف النهار إلى الحديقة. سيستأجر ماتا عربة حوّذي ويبقى مستعداً منتظراً عند أقرب منعطف نحو البوابة.

سأحاول إخراج أختي من البوابة ثم أخذها بعد ذلك بعيداً. أما إذا أخفقت في أخذها خفية فسأحاول تغطية هروبها وأستقبل من يلحق بها والسلاح بيدي. وعلى محمد في هذه الحال أن يذهب بها بعيداً فلا يجدر به أن يبقى في إزميد بعد ذلك. وستتظننا الحوّذي الذي استأجرناه في وقت سابق على ضفاف الشاطئ ولديه قارب. بعد الابتعاد عن إزميد بعشرة فراسخ حسبنا الاختباء في الجبال. كنت وماتا شبيهين بمن يتوق للثأر وقد حلت ساعته الآن وطاب أخذه.

بدا البستان الربيعي وقد ازدهرت فيه الأشجار وكأنه محشو بمزق الغيوم. كيف لهذا البستان أن يتهيج بحلول الربيع إذا كانت أختاي تسكبان الدموع فيه؟ كيف يمكن للبلبل أن يغني فيه وكأنه أصم لا يسمع أنينها الحزين؟ كيف لا يحول البرق الخاطف سليم باشا إلى رماد؟ تدمرت شاكياً وأنا في حيرتي وغضبي من عدم اكتراث الطبيعة بأحزاني وسرت حذراً بجوار سور البستان.

فتح لي محمد الباب الحديدي وتسللت إلى الداخل.

- سر بحذاء ذلك الدرب الضيق - همس لي محمد.

سرت حذراً وكأنني في الصيد ٠٠ بهدوء شديد حتى أكاد لا أتنفس تقريباً ٠٠ استرق النظر إلى هنا وهناك من خلال أوراق الأشجار ولاح لي في عمق البستان القصر الأبيض بطوابقه الثلاثة. بدا لي مهجوراً تماماً. فلم أسمع أية أصوات من خلال نوافذه ولم أر أحداً يخرج من أبوابه. واختبأت في حرش صغير. اقتربت منه بخفة. أخذت اسمع إلى يميني ببقية المياه وخريرها، ولم يكن صعباً أن أحزر أنها النافورة اللعينة بالقرب مني. فُتح باب جانبي فجاءت وخرج منه رجلان مسنان. عرفت من ألبسة أحدهما أنه آغا المخصيين. قال الآغا للآخر شيئاً ما، ثم مالبا أن افترقا واختفيا. وسرعان ما ظهر بعد ذلك لفيف من الفتيات. خرجن فرادى ومثنى وثلاث معاً؛ ونزلن الدرج الرخامي تحت خائل القصر الظليلة. كان واضحاً أنهن جواري الباشا. كنّ جميعهن حسناوات فانتات فتيات. والحق أن شحوب وجوههن يذكر بالنباتات التي تنمو في الكهوف. لم أعر على

أختي بين الفتيات وفجأة تحدثت اثنتان بالقرب مني بلغة لم أسمع بها من قبل ٠٠ ثم وقع نظري فجأة على الفتاة الثالثة التي سارت وراءهن ساهمة وحيدة. انطلقاً النور في عيني وسقط قلبي في هاوية جليدية لاقرار لها: إنها فيلديش ٠٠ وناديتها بصوت غريب عني .
- فيلديش !!

بهرها ظهوري المفاجيء حتى جفت الكلمات في حلقها ، نظرت إليّ مذعورة لانا في بحركة فاغرة الفم حتى أقصاه . ذهلت لحظة ثم سألت دون أن ترتسم أية ملامح فرح على وجهها أو تندهش لرؤيتي:
- أهذا أنت يا زاورقان؟

- لانتحافي يا فيلديش . سأنفذك من هنا .

- أنا لا أخاف . . تعايشت منذ زمن بعيد مع كل أنواع الخوف والرعب . إنك على ما يبدو تبحث عن أختيك؟ مازالت جونا ضعيفة . لقد حزت حنجرتها بالزجاج . ولا ترغب كونا بتركها وحيدة هنا . . إننا ضحايا شيطان واحد .
- أوه أيها الرب . . كيف وقعت أنت هنا؟

- أنا هنا من أربع سنوات . الغرسة التي اشتريت وجلبت من وراء البحر لم تغرس حيث تريد أن تنمو .

أمسكتها من كتفيها وقربت وجهها من وجهي وقلت لها بصوت حازم أكيد:
- واجبي أن أحرك وأختي من هنا .

- سأنقل لأختيك أني رأيتك هنا . . أما أن تحررني . . فلا . . فات الألوان .
وألقت برأسها على صدرها باكية قالت: - أنا ميتة ٠٠ تأخرت يا زاورقان . لا تقترب مني .
أنا أسوأ من البرصاء . الوداع يا زاورقان .

وغطت وجهها يديها وانعطفت سائرة بخطى سريعة متوجهة نحو المراتين السائرتين بعيداً . وقفت خائر القوى وكان عظامي كلها طحنت للتلو، ثم تعلقت بغصن شجرة وأنا غائب عن الدنيا كلها . . وبدأ نظري يلتقط من جديد تحركات الخدم ذهاباً وإياباً بين القصر والنافورة . ثم تغلغلت في أجمة الأشجار وشاهدت النافورة في الصحن الحجري الكبير المزخرف . كان قوس قزح يرتسم على خيوط الماء اللامعة . وسط الخدم تحت خيمة من أوراق الشجر سجادة وثيرة سميقة فرشوها بالوسائد ووضعوا في منتصفها كنية

مريخة كبيرة. ثم جاؤوا بعد ذلك بطاولات صغيرة وضعت عليها المأكولات العديدة والأباريق الفضية.

سرعان ماظهر سليم باشا بصحبة خادمين اثنين. عرفته على الفور. فقد رأيته سابقاً في مزرعة شاردین بن علو. إنه قصير القامة ربعة، بدين الجسم خفيف الذقن، حاجباه يظهران بالكاد، جفناه المنتفختان يذكران بالسلاحف. صلته شبيهة باليقطين، وعلى رأسه طربوش تركي أحمر. كان العجوز هرمأ ولكن جسمه متين فعلاً. سار بخطوات قصيرة نشيطة واقترب من الكنية وغرق فيها. وقف اثنان من أخلص الخدم - على ما يبدو - إلى جانبه. فتح أحدهما ورقة ملفوفة وأخذ يقرأ ما فيها للباشا الذي ألقى برأسه إلى ظهر الكنية. كانت إحدى يديه تمسك بسبحة كهروماتية وترنمي باسترخاء على بطنه المنفوخ. . أما الأخرى فتعبث بشعر ذقنه القليل.

كلما أطلت النظر إليه إزداد كرهني له وامتلات نفسي بالحقد الدفين أكثر فأكثر. انتهى الخادم من قراءة الورقة وانحنى احتراماً للباشا. نطق سليم باشا بضع كلمات مشيراً بيده بكسل وملل. لفت الخادم الورقة وتوجه إلى القصر أما الخادم الثاني فحمل الإبريق وملاً كأساً حمله على صينية صغيرة إلى الباشا ولكن الأخير بقي شبه راقد في الكنية يتلذذ بنوم هنيء. وضع الخادم الكأس على الطاولة الصغيرة. ودفعتني عزمي الجامعة إلى أمام. ظهرت بلحظة خاطفة أمام الباشا وكأني برق ينقذح عن سماء صافية. حملت في بعينه وقد صعفه ظهور رجل غريب مسلح ٠٠ أخذ يقفز من كنبه ٠٠ وكسا العرق وجهه الذي امتقع لونه تماماً.

- كيف تجرات أيها اللص على القدوم إلى هنا؟ - صرخ الباشا محاولاً إخفاء الرعب الذي اجتاحه ٠٠ ولكن عبثاً حاول.

- كلا، لست لصاً ٠٠ أنا شقيق الأختين اللتين ألحقت بهما العار. إذا كنت لاترغب في الموت فاطلق أختي باباشا.

تراقصت عيناه الفزعتان ولاحظ أن إحدى يديّ ممسكة بمقبض الخنجر.

- النجدة - زعق الباشا.

صرخ الخادم الذي وقف قرب الباشا وكأنه ضرب على رأسه واندفع نحو أبواب

القصر.

أدركت أن حراس القصر سيظهرون الآن . زحف الباشا على جنبه من الكنبه باتجاه حوض الماء المحيط بالنافورة متراجعا . ولم يسعني القيام بشيء آخر . أمسكت الباشا من حلقه وأسكنت خنجري الففقاسي صدره وغرزته حتى مقبضه . شخر العجوز وحشر بصوته . . ثم قذفت به إلى الماء حيث السمكات الذهبية . . وطافت قطع حمراء أرجوانية على سطح الماء أيضا . لأدري لماذا تذكرت البحر عندها وتلك الأيام السوداء لرحلينا ، وكيف وصلت جثث المهاجرين إلى الشيطان . . أخذت الصبحات تعلو أكثر فأكثر . . ولكن . . بات الأمر سيان عندي . . ملكتني لامبالاة غريبة . . سقط الخنجر من يدي ولم ألتقطه . على الأرجح أنه لم يكن مستحيلاً عليّ أن أتخلص من المطاردين وأهرب بمساعدة عماد . . ولكني لا أدري لأي سبب لم أقدم على شيء من هذا القبيل . . وحين أحاط بي حراس القصر لم أجد أية مقاومة . . وهكذا تحطيت عتبة السجن بيدين مقيدتين وفي ظهري سبطانات البنادق .

اليوم هو الثالث الذي أقوم فيه بتنظيم سجلاتي . أما زاورقان فرقد يرتاح مع أنه لم يكن راغباً في الراحة قبلا . صمت طويلاً جداً ولم يحدثني إلا عن النصف فقط من حياته التي امتدت قرناً من الزمان . بدا لي عدة مرات خلال ذينك الأسبوعين الذين قضيتهما عنده أنه يخاف الموت قبل أن يبوح لي بكل مآلديه وكل ما احتفظت به ذاكرته . حين أفران بذهني بين هذا أو ذاك من الأحداث التاريخية فإنني أجد زاورقان يخلط أحياناً بعض الأشياء بغيرها و يغير مواقعها فيضع القديم منها في موضع ما جاء لاحقاً . . إلا أن ذاكرته كانت مع ذلك كله مدهشة فعلاً وبقي عقله حيّوياً وعنفوانه متقدماً لم يحمده في جسمه الذي يناهز المئة عام . كان رصيده الأخير جسد عجوز محتفظ بقوته العنيفة .

تكوّن لدي شعور بأن أحدا لم يتخط عتبة داره لا خلال ذينك الأسبوعين فحسب بل ومن زمن بعيد . ولعل زاورقان يجهل وجود كلمات جديدة وزمن جديد لكونه وحيداً دائماً . إنه يعيش وكأنه في مقبرة ويسير عبر طرق ماضية وكأنه يتخطى دورياً ضيقة بين القبور . . إنسان حي وسط أموات . .

اتفقنا ان يتابع حديثه غدا منذ الصباح . ونظمت أخيراً ولو بشكل نسبي ماسجلته حتى الآن خاتماً ما كتبت بحديث زاورقان المؤلم من مصير النساء الجلبليات . أخذت راحة يدي تؤلمني من القلم . أجلس وأحرك أصابعي في الهواء بعد أن تحدرت قليلاً . وسرحت

أفكاري بعيدا عن هنا . . إلى الوطن . . إلى أبخازيا . . لأدري كيف ذكّرني حديثه عن الجبلية اليوم بالذات - بمدرستنا الأوردية* المبنية من الحجر . إنها بيضاء اللون بثلاثة طوابق أما في الماضي البعيد - عند ماذهبت إليها في الصف الأول - فكانت صغيرة مبنية من الخشب وتضم غرفتين صغيرتين . . إنها تبدو لي الآن صغيرة مثلما كنّا صغيرين نحن تلاميذها في ذلك الوقت ثلاثين صبياً وصبية واحدة من قريتنا .

يتعلم في المدرسة اليوم خمسمائة تلميذ . أتذكر كاريه بارتشان مديرها الحالي الذي كان وقتها تلميذاً في الصف الأول مثلي . ذكر لي في العام الماضي هذا الرقم الذي يعتز به جداً . اجتمعنا فيها في السنة الماضية للاحتفال بالذكرى الخامسة عشر لتخرجنا . . لم يحضر الجميع بالطبع ، بل جاء كثير منهم : مهندسان زراعيان . ثلاثة معلمين ، عامل خبير من عمال الفحم في تكافارثيلي وأنا ، المختص بعلم اللغات . أشهر الدارسين في دفعتنا هي نناشا لاوبا التي أصبحت أول امرأة طيارة في أبخازيا . تطلب الأمر وجود طبع صارم لديها ، خصوصاً وأن والدها إسلام كان لسوء حظها من أكثر المؤمنين المغرقين في الولاء للقديسة كياتش في قريتنا . كانت نناشا صانعة معجزات مثل القديسة بيتا الأوبخية تقريباً ، وقد أكد ذلك أبوها إسلام الذي شاهد بعينه الاثنتين في بضعة ليالٍ وخصوصاً في الأوقات التاريخية العصية كيف كانت تحلق في الجو ثم تعود إلى مكانها . ولكن الأمر يختلف : أن تكون هناك قديسة طيارة أو ابنة طيارة . كادوا يطردونها من نادي الطيران لأنها طارت في وضوح النهار في أحد الأيام على طائرتها (أو - ٢) خلال اجتماع أهالي القرية . ثم هبطت بالطائرة في مرجنا الكبير في طرف القرية . تحدثت الألسن الشريرة بعد ذلك ولوقت طويل بأن إسلام استقبل ابنته على أنها القديسة كياتش العائدة من إحدى تحليقاتها القديسة . على الأرجح أن التهمة التي وجهت للعجوز كانت كاذبة ملفقة ، ولكن الأورديين يحبون المرح كثيرا ، وخصوصاً حين يأتي المزاح سهلاً خفيفاً على اللسان . باتوا بعد تلك الحادثة يهازحون العجوز إسلام دائماً حين يشاهدون طائرة في السماء ، فيقولون له «أسرع أسرع إلى هنا .. أنظر القديسة تطير ! ..» .

(*) أوردية : من بلدة أورد في أبخازيا .

أين نتاشا الآن يا ترى؟ لم تحب من لينتغراد على رسالتي السابقة التي أرسلتها لها ، فقد كانت في إحدى تجمعات الطيارين في مكان لا أعرفه كما أني لا أستطيع الكتابة لها من هنا أيضاً. لقد ألقى بي قدرتي بعيداً جداً عن وطني وأنا أبحث في اللغة الأوبوخية أجدني بعيداً لدرجة أن الرعب يعتريني أحيانا لهذا البعد الشاسع .

عبر طريق الصحراء الصفراء

سارت فافلتنا التي ضمت ثلاثين جملاً وعشرين حصاناً عبر الصحراء . سرنا مع الرنين الكثيب للأجراس الصغيرة . بلغ عدد مرافقي القافلة خمسين شخصاً . مرّ شهر بحاله ونحن في الطريق بعد خروجنا من مدينة القاهرة الصاخبة المكتظة بالناس . هكذا أرى الآن باداد شاراخ . . تقدمنا جميعاً اسماعيل صباح ممتطياً حصاناً عربياً أسود اللون ، مرتدياً قلنسوة بيضاء . . كان نحيف الجسم ، خفيف الحركة ، جلدأ صبوراً . أصله من إحدى قبائل البدو لذا فهو يشعر بين الكثبان الرملية المخيفة وكأنه ملكها الوحيد . تبعه حارساه الشخصيان على جواديهما الأشهبين . كانا يفهما صاحبهما من غمزة طفيفة بطرف عينه أو كلمة صغيرة من طرف لسانه . إذا أشار لها بالموت ماتا دون تردد . أفراد القافلة جماعة غير متجانسة ولكن أمر اسماعيل صباح يعتبر دائماً قانوناً يسري على الجميع . . . إذا خالفته قُضي عليك .

نشأ اسماعيل صباح فتى فقيراً لا يملك قرشاً صديقاً يقيم به أوده . ثم التحق ذات يوم بإحدى القوافل فتعلقت مشاعره عندها إلى الأبد بحرقه التجارة المتنقلة هذه ، والمليئة بالأخطار . أمسى السراب الوحيد الذي يترأى له منذ الطفولة في عرينه الرمي هو المال . وحقق الفتى المتوحش حلمه الأريب فأصبح باشا قافلة . إنه بالنسبة لنا في هذه الصحراء الموحشة إله وسلطان . وكما لكل شخص حاكم أو سلطان فإن لإسماعيل صباح سلطانه

أيضاً. إنه كريم أفندي من القاهرة، وهو تاجر عالي المقام واسع الثروة والشهرة لا يعف عن أية صفقة مشبوهة. كان اسماعيل صباح قد بلغ الصنف الثاني من حياته حين التقيت به أول مرة. إنه طويل القامة أسمر البشرة، ذو شارب أسود لامع وعينين خصراوين كعيني النمر. . . قلت إن عينيه خضراوان ولكنها ليستا كذلك تماماً. بل إن لها خاصية غريبة وهي أن لونها يتغير عدة مرات في اليوم. لم أسمع زعيم القافلة هذا يضحك بصفاة قلب في يوم من الأيام. فحين يحدث أن يضحك يفتّر عن أسنان صفراء اللون، ويطلق صوتاً شبيهاً بزئير وحش بينما يفتقر وجهه إلى أوهي ملامح السرور.

قبل قديماً ياداد شاراخ: «حين ينتهي الجلد يقترب القبر». خصني القدر - لسوء حظي - بجلد عظيم ولهذا مازلت حياً حتى الآن. أمسيت أنا - المولود في الجبال حيث تعيش إلى الأبد نباتات خضراء غزيرة وكثيرة، أنا - المخضرم والمصقول كحجر الصوان - أمسيت في الصحراء العارية كباطن فخذ البغل، كالحيوان العقيم. أنت لاتلحق في تسجيل ما أقول ياعزيزي شاراخ. سأحدث بسرعة أقل. . ولكن لعلك مللت ثرثرتي هذه؟ إذا كان الأمر غير ذلك فليمض قلمك في إثر لساني. . .

هناك في نهاية رأس كارابورون* سجن قديم كانوا يشنفون فيه القراصنة في الماضي. انتظرت للشهر الخامس تنفيذ الحكم بالإعدام حسب الشريعة الإسلامية. هذا يعني أنني كنت أموت كل يوم. «لو ينتهي كل شيء بسرعة». هذا ما باتت تنشده نفسي المعدّبة. لم أشعر بالندم على قتل سليم باشا أبداً. . لافي ذلك الوقت وأنا في الزنزانة، ولا بعد ذلك خلال حياتي الطويلة كلها. . أمسيت مقيداً بالأصفاد ومعكوماً بالموت. أنتقي أحداث السنوات وكأنها سحبة سوداء في يدي. لم أفكر أبداً بالرب بل قلقت كل الوقت على الأختين وفيلديش والوالد والوالدة. . هل هم أحياء أم لا؟. قلقت على مصير مانا ومحمد. ماذا ألمّ بهما ياترى؟. جدران السجون خرساء؛ ولكن صحب البحر يصلني بخفوت. . آه لو أعرف لغة الأمواج لسألتهما الجواب عما يجوس في خاطري.

ذات يوم، فجأة في منتصف الليل وغيوم أحلامي تحملني إلى أرض الوطن - أوبخيا. . فتح باب الزنزانة وأصدر صريراً ثاقباً. وقف السجنان في العتية بصحبة بحار

(*) كارابورون : الرأس الأسود في تركيا .

لأعرفه . حل كل منها شمعة تراقصت شعلتها في الظلام .

- أنظر، إنه جاموس وليس إنساناً . لو أطعمته كما يجب لشد فداناً .

- هيا دُرْ . إطو يدك، إحن رقبتك - أخذ البحار يتلمسني .

«يتفكرون . . هل تتحمل الأنشطة أم لا؟» - فكرت بذلك وقد سكن الصقيع

قلبي . ظهر حارس مسلح فأمر باقتضاب :

- اخرج .

أمسيت خارج عتبة السجن وقيودي صاخبة صاخبة وأنا مدعن لهم . هطل في الفناء

مطر غزير وسبحت الغيوم سريعاً فوق البحر .

لاحظت على ضوء البرق من الجرف الصخري الذي أطللنا منه سفينة شراعية في

الأسفل قرب الشاطئ . سرعان ما أمسيت في سجنها . واتضح أن البحار الذي جسني في

الزنزانة هو قبطان السفينة . وأدركت على الفور أن مراقب السجن باعني له كدابة . . فهاذا

يعني أن تلغي وجود المحكوم عليه بالموت وكأنه شقن فعلياً . أما الجثة فرميت إلى البحر

مثلاً . حدث هذا كثيراً في السابق .

بدا الأمر وكأن عليّ أن أفرح لانعطاف الأحداث المفاجيء هذا . فقد نجوت من

الموت . إلا أن ما كان بانتظاري أسوأ . إنه العبودية . ليس العبد إنساناً ويجوز التصرف به

كما يحظر على بال السيد . إرادة الأخير قانون نافذ وطلما لديك قوة وأنتك تعمل كالنور

المخصي فإنهم يطعمونك . أما حين تفقد قواك فسيرمونك بالرصاص . وليس لديك من

تشكو أمرك إليه .

أبحرت سفينة العبيد الشراعية بحذر شديد قاصدة القاهرة . اشتراي هناك من

قبطان السفينة التاجر كريم أفندي . رأيت جالساً على أريكة وثيرة في شرفة بيته خارج

المدينة . . رماني بنظرة ثاقبة وقال بالتركية :

- ماضيك معروف تماماً بالنسبة لي . سمعت أن قتل الإنسان بالنسبة لك مثل ذبح

الديك، وعلى ما يبدو أن الباشا العثماني ضحيتك الأولى . . لأسألك كم من الناس

أرسلت إلى الدنيا الآخرة . فليبق ذلك على ذمتك وضميرك . أنت مولود في الففقااس ،

أليس كذلك؟

أجبت بهزة من رأسي موافقاً .

- مصر تعرف الأبخاز. كانت اثنتا عشرة أبخازية في الماضي البعيد زوجات أبناء الذوات في القاهرة ويمكن القول إنهن حكمن مصر. حمل الأبخاز نسبة أباطة هنا؛ ويعيش كثيرون من هذه السلالة برفاه ونعيم حتى الآن. . وابتسم التاجر بدهاء - بما أن الفتيات الأبخازيات ملكن خبرة كبيرة بشؤون الدولة وتسييرها فمن الواجب أن يكون بوسع ابن مولتهن الخروج من البحر والسكك في فمه. إنك محظوظ أيها الشاب. كانوا سيقطعون لك رأسك. ولكنه لا يزال في مكانه. . واشترته أنا. أما إذا عصيتني. . فليس هذا من مصلحتك أبداً.

وسلمني لاسماعيل صباح لأتحول إلى مرافق قافلة.

سميت منذ ذلك الوقت «أباطة» بالعربية أي من الأبخاز. وحقاً فانا أبخازي من جهة الأم. كلفت أول الأمر بعلف الجمال وسقيها وتحميل الأحمال عليها وإنزالها عن ظهورها. اعتاد الأويخ التعامل مع الخيول ولم أشاهد منذ ولادتي جملاً. والحق أني إذ بدأت العمل الجديد أخذت أنظر بنفور أول الأمر إلى تلك المخلوقات الخدباء المشوهة ولكي اعتدت عليها إثر ذلك وأصبحت أكن لها مشاعر الود والإحترام فعلاً لأنها حيوانات قنوعة ذكية جلدة. تبدو كأنها مغطاة باللباد. . لقد أنجذتنا كثيراً خلال الأعاصير الرملية بل وأنقذتنا من الهلاك أكثر من مرة.

يا الهي. . كيف يصبح الإنسان ضعيف الحيلة، صغيراً ضئيلاً وسط الرمال الهادئة العقيمة، السريعة الإنهيار. تنفّض الريح الشاردة كالطير الجارح علينا مثيرة أمواجاً رملية قاطعة كحد السيف مطلقاً صغيراً ثاقباً مرعباً. تهباً لي أن أقطع الصحراء مرات لاتعد ولاتحصى خلال السنوات الشباني التي قضيتها هناك. إلتهمت الصحراء على مرأى مني عدداً لاحصر له من النفوس. يدفن الإنسان هنا فتختفي تبة القبر بعد ساعة واحدة، تُزال وتُشر في كافة الأرجاء. يفتح الشرق شذقيه المتوهجين بالنار منذ الصباح ويستمر القيقظ الشديد حتى الظلام الدامس، وهكذا لا يخاف من يختبر هذا القيقظ جهنم الحمراء ذاتها. يُحسب هناك حساب كل قطرة من الماء المحفوظ عادة في أكياس مصنوعة من جلد الثور. أما في الليل فيأكل الصقيع عظامنا أكلاً. ولكن يستحيل إشعال النار فليس هناك خشب أو حطب.

كان اسماعيل صباح يعرف كراحة يده سهل الموت حيث الأفاعي ذات الأجراس

والتي تغير جلودها. لقد شق طريقه مرات عديدة من القاهرة إلى أصقاع افريقية عديدة عبر ركاب السرمال الذهبية. هل تريد ياداد شاراخ أن تعرف ماذا حوت الرزم من بضائع؟ . حرير وأواني وسجاجيد صلاة وغيرها من المصنوعات التي تفيد ولا تنضر. . . ولكن هذا على السطح، للمظهر فقط. . أما البضائع الرئيسية المخبأة في أسفل الرزم أو في الأكياس على الاكتشاف فهي الأفيون والبارود. كان القانون يحظر التجارة بمثل هذه الأشياء. ولكن هذا لم يعق كريم أفندي أو اسماعيل صباح في شيء. فإن صُبطا متلبسين بالجرم. . دفعوا فدية. أخبرتك ياداد شاراخ أن لون عيني زعيم القافلة يتغير أكثر من مرة في اليوم الواحد، إلا أنه نفسه يتغير أيضاً، إما إلى حمامة وديعة تهدل فتأمن على دسها في عيبك أو إلى نمر أرقط مسعور لا يؤمن جانبه. . فلكني يشتري بأرخص الأسعار الألباس الثمين أو الذهب أو العنبر يسمي مستعداً لأن يخرج بطنه من جوفه. ويبدو اللف وأرق مشتر في كل افريقيا.

- سادفع لك ثمناً جيداً باسلطاني. حسناً لتنتقل أمراضك كلها إلى جسدي إذا كنت تعتقد أني لا أعطيك الثمن الحقيقي لبضاعتك - هكذا يحاول استمالة البائع العنيد أحياناً.

وحين يتهيأ له اقتناء المجوهرات بسعر مريح يشعر بسعادة هائلة وكأن كل أقربانه الميتين بعثوا من جديد. أما في حالة الغضب فيتحول إلى وحش كاسر، خصوصاً إذا اتضح أن المتسبب شخص من مرتبة أدنى منه. ذات يوم. . ضاع كيس جلدي فيه مغلاة قهوة مصنوعة من الفضة. . اشبه اسماعيل بأحد مرافقي القافلة.

- أين الكيس؟

- ليس بوسعي أن أعرف ذلك يامولاي.

- بعتة أيها الكلب.

وأخذنا ننوسل إلى باشا القافلة المسعور ألا يعاقب البريء. ركعنا أمامه جميعاً. .

- يمكن أن نزل أقدام الكثيرين بروث جمل واحد - أجاب ساخطاً.

ثم انتزع سكينه التركي من حزامه وقذف به برمية سديدة إلى قلب المتهم مباشرة. . . صدح شخير الموت، وسقط العبد المسكين مسطوحاً عند قدمي القاتل الذي

واصل وهو جالس على لبادته قضم فخذ خروف بيده . . . أكل وتلمظ منشرح الصدر . .
لمعت شفثاه وضافت عيناه متحولتين من أرجوانيتين إلى صفراوين .
أنهى اسماعيل صباح قرظ العظام دون أي استعجال، ثم نهض إثر ذلك فانتزع
السكين من صدر القتيل وأمر بإنهاض الجمل .
- إلى المسير .

سرعان ما ظهرت صقور المقابر في السماء .

هل أتيج لك أيها العزيز شاراخ أن ترى ناب فيل مما تدور حوله الأساطير؟ لو أن
هذا الناب يشفي من الأمراض مثلاً لما حَزَّ في نفسي أبداً قطع الصحراء من أجله عبر
طريق لا تجد فيه ظلاً تَدَسُّ فيه رأسك في القَيْظِ القاتل . إلا أن أنياب الفيل اللعينة تلك
تستخدم لتزيين حياة الناس الأثرياء فقط فهي قاسية متينة لا يخترقها الرصاص ولكنها
تخضع بسهولة للشحذ والنشر .

الثراء يولد النزوات . أحجار الشطرنج التي أحب كريم أفندي العبت بها وتحريكها
على رقعة خشب الصندال الأسود والأبيض مصنوعة من ناب الفيل وكذلك قبضة عصاه
ومقبض النرجيلة . أخص البندقية مُطَعَّم بالناب أيضاً . عُرف كريم أفندي بإدراكه لكنه
الأشياء الثمينة . هذا يبرر رغبته في تطعيم الطاولة الكبيرة في غرفة الضيوف والكنبات
حول الطاولة بناب الفيل طبعاً . . ولم لا ؟ الديك لدى الغني بيض . سمعت أن في
مكتب كريم أفندي شمال امرأة عارية بلون الحليب من ناب فيل ضخم شحذ ونجّر
طويلاً . . وأن كريم أفندي اعتاد النظر إليها والتأوه متذكراً شبابه . أما زوجة كريم أفندي
فقررت أن تصنع علة البودرة وكل علب لآلئها من ناب الفيل حتماً .

وهكذا . . نعب الصحراء الصفراء كالحمي ، ونكاد نفق من القَيْظِ الشديد
والعطش القاتل والبعوض ثم نتوغل في الغابات الكثيفة التي لا يمكن شق طريق فيها إلا
بشق النفس وحيث لاهواء فيها للتنفس لنصل أخيراً إلى ضفاف الأنهار المليئة بالتماسيح
ونشترى بثمان بخص أنياب الفيل من ذوي البشرة السوداء .

ولكنّ الألماس يثمان أكثر من أي شيء آخر، فمنه تصنع اللائء وهي أغل من
الذهب . بات اسماعيل صباح مستعداً لأن يجولنا نحن مرافقي القافلة بجملنا كلها إلى
حفنة غبار من أجل الحصول على الألماس من الأفارقة . وأضحى مستعداً لأن يُخرج أمعاه

من جوفه أربعين مرة . . فلدى الحسة والوضاعة حاسة شم حادة يندر وجودها لدى الكلاب . جاء بنا نحن الغرباء من وراء البحار والجبال إلى مناطق نائية مجهولة تخفي في أعماقها ألماسها الدفين . اعتاد اسماعيل صباح المباغتة بجيشه وخموره ورجال الدين المأجورين له . لقد رأيت بأمر عيني ياعزيزي شاراخ كيف يتحول السكان السود الأصليون على يديه إلى عبيد ويعملون له في متاجم الألماس . ليس هناك أسوأ من الأشغال الشاقة . . بعد انتهاء يوم العمل يفتش المراقبون كافة العبيد وينظرون في آذانهم وفتحات أنوفهم وأفواههم . . لاقدّر الله أن يخفي أحد منهم الحجر الثمين . . فلو عثروا على شيء لما بقيت هناك فرصة لتجنب الموت . ولكن قبائل السود تشبّع أحياناً بروح التمرد والعصيان فتحيل بأقواسها النشابية حياة المستعبدين إلى جحيم على الرغم من وجود البنادق لدى أولاء . . تهباً لي أن أرى كيف هبّت رياح الرعب فأطاحت بالخذ الفلينية عن رؤوس السادة الغزاة .

إذا بقي ضمير الإنسان حياً صافياً بينما تزداد المصائب على كاهله فإن من حقه أن يقرر أنه يعاني مايعانيه لقاء آثام غيره .

كان عمري أيها العزيز شاراخ أقل بقليل من عمرك الحالي . إلا أن فكرة كون السماء تقتص مني على آثام الأجداد أخذت تملكني عندها أكثر فأكثر . الحقيقة أني لم أر كيف أثاروا غضب السماء في حقيقة الأمر ، أما كوني أدفع ثمن ذنوبهم هم فهذا مالا أشك فيه .

أنجو فجأة من تنفيذ الحكم بالموت . . أخرج حياً من السجن . . لعلها رافة القدر أخبراً؟ كلا ليس الأمر هكذا أبداً .

أذكر أني حدثتك كيف تبينا حفيد العمّة حميدة التي أزهدت روحها بيدها رامية بنفسها إلى النهر ، هكذا إذا . . اقتضت إرادة شاردن بن علو أن يرافق ذلك الفتى المضحك وريثه إلى استانبول ، فالطفلان متقاربان في السن . أنهى طاهر خلال غيابي في إفريقيا دراسته وبقي في بيت صهر السلطان ، وتوصل بالتالي إلى معرفة أسرار كثيرة . علمت منه مثلاً أن رئيس الشرطة عرض تقريره على الوزير العظيم حول موت الوالي سليم باشا وهنا أفصح العجوز الماكر شاردن بن علو لأول مرة عمّا دار طويلاً في ذهنه :
- ولكن هذا الشاب الأويخي قدّم لنا خدمة كبيرة دون أن يدري .

ولم يتلکأ في إخبار السلطان بكل ما حدث لكونه علماً علم اليقين بأن هذا الخبر السيء سيفرح قلبه . ولم يحطىء في ذلك . أما تفسير الأمر فبسيط . لقد ارتبط سليم باشا بمؤامرة «العشائين الجدد» الطامعين إلى تغيير الحكم . ولم يتوفر لدى السلطان أية أدلة لاتهام سليم باشا بالخيانة وإرساله بالتالي إلى النطع . لم يثق السلطان بحاكم إزميد هذا بل حلم دائماً بالتخلص منه . . وهنا أسكنت خنجري القفقاسي في صدر الباشا المنقوم عليه . لعل عبد العزيز أطال عمداً في التصديق على الحكم على الموت وكأنه يحذر بذلك كل المتأمرين بقوله : «من يقف ضدي بمسي خارج القانون ولاقتص من قنلة أعدائي بالصرامة اللازمة» .

اعتبر طاهر أن لشاردين ضلعاً في الصفقة التي تمت بين مراقب السجن وقبطان سفينة الرقيق . فلم يعف عن استشاري وما فعلت ليخبر - عرضاً - عظمته ، حاكم تركيا : - ولكن ذلك الأوبخي الشاطر الذي قتل الباشا البانس هو ابن أخي بالرضاعة . لقد انتقم المسكين لشرف أخته المدنس .

لم يقل شاردين بن علو للسلطان أنه وجه يدي بنفسه ولكن كلماته التي اختارها لم تنف احتمال ذلك .

بلغ رنين أجراس قافلتنا أصقاع عديدة في افريقيا التي تعيش فيها قبائل متنوعة . واتفق في إحدى المرات خلال رحيل دام أياماً تحت سماء ملتهبة كشدقي ذئب مسعور أن التقينا بأناس من قبيلة إماخور*) كانوا طوال القامة ، عراض الأكتاف ، نحال الخصر . تسليح الرجال بالخناجر على أحزمتهم أما نساء القبيلة فامتزن بوجوههن الشبيهة بالزيتون وعيونهن الجميلة الجذابة . ولكنهن كنّ متحفظات محصنات بغيرة وحرص شديدتين .

سمعت أصوات آلة الأمزاده*) التي تذكر بألة الابخيارتسا وتذكرت القفقاس بشكل عفوي ، تذكرت رجاله المحاربين ونساءه الرائعات . قبيلة عن قبيلة تختلف ؛ ولكن الناس في كل القبائل يكون ويضحكون بصورة متشابهة . بات قلبي يذوب كقلب فلاح أصيل

(*) إماخور : تواريفي . . يعتبرون من أصل قفقاسي .

(*) (*) الأمزادة : آلة موسيقية قديمة منتشرة في أفريقيا .

حين ارى كيف يحلب المغاربة أو البرابرة أبقارهم ، وكيف تنهمر خيوط الحليب في الأوعية
اليقطينية الكبيرة. تذكرت أوعيتنا الأوبيخية الخشبية. تنسّمت رائحة الحليب الطازج
الفواحة بنكهته الأليفة. . وكذلك الحظيرة. . أما حوار البقر وصياح الديكة وتطاول الماعز
على الأغصان لانتهاج الأوراق فكان شبيهاً أيضاً بما عشناه في الففاس. . وذكرني قرع
الطبول في الأعراس بطبولنا الجبلية. ولاحظت أيضاً أن بعض القبائل تصلي للرب
وأخرى للمسيح وثالثة من الوثنيين أو من يبدون ولاءهم للشمس.

. . رأيت على امتداد طريق القافلة الكثير من العظام البشرية وقد بقي بعضها في
حلقات السلاسل والقيود التي أمست واسعة بعد أن ذوى اللحم عن العظام. وشاهدت
الرفات الأبيض للعبيد السود منثوراً على الجانيين. ولكن ألم أكن عبداً أيضاً. . بلى ،
كنت عبداً أبيض وبإمكان إسماعيل صباح قتلي هنا كالكلب ولا من مدافع عني أو من
يكييني بعد موتي.

بدا لي أن لانهية لخطوات الجمال المحملة السربية وأصوات الأجراس الكثية. .
يحدث أن تتضارب دروب القافلة أو تلتحم ثم تفرق. . وتمر الأحداث بهدوء كالكتبان
الرملية أو تهبج كزوابع الأعاصير الصفراء.

أذكر أننا توقفنا ذات مرة للمبيت. أنزلنا الأحمال عن الجمال وتناولنا عشاء خفيفاً
وتناولنا الحراسة الليلية كي لا ينقض على القافلة - لاقدر الله - هوة الريح السريع.

وظهرت في ذلك الوقت أيضاً قافلة من العبيد السود المربوطين بحبال من القنب.
توقفت القافلة بالقرب منا واتضح أن رئيس الحراس من المعارف القدامى لاسماعيل
صباح. كانت تلك الليلة بلا قمر وأمست السماء زرقاء مذهمة تميل إلى السواد بأركان
عمرة لاتبشر بالخير. طلب رئيس الحراس من باشا قافلتنا أداء خدمة له - لقاء أجر من
المال بالطبع - وهي أن يوافق على إعطائه بعض الرجال من مرافقي قافلتنا لكي يقوي
حراسته على العبيد السود لأن أبناء جلدتهم يسعون دائماً لتحريرهم. حين سمع اسماعيل
صباح بالمسال لم يتردد طويلاً بل سرعان ما فرز ستة أشخاص كنت بينهم ووضعنا تحت
تصرف رئيس الحراس. إنقسمنا إلى ثلاث ورديات. أمست وزميلي في الوردية الثانية أما
الوردية الثالثة فجاءت من نصيب اثنين من زلم اسماعيل صباح المتزلفين الواشين بمرافقي

القافلة الآخرين . حلمت منذ بدأنا الحراسة بشيء واحد فقط : الانتهاء من نوبة الحراسة والنوم ولو لوقت قليل . وسرعان ما هبَّت الريح وانبثق القمر بدرأً من بين الغيوم بلونه البرونزي . بدأ العبيد الراقدون على الرمال شبيهين ببقايا أعمدة من الرخام الأسود لحرم قديم مجهول . والتفت عيناى فجأة بعيني واحد منهم . أخذتا تلسعاني بسياط الكراهية منذ اللحظة الأولى ثم سألتاني دون مواردية :

- هل لديك أب وأم؟

- نعم . - أجابت نظراتي دون أن أقوى على إبعاد نظري عنه .

- وأخ؟

- نعم وأخ .

- أين هم؟ سألت عيناه الغائرتان في الموت من الكآبة والحزن .

- لا أدري ! لقد عبث بنا القدر على هواه . - اعترفت نظراتي الحزينة .

- لعل أقرباؤك قد انساقوا عبيداً مثلنا ونصَّب أخي حارساً عليهم - هكذا قالت لي

عيناه مؤكدتين جازمتين وكأنهما كهنة السحر الأسود .

بالتلك الخاطرة . . أطرقت برهة . إلا أن قوة خفية جذبت عينيّ إليّ عينيهِ الثابنتين

الناطقتين بالكثير .

- ثق - صرختا بي - أن أخي لو أرسل لحراسة ذويك لساعدهم على الهرب فهو

يعرف قيمة الحرية كما يجب ويحترم قانون وطنه .

قاومتُ نظرتيه ولكنها انصبت عليّ عنيدة كالقضاء والقدر وأخاذه كالحرية الحقّة .

- لا تنطلب شيئاً . أنا عبدٌ مثلك وليس بوسعي مساعدتك . وأشحت بوجهي عنه

مدارياً خجلي .

ولكن ما أن أدت وجهي حتى سمعت أصوات أبي وأمي وأخي وأختي يَلحون عليّ

وساعد هذا الشاب . ساعده ولكن لعل ضميري هو الذي يتحدث بأصواتهم؟ وأضاء

طرف السماء . سرعان ماسياتي دور الوردية الثالثة . وحزمت أمري : وقع سكينى التركي

بهدوء شديد قرب الشاب المربوط بحبل واحد مع أبناء عشيرته . وتبدلت وزميليّ بأخرين .

عدنا إلى جمالنا ورقدنا على بساط اللبّاد . نام رقيقى كالقتيل أما أنا فبت أنسقب

ماسيحدث؟ سمعنا قبيل الفجر صوت إطلاق رصاص وصيحات الزنوج القتالية . وتوارى

العبيد كلهم في ضباب رمادي أزرق . وتعدد على الرمال ثلاثة حراس في برك دمانهم .
اثان من قافلتنا وثالث من مرتزقة ناجر الرقيق .

من لم يتح له في حياته بابني أن يلتقي في طريقه إنساناً يذكر مطلعته بسماة إنسان
طيب من المعارف؟ أو يلحظ منطقة يذكره مظهرها بركن من الأرض القريبة على
القلب؟ ..

أمست نجوم الصليب الكبير معلقة فوق الرأس حين خلّفنا وراءنا الصحراء عليها
لعنة الرب . وحددنا طريق قافلتنا بأعماة الجنوب . سرعان ما استيقظت الشمس وبرزغت
بطء خلف ظهورنا . ثم ما لبثت أن رأيت من خلال أشعتها الضئيلة . . الجبال . .
وملك عليّ ذلك المشهد أنفاسي . فلم يتعباً لي منذ أن غادرت بلاد الأوبيخ أن أرى جبالا
حقيقية كهذه . فرحت بها وكأني التقيت قريباً عزيزاً . بدت سفوح الجبال خضراء سندسية
وقممها بيضاء كالثلج . أبغظة هذه أم حلم؟! تخيلت أني أفق على الشاطئء الشمالي
للبحر الأسود، أمتع النظر بجبال القفقاس وكأني في حلم جميل . . وأضع سلاحي على
ساعديّ الإثني وأنحني على ركبتيّ . . أعب من ماء النبع ثم أنطلق عبر درب الصيادين
الضيق كحد السيف، وأجتاز أجمة شجيرات العليق والعضاة والكلبياس الذي يشمخ
عالياً إلى السماء . . الطيور تغني الأرجاء المحيطة . . آثار الخنازير والماعز البري تبدو
واضحة للعين الشغوف بالصيد . . أجلس على جلمود مكسو بالحشيش المخملي
الناعم . . أصيح السمع بأذنيّ الاثنتين وأسترق النظر من خلال أوراق الشجر التي تعبت
بها الريح . . أوه . . يا للحفظ!!! تيس جبلي يقف على جرف صخري مغطى بالثلج . .
اه . . لو أطلب من اسماعيل صباح أن يسمح لي بالصيد في الجبال . ولكن عبثاً
ذلك . . فأنا أعرف مسبقاً بأنه لن يسمح لي بهذا . . والأنكى أنه سيتترع مني السلاح . .
اندفعت قبل أن يجف الندى هائماً على وجهي . . قفزت من حجر لآخر . . تسلقت الجبل
الأريب وسلاحي بيدي لا آبه لشيء على الإطلاق . . حامت النسور في العلاء . . وآه لو
أسمو إلى عليائها . . فقد يقع نظري على قمم الجبال الأوبيخية الشاهقة التي أحمل
صورتها في صدري وقلبي . . هكذا فكرت وتمنيت . .

انساب النهر صاحباً صافراً أمواجه المتلاحقة ويان غزالان يقفان على طرف منحدر
جبلي حاد . . لم يشعر بالخطر المحقق بهما؛ هبوب الريح من جهتها إليّ . . وملكني ولع

الصيد تماماً . التصفت بالصخرة القريبة واعتمدت ركبتي اليمنى للإرتكاز وسددت على الهدف . . كرر صدى الجبال طلقتي ثلاث مرات . . ارتعشت الجبال وكأنها تسمع صوت إطلاق الرصاص للمرة الأولى . . وهوى الغزال المصاب متدحرجاً إلى الأسفل مرتطماً بصخور المنحدر ليصل إلى ضفة النهر . أما الغزال الثاني فاختفى في طيات السماء حاملاً في أذنيه صدى دوي الطلقة . أسرع بالنزول إلى الأسفل لأسلخ الغنيمة ولكن عيني وقعتا على شاب أسود البشرة يقف مسبل القوس . هتفت إليه محيياً بوداً ومحبة . وتبين لي على الفور أن هذا الصياد المحلي سدّد على الغزال في نفس الوقت الذي سددت أنا فيه ، إلا أن رصاصي سبقت سهمه . جلست القرفصاء عند الغنيمة التي أرسلها إلي رب الحيوانات وقطعت رأسها .

حين يراقب شخص شخصاً آخر باهتمام - يلتفت الأخير حتماً صوبه . هكذا حدث معي أيضاً . التفت ورأيت الأفريقي محققاً بي مراقباً كل الوقت .

- تعال إلى هنا . ناديت وأشرت له بيدي .

سرعان ما اقترب مني ونطق بكلام وذي بلغته . . على الأغلب أنه قال «أهنؤك بالغنيمة» . ثم أخرج سكينه وساعدني في سلخ الغزال . قسمت الغزال المسلوخ إلى قسمين مراعاةً مني لقواعد الصيد عند الأجداد .

- خذ حصتك - ووضعت نصف الغنيمة أمامه .

أدرك مارمت إليه وقبل مني الهدية منحنيماً لي مبتسماً بإفراجة لطيفة عن أسنانه البيضاء . . ثم نزع عن رقبته القوية طوقاً من العقيق والبسه رقبتي .

- نغوغي . نغوغي - قال لي مشيراً بسبابته إلى صدره . وكررت حركته قائلاً :
- زاورقان . زاورقان .

حتى الشاب ذو البشرة السوداء رأسه فرحاً وكرر:

- زاورقان .

أوقد نغوغي النار في حزمة من الأعشاب في ومضة عين ثم اقتطع من حصته قطعتين من اللحم وملحهما من الوجهين من كيس صغير في حزامه . ثم نجر غصناً من شجرة عطرة الرائحة استخدمه كالسيخ ودفع باللحم إلى النار . ثم قدم لي القطعة الكبرى بعد أن شواها بشكل جيد . أكلنا اللحم وتبادلنا المديح بالكلمات والحركات

الإيائية . لم يرفع نغومي نظره عن بندقيتي خلال حديثنا كله . ناولتها له فلقمها وأطلق رصاصة في الهواء . . رقص نغومي من تأثره وانفعاله . فعلى ما يبدو أنه لم يمسك سلاحاً كهذا من قبل . ولم يساورني أي شك في أنه يرغب في امتلاكه . . فمن يدري؟ قد يلزمه للصيد أو الدفاع عن النفس أو النضال في سبيل وطنه؟ . أمسى لزاماً علي أن أعود توأ . قاذبي نغومي عبر أقصر الطرق إلى الوادي . . وعند وداعنا . . نزعنا عن كتفي بندقيتي وقدمتها له مع جراب الطلقات الذي كنت أحمله .

- خذ . . هذه للذكرى من مهاجر فقد وطنه . فليخدمك هذا السلاح جيداً - قلت له ذلك بالأوبخية .

لم يفهم كلماتي بالطبع ولكني أيقنت أن مغزاها وصل إليه . . تعانقنا . . ثم بعد أن قطعت مسافة غير قصيرة التفت إلي . . بدا لي كتمثال مصقول يلمع تحت ضوء الشمس . . ويرفع بندقيته فوق رأسه وينحني لي مرة تلو أخرى . .

لعلك اندهشت لتصرفي هذا ياداد؟ . ولكن السبب في ذلك التصرف هو الجبال . . لقد أيقظت روح التمرد عندي ودفعتني إلى ذلك الكرم المحنون وأنستي أي أنا أيضاً عبد .

عدت إلى محط القافلة وأنزلت اللحم الطازج عن كتفي . انفرجت أسارير الرفاق . . كيف لا وهم يتناولون طيلة شهرين لحماً مقدداً وخبزاً بابساً وموزاً ميساً . إلا أن عينيّ اسماعيل صباح تلوتنا على الفور بلون أرجواني . اعتبر ذلك مؤشراً سيئاً دائماً . فغر شفثيه الدقيقتين مكشراً بوجهي وقال :

- أين بندقيتك وجراب الطلقات؟

- . . أثناء عودتي من الصيد هجم عليّ اللصوص وانتزعوها مني بالقوة - كذبت بفشل فاضح .

- ولماذا لم تطلق النار عليهم بالمثل؟

- عددهم كبير وهم مسلحون جميعاً .

- لا تحسني حاراً . . بعث البندقية وجراب الطلقات للصوص ذوي الشفاه الغليظة .

- فليفتشوني . . وإذا وجدوا نقوداً . . اقطع رأسي .

- أخفيت النفود إذا باحسيس . يمكن لأي منا أن يتلقى الآن رصاصة من بندقيتك
- وأمر مرافقي القافلة :
- أوثفوه .

ارتمى عليّ عشرة رجال من البدو الأقوياء وقد نسوا اللحم الطازج فأوثفوني ورموا بي
إلى أقدام زعيم القافلة . تمددت دون حراك . أما اسماعيل صباح فجلس متربعا على
بساط من اللباد وأخذ يشرب القهوة التي قدمت له
احتسى قهوته دون أي استعجال . ولم يلق أية نظرة إليّ . ثم جفف «نمر
الصحراء» فجاناه ، ونهض من مكانه حاملا سوطه واقترب مني .
- أرجوك ألا تضرب بالسوط بل الأفضل أن ترميني بالرصاص . - تلوّيت في مكاني
ضارعا متوسلا إليه .

إلا أن السوط أخذ يصفر بيده والضربات تنهال عليّ . إيه كم كان مستحيلا أن
يحدث هذا في أرض الأويخ ! . لو مسّ سوطه عندها حصاني بزوا لأرغمته على إحصاء
أمعائه . ضربت بالسوط للمرة الأولى . . . وعلى مرأى الآخرين . . . لم أشعر بالألم الجسدي
إلا أن ثورتي المفهورة وغضبي المكبوت فاقا كل جلد وتحمل لديّ وأخذنا بجرقان المخ
وياكلان الحلق .

- توقف عن الضرب . . . إذا بقيت حيا . . . سأقتلك . - قلت بصوت أجش مبجوح
وأنا أتلوى كالأنعى .

إلا أن اسماعيل صباح وقد تحول إلى سيد مسعور واصل ضربي بجنون مرعب . وهنا
- لن تصدق ياداد - انتفضت كالوحش الكاسر وقطعت الخبل منتصبا بومضة عين على
قدمي كالنمر الأرقط الجريح وانقضت على اسماعيل صباح . . . انتزعت من يده السوط
وكسرت مقبضه ورميت به بعيدا إلى حيث لا أدري . ولو لم يحل بيني وبينه أحد مرافقي
القافلة لحنقته من فوري على إساءته . هجم عليّ عدة أشخاص وربطوني من جديد . . .
أصبح الأمر سيان بالنسبة لي بعد أن رميت السوط بعيدا . برد باشا القافلة قليلا . . .
وأبقوني موثق اليدين والرجلين حتى الصباح . . . ولكن لم يقرب مني لا اسماعيل صباح
ولا أحد غيره . . . في الصباح اقترب باشا القافلة وانحنى إليّ فقطع الخبال التي انغرست في
جلدي وكان شيئا لم يحدث مما حدث .

- اذهب وكل واستعد للعمل - قال مهادناً.

أصبح اسماعيل منذ ذلك اليوم أكثر اهتماماً بي ولم يكلفني بعد ذلك بمهام تافهة
قدرة . . بل أخذ يستشيرني أحياناً ويملي علي تعليقاته دون أن يرفع صوته ولكن لم يرغب
عني أن السكين الذي قطع به الحبال عن يدي ورجلي يمكن أن يخترق صدري في أية
لحظة من اللحظات أو إثر أية نزوة من النزوات لاسماعيل صباح هذا.

تأخر بيرم في أحد الأيام عن مواعده الطبيعي في إحضار طعام الغداء - مالت
الشمس إلى الغروب وهو غائب عنا.

- ماذا جرى له ياترى؟ لم يحدث له أبداً أن تأخر. لا بأس بالنسبة لي ولكن . . أنت؟
ألا يكفي أنك تتناول طعاماً لا يليق بالضيف؟ - قالها زاورقان نزقاً وشعرت بازدياد انفعاله
واضطرابه على الرغم من تهديتي له.

اتكأ على عكازة عدة مرات ثم نهض أخيراً:

- سامضي إلى بيرم وأعرف ما حدث له . .

ولكنه ما أن وصل إلى البوابة حتى ظهر بيرم ويده صرّة.

عاد العجوز وجلس معتمداً على عكازه بصمت وهدوء.

اقترب بيرم مني وقال :

- اعذري أيها العزيز شاراخ. مرضت زوجتي ولم تعد طعام الغداء في الوقت

المناسب.

- ولكن ماذا حلّ بها؟ - سألت أنا.

- آلام الرأس تعذبها منذ يوم أمس وطوال الليل. إلا أن حالها أصبح أفضل اليوم.

بقي زاورقان صامتاً بنصت إلى الحديث وكأنه ملاً فمه بالماء.

حين جمع بيرم أدوات الطعام ليضعها في صرته اقتربت منه وقلت له :

- لو أنك تأخرت أكثر لذهب زاورقان إلى بيتك، فقد اضطرب قليلاً.

- يا للأسف. لو علمت بهذا مسبقاً لتعمدت التأخر - أجابني بيرم.

- لماذا؟ - سألت أنا.

مرّ نحوالي عشر سنوات على الأغلب والوالد لم يزر بيتي - قال لي بصوت منخفض

حتى لا تصل كلماته إلى أسياع العجوز.

- لماذا؟

- لا يذهب لمكان . . لا إليّ ولا إلى الجيران . . إنه على ما يبدو غاضب من زوجتي . حدثك بأنه ليس عندنا أطفال . وهكذا فهو يكرر دائماً وأبداً : «ألا يكفي أني وحيد؟ أنت أيضاً ستبقى بذنبها وحيداً . .» . إنني لأدري بماذا أجيبه . . التفاهم معه صعب ، صعب جداً . - قالها بيم بحزم وهزّ برأسه وذهب .

جلسنا أنا وزاورقان أحدنا قبالة الآخر وبدأنا نهارس عملنا الذي أصبح عادياً بالنسبة لنا نحن الإثنين . . .

اختفت الشمس وعمّ الجو في الفناء . دخلت إلى الدار وأشعلت مصباح الكاز ثم دخل زاورقان إلى البيت ليتابع سرده للأحداث . .

حدثني عن كل ماعاشه خلال فترة ترحاله في افريقيا . حاول أن يعود بذاكرته إلى حيث حلّ ويتذكر الشعوب التي رأى . . . يستذكر أحياناً كلمات من لغات عديدة . . سمعها خلال سنوات التجوال تلك هنا وهناك . تحدث أكثر ما تحدث عن الصحاري . . تحدث أحياناً عن الغابات الافريقية الكثيفة والأنهار العظيمة التي تعبرها السفن .

. . يحدث أن يتيه أحياناً . . فيبدأ ويكرر كل شيء من جديد . . «انتظر . . لانكتب . . يبدو أنه ليس كذلك تماماً . . - يستوقفني فجأة - هل نصب كل شيء من هذه اليقطينة؟!» - يضرب جبينه بيده متذمراً .

ومع ذلك . . وبغض النظر عن العثرات والوقفات . أدركت من خلال أحاديثه أنه قطع خلال ثماني أو تسع سنوات متواصلة أرجاء لامتناهية من افريقيا مرافقاً للقوافل سبراً على الأقدام في أغلب الأوقات .

ثماني سنوات . . هل هي مزحة؟ . . كلا . . إنها حياة كاملة . الصبي الذي رضع الحليب قبل تسع سنوات بركض الآن فلا تدركه .

تعود قافلتنا إلى القاهرة بعد بيع البضاعة وتحميل الجمال بالكنوز المشتراة هناك والتي يخفي فيها الأفيون . عليّ أن أقول لك ياداد شاراخ إن بعضنا ممن لديهم بيوت وأسر في مصر كانوا يفرحون بالعودة إليها . ولكن ماذا كان بانتظاري أنا؟! النقود فقط لقاء الأعمال الأثمة . حتى لو أني حصلت على حربيّ وعدت إلى تركيا لنفد الحكم عليّ بالموت حتماً في هذه المرة جزاء قتلي للوالي سليم باشا . استعجلنا اسماعيل صباح . . تقلّصت فترات الراحة وطالت فترات المسير لاجتياز الصحراء . خلفنا مدينة سيغا وراءنا . . أمسى «نمر

الصحراء شديدة الخدر . لم يكَلْ أو يملْ من تذكيرنا بوجود بقائنا يقظين ليلاً نهاراً وأن
نفتح عيوننا جيداً . أما هو فكأنه يشم رائحة الهواء . .

- على هذا الطريق نهبت عصابات اللصوص الكثير من القوافل - حذرنا اسماعيل
صباح .

قدّم لكل منا احتياطاً مضاعفاً من الذخيرة . . وفي ليلة غاب عنها القمر انقضّ
علينا فجأة من تحت جناح الظلام فرسان مسلحون ونحن نعزم على العسكرة قرب بئر
وتأهب لتوزيع الحرس . . حطّوا علينا كالزوبعة في الصحراء وحاصرونا من كل الجهات
مطلقين الرصاص مطاردين على خيولهم . . هرعنا نطلق الرصاص عليهم على ضوء
بسادقهم . . ظلام . . صفير رصاص . . رغاء النوق المدعورة . . سهيل الخيل . .
صرخات المهاجمين . . واختلط الحابل بالنابل . . انقضّ عليّ أحد الفرسان متديلاً من
سرجه مشهراً سيفه . . سبقته ورميته بالرصاص . سقط الفارس على الرمل وصاح صيحة
الموت بلغة أوييخية خالصة :

- قتلوني ولا أصل لي . .

وقف شعر رأسي . . كنت مستعداً لأي شيء . . حتى للموت . . ولكن ، أن اسمع
كلاماً باللغة الأم بين الكتيبان الرملية . . أمر مستبعد تماماً أو حلم يقظة غير معقول . . ثم
إلى جانب هذا كله فإن صوت المصاب بدا مألوفاً بالنسبة لي . وفي هذه الأثناء التي قوبل
فيها المهاجمون بصدّ مكين أدركوا بعده أنهم لن يتمكنوا منا فاخفتوا بومضة عين كما
ظهروا . هرعنا إلى الجريح الذي لفظ أنفاسه الأخيرة . . وملكني رعب قاتل . . لقد
عرفته في الليل الأسود . . إنه سعيد أخ الحاج جيراندوق بالرضاعة . . أخذت رأسه بيدي
وأحسست بالدم الساخن اللزج يدق في يدي .

- سعيد!!! رياه . . سعيد!!! أهذا أنت فعلاً؟ . . تمتمت ذاهلاً مأخوذاً . .

تألقت عيناه قبيل الموت . . فقد تعرفني حتياً . . وهمس بشيء ما غير واضح ثم
أغمض جفنيه . أحاط بي رفاتي بمشاعلهم المتوهجة . ثم دهشوا إثر فرحتهم ببقائهم
أحياء وأخذوا يمدقون بي وأنا أبكي على جثة القتيل .

كنت كمن أصابه مسّ من الجنون . . أردت الموت وحده . ملك عليّ كلّ روحي
وكياني حزن قاهر لا عزاء فيه . . وأيقنت أن بقائي حياً بعد هذا مستحيل ولا جدوى

منه . وضعت سبطانة البندقية على صدري وحاولت الوصول إلى الزناد . . إلا أن اسماعيل صباح الذي أمسى قربي رفس برجله بندقيتي من يدي ، ثم استل خنجري من غمده في حزامي .

- أوقفوا هذا المجنون - صرخ الباشا بمرافقي القافلة . .

هموا بغرس مشاعلهم في الرمال وفلت منهم هائلاً على وجهي في جنح الظلام . اندفعت راکضاً لآلوي على شيء وكأني أريد أن أدرك روح من قتلته بيدي . . سعيد . ركضت طويلاً غير شاعر بساقي حتى خانتني قواي فوقعت أرضاً .

يا للمسكين سعيد . . فارقته في أطراف سمسون . . حلم بالعودة إلى بلاد الأوبخ . . ظننت أنه مات في طريقه نحو جبال الأباء . كيف اتفق له أن يصل إلى افريقيا؟ أية قوة سوداء ساقتنا إلى هنا؟ أية روح شريرة طمعت بأن أقتل ابن عشريني العاشق لحرته . . ١٩٩

بقيت حتى الصباح في غيبوبة مريضة . . لفحتني الرمال . . تقلبت على السهل الرملي مقهوراً معطماً . . ونهضت في الصباح وكأني أخرج من القبر . . نفضت الغبار عن وجهي . . وتلفتت حولي . قبع على بعد عشر خطوات مني اثنان من أبناء أوى . . وتوجهت إليهما مترنحاً . . ارتدا عني ونجبا بخطوات هادئة مبتعدين أمامي ثم أخذتا يلتفتان إلي . لماذا لم ياكلاي . . نصف حي . . ضعيفاً أعزلاً؟ . . لعلهما قرفا من أكل إنسان قتل أخيه . مادت الصحراء تحت قدمي وكأنها سطح باخرة في عاصفة هوجاء . جف كل مافي داخلي . . وارتفعت الشمس أعلى فأعل . . وسرعان ماabant أمامي شجيرات صغيرة متناثرة . . لم يكن ذلك سراياً بل خرجت إلى واحة . . .

عبر مجاري الأنهار الجافة

انضمت إلى قافلة غريبة متوجهة نحو القاهرة. أحاطني مرافقوها بضيافة كريمة. . أطمعوني وسقوني كل الوقت ولم يفكروا باستغلالي وأنا المحروم من حماية القانون. . فيبيعوني مثلاً إلى تجار العبيد أو يعيدوني إلى مالكي الأصلي. أما البضاعة التي نقلتها القافلة فهي لتاجر أرمني. علمت وأنا في الطريق أن الحمولة سترسل من القاهرة إلى استنبول عن طريق البحر.

القاهرة عظيمة فعلاً. ولكنني الفقير الجائع البائس الذي تعبت به الرياح كالأعشاب افتقدت لانسان قريب إلخا إليه في هذه المدينة الكبيرة أو سقف رحيم يؤويي. وحنّ قلبي إلى تركيا بعد ابتعادي الطويل هذا عن أهلي وأبناء عشيرتي. آه لو أسمع ولو يوماً واحداً حديث الأوبيخ العزيز على القلب. . ثم فليقطعوني بعد ذلك بفأس أنثم إرباً إرباً. ساعدت الحمالين الذين استأجرهم التاجر الأرمني فنقلت البضائع معهم إلى السفينة المبحرة إلى استنبول. حين علم التاجر أي من الفقفاص أبدى مشاعر التعاطف معي. أعطاني ملابس وحذاء ونقوداً لتأمين مايقم أودي. كان ذلك الإنسان غنياً وكريماً. . وقد أكد لي تعريفي عليه أن الصفة الأولى لاتلغي الثانية أحياناً. .

وهكذا وصلت إلى استنبول بفضل طيبة التاجر الأرمني وعطفه علي. لقد سمعت منذ الصغر بهذه المدينة التي اعتقد الأوبيخ أن لا أروع ولا أغنى منها بين مدن العالم كله. . فإذا تحدثوا عن شخص ما قائلين: «إنه مسافر إلى استنبول» يتبادر لأذهان الجميع على الفور أن هذا الإنسان متوجه إلى نهاية العالم. وحين تقع عيونهم في قرية جبلية على خنجر ثمين أو صناعة متقنة من حلي النساء يقررون على الفور بأنها صنعت في استنبول. حتى في الأغاني يشبهون عيون الحساد بكهرمان استنبول.

قسطنطينوبل. . . هكذا اعتاد بعض الناس على تسمية العاصمة التركية. . قصور من الحجارة البيضاء في بحور الخضرة. . مساجد يزين كلا منها هلالها وأكثرها ابهاراً وروعة مسجد اياصوفيا بلونه الأزرق كالسما. . السفن محتشدة في الخليج الصغير «القرن الذهبي» وفوقها أعلام مختلف البلدان خفاقة عالية. الأسواق الصاخبة تعج

بمختلف ألوان البضائع . من المصنوعات الذهبية إلى الصفارات الصغيرة . . من خوم الخرفان . . إلى نفائس البحر المدهشة . . صيحات الباعة اللحوجة . . أريج القهوة وعبقها الفواح . . توملات الشحاذين المتسولين . . شتائم التجار المتجادلين على الأسعار . . أحاديث الهمس المريب للمهربين . . التجارة بالبشر بكل بساطة وصفاقة وخصوصاً النساء . . ويصدح أحياناً صوت جهوري أمراً : « افسحوا الطريق . . ابتعدوا . . هذا يعني أن باشا مهياً جاء إلى السوق أو أنه متبضع ثري يتقدمه خادمه المتحذلق .
الجميع متساوون في المقبرة ولكن طالما أننا مازلنا على قيد الحياة فإن لكل منا مكانته على الأرض . اضطرت للإقامة بين رعاع الميناء عند مراسي السفن . سمعت لغات العالم كلها . . إلا أن البحارة والحمالين يفهم بعضهم بعضاً دون مترجم . لايسأل أحدهم الآخر : من أين جاء ولماذا قدم؟ وهل يعزم البقاء طويلاً هنا؟ . . اتضح لي أن ظهري قادر على نقل البراميل والصناديق والحزم الكبيرة ومختلف الأشياء الثقيلة . . وعلمت من البحارة أن الكثير من الجلبين ظهر في المدينة .

- من أية عشيرة؟

- أبخازيون .

«رآه - ارتعشت أنفاسي وفكرت - هل بدأت الهجرة من جديد؟! . أصدق أن الأبخازيين قد ارتكبوا هذه الخطيئة المهلكة أيضاً؟! .»

ناقت نفسي إلى المدينة . . ودابت أتسكع في شوارع استانبول في أوقات الفراغ أو إثر انتهائي من العمل عند الغروب أو في أيام الجمع . . على أمل مصادفة أبخازيين من تسبيلدا، حيث عاش أخوة أمي ، أو الإلتقاء بأحد المعارف الجلبين . لادخان بلا نار . أخذت أصادف أكثر فأكثر بالفعل أناساً مسلحين ، مرتدين البستهم الشركسية لائذين بأفنية المساجد أو المطاعم الصغيرة أو يوابات البازار . . أسمعهم يتحدثون باللغة الأبخازية . أنصت لأحاديثهم . فتبدو حلوة المذاق ومرته في وقت واحد . حلوة المذاق؛ لأن اللغة التي أسمعها وتطرب أذني لها حتى الثمالة هي اللغة ذاتها التي سمعت بها أغاني المهدي من أمي الأبخازية . . وتبدو مرة المذاق أيضاً لأن المهاجرين الجدد كرّروا ما تحدث عنه الأويخ في منطقة سمسون في الماضي القريب .

انتهى اليوم وحل المساء . . إلا أن - الحجارة عند البزار - لم تبرد بعد . . جلس على

إحداها عجوز في عباءة قفقاسية مرقعة . نضرت أصابع قدميه الوسخة من حذائه المهترى . نظرت إلى رأسه المنحني إلى أسفل المسنود بيديه فذكرني مظهره المأساوي وجموده التام بشاهدة القبر . جلست قربه وسألت :

- ماذا جرى معك أيها الأب ؟

رفع إليّ نظره ودهش على الفور . فلم يسعه أن يتصور أن شخصاً لا يرتدي البرزة الشركسية أو العباءة القفقاسية يمكنه التحدث بالأبخازية .

- اسمح لي ياداد أن أعرف من أنت؟ - سألتني بدوره .

- أنا من المهاجرين الأولين . أويخي .

- آه . . زفر مواسياً . أنتم الأويخيون مذنبون بأنفسكم في مصيبتكم . لأنكم

انتقلتم إلى هنا دون تفكير أما نحن فطردنا بالقوة .

- القيصر الروسي؟!!

- كلا . . السلطان ، الذي دخل أبخازيا ليتزعمها من الروس . أضرمت النار

بالبلد . . قُطعت رؤوس المقاومين . أفرغت أبخازيا من أهلها يابن البلد . . تفحمت

وفرُغت . - بدا صوت العجوم غاصاً بالدموع .

- قل لي أيها الجد . . أتدري ما حل بأهل تسييلدا؟! . هناك . . يعيش أخوة أُمي .

- بدأت الهجرة من جديد . . بعد ثلاث سنوات من نزوحكم . . لقد جرفت إلى

الشاطئ التركي أبناء تسييلدا ، دال ، غوم ، أبجاكوا ، ماتشارا . . أما نحن - فكما قلت

لك أيها اللطيف - طُردنا بالقوة . فلتحل اللعنة ثلاثاً على المنسيين . فرُغت أبسني* من

الناس . . بقيت الأرض فقط . . أما الروح فطردت إلى خلف البحار . . وأمست الكلاب

تنبح وتعوي فوق الرماد . . أنا من أبجاكوا . . من تاميس . . نسيتي راتسيا . الوداع أيها

البائس .

وهنا اقترب من العجوز صبيان . . لعلهما ابناه . . ساعده على النهوض . . ثم

غاب العجوز بعيداً بخطواته القصيرة الرتيبة معتمداً على الصبيين .

إذا أصاب العجوز حقاً لتتج عن ذلك أن أبناء تسييلدا رحلوا إلى تركيا في العام

(*) أبسني : أبخازيا باللغة الأبخازية .

الذي سجننت فيه . أخوة أمي سبعة . . وطرأت على ذهني فكرة أنه إذا أقلمت عن التخبط في مكان واحد فإني سأتمكن من الإلتقاء بأحدهم على الأقل .

حلمت في تلك الليلة بالجبال ثانية . . . بالقبضان الربيعي في شُعب بزيسكي . هدر النهر صاحباً ، وكأنه ألف طبل يُقرع بقوة . . إلا أني سمعت من خلال ضجيجهِ الصاحب سهيل حصاني الذي رميته برصاصي . . اندلعت النيران فوق سطح بناء الزعامة الأويخية . . وأضاءت ألسنة النيران وجوه الأبطال . . وظهر بسطوح واضح عبر الشعل النارية المتوهجة أحمد بن براكاي يتوسل إلينا ألا نهجر الوطن . . .

أفقت من نومي لأن أحد الجمالين هزني من كتفي :

.. ما بك تن وتصرخ ؟ . . لعلك متوعلك الصحة ؟ .

لم أذهب في الصباح إلى الميناء . . بل ساقنتي قدماي بشكل عفوي إلى المدينة . أتدري ياشاراخ . . حين يأكل قلب الناس شوق عارم قاتل يلجؤون إلى عقاقير السكر . . ليسوا . . أما أنا فقد ملكتني رغبة جامحة بسلاح الحديد بالأبخازية كل الوقت . ليس هناك مايشفي الغليل بعيداً عن الوطن - مثل كلام الآباء والأجداد . إنه ينفذ إلينا كالملاك الحارس عبر كافة القرون . . أقترب من مجالس الناس ذوي الأردية الشركسية . . أستمع أكثر مما أتكلم . . أما الجيليون أولاء ذوو الرؤوس الحامية فيحاكمون ويكون أمراً واحداً وحيداً على الدوام : من المذنب في بلاتهم ؟ ويصل الأمر أحياناً إلى المجادلات القاسية والمشاجرات الشرسة واللجوه إلى السلاح . كل هذا لأنهم يريدون ايضاح الحقيقة الخفية : من المذنب ؟ أتب بعضهم نفسه . . ولام آخرون القضاء والقدر وعزا غيرهم أصل البلاء إلى مصالح الدولة العظمى وعنجهيتها . . دولة القيصر ودولة السلطان . . ولكن هل أمكننا تخمين أسباب كل ماحدث سلفاً . . ؟؟ أما أنت فاكتب . . اكتب يا صديقي الطيب . . من يدري فلعل افاداتي هذه تساعد في البحث مع الزمن عن حل للغز القضية . . قضية المهاجرين . . المخفية وراء سبعة أختام رسمية .

لم يغفل السلطان التركي حين وقع بين يديه أفضل الرجال المحاربين من القفقاس عن قيمتهم بالنسبة إليه فجندهم عساكر وحرّاساً لديه . يصمد للإختبار المر بالسوط كثيرون ، أما الإختبار الخلو بالبقلاوة فلا يصمد له كل الناس . أرهب بعضهم واستهوى آخرين . . اشتراهم بالأرض المعطاء والحماية الأمانة . كما استفادت الحكومة التركية من

وجود صلات قرابة حميمة بين نبلاء الأويغ وفلاحيتهم . فأمسى أمثال شاردين بن علو مقربين محترمين . . اقتطعوا لهم الأرض ولم ييخلوا عليهم بالألقاب . . منحوا الأمراء أراضٍ واسعة وتكرّموا على فلاحيت هؤلاء باليسير منها . أما الفائدة من ذلك فواضحة للعيان : ساقوا إلى الجيش الفلاحين الشباب . . وأرسلوهم باسم الرّب إلى القتال مباشرة . كم عاد منهم معوقين مقعدين؟؟ لأحد يدري الآن سوائيّ والله وحده .

لعلك تذكر أنّي حدثتك في البداية عن معن كاتس . إنه من أصلكم - أبخازي . ثمّ قدّم هذا القفقاسي في ذلك الوقت خدمات جلي ، وحصل لقاء ذلك على رتبة جنرال . ثم بعد نزوحنا نحن الأويغ إلى تركيا غابت شمسه عن رتب كتفيه بسرعة كبيرة ومات المحارب كما يقولون . ولكن أحد أبناء معن كاتس سار على طريق أبيه فأصبح ضابطاً في الجيش الروسي . أما الخلف الثاني للجنرال وهو كمالات فقد رفض الخضوع للسلطات الجديدة إثر إلغاء الإمارة في أبخازيا وإزالة نظام الرق وفرض الإدارة الروسية فتوجه مع أسرته إلى تركيا .

استقبله العثمانيون بكل احترام لكونه عدوّاً قديماً لأعدائهم . قدّموا له قصرأ كبيراً في وسط استانبول ، ومنحوه رتبة عقيد ونصبوه على رأس المهاجرين الأبخاز . وكما هو معروف فإن العسكريين لا يطعمون ويكسون هكذا بلا مقابل . . هكذا الأمر مع كمالات الذي أرسل جيش يأتمر بأمره الى ولاية مجاورة تصرف واليها على هواه وعصى الأتراك المعتدين المغرورين . . . قدم الكثيرون من الأبخاز رؤوسهم لكي يحطم كمالات جيش الوالي ويأسره . . . عاد بطلاً ووصل في يوم عرس ابنته ساحرة الألباب نزيفا التي زفّت الى وريث العرش التركي عبد الحميد . . أقيم بعد الحفلة احتفال آخر . . فقد أصبح صهر كمالات سلطاناً . عُرف الحاكم الجديد بقسوته وبأسه . . وذاع صيته من خلال أفعاله كإنسان دموي ذي عينين حسودين ويدين طويلتين . . أشياء ثلاثة خطيرة جداً في العالم ياداد : السكين بيد الطفل والمديح من شفاه المتزلف والسلطة لدى مجنون العظيمة . رأى عبد الحميد القفقاس في نومه تحت حدائه الجلدي فقرر في صحوته أن يجعل الجلم العذب يقظة . منح كمالات معن رتبة عقيد وعيّنه قائداً لجيش سُكّل من المهاجرين والسفاحين الأتراك . . . وحدد لهم طريقهم الى إبخازيا . توجه كمالات معن الى المحاربين قبيل صعودهم الى السفن الأبخازية فألقى فيهم كلمة وقدم لهم تمنياته :

- يا اخوتي بالدم . لقد دقت الساعة . ولي الله على الأرض . . . السلطان العظيم للإمبراطورية العثمانية يمد لنا يد العون مجيئاً رغبنا السامية في تحرير أرض الأجداد من الكافرين . فور هجومنا بأسلحتنا على شاطئ الوطن سيهب الأبخاز الباقون هناك السراخون تحت سلطة القيصر الأبيض فينقضون معنا منضمين إلينا . سنحرر أبسني . . . إلى الأمام تحت راية الغزوة . باديشاخيم بين ياشا . (*) .

قطعت الجموع الغفيرة المسلحة البحر الأسود وحطت رحالها قرب قلعة سوخومي . حث كملات معن الخطى وانطلق المنادون على خيولهم الى كافة أركان أبخازيا داعين الشعب كله الى الوحدة :

- من ينشد الحرية . . . فليضم الى جيش كملات معن منقاد أبخازيا . . الذي سيؤدكم الى إنغور^(*) لتحطيم الكافرين .

ولكن لم تصدق حسابات كملات . . فباستثناء أقارب كملات معن وبعض الجبلين المغرر بهم لم يأبه رعاة الماشية في الجبال ، ومزارعو القمح في الوديان لنداء الباشا الداعي للتمرد والعصيان . لم يفكر من اكتسب الجنسية الروسية بالتنازل عنها . . بل سرعان ما أخذ محاربو كملات يهربون من صفوف جيشه إثر وصولهم إلى أرض الأجداد . أخذوا ينحتون الى الأرض فيقبلونها ويمسسون لها : « ساعيننا بأبسني . . » أثرت أحاديثهم المأساوية - عما ألم بهم في تركيا - على الأغرار فأيقظتهم من غفوتهم .

انطلق كملات مع الموالين له والفصائل التركية المرافقة إلى إنغور . إلا أن الروس قضوا عليه . وأدرك وهو من مرتزقة السلطان المعروفين أنه لن ينجو برأسه إثر هذه الهزيمة . . ناهيك عن أنه سيكلل - الى جانب هذا - بعار أكيد لأن الكثيرين من محاربيه ضاعوا تماماً . . . فمنهم من هربوا ومنهم من قتلوا ومنهم من أمسوا أسرى لدى الروس . ولذلك وضع كملات خطته الغادرة لإنقاذ نفسه وسمعته . راح يحرق بنفسه - لدى تراجعه - القرى الجبلية مطلقاً الإشاعات المرافقة لعمله المشين هذا بما أساءه بالثار الروسي القاسي . ودفع عنوة ؛ بقوة السلاح والرعب بالوف الأبخازيين الى السفن التركية .

(★) عاش سلطاننا ألف سنة بالتركية .

(★) (★) إنغور : نهر كبير في أبخازيا .

فأمسى عددهم ضعف عدد المحاربين الذين جرهم معه لاحتلال أبخازيا . ومع ذلك لم يتمكن كمالات باشا من سوق كل سكانها بغض النظر عن كل مساعيه . . . أختياً الرعاة مع قطعانهم في الجبال ولجأت أسر بكاملها الى الغابات أو احتمت بالروس .
ولدت أسني من الرماد ثانية إذأ . . . أليس مجيؤك ياداد شاراخ خير دليل على ذلك ؟ . . . فلاعانقك يابهجتي المتأخرة في حياتي .

اختلجت جوارحي شوقاً الى الأهل . . . وهأنا في طريقي الى عثمان كوي سائراً على قدمي ، متكساً على عكازي بيدي . الدرب طويل . . . تصافح وجهي ريح خريفية . . . ويخيل لي أحياناً أنها ستحمل إلي دخان الموقد الذي تنحني عليه أُمي .
لقيت طوال الطريق قبوراً مهملة منسية على جانبيه . أسأل عابر سبيل عن المدفون فيها فيجيب :

- شراكسة .

لم يتح لي أن أقول لك ياشاراخ ؛ أن الأتراك اعتادوا تسمية المهاجرين كافة شراكسة .

وبقي هذا اللقب بصاحبهم حتى الآن . وازت كلمة « شركسي » خلال فترة شبابي كلمة « لص » بمعناها ووقعها . يتخاصم تركيان . . . فيفتقر أحدهما لمسبة مناسبة يشتم بها الآخر فينتعه بشركسي . سمعت وأنا في استانبول بالقصة الدموية التي تناقلتها الأجيال بعد ذلك عن قلب حكم السلطان عبد العزيز . وعن الدور الشرير الذي لعبه شاردن بن علو . . . قالوا قبلنا : « يذنب أحدهم فيسري القصاص على الجميع » ولكني سأحدثك عن هذا في ساعته . . .

المسافر العجول لا يلحظ وهو في طريقه متى ينتهي الليل ومتى يبدأ النهار . . . هامي منطقة عثمان كوي تطل أخيراً من بين الهضاب . . . الوقت منتصف الليل . . . ريح رطبة ثقيلة تهب هائجة ، وتلج خفيف يتساقط . . . يصل الى مسامعي نباح الكلاب . . . وصياح الديكة المتقطع وكأنها تصيح مكرهة . . . توقفت عند الهضبة أمام ضريح القديسة بيتحا . . . حدقت بعيني جيداً إذ رأيت أحراجاً والكثير من الأعشاب والشوك يلف المكان . ولم يبق من شجرة الصنوبر سوى جذعها المتور والمغطى بالثلج . . . دخلت بقلبي المثقل بالهموم الى البلدة . . . أول ما لاحظته هو عدم وجود البيت

الذي سكنه في الماضي مزوتش أبو خبا . . بقيت البوابة في مكانها . . . أما البيت فزال
تماماً . . باحة الدار مفلوحة . وعلى الطرفين تنتصب سيقان التبغ الداكنة . . أظلمت
عيناى وكان وشاحاً أسود اللون لفَّ رأسي كله ، وأخذت أتخابل على قدمي لأرفعهما عن
الأرض فكأنها ثبنا بها . اقتربت من البيت الذي عشنا فيه سابقاً . وتأكدت أنه في مكانه
لم يمسه أحد بسوء . . . إلا أنه شاخ وغار في الأرض قليلاً . لعب الأطفال في شرفة الدار
ولم يأهبوا للبرد . . شممت رائحة الهواء . . . وأدركت أن أسرة أخرى تعيش في بيتنا .
هرع إليّ كلب كبير كَثَّ الشعر . . ما أن عزم على فتح شذقيه حتى أقلع عن ذلك
وربض قربي ساكناً . .

ازدادت برودة الجو . . . خرجت الى السطريق وسمعت طرقاتاً على
السندان . . « لعله الحداد داود . . منمك في عمله » ؟ فكرت بذلك وقصدت دكان
الحدادة على الفور . رأيت بابيها نصف مفتوحين . ولححت من بعيد رجلاً يقف أمام
السندان بساقه اليسرى الخشبية ويطرق بمطرقته فيطير الشرر في كافة الأنحاء . رأس
الطارق مغطى بقلنسوة . تقدمت باتجاه الباب .

- اقترب من النار . . . تدفأ . . برد الجو تماماً - قال لي دون أن يلتفت إليّ .

غالبت غصّة ملكت عليّ حلقي وقلت :

- السلام عليك يا دورسون . .

التفت دورسون متلهفاً وقد تمجرت المطرقة المنقضة على السندان في الجو بيده .

- زاورقان !! يا إلهي . . . زاورقان . .

ودبّ إليّ دافئاً برجله الخشبية . . اندفعنا متعانقين بانفعال عارم . . وانهمرت

دموعنا على وجنتينا الكئيبين بالشعر . وانطلقاً حجر السن الحديدي الأحمر على السندان .

أما دورسون فربت على كتفي براحة يده القوية بلطف وود ، وابتسم دون أن يتحجّل من

دموعه وقال :

- لعلك نزلت علينا من السموات يا زاورقان . . يا أخي ؟ بكاك الأهل كلهم وكان

حكم الإعدام قد نفذ بك فعلاً . أما أنت فحيّ . . . هلا تقول لي . . . قل ولو كلمة

واحدة صغيرة . . . اسمح لدورسون ذي الرجل الوحيدة أن يتأكد من أن هذا ليس

حلياً .

وأخفى وجهه بصدري .. سألته وكأني أشد حبل المشتقة على رقبتى :

- هل فقدتها في الحرب ؟

- تركتها في صحراء تونس للذئب الجائع . عدت من هناك وسرعان مادفت

أبي .. . أفنت الآن وحيداً هنا على رجل واحدة .

- كان أبوك انساناً كريم النفس .. . لن أنسى طبيته حتى الممات .

- وصية الوالد لنا أن نعيش طويلاً .. . فليكن هذا اليوم بشيراً بالفرح القادم .

- لا تظلي يادورسون .. ماذا جرى لأهلي ؟

- بعد أن قضيت على سليم باشا في إزميد عاد ماتا سالماً .. وكما أخبرني والدي فإن

أباك وأخاك وأمك سافروا من هنا .. . ولم أسمع عنهم شيئاً منذ ذلك الوقت يازورقان .

أما أن الأتراك قد رحلوا الأوبخ من هنا فليس بذنبك أنت يازورقان .. بل بسبب

شاردين بن علو .. . ولكن عن هذا سأحدثك فيما بعد .. . أما الآن فيجب أن نأكل

شيئاً بعد قطع الطريق الطويل الى هنا .

جلسنا وراء الطاولة التي وُضعت عليها سمك ورغيف خبز مقسوم الى قسمين وبصل

مقطع . ووضع دورسون إبريق القهوة المعدني على النار ليغلي الماء فيه . أظلمت السماء

وتساقط الثلج وناحت الريح كالبوم . دخن فتيل مصباح الزيت ، على الرغم من أن

دورسون دأب كل الوقت على ازالة مايجترق منه . أضاء النور الخافت المنضدة الصغيرة

السيطة .. .

- اصدرني يازورقان على عشاءنا المتواضع هذا .. . فلم أدر مسبقاً أنك ستأتي

إليّ .. . ولا يمكن اقتراض شيء من عند البحيران .. . إنهم سكان جدد .. . ينبغي

استقبال ضيف مثلك مثلما اعتاد أجدادي في جورجيا على الحفاوة الحققة بالضيوف

المرغوبين العزيزين .. . وجب عليّ ذبح ثور وإخراج دُن من النيذ المعتق من القبو ودعوة

الأصدقاء لنشرب معاً نخبك .. . نشرب ولا نثمل .. . نأكل .. . ونغني أغاني الأنخاب

ونرقص أسبوعاً كاملاً .. . ولكن - وزفر بحزن وألم - أين جورجيا الرائعة وأين نحن

الآن ؟

كلمة صغيرة .. . يتسع لها طرف اللسان .. . ولكنها تملك القلب كله .. . لقد مرَّ

زمن طويل جداً لم أجلس فيه وراء طاولة أحباء طيبين كهذه .

طردت الريح الغيوم . تحول الثلج الى رياح ثلجية . . ولمعت في السماء نجوم تميل بلونها الى الخضرة . . . رمى دورسون بحزمة حطب الى الموقد ورقصت على الجدران خيالات صفراء . . . رقدنا بجوار النار وغفت جفوني بثقل النوم على الفور . . . وعدتكم بالأمس يا بني أن أحدثك بالتفصيل عما ارتكبه شاردين بن علو . « على شجرة الصندل لا تنمو الدعامل . . » أما الناس فليس بينهم من يخلو من العيوب . . . ولدى كل شعب مزبلته . . . لديكم أنتم معن كاتس ولدينا نحن شاردين بن علو . يقال « أن أشجاراً نبيلة اشتكت الى الرب من الفأس فأجابها الرب قائلاً : أصلها منكم فيدها من خشب » .

امتاز شاردين بن علو نسيب عبد العزيز بنفوذته الكبير في الديوان التركي . . . السلطة العالية تولد الزهو والعنجهية . . وهكذا زاد من أعدائه سواء بكلمة قالها أو فعله اقترفها في يوم من الأيام . يتسمون له أمام عينيه . . . أما خلف ظهره فيلعنوه بكل ما أوتوا من قوة . . . أما شعبه وعشيرته الأويخية فلم يفكر فيها مطلقاً . . يتذكر منطقة عثمان كوي عندما يجين موعد جباية الضرائب من الفلاحين . أما إذا ساعد الموظفين أو الضباط فإنه ينال منهم الرشوات دون أي وخز ضمير اطلاقاً اغتنى شاردين بن علو اغتناء عشر باشوات دفعة واحدة . . . غرق في الفساد . . . بهر حتى أصحاب الحرم الذين حنكهم الدهر ولم يعد يدهشهم شيء . . وشى بالأخرين . . . أوقع بين رجال القصر ودفعهم الى التصادم كالديكة . . كانوا يخافونه ويمقتونه في آن واحد . . . حتى أن الوزير العظيم وهو ثعلب ماكر بات يتحين الفرص ليعبد شاردين بن علو عن العاصمة الى أبعد مايمكن . ذهب به الأمر الى حد أنه أقنع السلطان بمنح هذا الأويخى الرفيع المقام لقب باشا رامياً من وراء ذلك الى إرساله الى الجيش ولكن شاندا بقيت حريصة على رعاية مصالح أخيها فأحبطت مناورة الوزير العظيم .

ولكن أكان بوسع شاردين بن علو مقاومة الإغراءات العنيفة في الوقت الذي يستهلك فيه السلطان حياته العامة والخاصة مطارداً على الخيل ، مولعاً باللقاءات الغرامية والولائم والصيد . . . غافياً غافلاً مخدوعاً بتزلف المحيطين به وتملقهم وهداياهم الفاخرة ومواصلة النساء حتى الرمق الأخير . . . حتى قلب حكمه في يوم من الأيام الرائعة دون طلقة واحدة . . . وضع فجأة تحت الإقامة الجبرية في بلدة نائية . . . ثم قتل بعد حين

على يد أحد المرتزقة . وجاءت عملية قلب حكم عبد العزيز إشارة لكل رجال القصر للإتحاد ضد شاردين بن علو . .

نسوا وتناسوا جميعاً كافة نزاعاتهم وعداوتهم وانضوا في وحدة واحدة لحمتها كره نسيب السلطان .

اعتقل شاردين بن علو . . خفضت رتبته وحلت عليه اللعنات واحدة تلو أخرى . . . هزؤوا به وعرضوه للتعذيب والإهانة . انتزعوا كل ممتلكاته في استانبول وصادروا أرضه في عثمان كوي لصالح الدولة .

تسم العرش السلطان الحديد مراد . . . الإنسان المريض ، مختل العقل ، ضعيف الإرادة . لذا حكم البلاد باسمه في حقيقة الأمر الوزير العظيم الى جانب أكثر الباشوات وزناً ونفوذاً . . العالم شبيه بالدولاب فعلاً . أنت اليوم في الأعلى . . . ثم يغدر بك القدر فتسمي في الأسفل مثل عفار الأرض . من تزلف لشاردين بالأمس القريب ييصق اليوم في وجهه وينعته بالكلب . وهكذا تقدم شاردين بن علو - ذو السلطة والصولة والجولة الزائلة - بكتاب استرحام الى الوزير العظيم عبر فيه عن رغبته في التوجه جندياً بسيطاً الى الجيش النظامي .

« هذا ممكن - قرر الوزير العظيم - سيخلصنا من هذا العاق الغرباء أو الأقرباء . . . » وهكذا خرج شاردين بن علو في لباس عسكري بسيط حراً طليقاً . لا زال سراً دفيناً حتى الآن . هل تصرف سجين الأمس متعمداً الثار؟ أم أن مريدي السلطان المقلوب استخدموه كمرتزق .

وصل شاردين بن علو بعد منتصف الليل الى مركز استانبول في منطقة تاوشانتاش أمام قصر الوزير ميحداد باشا . . علم مسبقاً أنه سيجمع هنا قائد العسكر حسين عوني باشا وأربعة وزراء لإجراء مباحثات سرية . أخفى شاردين بن علو تحت رداثة الواقى من المطر مسدسين وسكيناً في حزامه .

لعله عرف كلمة السر أو المدخل السري للقصر . . . لا أستطيع أن أؤكد هنا تماماً . . . لا أدري . . . إلا أن النبيل الأويغخي بلغ الغرفة التي اجتمع فيها العسكريون . . . أردى شاردين بن علو برصاصه الأولى قائد العسكر الذي حاول القفز من مقعده . أصابت الرصاصة الثانية جبين الكابتن أحمد قيصرلي . . .

وأسكن شارددين بن علو خنجره في صدر رايت باشا . . . ظهر ذئباً بفروة نعجة مع أن قتلاه من فصيلة الذئاب أيضاً . . . زحف اثنان آخران من المجتمعين في غرفة المكتب الى تحت الطاولة . إلا أن الحراس تداركوا الأمر سريعاً . . . ولم يتركوا لشاردين بن علو أن يطلق رصاصته الثالثة بل رفعوه على أسنة حراهم .

هزّ خبر مقتل وزير الحرية والمقربين إليه البلاد كلها . وحين علمت شاندا بمقتل أخيها سمعت نفسها فوراً إذ أدركت الآن إلام ستنتهي الأمور بالنسبة لها . . . جرت التحقيقات . . . ولكن « بعد موت المتهم يعلقون عليه الكلاب القرية والغريبة (*) » وتالت الأحداث . . . إعدام أشخاص . . . إعفاء آخرين . . . انهيار هؤلاء . . . ترقية أولئك . . .

كل ذلك جاء دفعة واحدة . . . هذا ساهم بحجر صغير . . . ذلك جاء بحمل كبير . . . ثالث استأجر عربات المدينة كلها ولم يبخل بشيء . . . وهكذا تشكل جبل كبير من الأثام ، واتفق الجميع على إلقائه كله على رأس شارددين بن علو .

تذكروا ذلك السافل الوضع سليم باشا . . . إنه وضع بالنسبة لي . . . أما بالنسبة للآخرين فقد أمسى فجأة شبيهاً بالقديس . . . « فهو إنسان عالي المقام . . . حاذق . . . أمثاله قليلون . . . إلا أنه قتل على يد أوبيخي » . . . يضطرب البحر بالريح والشعب بالأشاعة . . .

« . . . أتذكرون من قتله ؟ » - « شركسي مجهول يدعى زاورقان زولاق . . . »
« مجهول ١٩ كلاً إنه معروف . . . إنه ابن أخ شارددين بن علو بالرضاعة . . . أما عملية قتل سليم باشا فقد تمّت بمعرفة شارددين . . . » - « أخذ حريم سليم باشا وحول كل نسائه الى جوار له . . . »

حقاً يقال : « لا تحشى السلاح بل احذر النميمة » . . . تذكروا هناك أي محكوم بالموت . . . وأن تنفيذ الحكم قد طال وطال . . .

« من أنفذ زاورقان من يدي الجلاد ، إن لم يفعل ذلك قريبه شارددين بن علو ؟؟ » - « إنه هو الذي دبّر هروب زاورقان من السجن . . . » - « هو نفسه بالطبع . . . »

(*) بمعنى : بعد موت البقرة تكثر السكاكين فيها .

هذه ثمرات حقل واحد ! .. « لعله قتل الكثيرين بعد أن أصبح طليقاً ؟؟؟ » .

الإشاعة تحكم العالم . تلقت الضبطية* التركية الأمر التالي : « يجب البحث عن زاورقان زولاقي .. وبحشوا في كافة المدن والقرى .. إلا أني كنت في تلك الفترة مع قافلة التاجر كريم أفندي في الصحراء التي لا عنوان لها .. أما ماحدث إثر ذلك بإشاراخ فمن أقطع الأمور . ألقى جرم مقتل قائد العسكر ومقتل سليم باشا على الشعب الأوييخي كله . هذه الاحداث وأمثالها - كما سمعت أنا - جرت في حياتنا العادية .

« من هم هؤلاء الشراكسة ؟ .. أو كما تقولون أنتم : الأوييخ ؟ » - « يبدو أنهم أشقياء جميعاً .. فلو كانوا محترمين لما أخرجهم الروس من بلادهم العظيمة .. » - « اعتنقوا الاسلام إلا أن عدد المسلمين لم يزد .. » - « ليست حالتهم وإقامتهم سيئة في عثمان كوي .. » - « ولكن هل سمعتم أن منطقة عثمان كوي هي وكر جماعة شارددين بن علو ؟! » - « ينبغي على الحكومة أن تبشر المهاجرين في أطراف البلاد » - « لا يمكن إبقاؤهم في منطقة واحدة .. هذا خطر .. من الأسلم والأمن بكثير تفريقهم الى أماكن مختلفة .. عندها يموت بعضهم .. ويضيع الآخرون بين فلاحينا .. ويفقدون لغتهم وعاداتهم .. » .

يتنازع الباشاوات فيما بينهم ويقع الأوييخيون كبش الفداء .. يعثروهم .. فرقوم بقوة السلاح وسمحوا لهم بحمل ماوسعهم حملة على ظهورهم . طردوا كلاً منهم في جهة .. حين أبحر المهاجرون الى تركيا حذاهم الأمل . أما الآن فصاحبهم ياس قاتل الى جانب ظلال الحراس .

حدث كل هذا خلال ترحالي في أفريقيا .

بدت على زاورقان حين افترقنا ليلة أمس آثار التعب الشديد .. وخفت على لقائنا اليوم . لكنه استيقظ هذا الصباح أبكر من عادته ودعا بصفرة منه كلبه الأسود فأطعمه ومكث طويلاً في شرفة الدار .. داعب الكلب ممرراً يده على ظهره أو مغرباً إياه بالقفز متحدثاً اليه كأنه إنسان .

- لولا وجود الذباب الذي تصطاده واثباً متلقفاً لمت من الجوع والملل هنا أيها

(*) الضبطية : مستخدمة في اللغة التركية عن العربية بمعنى الشرطة .

المسكين . إيه اذهب من هنا أيها البائس . . . لماذا لم تولد أبيض اللون لأثيبتك بوضوح
أكثر في الليل طالما أننا في هذا الفج الأسود الذي جرتني إليه قدرتي .
التصق الكلب برجليّ صاحبه وهو يشن مسروراً لأن صاحبه يتحدث إليه اليوم .
« عادة ، ما أن يطعمه حتى يبعده عنه بإيعاز صارم . . . أما اليوم فمزاج العجوز
طيب على ما يبدو لي منذ الصباح . » - فكرت أنا .
جلسنا نتحدث بعد الإفطار وتأكدت توقعاتي تلك . فزاورقان مرتاح النفس فعلاً
في ذلك اليوم . . بل إنه طعم حديثه الحزين بالحكم والطرائف أكثر من عادته . . حتى
أنه ضحك وأجبرني على الضحك معه . .
اعتمدت على مزاجه الجيد هذا وقررت أن أطرح عليه أخيراً السؤال الذي أجلته
مرة تلو أخرى :

- هل صادفتم في دريكم نساء ؟

- صادفت - أجاب زاورقان - حدثتك عن تلك التي أحببتها . . . إلا أن السعادة
أشاحت بوجهها عني وعننا . . . لم أحب غيرها بعد ذلك . . أما عدا هذا . . . فكانت
هناك نساء بالطبع . . عم أحدثك إذا ؟ عما تعرفه أم عما لا تعرفه ؟ إذا كنت لا تعرف
عن النساء شيئاً حدثتك عنهن . أما إذا كنت تعرف كل شيء عنهن بنفسك فلماذا أكرر
عليك ما تعرفه أنت .

خفت أن يسيء سؤالي إلى إنسان يكبرني ثلاث مرات إلا أنه نظر ببساطة إلى
فضولي واكتفى بمزاحه هذا . .

امتدت يداه الكبيرتان على ركبتيه بعروقهما الضخمة النافرة الشبيهة بجذور الجوز
القديم النافرة من الأرض . . . وعشت أصابعه بدقته ومسدتها طويلاً وهو غارق في
تفكيره . . . ثم واصل سرد حكايته التي قاطعتها بسؤالي ذلك عن النساء .

عشت حتى الربيع عند الحداد دروسون . لم أكل خبزي هباء . . . أخذت أجلب
الحطب من الغابة . . وأضرم النار دائماً في الموقد . . . أطبخ وأغسل وأرقع الألبسة . . .
فليس ثمة عمل يعيب الانسان . . سواء الرجال أم النساء . . مارست رغماً عن إرادتي
حرفة الحدادة . . . وأصبحت مساعداً للمعلم دروسون . صار بوسعي أن أصنع حديد
الرفش أو الفأس أو المعول حتى أخذ دروسون يمتدح مقدرتي تلك . كنت شاباً لا تنقصه

القوة . . . أوقع الحصان المشاكس على الأرض وأحذي قوائمه الأربعة ، فيغبتط دورسون بنجاحاني .

- لو علم السلطان بمقدرتك هذه لنحكك حتىاً رتبة حداد القصر . . . وأصبحت تحذي الخيول العربية الأصيلة هناك .

حين نفتقر الى عمل في حانوت الحدادة . . . أذهب الى القرى . أطلقت ذقني وشاربي بحيث أمسى من الصعب ان يتعرفني من عرفني في الماضي . . . أقطع الحطب . . . أنظف حظائر البقر والحيل . . . أحصد الأعشاب . . . وأعرف على نفسي كابن عم دورسون من أوردا واسمي توفيق .

كثيراً ماغصّ الدكان بالناس . . . منهم من يأتي بعمل ومنهم من يمر بلا عمل أو لتبادل الأخبار . . .

أدرت أن شخصاً ما سيرفني حتىاً مع أن دورسون يدعوني ابن عمه توفيق . . . وعندها لن يقطع رأسي فحسب بل سيتضرر ابن داود الذي أواني عنده وحماني لديه . ففي سجلات الشرطة أنا مجرم هارب من العدالة .

في الربيع تزهر الفيافي . . . ويندفع كل شيء نحو الشمس . يفرح الأحياء بالدفء وينطلقون بأماهم نحو الضوء ، بل إن الأغصان اليافعة الرقيقة تعانق جذع شجرة السامشيت القديمة ، وتتثبت الجذور بالحياة . ولكن من أنا ؟ . . . غصن صغير على جذع الشعب . أما شعبي في عشان كوي فقد اقتلع من أرضه وغرس في أرض جدباء من جديد . . . وأنا - المبعد عنه - أعيش كغصن صغير مقطوع ومغموس لتوّه في إناء ماء .

خططنا منذ الشتاء ونحن جالسان أمام النار . أنا ودورسون كيف يمكننا أن أصل الى أبناء العشيرة .

قررنا أن آمن السبل هي عبر البحر . لهذا وجب السير على الأقدام الى إزميد . . . ثم بلوغ شبه جزيرة ميزسين بواسطة سفينة شراعية للمهريين . . . والنزول في رأس صغير في الشاطيء بعيداً عن عيون الحرس البحري . بعد ذلك ، ضربة حجر و . . .

دخلت في إزميد لأقضي على أوار جوعي مطعماً يقدم حساء الخارنشو* لأمثالي من الفقراء . جلست في زاوية معتمة قليلاً وطلبت حساء زهيد الثمن وفنجان قهوة . قضيت على أوار الجوع ثم توجهت نحو المخرج . . والتقى نظري فجأة بنظر شخص أسود الشعر بينما أخذت أشق طريقي بين الطاومات . بدا لي وجهه معروفاً . إلا أن ذاكرتي التي استنجد بها انفعالي لم تلب الطلب . . خرجت وانخرطت في زحمة الناس المتوجهين الى البازار . . إلا أني أحسست بمؤخرة رأسي أن هناك من يتبعني . وصدح صوت جهوري فجأة خلف ظهري . . .

- امسكوا به . . . إنه شركسي . . . قاتل سليم باشا .

التفت من فوري لأرى صاحب الشعر الأسود . . وتعرفته عندها فقط . إنه أحد الخدم الذين أوثقوني في حديقة القصر قرب النافورة حيث ترسبت بقع دم سيدهم في قاع البحرة السماوية اللون . تنبه الجميع إليّ وظهروا رجال شرطة وكأنهم خرجوا من باطن الأرض . أمسى لوي أذرع شخص أعزل بالنسبة لهم مسألة دقيقة واحدة لا أكثر .

أغنية الجرح

سرعان ما انعقدت المحكمة في إزميد إثر اعتقاله مباشرة . لا أدري أية ظروف مخفية أثرت على قرارها فاستبدل الإعدام بالسجن المؤبد .

كان السجن الذي أودعت فيه هذه المرة قلعة قديمة شمخت بلونها الشاحب المعتم على قمة جبل ، وأحاط بها من جهات ثلاث قيعان لا قرار لها . . . أما من الجهة الرابعة فدرب يمتد على امتداد الهضاب ويؤدي الى البوابة الحديدية . جدران القلعة مبنية لحسن الحظ من الحجارة الصخرية لا من الأجر . . . ومع أن البرد ينفذ منها تبقى ناشفة دائماً . . لم يخرج من هذا السجن أي معتقل دخل إليه ولهذا أسماه الشعب : « سجن بلا عودة » .

(*) الخارنشو : حساء يصنع في الففقس من البندورة والرز واللحم والزبدة والبصل والثوم

والفلفل والملح وطبعاً الماء .

أودعت زنزانة منفردة ولكنهم يودعون فيها لدى الضرورة أحياناً شخصاً آخر أيضاً . . أضاءتها نافذة صغيرة بقياس رأس طفل بمستوى قامة الانسان . حكّت أطراف الفتحة هذه وجوه المعتقلين المنكبين عليها عشرات السنين التواقين الى نسيم الحرية العليل .

حسبت في البداية الأيام والليالي التي أقضيها . . . ولكنني بعد ذلك أخطأت الحساب واختلطت الاعداد في ذاكرتي . لو أن جدران زنزاني أذان لسمعت الكثير من الصيحات الأليمة التي تمزق النفس واللغات والأناث والكلمات المولودة كلها من الهديان والتخوفات الحقيقية من فقدان هبة النطق . . . فرض على تلك الجدران الصمّاء بالذات - لا على الشيخ أو السجنان أو الأقارب - أن تستمع لنزاع من يفارق الحياة وهو يعلم سلفاً أن أميته الأخيرة لن تتحقق .

المسرة الوحيدة التي لدي . . . هي تلك النافذة الصغيرة ، وعلى جانبها تقعران خفيفان ، نحتتها أيدي السجناء الذين اتكؤوا على موضعها البارد في الحائط السميك متطلعين الى الشمس ، متلمسين دفاها بشفاههم الباهتة ، متنسمين الهواء العليل ببطء أبدي فيمر عبر صدورهم الواهنة .

ولكن من المهم جداً هنا أن تحدد العيون في الأرجاء الرحبة قبل أن تمرض وأن تراقب ما يحدث في البعيد ، فالقاعدة المعروفة أن عيون الشباب الطليقين لا تهتم بالتركيز على جوهر الأشياء والظواهر . . . إنها تمر مرور الكرام على سطح مايقع أمامها . . . أما هنا . . . في الزنزانات فبوسع السجناء الشباب ملاحظة كل شيء حتى البسيطة والعادية ، كتحليق فراشة أو ولادة زهرة من شق جلمود . . قضيت وقتي كله كما قضاه سلفي في الزنزانة ملصقاً جيبي بالطرف العلوي للنافذة الصغيرة الخالية من القضبان .

يتسلل خلال فصل الصيف حين يجود الطقس بعد منتصف النهار وتعلو الشمس فوق قمة الجبل شعاع يواسيني ، مضيئاً إحدى بلاطات الحائط المقابل . أتدفاً بالشعاع طالما أنه لم يغمد . . . أقف أمامه وكأنني أجاهبه تياراً هوائياً ساخناً يأتي من النيران . وأراقب بعد ذلك غروب الشمس . فتبدو لي السماء فوق الجبل وكأنها ساحة مأدبة لسر يفترس صحيته الدورية .

في الليالي التي لا أنام فيها أناجي النجوم البراقة فوق القمة المغمورة بظلام

فاتم . . . تنبعث من النجوم في كل مرة شرارات متنوعة . . . إما أكثر ضياءً وتوهجاً وإما أقل . وحين تبتدئ الظلمة نجمةً هاوية ترسم غيلتي وجه إنسان غارت روحه مع هذه الومضة بالذات « كان إنساناً مجيداً . . . » - أفكر بيني وبين نفسي بأسى عميق موقناً أن السماء ما كانت أصدرت تلك الإشارة لو كان الميت إنساناً سيئاً .
أما الحركة العسكرية للسحب المتصاعدة فتذكرني بوحدات محاربة هائجة مستبلة . . . تضيؤها من الداخل السنة النيران . . . ويهدر منها دوي النصر مذكراً بإطلاق النار . . . ويحدث أن يرشق هيجان الريح العاصفة قطرات من الماء تفلح خدي عبر الجوف الحجري فأصلي والدموع تملأ عيني :

- أيها الرب القادر على كل شيء . . . إذا راق لك أن تميد الأرض تحت أقدام الجنس البشري . . . إذا حلا لك أن تصبّ على رأسه نار السموات . . . فإني أتوسل اليك ألا تفعل هذا في مكان غير هذا المكان . . . كي تهوي هذه القلعة التي « لا عودة منها » بكل ما فيها من مُعَذِّبين ومُعَذِّبين الى القيعان السحيقة التي لا قرار لها .

بقي الرب غافلاً عن صلواتي . إذا نسي الرب شخصاً ما فإنه ينساه الى الأبد .
لاحظت منذ رزحت في هذه الزنزاة فناء بيت وحيد بين الأشجار القليلة في الجهة الأخرى للهاوية مقابل زنزاتي . البيت صغير مبني من الطين . . . وراءه عنبر . وأبعد قليلاً حظيرة بقر . أدت فوراً أن أسرة من أربعة اشخاص تعيش في البيت ، رجل عمره يقارب الأربعين ، امرأتان إحداهما شابة والأخرى تكبرها سناً وصبي صغير . ما أن يبرز الفجر حتى يبدأ البالغون عملهم منهمكين فيه ولا يتوقفون عنه . . . ويلعب الصبي على هواه بألعابه البسيطة .

مرّ السوق وأنا أستقي كل شيء عن حياة هذه الأسرة الفقيرة ، أسرة الفلاح التركي . عرفت ادق التفاصيل عنها وأمست اعيش معها متخفياً تحت سقف واحد .
حين يتأخر اهل البيت في الخروج من الدار في الصباحات يتملكني القلق : هل السبب هو المرض ؟ اعترف لك ياشاراخ اني بقيت على قيد الحياة مقبلاً سنوات طوال في ذلك الكيس الحجري بفضل تلك الأسرة . وكأنها تأتيني بالطعام والشراب وترفع من معنوياتي ولا تدعني افقد عقلي من الوحدة .

أدركت وأنا أراقب حياة تلك الأسرة من خلال منفذ الهواء الغرائبي ذلك أن المرأتين

هما زوجتا صاحب الدار . « لعله كان في الماضي أكثر اقتداراً على إعالة زوجتين
إثنتين !؟ » . أطلقت على أفراد هذه الأسرة التركية أسماء أويخية . عاشت في الففقا
بجوارنا أسرة من أربعة اشخاص : صاحب الدار وزوجته وابنه وأخته . . وهكذا منحت
أسماء هذه الأسرة لمعارفي الجدد في الجهة المقابلة للقلعة . سميت صاحب الدار شيات
وابنه الصغير نافي ، المرأة السمراء النحيفة وهي الأكبر سنّاً شمسية ، أما الأصغر سنّاً
ذات الصدر الكبير فرفيدة وهي أم الصبي نافي .

لم يسمح لنا نحن الأويخ منذ الأزل بتعدد الزوجات . لم يمكننا إدخال زوجة
ثانية الى بيت المتزوج . ولو حدث ذلك لما بقيت الزوجة الأولى تحت سقف واحد مع
زوجها يوماً واحداً . بل لأخذها والدها أو اخوتها الى بيتهم فوراً ولحاق خطر الموت بالزوج
المتزوج الذي يعتبر نواً عدواً لدوداً للعشيرة كلها .

كان نافي في الخامسة من العمر تقريباً حين رأته للمرة الأولى ، عرفته ذكياً نشيطاً
كثير الحركة . . . يلعب في الفناء مع الكلب الصغير الأسود ، يركض خلف الديك
الأحمر ، أو يصنع شيئاً من الأغصان أو الحجارة تحت ظل الشجرة . . . لم يهتم البالغون
بتسليته تلك . تتوجه الأم لجلس الماء ، فيتبع خطاها . . لكنه يخاف أكثر مما يخاف من
زوجة أبيه . . يبكي اثر كدمة تلقاها أو لسعة نحلة انقضت فجأة عليه . . تنهره زوجة
أبيه بصرخة واحدة تكفيه لكي يكفكف دموعه بكمه وينشج بصوت مكبوت .

توجه نافي مع أمه في يوم من الأيام مرتب الهندام . لعلها زيارة لأحد ما أو سفرة الى
المدينة !؟ . . .

أتصدق ياداد أبي انتظرت عودتها قلقاً على أحر من الجمر وكأني زوج رفيدة وأب
نافي .

لبست شمسية السواد طوال الوقت ولم تبسم قط . بدا لي بوضوح وعلى الفور أنها
عاقرة . . . من هنا ولدت مأسيتها وأحزانها . . جاء شيات بزوجه الشاب الجديدة الى الدار
وبردت مشاعره نحو شمسية النحيلة . إلا أنها لم تعتبر نفسها غريبة عن الدار
أبداً . . . بل على العكس من ذلك . . . جهدت دائماً في التأكيد على أن حقوق صاحبة
الدار تعود إليها أولاً . تشهد بذلك الشجارات العائلية الصاخبة في أحيان نادرة .

عاش شيات منعزلاً . فيمكن بالاصابع تعداد الأيام التي دخل فيها باب داره

أناس ما للتحدث في أمر أو نقل خبر . إنهم في الغالب من البلدة المجاورة الواقعة على بعد لا أمكن منه من نافذتي . شبات كما استنتجت أنا قليل الكلام ، رصين الخلق ، صبوراً على الأمور . يسير ببطء . . . ولا يستعجل البدء بعمله . . . يقطع الخطب مثلاً دون أن يبدي نشاطاً متميزاً . . . يجلس للشدخين ويفرق في تفكيره العميق . ولكنه يعمل منذ الصباح وحتى الظلام .

أذكر ربيعاً حل مبكراً فاخضرت سفوح الجبال كبساط سندسي . . . أما شبات فأمسى حزيناً كل الوقت . . . لقد تأخر في الشروع بحراثة الأرض . . . أنهت بي وبيني نفسي . . . ولكن لعلي غير محق في ذلك . .

كان لسان حالي يقول : ما بك تهدر الوقت الثمين . . . !؟ ثمشي الى هنا والى هناك . . . ولا ترى ان الوقت قد حان لأخذ المحراث بكلتا يديك !!؟ ولكن اتضح أن المسكين لا يملك ثورين وأنه ينتظر حتى ينتهي الناس في القرية من حراثتهم ليبدأ هو . لكن بذار الذرة الصفراء الذي يُنثر متأخراً نادراً ما يعطي محصولاً جيداً .

شحد شبات فأسه على المشحد مع قدوم الشتاء . . . ودع أهل الدار ورمى بخرج على ظهره خارجاً من البيت . يعيب عادة حتى الربيع . . . أما إذا سقط ثلج كثير فيعود شبات ليوم أو اثنين فينظف السقف والقناء من الثلج ويقطع الخشب ويعد العلف لبقرة البوحيدة . . . ثم يذهب من جديد . . . قدرت بي وبيني نفسي أن في الغابة - خلف جبل أو جبلين - مورد رزق من تقطيع الاخشاب وأن شبات يقصده ويبقى هناك حتى الربيع . رافقت شبات وزوجته في كل مرة عزقوا فيها الذرة الصفراء أو غرسوا التبغ . . . استنشقت بأنفي رائحة الارض الحلوة ويتدفق الدم في عروقي ضاحجاً بالحياة . . . أنسى أني أقيع في سجن لن أخرج منه حتى الممات .

زحفت السنون كعربة مثقلة بالحمولة تصعد جبلاً . لم يكن حتى يوم اعتقالي شعرة شائبة في ذقني المسدلة على صدري أما حين بدأ نافي يخلق ذقنه أمست ذقني وكأنها مغموسة بالطحين . حسبت عدد سنوات سجنني وفق نمو ابن شبات . كان الصبي تقويمي الزمني .

أصدر الحرس الليلي انذاراً بالخطر . . . سمعت أصوات صفارات . . .

صيححات . . . صوت اطلاق رصاص وفكرت على الفور « لعل أحد السجناء قد هرب » .

ولكني رأيت في الصباح حين اقتربت من النافذة اناساً يدخلون بيت شحات . ثم ظهر بعد ذلك شيخ . . . هوى قلبي من مكانه . . . حلت مصيبة حتماً . . . وبالفعل ماتت رفيذة في تلك الليلة . بكى نافي أمه دون خجل من دموعه . إيه . . . لو كنت قربه لحاولت إيجاد كلمات أواسيه بها . . . وهكذا أسقط في يد شحات بعد موت زوجته . . . يجلس طويلاً وهو يعتمد على عصاه حاذي الرأس في ظل شجرة . يدعى للغداء أو العشاء فينهض دون رغبة ، ويدخل البيت دون استعجال .

في أحد الأيام وبيننا وقف شحات مع شمسية في فناء المنزل دخل البوابة فارس . انحنى العجوز والعجوزة للقادم ولكنه لَوَّح بسوطة ، وتفوه بكلمات نابية بصوت عال . . . بدا أنه ينهال عليهما بشتامه . ثم بعد ذلك دفع بحصانه كالمسعود الى صاحب الدار مباشرة . وقع شحات على الأرض بعد أن كان يقف في مكانه بعناء شديد على رجليه الضعيفتين . صرخت شمسية واستجدت . ولكن ما من أحد حولها . « ابن الكلبة - ثرت شاداً قبضة يدي في زنزاني - آه . لو أُنِي الآن في فناء شحات لما جمعت عظامك . . . » ضربت بقبضتي على الجدار ناقثاً غضبي وقهري . فقد برقت في ذاكرتي في بثر النسيان تلك الحادثة البعيدة حين لَوَّح شاردين بن علو بالسوط فوق رأس ماتا في عثمان كوي فطرده بعيداً عتاً . حننت أن الفارس هو ناظر لأفندي ما ، وأنه يطلب دفع الضرائب . . . من أين لشحات بالنفود وهو بالكاد يحرك قدميه إثر وفاة رفيذة؟؟ فكرت أنا .

جلست شمسية في عتبة الدار تحيط أو ترقع مايبدها . كانت وحيدة في ذلك اليوم . . . وفجأة دخل الدار أربعة مجهولين تقدمهم نافي . حمل كل منهم بندقية بيده . . . « يالك من شاب !! وتحمل السلاح أيضاً؟! » تعجبت لأنني ظننت سابقاً أنه لا يقوى على إطلاق النار .

دعت شمسية الجميع الى الدار . لم يخرج الرجال طيلة فترة طويلة الى الفناء . فعل مايسدو أنهم تناولوا طعاماً كيفما اتفق . . . مما رزقهم الرب . « ولكن لعل هؤلاء عصابة لصوص أغرت نافي بالانضمام إليها؟! » - قلقت عليه بالفعل « كلا - قاومت نفسي

اضطرابها - لن يُقدم ابن فلاح نزيه على التفكير باللصوصية . « إلا أن الصوت الأول اعترض قائلاً : « لتربية الإنسان تلزم سنوات طويلة أما لإفساده فتكفي ومضة عين واحدة . »

خرج الضيوف من البيت، وودّع بعضهم بعضاً . . . مضوا عبر الفناء لا عبر البوابة ثم خرجوا أخيراً من ثغرة في السور، وعاد نافي الى الدار بعد اختفاء رفاقه الأربعة عن الأنظار والبندقية على كتفه . « ماذا يعني هذا كله ؟ » تعذبت في أحجياتي . . . وتعبت ساقاي وتحدرت يداي المعتمدتان على الحائط . . . برد حساء القول في الصحن الفخاري الذي دسّه في الحارس عبر باب زنزاني المنفردة . . . إلا أني لم أرفع نظري عن بيت شيات .

وها أنا أرى ثانية الفارس الذي رمى شيات الضعيف على الأرض بصدر حصانه . . . هاهو يقترب من جديد ويدخل فناء الدار ويسأل شمسية عن شيء ما . . . لعله يسألها : « أين الرجال » ثم بعد أن استوثق من أن الرجال غائبون عن الدار لوى عنق حصانه ودفعه الى حيث ترعى البقرة الوحيدة ، مطعّمة الأسرة . اندفع كالسعور وفك طرف الحبل من الوتد المفروس في الأرض ثم قفز الى سرج حصانه ثانية ، وساقها امامه ملوحاً بسوطه . . . تضرعت شمسية بيديها الى السماء ، وأخذت تتوسل إليه ألا يأخذ البقرة . إلا أن الفارس لم يعرها أذناً صاغية .

وخرج في تلك اللحظة بالذات نافي متوثباً كالنمر ويده بندقية . لاحظت توهج النار أمام فتحة السبطانة أولاً ثم سمعت صوت الطلقة . وقع الفارس في حيرة من أمره . . . ثم ما لبث أن رمى الحبل . . . صدح صوت الطلق الثاني . . . فحنى الفارس رأسه الى عفرة حصانه ، ورمح بحصانه كالسهم هارباً مبتعداً . ربط نافي البقرة بالوتد ذاته في المرح ، وأرفق كلماته بحركات وديّة معبرة مهدتاً زوجة أبيه المرعوبة التي أخذت تمسح دموعها ، ثم توجه من خلال تلك الثغرة في السور - التي مر عبرها رفاقه - منطلقاً نحو الجبال وهتفت : « أحسنت يا بني . أحسنت تصرفاً مع المسيء . . . إنك كما يبدو رجل حقيقي » . . . سررت ومدحت نافي بصوت عال . . . ثم رمّت جناحيّ ذهنيّاً كنسر عجوز في القفص ، شاعراً برغبة عارمة في انتزاع نفسي من هنا حراً طليفاً . . . لارتفع ولو مرة واحدة أخرى أخيرة إلى السماء . هكذا أمكن لروحي أن تستمر من جديد - بعد أن

خذ أوارها - بمثال ضُرب في الشجاعة أمامي توأ . . . تلك هي القوة التي ثماكها « عين صغيرة » تتطلع الى الحرية .

أمسى ظهور نافي في البيت نادراً . . . يزور أباه وزوجة أبيه ويبب للعمل من فوره . حتى إذا انتهى منه اختفى دون إبطاء . . . وسواء قطع الأخشاب أم عزق الذرة الصفراء أم نطفت حظيرة البقر . كان كل الوقت يبقى بندقيته الى جانبه . لم يمر زمن طويل على تلك الفترة التي كان فيها هذا الصبي يلعب في الدار ويبني بيوتاً من الأحجار الصغيرة والأغصان الغضة . أما الآن فأمسي ممشوق القامة في زهرة شبابه جاهزاً دائماً للدفاع والسلاح بيده عن بيت الأهل وحقل الأهل وعزته هو .

يأتي نافي إلى الدار مع زفاته اليواصل الذين يشبهونه فتقر عيناي برؤيتهم . . . لقد أبقظ هؤلاء الشبان الأمل في نفسي . وأخذت مخيلتي ترسم كل الوقت لوحة واحدة . . . فضيلة نافي تهجم على حراس السجن فتقضي عليهم وتفتح أبواب الزنانات . « اخرجوا - يصدح صوت نافي فينا - عاشت الحرية » وأتخطى عتبة الزنانة وأعانقه بشوق . . . وأرى أنه يشبه كل الشبه أخي ماتا الذي انقطعت أخباره ، أوه يا حللوة الأمل . . . إنه ليس بهذه العزوبة على القلب كما في السجن .

لو أن نافي يقترح عليّ : « احمل السلاح وانطلق معنا فعدونا واحد » . . . لانطلقت دون تردد ، أعارك وأقاتل تحت لوائه حتى لو عرفت أن رصاصة العدو الأولى ستحترق صدري بالذات .

لديكم أيها الأبخاز ، يا عزيزي شاراخ مثل شعبي : « روح الغريق تحصد بذور الأمل حتى في قعر البحر . . . » إنه كذلك حقاً . . .

يخرجوننا للنزهة نحن المنتقلين مرة واحدة في الشهر . إلا أن التحدث ممنوع علينا . ومن يتجرأ على الحديث يُجرم من النزهة التالية . أخذت أسمع أحياناً عندما نجيم صمت القبور في اللبالي بشكل خاص - كيف يتنفس سجين الزنانة المجاورة بصعوبة وألم . . . كيف يسعل بشق النفس ويش أنيناً صاخباً ، ثم لم أعد أسمع شيئاً إثر ذلك ، حتى حين أضع أذني على الجدار فترة طويلة . لعل المعذب لاقى حتفه !؟

وفي إحدى اللبالي عذبني صداع شديد حجب عني النوم . . . وسمعت فجأة بوضوح شديد أغنية عذاب وألم . « لعل أتوهم هذا !؟ - فكرت في البداية - من بوسعه أن

بغني أغنية أبخازية عن الجراح !!! إلا أن ذلك لم يكن وهماً .
ارتعدت فرائصي ونسيت ألم رأسي فأصخت السمع مملصقاً أذني بالحجر البارد بكل
مأوتيت من قوة .

أمسى سمعي مرهقاً كالخفاش . كلا . . . لم يكن ذلك سراياً للأذن أبداً بل هناك
من بغني أغنية أبخازية معروفة بصوت ضعيف لاهث مفعم بالأسى . يقطع الأغنية
أحياناً سعال يخر الصدر ويسوم صاحبه ألوان العذاب . . . ثم يصمت سجين الحجر
المجاورة إذ تغرق ذاكرته في بحر النسيان . . . وأسمع من جديد النغم الحزين الشجاع .
لا ألتقط كافة الكلمات ، بل بعضها فحسب . . . ولكنها كافية لإدراك ما بغني الجار وراء
الجدار . . . ولم يغمض لي جفن حتى الفجر . . .

مرّ يوم طويل بحاله وأنا أترقب الأغنية . . . ثم حين لمعت نجمة بعيدة فوق قمة
شاهقة وصلت إليّ فحاة أغنية الجار . علمت من أمي منذ طفولتي بأن أغنية الجرح بغنيها
الرجل حين يصاب بجرح مميت . . . دعني العادة والواجب أن أقدم له العون . . . ولكن
كيف أقوم بذلك؟! أن أسترحم السجنان؟ لم يكن بوسع أيّ من الحراس أن
يفهمني . . . ثم من يشفق على السجين في هذا السجن الأزلي يتمنى له الموت ولا أكثر،
ففيه خلاص من الآلام والأحزان . . . كما يعتبر المعتقل سعيداً عادة إذا مات بسرعة .

أغنية الجرح . . . تذكرت تسييلدا حيث عاش أقرباء أمي . . . وحين جرح أحد
أخوة أمي في بطنه واحتضر أمامي . . . كنت فنياً ورأيت كيف راح الأقرباء والجيران
يغنون له على فراش الموت أغنية الجرح .

كان يكبت أنينه ويشاركهم الغناء . . . مات الخال وكلمات الأغنية على شفثيه
المرتعشتين . . . لن يعيش المعضب وراء الخدار طويلاً . . . وتوجب عليّ حسب العرف
الأبخازي أن أستمع لوصيته الأخيرة وأن أسبل له عينيه بعد وفاته .

. . . وفي اليوم التالي حين غنى أخي خلف الخدار أغنيته الحزينة تلك تابعتها
بأعسل صوتي ، حتى أن الحراس فتح الباب وزعموا قائلاً . . . « ما بك تصرخ أيها
السجين؟ » لم أعر السجنان أيّ اهتمام . . . وكررت أغنية الجرح ثلاث مرّات باعناً كلماتها
في ذاكرتي من جديد . . .

وأي رايدا . . . ليس رجلاً . .
من لا يكز أسنانه . .
وتخفي عذابه . .
وأي رايدا . . . ليس رجلاً . .
من يأتيه . . .
بفضح آلام جرحه . .

أخضت صوتي تدريجياً وألقت أذني بالحائط . تكرر هذا ثلاث مرات . . .
وتأكدت فجأة من أن الجريح الأبخازي قد سمعني . . . وغنى معي . . . لم يبق لدي
مجال للشك بأنه غنى معي فعلاً . . . واغتمطت نفسي بفرح عارم . . . أليس مدهشاً أيها
العزيز شاراح أن يوسع من بغني أغنية الجرح أن يشعر بالسعادة؟! لم يحدث مثل هذا من
قبل إطلاقاً . . . ولكنني بل أنا وحاري في السجن فرحنا كل الفرح بسماع بعضنا
بعضاً . . . أمهي الأغنية فيبدوها هو . . . ينهيا هو فأيدوها أنا . . . نغني وتغني . . .
نفقد قوتنا فتنام . . . واستمر هذا أكثر من ليلة . . . ولكن سرعان ماخفت . . .
ففي الوقت المعتاد لم يصدر من الزنزانة المجاورة أي صوت . . . لعله تعب وحارت قواه من
الأم والعذاب . . . فكرت أنا . . .

يوم الغد يوم نزهة . . . حين يخرج السجناء الى فناء السجن يبدون أشبه بالظلال
منهم بالبشر . . . وهمس لي أحد تلك الظلال بعد أن استجمع شجاعته . . .
- في المدينة اضطرابات كثيرة . . . سرعان ما سيمتلئ وكربنا هذا كبرميل السمك
ليضعون كل الثين في زنزانة . . .
. . . من خلال سلوك نافي ورفاقه تنبأت من زمن بعيد أنه تجري خارج السجن
تحولات واضطرابات . . .
لم يمض أكثر من ثلاثة أيام إلا والباب الذي عمه لونه من الصدا يفتح بصريير نافر
ويدفع السجناء بشخص إلي . . .
- استقبل الضيف . . . مزح أحدهم بسخرية . . .
ورأيت من خلال الضوء الخافت إنساناً طويلاً القائمة بكاد رأسه يمس السقف .

شعره أجعد لم يمسه الشيب بعد ؛ مبشر على جبينه ، ونمت في وجيشه ذقن كثة
كالشجيرات الغزيرة . رأيت يوماً يابني بحيرات جبلية عند الفمم المعممة بالثلج
الأبدى ؟ إنها زرقاء كشطايا السماء . . . رأيت عينيّ الداخلة بهذا اللون تماماً . . . دخل
ووقف على رجليه بوهن شديد وعلى الرغم من نحافته وضعفه جهد بكل ما بقي لديه من
قوة ليبقى منتصب القامة .

- يوم طيب - حيّاتي ضاعطاً براحة يده على صدره وأضاف بضحكة حزينة : -
الحق أنه لا توجد أيام طيبة في السجن . . . قل لي أيها الصديق ألسنت أنت من اقتسم
معي الألم وغنى أغنية الخرح ؟ . . . هل أنت أبخازي الأصل ؟
صعنتي ظهوره المفاجيء . . . ولو لم أستند الى الحائط لسقطت حتماً على الأرض .
- قدومك عيد بالنسبة لي - قلت أنا ، وأصفت منفعللاً - الوقوف صعب
عليك . . . اجلس . . . اجلس .

سقطت جالساً على طرف السرير ولاقى بوجهه حزمة الضوء الآتية من النافذة .
توقف قلبي من الغم والأسى . . . فقد رأيت على وجهه ذبي العينين الزرقاوين ظلال
الموت الأكيد . . .
- أنا أوبخخي إلا أن أمي أبخازية - وعانفته شاعراً بهيجان داخلي في مشاعري
وابتلعت دموعي أسفاً على السائر نحو الموت . . .
وهنا أمعن نظره في باهتمام شديد مصعوقاً لأمر ما . . .
- كنت أعرف في الطفولة شخصاً اسمه زاورقان زولاق إنك تشبهه كثيراً . . . ولكنه
لو بقي حيّاً لكان أقل سنّاً . . . وغطت الدموع عينيّ .

- أنا هو زاورقان زولاق . . . ولكن من أنت أيها العزيز ؟
- أوه أيها الرب الرحيم - همس وزفر بأنينه المكتوم - ولكن قبل لي إنهم شفقوك . . .
أصبح أنك هنا منذ مقتل سليم باشا ؟
- تقريباً . . .

- في تلك السنوات كنت أنا صبيّاً صغيراً . . . إلا أني عرفتك من عينيك . . . من
العينين . . .

لم يقسو على التحدث أكثر . . . فقد أخذ السعال . . . السعال الخائق يمزق

صدره . ساعدت المعذب على التمدد على السرير وتناولته ماء . . . هدأت نوبة السعال قليلاً بعد برهة من الزمن وشعر بشيء من الإرتياح فأخذ نفساً ضعيفاً وسأل :
- تذكّر يا زاورقان بلدة عثمان كوي ؟ إلى جواركم عاش الأبخازي الساذي مزوتش أبوخبا . . . أذكر أنكم كنتم رفاقاً طيبين له . . . أما ابن مزوتش . . . العنيد شو ديد فكان يقضي في فناء داركم أوقاتاً أطول مما يقضيه في فناء دار أبيه . . . وكنت تصنع له اللعب بنفسك . . .

تنفس الجبلي البائس لاهتاً متلاحق الأنفاس وأمسك كل الوقت بصدره وكأنه يخشى أن يعاوده السعال اللعين في أية لحظة ويبدأ بخنقه من جديد .
أنت إذا شو ديد ؟! ابن مزوتش . . . شو ديد ؟! - تعجبت صارخاً . . .
- نعم ، حضرت يا زاورقان . . .

- يا إلهي ! ماذا يفعل الزمن ؟!

ولد ابن مزوتش أبوخبا في تركيا ، في سمسون . . . وسماه أبي شو ديد . . . باسم إحدى القمم الشاهقة في أبخازيا . لعل تصوراتي تفوق مايمكن وما لا يمكن أحياناً ، أما أن أتصور أن أمامي شو ديد نفسه ؟! . . . الذي حملته صغيراً بيدي أوقاتٍ طويلة ، وصنعت له الصفارات والألعاب ؟! . . . فهذا مافاق كل تصوراتي حقاً .

تفتح جرح الرصاص في صدره وفنكت بالصدر حمى مميتة أنهكت قواه . آه لو أمكنتي منحه حياتي . . . لأطيل لفترة بسيطة أخرى سنوات حياته لو أمكن هذا . لسرني وأمتعني كل السرور والمتعة . أدرك شو ديد أنه يموت ولم يشك قدره . . . بقي صامداً صنديداً كما يجدر بالرجال أن يكونوا . ومع أن التحدث خطر على صحته المتردية فإنه لم يعر ذلك بالأ وأخذ يتحدثني عما جرى له ولأسرته بعد أن أردت سليم باشا :

- غادرنا أنا وأمّي وأبي عثمان كوي لنتنقل الى منطقة أدا بازاري حيث قطن أبناء نالتا وتسييلدا وغومي إثر الساذيين . ساعدنا أبناء العشيرة على بناء بيت لنا . . . وأرسلوني إلى المكتب (*) اتضح أن لديّ امكانيات جيدة للتفوق في الدراسة . . . وهكذا أرسلت إلى المدرسة في استانبول . درست فيها سنتين . . . ولكنني لم أستطع إنهاءها لنفاذ نقود

(*) للكتب : عن العربية بمعنى المدرسة .

الوالد . . الحق أي تعلمت خلال الستين ثلاث لغات . واستوعبت بعض المعارف المفيدة . . التفتيت في استانبول بظاهر حفيد العجوزة حميدة . لقد أصبح طاهر معلماً والتحق بالأوبيخ حين أبعدهوا عن عثمان كوي . راسلته فترة طويلة . . إنه الآن يعلم القراءة والكتابة للأطفال الأوبيخ في قرية بعيدة . إنه انسان جدير بكل احترام وتقدير . . . أما وريث شاردين بن علو مانصو الذي شب جنباً الى جنب مع طاهر فقد تحول الى سكير عرييد مولع بالولائم والقمار والنساء . . . بنفس ملذات أبيه شاردين .

. . انقصر شو ديد لمزيد من احواء وبسات العطش بعذبه أكثر فأكثر . لو أعطيته إبريقاً مليئاً بالماء لثَّبه وأفرغه حتى قاعه . . . أحاول جذب أطراف الحديث لاتيح له أن يرتاح ولو بعض الوقت . . أحدثه عن اعتقالاتي وكيف أسست أسرة شبات من أقارب الأعراء . . .

لم يندهش ابن مزوتش أبو خيا كثيراً لأن نافي دافع عن بيته بسلاحه . . اتضح أن أحداثاً كبيرة جرت ونجرت خارج جدران السجن . . . انتفض الفلاحون الأتراك بعد أن بلغوا أسوأ حالات الفقر المدقع نتيجة الحروب التي لا نهاية لها والضرائب التي لا تعد ولا تحصى . . . أخذوا يثورون أكثر فأكثر ، ويحاربون بسلاحهم سنططات السلطان . . . وفي روسيا اضطرت الأمور أيضاً . . علمت من شو ديد أن أباه التحق بجيش كمالات ليصل الى بلدة في القفقاس .

- قال لي قبل إبحارهم : « حافظ على الوالدة ولا تعتقد أني ذاهب لمحاربة الروس . فما أن نرسو هناك حتى أترك كمالات باشا على الفور . واذكر أيضاً بابني : قد يفقدك وطنك ، ولكن إياك أن تجرؤ على فقدانه في قلبك » . . . وفعلاً . ما أن رسوا على الشاطئ الففقاسي حتى هرب والدي من جيش كمالات باشا جازاً معه مئات الرماة . ثم انقطعت أخباره . . وتوفيت الوالدة وهي تترقب خيراً طيباً عنه .

اتضح لي بعد فترة أن الوالد حي يرزق . . واستلمت منه رسالة . إنه يعيش في بلدة جفيرد . . . يناديني الوالد المسن إليه ولكني لن أراه بعد الآن .

وأغمض شو ديد عينيه . . وضعت راحة يدي على جبينه الملتهب . . . طلب ماء . . . فناولته وعاء فيه ماء . . . شربه بشره شديد . . أما صدره فبات يخر . . . وسرعان ما واصل حديثه .

- . . بعد مضي أسبوع على استلامي رسالة الوالد انتفض المهاجرون الأبخاز
الذين بلغ بهم اليأس أشده من جراء الأناوات والعمل اللا بشري المكرهين على القيام
به . قتلوا في ثورتهم مدير أعمال الأمراء من أسرة مارشان . . فقد تهددهم هذا بالنفي الى
الأراضي الصحراوية أو إبعادهم الى سوريا .

قرر الناس العودة الى الوطن - أبخازيا . عزموا على استحجار سفينة ، إلا أن ذلك
تطلب نفوداً كثيرة ، لم تتوفر لديهم . وهكذا اضطرتهم الحاجة والغضب المحتدم الى
الإجرام . وضعوا خطة لسرقة عربة بريد تحمل أموال الخزينة . . شاركت في
تطويقها . . واتضح أن العربة السوداء حرست بشكل مشدد . .

بدأ إطلاق النار . . وأصابني رصاصة في صدري . حوكمنا إثر ذلك . . وهناك
النتيجة . لن أتمكن من رؤية الوطن . . إذا تهباً لك ورأيت يازاورقان فانحن له عني . . .
إني أؤمن بأن يوم الحرية أت إليك لا ريب . أوائى رايدا . أوائى رايدا - صاح بملء صوته
مغنياً أغنية الجرح . .

فارق شو ديد الحياة على يدي وكلمات الأغنية على شفثيه . . رافقت شو ديد في
الغناء وعبراني تخفتي . . . حتى لفظ أنفاسه الاخيرة . . أغمضت له عيني وانا أجهل ان
كلماته ستمسي بالنسبة لي كالنبوءة .

أخذ كل شيء في البلد يعلى ويفور . وتغير الحال بالارادة القوية والتصميم الشديد
ونخلع السلطان الطاغية عبد الحميد عن عرشه أخيراً وانتقلت السلطة الى أيدي الأتراك
الشباب ، ثم خرج هؤلاء ببيان لهم ، وفتحت أبواب السجن أمام الكثيرين . . وحصلت
أنا أيضاً على حريتي لمرور وقت طويل على ارتكاب الجريمة .

الفصل الثالث

ماذا بوسع الزمن أن يغيرَ ؟

- كيف نمت ليلتك أيها العزيز شاراخ ؟ - سألتني العجوز باهتمام زائد صباح اليوم وحجّلت وأنا أجيبه بأنّي نمت كالقنبل .

- هذا جيد . . . أن يصبح النوم هادئاً لدى الإنسان . قال العجوز - ولكني ما إن أفكر بما عشته ورأيتُه حتى تمسي الذكريات كأمواج البحر ، فتتلفني سريعاً وتعدني عن النوم وكأنها تسحني عن الشاطئ . أتدري أيها العزيز شاراخ بماذا فكرت في هذا الصباح الباكر ؟ « طالما أن ضيفي خالي ويقيم عندي في بيتي فإنّي لم أعد أشعر ثانية بأنّي مهمل منسي ، لا أهل لي . . . ولكن إلام سيؤول خالي بعد ذهابه ؟! » . أفكر بهذا كل صباح منذ تحطّبت عتية منزلي . ولكن . . . اليوم بالذات تراءى لي أن شيوخنا سيبت وصلاح وغيرهما ممن رحل من زمن بعيد عن هذا العالم . . . قد أمروني بالأخاف من انصرافك . . .

- حين يسافر أعطه روحك ليأخذها معه - قالوا لي - ويُعيدها إلى أرض الأجداد . فأرواحنا كلها ذهبت إلى هناك من زمن بعيد . أما عظامك القديمة فلتفن هنا مثل عظامنا . . . من له بها حاجة ؟

هذا ماقالوه لي حين كنت أنت ناشئاً . . . أما أنا فلم أتم . وإذا كانوا محقين في ماقالوه فحتى لو أنّي لم ألحق وأسلمك روحي قبل سفرك إلى الوطن فإنها ستلحق بك إلى هناك حتّى . . . وعلى الأغلب أنها لن تمكث طويلاً هنا . آه من الشيوخوخة اللعينة . لا

تزعجل ، لن أحدثك اليوم بشيء . علي أن أقصد مكاناً لفترة قصيرة من الزمن ، وحين أعود قد أتمكن من النوم . . الأرجل المتعبة تساعد الرأس على النوم أحياناً ، حتى حين لا يريد النوم .

أخذ زاورقان عكازه إثر ذلك وخرج من البيت - إلى أين ياترى؟! لعله توجه إلى القبور القديمة ؟ لا أدري .

جاء يريم كعادته في منتصف النهار وحين علم بغياب العجوز لم يسأل عنه أكثر بل اجلسني إلى الطاولة وقدم لي الطعام وذهب .

بقيت وحدي مع أفكارى . . . أمسيت مسروراً هذه الهدية المفاجأة : الوحدة . فإثناء التسجيل لا يمكن التفكير كما يجب . إن قصة حياة زاورقان زولاق ، حكايته الدامية شبيهة بآثار جريح يمر عبر مأساة الشعب الأويغخي . أدهشني كثيراً دقة ذاكرة العجوز المشوي . فهناك تطابق دقيق بين ماحدث به عن نفسه وتاريخ الأحداث الماضية . غادر الأويغخيون الضفاف القفقاسية سنة (١٨٦٤) . لعل عمر زاورقان زولاق عندها (٢٤) سنة . . هكذا ينتج من خلال حديثه . وهذا يعني أنه ولد في عام (١٨٤٠) وطالما أن عمره الآن في عام (١٩٤٠) مئة سنة فهذا يدلي بالحقيقة الخالصة .

« بقيت مع الأويغ بعد أن رسونا في سمسون خمس أو ست سنوات لا أكثر . . هذا مع حساب السنوات التي عشناها في عثمان كوي » . هكذا يقول زاورقان . . وإذا اعتمدنا على هذا القول فإنه قتل سليم باشا آخذاً بثأر أخته في عام (١٨٦٩) أو (١٨٧٠) . . ثم سرقوه من السجن وباعوه عبداً . . يقول أيضاً : « قطعت ثماني سنوات وأنا أتعثر وأقع لأنض من جديد ، سائراً ليلاً نهاراً في الصحراء الأفريقية . . » إذا وبغض النظر عن الشكل الشعري للأمر فإن جوهر القول - بشكل دقيق أو قريب من الدقة - أنه إذا بقي في أفريقيا ثماني سنوات حقاً لامكنه بالفعل العودة إلى استانبول في عام (١٨٧٧) . . أي في الوقت الذي هُجّر فيه الأبخاز بشكل قسري إلى تركيا . . . وهذا ماترك أثره الصارخ في ذاكرته العجوز .

قضى بعض الوقت طليقاً إثر ذلك ومن الصعب أن نفهم من خلال ذكرياته : متى اعتقل ثانية ؟ ولكن . . - وبالمقابل - فإن تاريخ إطلاق سراحه . واضح تماماً . لقد وقعت ثورة الأتراك الشباب سنة (١٩٠٨) وأطاحت بحكم السلطان المدموي عبد الحميد

الذي يتذكره العجوز بقسوة شديدة .

قضى زاورقان زولاقي سنوات اليأس في السجن وطارت إليه شرارات الثورة الروسية الأولى عبر سهاكة جدران السجن وهو أسير حجرته المبتورة عن العالم كله . لتذكر حكاية العجوز التي عنونها « أغنية الجرح » كيف نسى للسجين الجبلي أن يعرف من خلال تلك الثغرة في جدار السجن ، التي راقب منها لسنوات طويلة على التوالي حياة الأسرة الفلاحية التركية أن الصبي الذي سماه نافي قد انتفض حين أمسى يافعاً وحمل السلاح إلى جانب الألوف من الفلاحين الأتراك ليلقي نير السلطان عن كاهله ، وأن العسكريين الذين اعتمد عليهم السلطان كحصن منيع لقوته خذلوه فجأة . ففي تلك السنوات بالذات - وهذا ما لم يعرفه العجوز بشكل جيد بالطبع - كتب / ٢٨ / ضابطاً تركيا رسالة إلى شقيقة الثائر الروسي المعتال الملازم شميت المعروف بجرأته النادرة . . . جاء في الرسالة التي أذكر كلماتها عن ظهر قلب منذ سنوات الدراسة : « إننا نقسم بأننا سنناضل حتى آخر قطرة من دمائنا في سبيل حريتنا المدنية المقدسة التي سقطت من أجلها الكثير من خيرة مواطنينا . إننا نقسم أيضاً بأننا سنسعى بكل قوانا وجهودنا لتعرف الشعب التركي على الأحداث في روسيا . . . ولكي نترع بجهودنا المشتركة حقنا في العيش الجدير بالإنسان . . . »

كيف أمكن لزاورقان زولاقي أن يعرف بالصلوات القائمة بين المجموعات الثلاث من الأحداث ؟ - بين أحداث عام (١٩٠٥) في روسيا وإعدام الملازم شميت ، ورسالة الضباط الأتراك ، وقلب حكم عبد الحميد ، والإفراج عنه من السجن ؟؟ - لم يمكنه معرفة ذلك بالطبع . . . إلا أن آثار هذه الأمور ظهرت من خلال سرده لحكايته بهذا الشكل الغريب العجيب أو ذاك .

ومع أننا توقفنا هنا فإن قصة حياته تشكل صدى للتاريخ بلا شك . أمامنا الحرب العالمية والثورة في روسيا والثورة في تركيا . لقد تفاعل كل ذلك بشكل ما أو كيفية ما أو جانب ما مع تاريخ الأويغ والمصير الشخصي للعجوز .

. . أفرح بفرصة اليوم التي أتيت لي ؛ إلا أنني أقلق من جهة أخرى فموعد سفري يقرب . ماذا سألحق بتسجيله وماذا سيفوتني ؟

لم يشرح لي زاورقان إلى أين ذهب ، بل تعشى صامتاً إثر عودته وورقد للنوم قبل .

أمشولته : « الأرجل المتعبة تساعد الرأس على النوم » - حقيقة مقدسة كما اتضح فعلاً . فلم ألحظ أنه فاق في الليل . وفي الصباح هب متحدثاً إلي من فوره غمناً ما يقلقني من أفكار وخاوف .

انتظرتني خلف عتبة السجن سنوات تشرد . يقال : « يعطي الله يوماً ويعطي رزقه » . لا أحد يعطي هكذا بلا مقابل . ولو عاش الإنسان صبوراً جلوداً لا نزوات لديه ولا أطباع فلن يقوى على العيش بدون خبز . أليس هذا حقيقة باشاراخ ؟ . . غطى غبار العديد من الطرق رجلي . من لم أكنه في مسيري الطويل ؟ رعيت الأغنام بالأجرة لدى أصحاب قطعان أغنام مسمنة ، عملت حمالاً في ميناء إزميد ، كناساً في دكان تاجر غني ، حفاراً في بناء سكة حديد . وهكذا بلغت بلدة شات إبا* حيث عاش الأبخاز المهاجرون . لم أجد هناك أحداً حياً من أقارب أمي سوى ابن خال أمي قانصو الذي آواني تحت سقف بيته حوالي ستين . أراني قانصو قبرين في مقبرة شات إبا . رقد في أحدهما أبي وفي الثاني أمي . انتصب فوق رأسيهما حجران كبيران جلفان ونبتت الأعشاب على القبرين . حددت معالم القبرين وواسيت نفسي بأن الوالد والوالدة حصلوا على مثواهما الأخير بين الأقرباء والأهل .

هل تريد أن تعرف باشاراخ ما الذي جاء بهما إلى شات إبا ؟ تخفى ماتا بعد أن قتلت سليم باشا . أدرك ماتا بذكائه فوراً أنه يجب إنقاذ الوالد والوالدة قبل فوات الأوان . . وأن طريق الخلاص واحد : الهروب من عثمان كوي . وهكذا انتقلوا جميعاً إلى شات إبا حيث عاش خالي ، فقدم لهم بيته ملجأ . لم تعيش أمي أكثر من سنة . لقد فتك بها ما لم بأختي . . ثم اعتقالي . . بالاضافة إلى الشفاء السوخيم الذي عانته أسرنا . . وتوفي والدي بعد مرور خمس سنوات .

قرر ماتا اقتناء بيت بعد موت الوالد وتجهيزه بها يلزم . ولكن جاءه فجأة الإستدعاء للحيش . جرفوه مع غيره من أبناء تسييلدا . توجهت القطعة العسكرية التي أحقوه بها سيراً على الأقدام إلى جزيرة العرب . . . ولم نسمع عنه شيئاً منذ ذلك الحين وكأنه ملح ذاب . انقطعت أخبار أختي أيضاً . فقد باع أقرباء سليم باشا بعد مقتله الحريم كله بكل

(*) هكذا سميت البلدة التركية التي استوطنها المهاجرون الأبخاز (باسم عشيرتهم) .

مافيه من نساء وجوار . واستحال بالطبع معرفة مكان أختي وفيلديش وهل هن على قيد الحياة أم لا .

تستغرب ياعزيزي الصبور شاراخ لاني أتحدث بمثل هذه السهولة عن موت واختفاء أغل الناس عليّ . ماالعمل ؟ ليست المياة التي تدفقت منذ ذلك الحين قليلة . الزمن يخفف الألم ويخفف الدمع ويحلمل الذاكرة بعامة النسيان . إنه مواس عظيم . فلولم يكن لديه هذه الوظيفة لجن نصف البشرية حتياً .

أنت تسأل : لماذا يجب إذاً تذكر الماضي وإحياء القديم وبعث ظلال الأسلاف من جديد ؟ نعم كل ذلك للموعظة الحقة يابني . . في سبيل الخبر . . ولتحذير الناس - أحدهم أو الكثيرين منهم - من تكرار الخطيئة القاسية ثم الندم المرّ في المستقبل .

أمكسني مواصلة العيش في شات إسا إلاّ أني اشتقت كثيراً إلى الكلمة الأوبخية . . . بل بتّ غير معتاد على عيشة الفعود . اشتقت كثيراً وأخذ الدرب يجذبني إليه . فقد قيل : « ينتظر القادم طريق العودة » . سرت دون استعجال وقطعت بضعة فراسخ لأرى الأرض شبيهة بمكان حريق . من الأعلى رماد أبيض وتحت الرماد فيظ محتدم . لايمكن إمعان النظر في شيء . . ففي كافة الأرجاء عراء محيط خفيف يصل إلى لخط الفاصل بين الأرض وقبة السماء . هبّت الريح محتطفة غبار الأرض ، صانعة منه ضفائر سمراء على دربي الطويل . بدا لي العالم ميتاً وأنا وحيد فيه ، تائه في ظلمته ، تعبت بي رياحه التي تعوي ، ورغبت رغبة عارمة في مشاركتها العواء من وحدتي البائسة ورهتي المريعة .

لاحظت فجأة عبر راحة يدي وقد وقبت بها عيني نقطة سوداء مبهمة . اعتقدت في البداية أنها جيفة صقر . . كبرت النقطة . . . واقتربت . . . وتلقت منها ومن خلال نشيج أبح وصفير الطقس المكفهر صوتاً بشرياً وارتعش الصوت كورقة خريفية على غصنها . اتضح لي أخيراً أنها أغنية حزينة ممحوظة شبيهة بالحدب والندب وتوجيه اللعنات في وقت واحد . ثم إما أن تخنقها الريح تماماً أو تحملها جانباً أو تقويها وتوجهها إليّ مباشرة . . وسرعان ما اكتشفت أن صاحبها شخص يركب حمراً . . . إنه عجوز ذو وجه أحرقته الشمس شبيه بالأرض الجعداء التي يدبّ عليها حماره الصغير . أكسني ظهور روح حيّة نشاطاً خاصاً . . وحين أصبح الراكب على سويتي ، حبيته واضعاً يدي

عل جيني . إلا أنه لم يلحظني لكونه ساهماً بنظرة إلى السماء الغامضة أسير أغنيته
الحزينة . قررت وبين وبين نفسي أن العجوز يصلي في سفره على حمارة وهذا يخالف
العادة حسب اعتقادي . . إلا أن أغنيته لم تشبه الصلاة مع أنه وجهها كما بدا لي إلى
السماء . . . اقترب مني وتجاوزني دون أن يلتفت إلى وكأن لسان حاله يقول : « يا عابر
السبيل اعذري فأنا مستعجل في سفري ولتحدثك أغنيتي عني . »

تابعته بنظري وحملت الريح التي هبت باتجاهي صوت العجوز التركي المطوط .
ينخر العجوز دابته المتعبة ويغني . . لم يبق لديه كما بدا لي شيء عدا حمارة وشيخوخته . .
خاطبت أغنيته صديقه العجوز ذا الأذنين الطويلتين :

خذني إلى حيث تشير الأحزان . .

عبر المسافات الطويلة والجهات الأربع . .

إلى حيث مضى أبنائي الشبان . .

ليسقطوا قتل فألقى مصرعي . .

ليس في صدري قلب بل جراح . .

وعيون بالدموع المرة مفعمة . .

ألعن السلطان هنا كل صباح . .

والأرض تلعنه معي ناقمة . . .

اختفى الحَيَال في البعيد وخفت أغنيته رويداً رويداً حتى انقطعت كخيوط رفيع .
من المخجل أن أعترف بأن حسدت ذلك العجوز الذي أنقل كاهله المصاب تلوا الآخر
ولكنه وجد أغنية موسمية لروح البائسة .

إيه ، لو أمكنتني أن أعني ماعشته كما غنى ذلك العجوز التركي الثاقل لاعتصرت
الدموع من عيون المتحجرين من الناس - إلا أني بقيت أويحياً . . فمن بوسعه من
الأويح أن يغني وحيداً سوى أغنية الجرح ؟ ثم من الضروري لي ولاغنيتي ليس آلة
الأبختيارنا فحسب ، بل المستمعون الذين بوسعهم أن يضموا أصواتهم إلى صوتي وكأنها

كؤوس خمور مرة ، أو عسلية المذاق فوَاحَة الرغوة . إننا نشبه - نحن الأوبخ - الجبال :
يغني أحدنا فيردد الآخرون كرجع الصدى .

- لتمزقك الذئباب أيها العجل الأجرّب . تريد امتصاص آخر فطرة ؟ - صاح
العجوز قصير القامة عريض المنكبين ، وهجم ملوّحاً بعصاه على العجل الأشقر الذي
التصق بضرع أمه . ثم أمسك بالعجل النهم ذي النجمة البيضاء على الجبين ، وشده
من ذيله ، وأبعده عن البقرة وفتح باب الحظيرة وطرده برفسة من رجله إلى باحة الدار .
- تعودين إلى البيت قبيل غروب الشمس وتجرّين قوائمك كسولاً من الرعي وقضم
الأعشاب أيتها الطفيلية ؟ - واصل العجوز التنفيس عمّا في صدره مخاطباً البقرة التي
تُذكر عيناها بالحوخ اليانع بعد المطر .

كانت شتائم العجوز تلك ترحاباً عذياً كالموسيقى بالنسبة لي ، لأنها صدرت باللغة
الأوبخية .

على الأرجح أنه لو جرى هذا اللقاء في وقت سابق لدارت بي رأسي من الفرحه
وسالت دموعي على وجنتي بسخاء كبير . . إلا أن نفسي لم تكن مهينة أبداً للمتعة
العفوية .

ربّاه ، لغة الأوبخ . . إن مجرد التفكير بالأمر شيء مرعب ؛ كم مرّ من الزمن وأنا
لا أسمعها . وأخيراً يحدث هذا الآن في قرية لجأت إليها طلباً للراحة والمبيت . ظهرت
من البوابة عجوز قصيرة بدينة .

- ليس بوسعك أن تحجز هذه الخيثة . بالأمس تحابثت أيضاً وخرجت إلى الشارع
كيلا تصبّ شيئاً في وعاء الحليب . يجب ربطها جيداً . .

ارتعشت بشرة جلدي مع أنها أمسّت خشنة كجلد ثور الحراثة . لقد رأيت عمي -
أخت أبي حيمجاج ، أما الرجل العجوز فزوجها سبت . كيف لم أتعرفه على الفور ؟!
دار هذا في رأسي .

شردت برهة من الزمن . . ثم وقفت أفكر بعدد السنين التي مرت على فراقتنا
والإبتسامه لا تفارق ثغري . . إلا أن كلباً صغيراً مبرقشاً قفز إليّ فأخرجني بعوائه الثاقب
من حالتي تلك وأنا في فناء الدار .

- يوم طيب - ألقى التحية .
التفت العجوز والعجوزة إلي وقد دهشا لأن مجهولاً يتحدث إليهما باللغة الأوبخية .

- أهلاً وسهلاً يا عابر السبيل . - أجاب سبت وهو يمعن النظر في وجهي .
- من هذا البائس ؟ - همست عمي لزوجها دون أن تخفي قلقها .
- حسب أسماه البالية يمكن أن نخمن أنه ابن قيصر .
لم تفهم عمي مزحته وسألت مرتبكة :
- أي ابن قيصر ؟ .
وهنا لم أتحمل أكثر . . ومددت لها يدي :
- عمي حيمجاج . قريبتي الغالية . ألم تعرفيني ؟ هذا أنا زاورقان .
- زاورقان ؟ !- زفرت وضغطت بأصابعها على شفتيها وكأنها قالت مالا يجب أن يقال . . ثم انهارت على البوابة لتسند بها ظهرها وقد فقدت قواها .
سآه . . يا الله . . من أرى ؟ ! أن سبت وهب يعانقني باكياً .
- من هذا ياسبت ؟ - تلعثمت العجوزة من جديد .
- افركي عينيك أيتها البائسة . أمامك زاورقان . زاورقان ابن أخيك .
- زاورقان ؟ ! ابن أخي ؟ ! وتقدمت إلي العمة بخطوات وثيدة . . إلا أنها مالبت أن أغمضت عينيها لتخسف بها ساقاها فجأة .
أسرعت فتلقفت العجوز ، وأخذت أنفخ على وجهها ، إلا أن هذا لم يساعدها بشيء . . فقد أعمي عليها . حملتها بيدي إلى البيت وأرقدتها على السرير . بلل سبت منشقة بالماء البارد وأخذ بذلك بها صدغي زوجته .
- إذا عزمتم على الرحيل إلى العالم الآخر فقد اخترت أنسب الأوقات . . لأن ابن أخيك سيساعدني في دفنك .
فزعتُ بشكلٍ جدي . إذا ماتت العمة - لاقدّر الله - فسأكون مذبذباً - دون إرادتي - في موتها .

- لا تخف يا زاورقان . . لن تموت . سرعان ما ستصحو . هذه ليست المرة الأولى -
وأشاح سبت بيده بهدوء - هذا أنت إذا ؟ كم مر من الوقت والجميع يعدونك ميتاً . .

بكاك الأقرباء جميعاً وهاتئذا بعثت من جديد . دعني أتمنن فيك بشكل أفضل يا بني . .
إيه . . الزمن لا يزِين . . لا يزِين . . أشيب مثل القمر . ولكن زمناً طويلاً مرّ منذ كنت
فتياً . . لو علم الوالد والوالدة بأنك على قيد الحياة لما أمسى موتها فظيلاً أبداً . اجلس
أنت . اجلس لترتاح . أخشى أن رجلك متعبتان من الطريق ؟ - وأشار إلى زوجته وكأنه
يعتذر عنها : أما عنها فلا تقلق . ستعود إلى وعيها الآن .

وفتحت العمة عينيها فعلاً وأخذت تتهد . . ثم نهضت وأنزلت قدميها إلى الأرض
ودعنتي قائلة :

- اجلس بقربي يا حبيب قلبي .

رَبَّتْ خصلات شعرها الأشيب المشعث تحت منديلها الأسود ، وجلست أنا على
مقعد واطيء قربها لترت على رأسي بلطف . . تأوهت شاعرة بمعجزها عن الحديث بينما
أخذت دموعها تنهمر على خديها الصفراوين عبر ثلاثة أخاديد . قامت بعد ذلك فأعدت
المائدة وتناولنا طعام العشاء ونحن ننفس عن همومنا . . وتتذكر الموتى كما في وليمة دفن
الأمال الخائبة .

سقف بيت سبت مسطح مثل أسطح بيت القرية كلها ، ومصنوع من الزبل .
طُلبت جدرانها من الداخل والخارج بالطين . البيت يضم غرفتين . نمتُ واستيقظت في
إحدهما واكتشفت حين استيقظت أن الشمس علت فوق الأفق . . كما وصلت إلى
أسماعي أصوات رجال ونساء تنطق باسمي خارج البيت . أدركت أن هؤلاء هم جيران
سبت وقد جاءوا لتهنئته وزوجته بعودتي .

ارتديت ملابسني بسرعة كبيرة وخرجت إليهم . حمد الجميع بومضة عين وأحاطوا بي
مرحبين معانقين عنق الأخوة .

- مرحباً يا داود . كم صيفاً وشتاء مرّ على فراقنا يا مراد ؟

- ولكن هل تذكرنا يا زاورقان ؟ !

- كيف لي ألا أذكركم وأنتما بهذه الهمة القوية التي عهدتكمها بها . أجبني وأنا أتعرف
بصعوبة كبيرة الأخوين حافظ وحنو وقد هرما تماماً .

. . وضع في منتصف باحة الدار قدر كبير على النار ، فيه لحم . . عرفت من
رائحته فوراً أنه لحم ماعز . فعلى ما يبدو أن سبت اشترى بالدين معزة ليحني بسخاء

نفس كرم الضيافة الأوبيخي القديم . وهكذا جلس كافة الرجال إلى المائدة وأجلسوني في صدر المجلس . بقيت النساء في براقعهن خلف عتبة الغرفة . وقفت حيمجاج فقط عند الباب ، لا ترفع عينها المحبتين عني . حمل الجيران صحون الطعام وتناولوها لشباب خفيف الحركة وضعها بدوره أمام الضيوف . . لم يكن هذا موجوداً ضمن عادات الأوبيخ فلم تحف النساء وجوههن أبداً وكن يجلسن إلى المائدة مع الرجال ويأكلن ويشاركن في الغناء والرقص . . يخدم الضيوف عادة فتيات شابات . أما الشباب فلا يسمح لهم بالجلوس إلى جانب من هم أكبر سنّاً . . ولا سيما التدخل في أحاديث الكبار . أزمنة أخرى وأغان أخرى . رأيت كيف جلس عدد من الشباب الصاخب السافر إلى جانب المتقدمين في السن ، وكيف تجرؤوا على مقاطعة أحاديث الكبار ذوي الرؤوس الشائبة . يوزع اللحم - وفق العادة - بين الجالسين خلف المائدة حسب مستوى الإحترام . . يحصل الضيوف الأكبر منزلة على أفضل القطع، الفخذ أو الكتف ، أو نصف الرأس . يقوم المكلف بتقسيم اللحم بعمله حسب العرف والعادة . هذا لا يسيء لأحد على الإطلاق . أما هنا فلحم الماعز مقسم وموضوع كيفما اتفق على طبق كبير . . ويأخذ كل شخص ما يروق له . المسالمة التي سال لعابي حين تذكرتها لم تكن موجودة على الطاولة . وجدت بدلاً عنها خبزاً يابساً . كما ناب العسل الممزوج بالماء عن النبيذ . في بداية الوليمة ألقى سبت كلمته .

- أيها الضيوف المحترمون . . أيها الأخوة والجيران . . في بيتنا اليوم عيد . كلكم ترون أن زاورقان عاد إلينا وكأنه عائد من العالم الآخر . أشكركم على قدومكم ومشاركتكم فرحتنا المفاجئة . شرفتمونا أيها الأعزاء . تفضلوا وجربوا ماهو موضوع أمامكم ولا تؤاخذونا إذا كان ثمة تقصير . . فليباركنا الله . شرب سبت العسل الممزوج بالماء وبدأ يتناول طعامه . هذا الجميع حذوه . . وملا البيت ضجيج صاخب ومزاح وضحك . . الشباب يثرثرون أكثر من كافة الحضور . . يتحدثون بأصوات عالية . . يقهقون دون خجل . . نظرتُ إلى أصحابي القدامى في البستهم الشركسية الرثة المرقعة وفكرت في نفسي بحزن : كيف قوضهم الزمن هكذا ؟ وأي جبايرة كانوا فيها مضى ؟ وفكرت أيضاً . . لو أن سبت يستقبل الضيوف الآن في بلاده وليس هنا لاختلف الأمر تماماً . فحتى لو قُدم لحم ثور كامل على الطاولة لا يعتذر صاحب البيت لضيفه على

تواضع مائدته معتبراً أنها أقل من الواجب تجاه الضيوف المجتمعين . . ولقدّم للحاضرين على طبق خشبي كبير أفداح الفودكا ليعبُّ كلُّ منهم كأسه حتى نهايتها قبل بدء الوليمة . ثم يُتخبَّ إثر ذلك تحامانا من بين الحاضرين ممن لا تنقصه المكانة الرفيعة والحكمة الصائبة .

وتبدأ بعد ذلك الأنخاب الطيبة فتشبع النفوس أكثر من البطون . . وتصدح أغنية المائدة وكأنها تهبط في ساعتها المناسبة من السموات العليا ، وبعد ذلك يهب البواصل إلى الرقص وأيديهم على خصورهم التحيلة . . وتسبح الفتيات الحججولات في دائرة الرقص ، داعيات إليهن ذوي الشوارب الشائبة . . ويثبت هؤلاء أن البارود موجود في فشك صدورهم فلا يمرغون وجوههم بالوخل .

اشتهر سبت في بلاد الأوبيخ بلسانه اللاذع وروح النكته لديه، وعرف بقدرته على قُدِّ الكلمة قُدّاً . أما الآن فهو يبحث عن الكلمة ليجدها بعد عناء شديد أحياناً . كان أنيق المظهر دائماً أما الآن فيرتدي بزة شركسية قديمة مهترئة . . القلب الطيب هو كلُّ ما بقي لدى هذا الإنسان في هذا الوقت الصعب الذي لا رحمة فيه .

من هم في عمر سبت عاشوا ماضيهم كل الوقت لا حاضرم . . أما الشباب الذين ولدوا في تركيا فلم يفكروا بأن هؤلاء الشيوخ المنحني القامة كانوا بواصل ونسوراً في وقت ما . قام حافظ واقترح أن نغني أغنية حماسية قديمة . لم يعر الشباب أذناً صاغية للأغنية . أخذوا يتلمظون ويلعقون شفاههم وهم يأكلون لحم الماعز ، ويثرثرون حول ماحدث معهم ويشغل تفكيرهم السطحي .

- إيه . أيها الأخوة . . أسلافنا لم يفعلوا هذا أبداً - حاول حافظ أن يعلو بصوته صخب الشباب الذين لا يحترمون أحداً على الإطلاق - حين يظهر ضيف في مكان ما يمسي بوسع الجميع نسيان من هو على فراش الموت ، فيحتضون بالضيف ، ويحيونه بالغناء ، ويفرحونه بالرقص .

- دعك من هذا من فضلك . « الأسلاف . . الأسلاف » . مات علي ولا ندرى

من هو هذا العلي . . أشاح الشباب بوجوههم عن حافظ .

« نعم . . لم يتح لي أن ألتقي بأمثال هؤلاء » - فكرت أنا .

إلا أن حافظاً بدأ أغنية أوبخية قديمة من أغاني المائدة متغاضياً عن فظاظة
الشباب وقلة أدبهم .

- واي رايدا . . لنغني ياأصدقاء . .
ونمجد الأبطال على الدوام . .
لنبقى متحدين في البلاء . .
درعاً قوياً إلى الأمام . .

التقط اثنان أو ثلاثة من المسنين بمن فيهم أنا اللحن المعروف . صدح صوتي
واستغربت تماماً لأنه دويّ طليقاً منتظماً وكأنه انتزع من سلاسل الصمت .

واي رايدا . . في ساعة طيبة .
في عتبة دار الأهل . .
على شرف الضيوف الأحبة . .
نرفع قرون الخمر

انقطعت الأغنية فجأة كما بدأت فجأة . أجبرنا الشباب على الصمت والإنصات
إلينا . . نحن آخر من يجرس موقد القوم .
مسح شمات دموعه وابتمس لي قائلاً .
- تميل حياتنا إلى الغروب . . ولكننا بفضلك يازاورقان نشعر وكأننا بلغنا قمم
الوطن .

النساء اللواتي تجتمعن عند الأبواب حدقن بي بدهشة واستغراب وقد كمنن أفواههن
بأطراف مناديلهن . . استمر كل ذلك لوقت قصير . . ثم هبطنا جميعاً إلى الأرض .
بقيت مقيماً في منزل سبت . اعتبر أبناؤه الذين ذهبوا إلى الحرب من أيام عثمان
كوي من المفقودين . . وهكذا خصني العجوزان بكل ما بقي لديها من حب واهتمام .
إذا اتجهت سفينة سريعة من هنا ياضيغي اللطيف . . من حيث نجلس الآن

باتجاه الجنوب فإنها تصل بعد اسبوعين إلى بلدة كاريندج - أفاسي . . أي وادي النمل .
من المحتمل جداً أنه لم يعيش هنا قبل ظهور الأوبيخ أي كائن حي سوى النمل .
والوادي يشبه شريطاً ضيقاً من الأرض الجرداء تُذكر بلسان كلب متدل نحو الشمال ،
ويصل قاعه إلى مستنقع آسن يكثر فيه بعوض الملاريا ، وتبلغ نهايته السفح الحجري
المسطح . الصيف هناك قانظ خانق دائماً . . وإذا تركت الأرض هناك بدون سقاية لما
نبت فيها حتى العشب الناعم . الشتاء في الوادي - على العكس تماماً من فصل
الصيف - بارد جداً ، رياحه شديدة ، ولا ثلوج فيه . لا يمكن إيجاد مكان أفضل منه
للأشغال الشاقة . والشيطان وحده كان قادراً على التفكير بإسكان الأوبيخ في هذه
الصحراء البور . قالوا: «إذا بقي الأوبيخ أحياء فهي سعادة تلم بهم . . أما إذا ماتوا
فليس الذنب ذنبنا . . » وبناء على ذلك أسكنوهم هذا المكان .

الإنسان الذي تفاجؤه العاصفة في عرض البحر بعد أن تغرق سفينته وتبلغ القاع
يوسعه الإعتاد على رجولته وقوة ساعديه القابضتين على المجاذيف ثم بعد ذلك على ربه .
أقام الأوبيخيون في الأراضي الأقل احتراقاً والتي اختاروها على جانبي الوادي وعملوا
فيها . ظهرت ثلاثون قرية ، بيوتها مبنية من الزبل بأسقف مسطحة ودون نوافذ . تمعن
في هذا ياداد : « بيوت من الزبل » إنها سخرية القدر . فالأوبيخي في بلاده لم يكن يقبل
بجذوع الجوز ليبنى منها كوخاً له ، بل يختار جذوع أشجار الديندرون الأولخا العبقة
برائحتها الذكية . كان يتجنب أشجار الأولخا ليققطع سيقان الكستناء فيصنع منها دعائم
السقف ويغطيها بالقصب الذهبي . لا يحفر الأوبيخي آباراً ، بل يطفئ أوار عطشه من
الينابيع الحية . أما في كاريندج - أفاسي فتحتم علينا: دق الأرض البور والحفر العميق
للوصول إلى المياه الضحلة . من الصعب لوم الشباب الذين ولدوا وعاشوا بعيداً عن
أحراش الرادودندرون وخرير الينابيع الجبلية الفضية لأنهم لا يؤدون الأغاني الأوبيخية
ولا يرمون بأنفسهم إلى حلبات الرقص فور سماعهم نداء طبل العيد ولا ينخرطون في
المطاردة على الخيل كما طارد آباؤهم في الماضي .

أتدري بم كنت أحلم طفلة حياتي أيها اللطيف شاراخ ؟ كانت رغبتني الدفينة أن

(*) الرادودندرون : زهو جبلية تنمو في أعالي الجبال في القفقاس .

أبيت ولو ليلة واحدة في بانسخا* أويخية . آه لتلك الأحلام السحرية التي أمكنني رؤيتها تحت سقفها ! . . مهما اشتدت الحرارة في الصيف يبقى جوهاً معتدلاً ، فعبر جدرانها المضفورة تندفع الريح هائجة وكأنها تنبعث من تحت جناحي طير . وفي الليالي ينساب ضوء القمر من خلال تلك الشقوق فتحسُّ به على وجهك . أما في الخارج فتدندن الحشرات بأغاني المهد . . متعة عارمة حقاً ! . .

خذ مثلاً مسألة الموقد . لم يكن بوسع أي أويخي أن يتصور بيتا يعيش فيه بشر دون موقد . بمجد الأويخي النار وكأنها قديسة . . ولا تحمد النار أبداً في موقده . . ليس هناك لعنة أفظع من كلمة «فليتحطم موقدك» . يبدو أن أحداً ما صبَّ هذه اللعنة على رؤوس الأويخ جميعاً ، وأنها حلت عليهم فعلاً . . فالآن يقتصر الأمر في بيوت الأويخ على حفرة صغيرة في أرض الغرفة - تسمى التتور - تعشعش فيها النار . على هذه النار يعد الطعام ويخبز الخبز .

البوق النحاسي

. . منتصف نهار صيفي ؛ الشمس في أوارها . الدجاجات مختبئات تحت السور ، راقصات بمناقيرها المفتوحة . . كل شيء مغطى بالغيبار المخملي . غبار الطريق ساخن جداً بحيث تشعر به عبر جلد الحذاء . أسطح المنازل ، أوراق الأشجار ، الأسوار البوابات ، الجمال التي تجر - كل هذا معقر تماماً ، تضرب جنب الجمال أو تدفع بوابة السور بيدك ، فيثور الغبار ويتناثر . تسمى القرية كالميتة ، حتى كلابها لا تعوي . . ينتظر الناس القابعون في مساكن لا نوافذ فيها حتى ينتهي القيظ . . يستيقظون من نومهم قبل بزوغ الشمس ، ويعملون حتى يجمى الهواء ، ثم ينتظرون المساء لكي يتمموا

(*) بانسخا : كوخ أويخي يصنع من قضبان الأغصان المضفورة .

أعمالهم . . لا يمكن العمل في الصيف على نحو آخر . . عشت في كاريندج - أفاسي حياة مؤقته . « طالما أنه قدم فإنه سيغادر » - هكذا حاكم الجيران الأمر .

في وسط القرية مسجد . يصعد المؤذن إلى منبته خمس مرات في اليوم ويدعو المؤمنين لأداء الصلاة . يصدح صوته في كل مرة . . أشهد أن لا إله إلا الله . . » .

ظهر في الحريف في شرق كاريندج - أفاسي جماعة من الجمخاسار المنتمين إلى عشيرة هواركي من السلالات الرحل . عاش هؤلاء منعزلين خاضعين لعاداتهم الخاصة الصارمة ، ولا يسمحون بدخول الغرباء إلى أوساطهم . حتى أنهم لا يقيمون العلاقات التجارية مع أبناء القبائل الأخرى إلا عند الضرورة القصوى . بدأ مظهرهم شبيهاً بكافة الرحل المولودين على سروج الخيل . . فهم ممشوقوا القامة سمر البشرة يعملون بترتة المشية يرعون الماعز والغنم متقلبين من مرعى لآخر . حطَّ الرحال بهم في نهاية الصيف بعيداً قليلاً عن القرى الأوبخية . . أوحى خيامهم السوداء المحبوكة من صوف الغنم بسرب الغربان المستعد في أية لحظة للإنتلاق والتحليق . قائد جماعة الجمخاسار جواد به عجوز فاسي انطوائي لأبعد الحدود . لم يكن يرأف بالأوبخ المنفيين إلى هناك على الرغم من وجود أوبخيات في حريمه . يقوم بالغزوات في كاريندج - أفاسي فيخطف النساء وينهب المشية .

ويهب المهاجرون بطبيعة الحال والسلاح في أيديهم للدفاع عن شرفهم وممتلكاتهم . . تهدر في كل مرة دماء سخية فمن لا يأبه بالعواقب لا يلوي على شيء في عراكه .

عاش الشرواليون*¹ غرب السهل الأجرى . إنهم بالكلام لبقون ، مرححون ولكنهم يخبؤون ويبتون الكثير . . يحسبون حساب كل شيء ، خبثاء مكرين . . يعملون جيلاً إثر جيل في حرفة واحدة فقط وهي التجارة . . لذا فهم يسيطرون على البازارات القريبة والبعيدة .

الأم الشروالية تغني لابنها أغنية المهدي حين تهر له سريره كي ينام :

(★) الشرواليون : إحدى العشائر التركية .

أولاً . . نَمَّ يابني بسلام
لكل شيء موعده وأوان .
ستعمل كأبيك في أحد الأيام
تاجراً حاذقاً في الدكان .

لدى ظهور الأوبخ في كاريندج - أفاسي أطل الشراويون في اليوم التالي مباشرة
صائحين منادين :

- أرغفة خبز . . أرغفة خبز .

- زيت كاز . . زيت كاز .

هكذا تناهت أصوات البائعين إلى مسامعي .

سرعان مافتح أحد التجار الشاروليين دكاناً في البلدة الأوبيخية ، ثم فتح آخر
مقهى ، وفتح ثالث باب الدين بالربا . . وحين افتتح في البلدة مسجد ، أصبح حاج
من الشاروليين إمامه فوراً ، وأمسى قريبُ الإمام مختار القرية . وقيل أيضاً إن الوالي
نفسه من عشيرة الشاروليين المعروفين بيخلهم .

ومع مرور الزمن نشأت بين الأوبخ وسلالة الجذور التجارية هذه علاقات تجارية
وقرابة أيضاً . فلا يخطيء الشباب سريعو البديهة أهدافهم إذ ينسون أو يتناسون البازار
والصفقات الرباحة والديون حين يرون الأوبيخيات الجميلات . . تُلقى أنخاب العرس
باللغتين وغالباً بالتركية فقط لتكون مفهومة من قبل أغلبية المدعوين . ويتزوج العرسان
الأوبيخيون ذوو الجنسية العثمانية بكل سرور من الفتيات ذوات الثروة المكتسبة من
التجارة والربا . . ويخرج للنور من هذه الزيجات أطفال لا يعرف أحد إلى أية قومية
يتمون .

لم تنس حتماً ياداد شاراخ طاهراً ، حفيد العجوز حميدة التي انتحرت إذ رمت
بجسدها إلى أمواج نهر تشابوخ . حدثني في أيام السجن ابن مزاولتش أبو خبا فلتسكن
روحه فسيح الجنان . . حدثني أن طاهراً الذي أمسى متعلماً ومشهوراً لحق طوعاً
بالأوبيخيين المنفيين . حدث هذا حقاً . . وعلم الأطفال القراءة والكتابة باللغة الأم .
أنت تدرك طبعاً أنه لا بد من وجود كتب للقيام بهذا العمل النبيل . ولكن لم توجد كتب

باللغة الأوبخية . . وهكذا ترتب عليه أن يقوم بنفسه بوضع كتاب الأبجدية الأوبخية . كان كتاباً منسوخاً باليد وعلى الأغلب أنه الوحيد في تاريخ شعبنا . ومع هذا فلم يسع الشيخ الرسمي أن يبقى بمعزل عن «هذا السلوك المشين للشركسي» حسب رأيه . « لماذا ينبغي على الأطفال أن يتعلموا لغة الشياطين ؟ ! ألسنت أنا هنا الشيخ الرسمي وأعلمهم الأبجدية التركية ليتمكنوا من قراءة اليافطات والتوقيع على التبليغ للسوق إلى الجيش ؟ ثم بالإضافة إلى ذلك ينبغي تعلم اللغة العربية لأنها لغة القرآن . ويجب أن تحفظ الصلوات غيباً في بلاد الإسلام . أما تعليمهم لغتهم التي لاتصلح للصلاة أو حتى لنطق اسم السلطان فهو ترهة ضارة تصرف التلاميذ عن السلوك المنزل من السماء . أما إذا نظرنا بشيء من التغاضي إلى السلوك الشخصي للمعلم طاهر فإذا ستأني به أنجال بذرة لصوص وأي خير يرجى من الاجتهاد وتعلم القراءة والكتابة باللغة الأوبخية . ثم بعد سنوات عليك أن تراقب ماذا يكتبون وماذا يجبؤون . احفظنا يارب . لدينا مايكفينا من الشعب » .

أخذ الشيخ يفتنع أكثر فأكثر وقد أشبع رأسه المسكين تشكيكاً وتخوفاً بأن الأمر لا ينطوي على خير .

« من أين جاءنا هذا العلامة الكبير طاهر ؟ من استانبول ! ؟ ولكن أين تربى في استانبول ؟ . آه . . في أسرة الخائن والمجرم القاتل شاردين بن علو . نعم إن الأمر كذلك » ونقل الشيخ إلى رؤسائه : « أعلمكم أن ذلك الأثم طاهر يعلم الأطفال الأجانب لغة لا يرضى عنها الله ، متجاهلاً مايملية القانون . بل ولا يكتفي بذلك ، وإنما يدافع عن المتمردين والقتلة . لقد حرّض أتباعه على عدم دفع الضرائب لعلي حاضرة باشا ، ورفع شكوى على المختار وعلى الباشا الحاكم حسين أفندي . . تلك الشكاوي أو على الأصح التلفيقات مكتوبة وكأنها باسم الشعب وأوصلها بنفسه أكثر من مرة إلى الوزير العظيم في قصره » .

الحقيقة يابني حقيقة . كان طاهر مدافعاً عن الشعب وداعية له . أوصل النبي كلامه من خلال الكتبة ، أما الأوبخ فمن خلال طاهر . ولكن همومنا كانت بالنسبة للوزير كتلج الصيف إذا وجد لهذا الثلج تأثير يذكر . . فلم يصغ لها الوزير بطرف أذنه واكتفى بالإندهاش الشديد فقط : « ماذا ؟ الأوبخ ؟؟ أيعقل انهم لم يقضوا نحيم أو

يختلطوا ويضيعوا حتى الآن ؟ . إذا الذنب ذنبهم » . وبقيت كافة مساعي وجهود طاهر بلا جدوى . أما الشيخ فحصل على مآربه : منع حفيد حميدة من تدريس الأطفال اللغة الاويخية منعاً باتاً . . . حدث هذا قبيل وصولي الى كارينج - افاسي . نشدت لقاء طاهر ولكن لم يتهيأ لي ذلك ، كان ذاهباً الى استانبول للدفاع ثانية عن أبناء جلدته . . لم أقدر - كما يوسعك إدراك ذلك أيها العزيز شاراخ - أن أعيش طفلياً في بيت سبت . فكرت في العمل في الحدادة التي علمني إياها ابن داود ولكن لا يمكن بناء دكان حدادة بالنية الطيبة وحدها . المطارق والسندان والملاقط وغيرها من الأدوات غير موجودة ولا يمكن الحصول عليها . لو توفرت النقود لدى سبت لاستدنتها منه ، ولكن من أين له النقود ؟ « لا يوجد في جيبى إلا البراغيث » . (*) - مزح سبت بمسراة - ثم لشراء الفحم في هذا السهل الأجرد من الغابات لا بدّ من توفر نقود غير قليلة . أخذت أساعد العجوزين في شؤون البيت والحقل . بذرت معها القمح ولكن أي محصول يمكن أن ينتج عن أرض جرداء لا تثمر . . كما لا يجب نسيان أن حقل سبت والعمه حيمجاج يمكن تغطيته بقلنسوة . عزمنا على زرع القطن ولكننا عدلنا عن ذلك ، فالماء غير كاف . وحصلنا في أحد الأيام على بذور يقطين برّي ، يسمى هناك جيلياً . زرعنا اليقطين ودهشنا : فقد أعطى محصولاً وافراً .

الفقير حاذق في الإحتراع . . أخذنا نجفف اليقطين ونصنع من القشرة أباريق بمقايض جميلة ومصافٍ وصحوناً ومختلف الأواني . تعلمنا صنع ألعاب الأطفال من اليقطين الجيلي الجاف : عرائس مزينة بريش الطيور ، وأقنعة بشوارب من الصوف وفتحات للعيون . . صرنا نبيع تلك البضاعة السهلة الصنع في البازار . الحق أن من الصعب كسب الكثير من بيعها ولكننا أمسينا نعود الى البيت ببعض النقود النحاسية . الحمد لله أن أبي لم يعيش حتى ذلك اليوم المخجل الذي أصبح فيه ابنه - المولود ليكون مزارعاً أو محارباً - بلثماً لتفاهات كهذه في البازار .

مكثت في أحد الأيام في البازار حتى أواخر نهار شمس لاهية وذبابه لجوج مزعج وأمامي على الأرض مصنوعاتنا اليقطينية المعتادة . مالت الشمس الى الغروب واشترت

(*) كناية عن كونها خاوية من النقود .

بالنقود التي حصلت عليها ملحاً وزيت كاز وخبزاً ثم مضيت في طريق العودة . أحسست بمزاجي المتعكر وبالعداب النفسي المبرح لإدراكي أن العمل الذي أمارسه ليس جيداً بقفصاسي حقيقي . . . ووصلت الى أسماعي بالاضافة الى هذا كله اخبار أحزنتني وأفزعتني في آن واحد . فقد علمت من الناس أن حرباً ضروساً ستندلع .

قالوا : ان الجيوش اليونانية تستعد للنزول الى ازמיד وقد رست السفن الفرنسية في مرسى ميرسين ، وأن الانكليز يملون في استانبول إرادتهم على السلطان الذي فقد استقلاليته ويجرّونه الى صفقات دموية . حدثت سبت في البيت عن الإشاعات التي وصلت اليّ في البازار وعبرت له عن قلقي على مصير الأويخ .

- يتشاجر الأمير مع الأميرة فتقع الولايات على رأس الخادمة - قال العجوز متجهماً . .

أخذت اتردد في أيام الجمع على المسجد . لا تظن أن زاوقان زولاق قد اعتنق الاسلام . كلا لقد قمت بذلك كيلا يتضرر سبت والعمة حيمجاج . حتى لا يقال بين الناس ان من يأويانه في بيتها لا يؤمن بالله .

عليّ أن أخبرك ايها العزيز داد بان الأويخين اعتنقوا الاسلام خلال سنوات ترحالي في أفريقييا ومكوثي في السجن . أدهشني هذا الامر كثيراً وبدا لي أحياناً أنهم يظهرون ورعهم وتقاهم مرائين لأصحاب السراويل التركية طالما يعيشون بينهم .

دأب الشيوخ والشباب على التوجه الى المسجد كل يوم جمعة . وأصبح أبناء حمولتي بصومون حسب التقويم الاسلامي وهذا كان سهلاً بسبب الفقر المدقع ، وأمساوا لا يعملون في الأعياد خصوصاً في أيام الصوم ونوروز . باتوا لا يدعون متوجهين الى السماء بقولهم : « ساعدني يارب » بل ساعدني يا الله » ويشهرون راحت أيديهم أمامهم . ولكن الشيء الذي أدهشني بشكل خاص هو أنهم لا يتناولون مسكرات . وهذا كله جعلهم أبعد ما يكون عن الشبه بالأويخ . .

تسأل عن بيتحا أيها اللطيف شاراخ . . . هذا ماكنت أعزم على الحديث عنه بالضبط . . بقيت هذه القديسة موجودة وواصل شيوخنا الإنحاء لها . يجب ألا يدهشك هذا . لقد تبأ لي أن أرى في شبلي كيف ينحني الشابسوغ لجذع شجرة الأجاص التي رسم عليها صليب ، مع أنهم عرفوا كونيين . نعم بل حتى بين الشراكسة وجدت

ديانتان أو ثلاثة . . . بعضهم قدس الصليب وبعضهم اعتنق الاسلام . . . ووجد لدى
الشراكسة الآخرين آلهة صغيرة (مثل القديسات المسيحيات) شبيهة بالوثنية من قبيل
ميريسا ، حامية النحل . أكد هؤلاء الشراكسة أنه في يوم من أيام سنة باردة مات لديهم
كل النحل عدا واحدة بقيت حية لاختبارها في كم القديسة الطاهرة ميريسا . ومن هذه
النحلة التي نجت ولدت سلالة صانعي العسل من جديد .

بلغ كاهن بيتحا العجوز صلاح في تلك الفترة مرحلة الشيخوخة ، مثل أنا الآن .
قال لي سبت ذات يوم :

- توعدت صحة صلاح . . لنذهب لزيارته يابني ، مؤسف أنك لم تقم بزيارة
العجوز حتى الآن .

شعرت بذنبي وتوجهنا معاً إلى الكاهن المريض . ارتدى رفاقي أفضل مالدیه من
ملايس ، وكأنه يتوجه الى حفل . . تحت البزة الشركسية قميص قفقاسي وعلى خصره
خنجر وحمل بيده عكازاً ذا نهاية حديدية . ارتدى العجوز حلته الاحتفالية ليصبح مظهره
لطيفاً طيباً في عيون الكاهن . حيناً من قابلناهم في الطريق :

- السلام عليكم .

ويجب سبت دافاً الأرض بنصل العكاز :

- وعليكم السلام .

لم نسمع أية تحية أويخية - فبدلاً عن « يوم طيب » أو « سرور برؤيتك » سمعنا
« السلام عليكم » و« عليكم السلام » . القضية في أن من نطق بهذه التحيات أويخيون
كيف حدث هذا ؟ سألت سبت عن ذلك فأجاب باقتضاب :

- اعتادوا . .

لعب الصبيان في الطريق الذي سرنا فيه بلعبة « السكاكين الصغيرة » . وحين
وصلنا إليهم لم ينهض منهم أحد ، أو يفسح لنا الطريق . بل واصلوا لعب القمار غارزين
في الأرض الأنصال الفولاذية دون أن يلتفتوا لذوي اللحى الشائبة . توجب علينا أن
نتخطاهم . توقف صبي ذو شعر أسود وعلى ما يبدو أنه أكبرهم سناً ونظر الى سبت
وصاح :

- اخلع عنك الصوف يا جدي . . . لكي تنهوى عظامك . .

فهقه اللاعبون إلا أن سبت لم يلتفت إليهم . فعلى ما يبدو أنه سمع ورأى أكثر من

مرة كيف يسخر أولئك الصبيان الذين ينقصهم الخجل والأدب من المسنين . أزمنة جديدة وعادات جديدة .

- إيه . . . آه لو لم أولد - تذمر العجوز وغرق في تفكيره . لعله وقد أحنى رأسه يتذكر أيام صباه في أوبيخيا . . أوه . . هناك كل شيء مختلف . . . كل شيء .

- « حصان » - يطلب أحد المسنين ذوي الذقون البيضاء حصاناً ، فيهرع الصبي سبت الى اصطبل الخيل ليأتي بالجواد . ويمسك الصبي بالركاب الى أن يعتلي الفارس صهوة الحصان . أما إذا تشرّف الصبي بمرافقة هذا الفارس فانه يسير بحصانه الى يسار الفارس متخلفاً عنه بمسافة نصف حصان . يوقف العجوز حصانه وينتهي للترجل عنه ، فإذا بالصبي سبت قد ترجل وأمسك لجام حصانه بيد وركاب حصان الفارس باليد الأخرى ليساعده على الترجل . . . ثم يتقدمه ويفتح باب الإصطبل . يجلس المسنون الى المائدة فيأتي بإبريق ماء وطستاً ومنشفة ليغسلوا أيديهم قبل الأكل . ومهما أطال المسنون من جلوسهم وراء المائدة ولو ثلاثة أيام ، عليه أن يقوم بخدمتهم دون أن يجلس ولو دقيقة واحدة . كما ينبغي عليه ألا ينس بكلمة قبل أن يسأله . . مرّت السنون وأصبحت أنا عجوزاً ، أما الشباب فمن نوعيات أخرى تماماً . فمنهم الأغراب الذين كانوا يلعبون في لعبة « السكاكين الصغيرة » الأوبيخ أباً عن جد ودماً عن دم إلا أن تربية الجبل بعيدة عنهم تماماً . إنهم أوبيخ اسماً فقط . من هم إذأ في واقع الأمر؟ . . لن نجد الجواب على هذا السؤال . .

دخلنا فناء الدار حيث عاش الكاهن صلاح ورأيت مرتدياً البياض وكأنه مجهز نفسه للصلاة . كان جالساً على كرسي واطيء ، سائداً الألا باشا* بيده . وصلت ذقنه الرمادية الى حزامه . جلس الى جانبه كهول من نفس المنطقة عرفني صلاح ونهض وعانقني :

- فلتحل السعادة على البيت الذي آواك . .

وأجلسني قربه مع أبي ما كنت أجرؤ على الجلوس في هذا المكان المشرف من تلقاء نفسي . عانى العجوز من آلام الرأس إلا أنه نسيها الآن . حدثته بأمر منه عن تنقلاتي

(★) الألاباشا : عكاز قفقاسي له نهاية حديدية .

وسنوات سجنى . انفعلى إثر سماعه حديثى أيتها انفعال .

- ياإخوانى - التفت صلاح الى كافة المحيطين به - لو أنكم لم تزوروني اليوم لدعوتكم جميعاً إليّ . أما أن زاورقان هنا فقد جاء في وقته المناسب . . لقد قررت أن أتحنى عن منصبى ككاهن ..
أدهشنا هذا الخبر المفاجيء تماماً .

- لقد توصلت إلى هذا القرار من زمن بعيد ، ولكنى تباطأت بإخباركم به لاني خشيت من الوقع الثقيل للخبر عليكم أيها الشيوخ الأوبيخيون الأخيرون .
- ارحمنا . . . لا يحق لك أن تتصرف هكذا . عقلك وارادتك ملكك ، ولا يجدر بك أن تستعجل في هذا الأمر . . الواجب الذي ألقاه الشعب على عاتقك ليس سهلاً ، ولكن قرارك هذا متسرع عجول في وقت تهبط فيه معنويات أبناء العشيرة وهم على شفا هاوية نسيان لاقرار لها . . . قال سبت دون أن يحاول إخفاء انفعاله .
- قلعة الروح أهم من قلعة الضلوع - ذكر داود .

- ما الحاجة الى القائد بدون جنود ؟ لا يمكن للشجرة أن تعيش إذا اقتطعت جذورها .

ما الحاجة الى الكاهن إذا أمست القديسة من زمن بعيد في هاوية النسيان ؟ - قال صلاح خافضاً رأسه .

- كلا ايها المحترم صلاح . طالما هناك أوبيخي واحد يبجل القديسة بيتحا فلا يمكنك أن تتنازل عن واجباتك - أيّد تاتلاستان قرينه في السن سبت .
- تنفوه شفاحكم بالخوف والقلق تجاه غد الشعب الأوبيخي أما شفاهي فبالحقيقة -
قال صلاح - إنها مرّة فعلاً ولكن لا سبيل لتجنبها .

صمت العجوز . اجلسه نوبة آلام الرأس فترة طويلة بلا حراك أمسى شخصاً واهناً تماماً . التجمعات التي عمّت وجهه كانت عميقة مثل الأحاديد وعلى أرنبة الانف البارزة كنتوء تحت الثلج ظهر الجلد الرقيق الشفاف فبدا غضروف أنفه . ارتعشت شفاهه وكأنه يهمس كل الوقت بشيء ما وغارت عيناه في محجريها . ثم نظرت عيناه الزرقاوان الباهتتان الباردتان كالزجاج ، المغشوتان بغشاء دخاني رمادي اللون . نظرنا الى العالم المحيط وصدح صوت العجوز الجهوري الرنان خافتا وكأنه يصدر من مغارة عميقة .

- قيل احترم الكبير والصغير . فليكن كما تريدون - قال العجوز صلاح حين خفت
ألم رأسه - سنجمع الناس ونتأكد بأمر أعيننا : هل بقي كثيرون ممن ينشدون حماية بيتنا ؟
- قلّ عددهم ، ولكنه لم يتعدم نهائياً - قال العجوز داود ذلك دون ثقة أكيدة في
قرارة نفسه .

إلا أن الكاهن الذي لم يفقد حذاقته شعر بالمقصد الخفي :
- في إثر البقرة يخطر العجل وفي إثر الرواي الحكاية . . . لم يبق الكثير للإنتظار
ادعوا الناس في الخميس القادم . . . إذا لبوا الدعوة . . .
- ايه . . . لو أننا بقينا في بلادنا لكفانا أن ندق البوق فيهب الجميع إلينا دفعة
واحدة - زفر سبت قائلاً مقال .

نهضنا لتتوجه كل إلى بيته إلا أن صلاح أوقفنا . . دعى إليه حفيده المريض ذا اليد
الواحدة ، وأمره هامساً بشيء ما . هزّ الصبي رأسه واختفى في الدار دقيقة واحد ثم عاد
حاملاً خنجراً قديماً رائعاً على حزام أوبيخي والبوق الفضي المقدس . .
هبّ صلاح واقفاً مستجمعاً ما توفر لديه من قوى وغرز الألا باشا في الأرض ومسّد
لحيته بوقار .

- إخواني - توجه إلينا بحماس مفاجيء . . اعلموا أن هذا وصل إليّ من أبائي
وأجدادي اعلموا أن هذا الخنجر قدّ حين ازدهر معقل الأوبيخ بالمجد والبسالة . كان
مالكوه جميعاً رجالاً حقيقيين . وكانت يد كل منهم امتداداً للنصل الفولاذي . أما هذا
البوق فقد اعتبر داعية الشعب ، رسوله وخازن مسرته ومأسيه . . . فحتى الجبال رددت
أصواته . . أفف أنا على حافة القبر . . . حفيدي كما ترون مريض وخبرته قليلة . . .
والثفت إليّ صلاح : يا بني زاورقان زولاق . . . أنت أصغر الحاضرين سنّاً ولكنك
قاسيت مأس أكثر منا جميعاً . مأس تدمر ضعاف النفوس ولكنها تسقي أقوياء النفوس
قوة كالفولاذ . ولذا فانت الوحيد الذي يحق له أن يرث هذه الأشياء التي مهبها القدر
بخاتمته .

- اعذرنى - استيقنته توأ - كيف لي أن أرثهم أنا ؟ دم سعيد البريء بدمتي . . ثم
أنا أسوم نفسي العذاب لدخولي المسجد دون إيمان . .
- أظنني . فأنا أرى أفضل منك - قال العجوز . . .

أخذ الحاضرون يهنؤني بالتشريف الذي مُنحتني . وقال صلاح واضعاً يده على كتفي الأيسر :

- إظهر في يوم الخميس صباحاً عند المكان المقدس . قف في أعلى الهضبة وضع البوق ذا الصوت المعدني بين شفتيك وانفخ فيه . فليذكر الناس بندائه بمن هم في حقيقة الامر . ليهبّ ضعاف النفوس من سيئاتهم . : من نسي نفسه فليجدها الآن . إذا حظينا بعطف الرب فسيتم التجمع حتماً .
فرح الشيوخ ، وكأنهم القوا عن أكتافهم عشرات السنين . أما أنا فبقيت واقفاً أمامهم دون أن أدري هل أفرح بهذا أم أبكي !؟

نهاية كاهنتنا

أقبل الخميس . . اليوم الذي انتظرناه - نحن الكهول - بقلوب متحمدة . أظلمت السماء بالسحب الحريفية المنخفضة الشاردة بسرعة الى الرحاب البعيدة . بدا أنها ستمطر . إلا أن الغبار ثار متصاعداً على الطريق ولا أكثر . وهبطت القطعان الجبلية الى سهلنا . أما في ليلة الأمس فقد أطلق حراسنا المسلحون رصاصهم على الرعيان الرحل وردّ الآخرون بالمثل .

صعدت في الصباح الباكر - كما كلفت - الى الرابية التي انتصبت على قممها شجرة الصنوبر الهزيلة المغروسة سنة وصول الأوبيخ الى كارينج - أفاسي . يبدو واضحاً أن التربة غير مناسبة لحياتها هناك ، فقد نمت شائهة ضعيفة . انتصبت بينحا التي لها وجه حدأة في تجويفها الحجري تحت الشجرة الشعثاء . وقفت قبالتها دون أن أحزم أمري تماماً على نفخ البوق : « هل بوسعي أن أعبّ الهواء بصدري الواهن وأنفخه في البوق ليصدق صوته قوياً مدوياً يصل الى مئات الناس ؟ »

- فكرت بيني وبين نفسي قلقاً ولكني لم أجد مخرجاً آخر . تلتفتت فم البوق بشفتي ، وأخرجت من حنجرته النارية صوتاً قوياً ممطوطاً . تأكدت من قواي وتابعت نفخ البوق . توجهت براسي أولاً نحو الشرق ، ثم وجهته الى الاتجاه المعاكس دون أن أبعاد البوق عن شفتي . أمسى الشمال بعد ذلك خلف ظهري ، ثم أمسى مكانه الجنوب . . . نفخت ونفخت . . . استعدت أنفاسي وأخذت أنفخ من جديد . صعد الدم الى صدغي . يصدح البوق في الجبال بوقع آخر . . . تردد الجبال صدها . . . ولا تسمح له الريح الهابئة من البحر أن يتعد عن عش الصدى . أما هنا فيبدو أن صوته الممطوط المنادي يخفت لدى اصطدامه بالسحب المنخفضة يخفت داخلها كما في بساط صوفي . . . هطل المطر . . . عبأت رثتي ونفخت البوق من جديد . امتزجت قطرات العرق على وجهي بقطرات المطر . لم يغن البوق بل أصدر مايشبه صوت صفارة سفينة تستغيث .

شعرت بتعب شديد ، وجلست تحت الشجرة هناك ويدي اليمنى على البوق . لم يعد المطر المتقطع يتساقط ، بانت الشمس من خلال السحب المشتتة . كان موعد الاجتماع منتصف النهار . . . بقي لدي متسع من الوقت وبوسعي الذهاب الى البيت ، ثم العودة في الموعد المحدد . إلا أني أردت أن أجلس في وحدتي وأخلو الى أفكاري ، وهكذا فعلت .

هل وصل صوت البوق الى الأوبيخ ؟ ماهي الأفكار التي تنتابهم الآن ؟ وفيما لو اجتمعوا حقاً في منتصف النهار هل سيصفون الى صلاح ؟ هدأت نفسي بالتدريج ، وفسح المجال للطمأنينة الخبرة . ثم غفوت فجأة . . . ورأيت عبر جفني المفتوحين قليلاً جبلاً في دخان الضباب الصباحي .

لمعت القمم المحدبة بياض الثلج المكر . وانساب نهر سوتشي عبر المنحدر ، شاقاً طريقه بين الأعشاب الخضراء الكثيفة ، متموجاً بزيده الأبيض على الدرجات المرمرية . هاهو يبلغ الوادي ويجري بشفاافية أشد ، وسرعة أقل . تنعكس أشعة الشمس على أحجار القاع . ينتصب جسر ضيق على النهر حيث ضاق به المجرى وعلت ضفتاه . وقفت على الجسر أنظر إلى الماء فأريت وجهي الفتي مخلوق الذقن . . . صدر فجأة صوت خافت عن تشقق القصب . التفت نحو مصدر الصوت لأرى ثلاثة أباتل ترد الماء متلفتة حولها بخوف وحذر . أية عيون رائعة عيونها ! وكم هي جميلة ساحرة رموشها الطويلة

المسدلة ! .. رأيت مثل هذه العيون لدى نساء القرى الجبلية . كانت بندقيتي معي ولكني لم أقو على إطلاق النار عليها وأبعدت السلاح عني . لماذا هو بارد هكذا ؟! آه يا الهي إنه بوق وليس سلاحاً . وهنا أفقت من نومي . انبسطت أمامي أرض جرداء صفراء كأن حريقاً قد أتى عليها . حقت شجرة الصنوبر الواهية بأوراقها الميتة ، وكأنها معتوه يتفوه بالفاظ مبهمه . . . آمت بي فجأة رعشة خوف . أين كنت من دقيقة خلت ؟ هل نمت حقاً ؟ لا . لا . . . فأننا لم أغمض عيني ، ولكن كيف تراءى لي مارأيت وهو يشبه الحلم تماماً ؟ أم أن بوسع الانسان أن يرى أحلاماً بعيون مفتوحة ؟ صرف أفكاري شخص يسير نحو سفح الرابية . رمقت الى السماء : لا ، لم تبلغ الشمس قمة السماء .

إذا كان هذا الانسان مسرعاً لتلبية نداء بوقي ، فهو يستبق الأحداث . وأقبل نحوي برأسه العاري . . . قميصه يتدل على كتفيه وجزيمته تصل الى ركبته . . . ها أنا أميز قسما وجهه : إنه مجهول بالنسبة لي ، طويل القامة نحيفها . شعره الذي أحطه الشيب مسرّح إلى الخلف . اقترب القادم مني وابتسم :

- يوم طيب . . . أتمنى لك الخير يا زاورقان . آه لو تعلم كم أنا سعيد اليوم - وعانقتني .

- ولك كل الخير أيها المجهول .

- لماذا مجهول ؟ يعرف بعضنا بعضاً بشكل جيد . ألسنت أنت من اقتسم معي الخبز والملح حين عشت في داركم ؟

وهنا فطنت :

- طاهر . أقسم بالقديسة بيتحا أنك أخي طاهر ! . . .

وجذبه إليّ معانقاً . لقد أصبح رجلاً شاباً . . . وكنت أحمله أنا وماتا على أيدينا بعناية ورفق ونحن في طريقنا الى عشمان كوي . ثم عاش في بيتنا بالفعل حتى أرسله شارددين بن علو مع وريثه مانصو الى استانبول . . . أوه كم بكت أُمي بحرقة وألم ، وهي تودع الصغير طاهر . . . حدّق كل منّا بالأخر طويلاً ، ولم نشعب من النظر . ثم كلمنا أمعنت نظري في طاهر الذي يقف أمامي الآن استرجعت ذاكرتي بوضوح أكثر سحنة طاهر الصغير . نعم . . . نعم ، إنه أنفه الممتد الى الأمام ، نعم . . . نعم إنها عيونه . . . الزرقاء .

- التفينا وأين التفينا ؟ أمام بيتنا بالذات . إنه مكان مقدس بالفعل - قلت أنا .
 انعكست في عيني طاهر الزرقاوين الباسميتين سحب سوداء . .
 - المكان المقدس للأوبيخ بقي هناك وراء البحر . . . عدت بالأمس الى البيت من
 استانبول وحدثتني زوجتي عن انبعاثك من جديد . . لم أجرؤ على القدوم إليك في وقت
 متأخر وازعاجك بزيارتي . ثم في الصباح علمت من سبت بأنك توجهت إلى هنا . .
 وسمعت صوت البوق . . زوج عمك محق : « إذا انبعث شخص ما في زمن من الأزمان
 من بين الأموات فهو زاورقانا » . لو عدت في الأزمنة الغابرة الى أوبيخيا إثر معاناتك
 لتلك الأهوال والصعاب لألقوا عنك الأغاني في الففقاوس وغنوها على وقع الأبخيارتسا .
 ومع هذا فعودتك بالنسبة للأوبيخ الذين لم يفقدوا أنفسهم بعد - حدث كبير جداً . . .
 ذكرتهم بعودتك بالحكمة القديمة : « تهالكت الجبال على الجبال فلم تحتملها ، وضعوا
 الجبال على أكتاف الناس فلم تنز هذه بحملها » . اسمك يمنح القوة لمن وهنت
 عزيمته ، ويعلم الرجولة والجلد لمن ضعفت نفسه .
 يتحدث إلي طاهر وأنا أمتع ناظري به كل الوقت . رقبته السمراء تنتصب فوق
 كتفيه العريضتين وكأنها عنق إبريق . . . جبينه عال وناصح ، فيه تجميدة واحدة فقط تحزه
 وكأنها ندبة جرح . شاربه الشائب مخلوق قليلاً ويغطي قسماً من شفته العلوية أما حاجباه
 فأسودان لم يخطهما الشيب الى الآن .
 - سرني أن أسمع من الناس ياطاهر أنك أصبحت محامي الشعب ؛ هذا يستحق
 الثناء . ما هي الأخبار التي جئت بها من استانبول ؟
 - أخبار سيئة بازورقان . لا أحد يعير اهتمامه للأوبيخ . يعمّ الشيب وضعف
 الإرادة السلطة ذاتها . هرات طوال شهر أعتاب المؤسسات الحكومية . لم يبد أحد أدنى
 اهتمام بفحوى شكواي . وهكذا عدت بخفي حنين . إننا يؤساء حقاً .
 اقترب الوقت من منتصف النهار .
 - هل سيجمع الناس برأيك ؟ - سألت .
 - الشيوخ المسنون يجولون على البيوت ويدعون الناس الى الاجتماع . لقد سمعوا
 صوت البوق أيضاً . سيجمع قسم منهم على ما أعتقد - أجاب طاهر وهو يراوح الى
 الأمام ثم إلى الوراء على الرابية .

- أصبح الأويغويون مسلمين - ونظر طاهر باتجاه بيتنا - أمسى الإحناء لها شيئاً
يعود الى الماضي . ينبغي عليهم إيجاد قديسة أخرى حتماً .
- أية قديسة ؟

- الإيمان بالخرية ، ولكن يتوجب الإحناء هذه الأخيرة . . لا بطني الركب ، بل
بتنكب السلاح .

- كيف يمكن لحنفة من الناس محاربة دولة كاملة ؟

- الحنفة لا تستطيع ، أنت محق ، أما الإيمان بالخرية فلا بد أن يتغلغل الى نفوس
المعدمين ، النزاعات بين العشائر لا تنشب بدافع من الطبيعة البشرية ، بل من تواطؤ
أصحاب السلطة . الفقير يفهم الفقير دائماً بغض النظر عن اللغة التي يتكلمانها . ينبغي
أن يصبح صاحب الأرض من يعمل عليها ويسقيها من عرقه . وينبغي أن يولد المستقبل
الأفضل - كالطفل - من الوفاق . .

- لعل الوفاق بعيد عن طبيعة الإنسان . . وحيث يوجد النهار يوجد الليل . حيث
يوجد الثراء يوجد الفقر . أحدهم يفرح وآخر يسكب الدمع . أحدهم - السلام عليكم -
يظهر على وجه الأرض وآخر - الوداع - يفارق الحياة . لا ليس بوسعنا نحن أن نغير هذا
النظام يا طاهر .

- بالنسبة للحياة والموت والليل والنهار . هكذا تماماً أما بالنسبة للناس فلا ؛ ألم
تسمع مثلاً بقلب القيصر في روسيا ؟
- لست أصم .

- الانقلاب ليس حكاية بسيطة . دخل قانون الأخوة في روسيا حيز التطبيق . ولا
يسرى هناك حق الأقوياء ، بل قوة الحق بالنسبة للشعوب كافة . لدى أبناء عشيرة أمك -
الأبخازيين - حكومتهم الخاصة الآن . . وقد زار رئيس الحكومة الأبخازية تركيا في السنة
الماضية .

تمعن أيها العزيز شاراح . . في أية حالة انفعالية أسميت هناك . جئت لأصلي
للقديسة بيتنا . . وفجأة أسمع كلمات من هذا النوع . ولكن مهما حاولت أن أتصور
أبخازيا على شكل يختلف عما أعرفه منذ طفولتي ، على الشكل الذي يحدني به طاهر ،
وجدت تخيلتي عاجزة عن القيام بذلك .

- وصل صدى الأحداث التي جرت في روسيا الى هنا . وأمسى حكم السلطان معلقاً على غصن صغير . . . سيتحرك الناس هنا أيضاً . . . وعندها . . .
- ماذا عندها ؟

- سيتغير كل شيء يا زاورقان . اصغ اليّ ؛ أريد أن استشيرك في المسألة التالية :
ماذا لو وقفت أمام الناس حين يجتمعون هنا وحدثتهم بأفكارهم هذه ؟ من خلال ماتحدثنا به الآن . . .

- كما ترى . . . ولكن هل هذا مناسب ؟ أخشى أن تعرض نفسك للهجوم . لم تعد هناك وحدة بين الأويغ من زمن بعيد .

أمست الشمس فوق رؤوسنا وأخذ الناس يتوافدون مثنى وثلاث الى الراية . لم تأت النساء معهم حسب العادة الاسلامية هنا . أدخل شابان عصا رفيعة عبر الحبال الموثق بها جدي أبيض من قوائمه ، وحمله بالعصا الى سفح الراية . سار وراءهما الشيوخ وعلى رأسهم الكاهن صلاح . نزلت وطاهراً عن الراية ؛ فلا يحق لأحد عدا الكاهن أن يعتلي قمئها في يوم الصلاة . اجتمع حشد قليل من الناس كما توقعت . ذبح الكاهن الجدي بعد الصلاة قرباناً لبيتها . لم يعرف الشباب كيف يمكن سلخ الجدي المذبوح ، ولذلك تكفل به العجوز تاتلاستان . سلخ الجلد أولاً ، ثم قطع اللحم الى أجزاء وضعها في القدر . توجب على كل سلالة في الأزمنة الطيبة الغابرة أن تقدم قربانها الخاص أما الآن فقد تبرع مريدو بيتها بشق النفس بالقليل من النقود لقربان واحد فقط .

أكلوا في السابق كما تملبه العادة في مثل هذه الظروف بأوراق الدلب الكبيرة الطازجة . أما هنا فلا توجد أية أشجار على بعد عشرة فراسخ ، ولذلك توجه بعض الناس لجلب أوراق عرانيس الذرة الصفراء .

مثل الاجتماع مشهداً حزيناً لمن رأى في زمانه اجتماعاً مائلاً . أين اختفى أولئك الفرسان في بزاتهم الشركسية وقمصانهم القفقاسية ؟؟ في القلابق السوداء والفشك على صدورهم ؟؟ . أين أحاديث المسنين الوقورين وحفاوة الشباب الخدم ؟ أين أولئك الفرسان اليواصل الذين اعتادوا اجراء السياق إثر مراسم الصلاة على شرف اللقاء ؟ أين الفتيات الجميلات بصفائهن الطويلة حتى أقدامهن وهن يسبحن على رؤوس أصابعهن

في دائرة تحدها الجياد رافعات أيديهن كالأجنحة ؟ أين الخيول الجاسحة التي تنظر الى الأرض بطرف عيونها ، وتحفر تحت حوافرها متحفزة هائجة ، ضاجة بأعتها ؟ كل ما وجد هناك جعل أجرب يرعى قريباً من المكان . بدأ المجتمعون منهكين . . تحدثوا في مختلف المواضيع عدا ما يخص القديسة بيتحا . . حين رأى الناس طاهراً أحاطوا به وأغرقوه بالأسئلة عن سفرته الى استانبول .

ظهر صلاح في أرديته البيضاء واقفاً كأنه طيف على قمة الراية . حمل بيده اليمنى قلب الجددي المسلوب وكبده مشكوكين بغصن غنب كالسيخ ، وتصاعد منها البخار . خلع الشيوخ قبعاتهم وركعوا عند سفح الراية . جاريتهم بالمثل . . ولشدة دهشتي رأيت طاهراً يركع أيضاً . « ولكنه أراد أن يتحدث عن أفكاره الخاصة » فكرت أنا . . بقي القسم الأعظم من الناس واقفاً في مكانه ، بل أخذ بعضهم يدخن أيضاً .

- ايه ياربي القادر على كل شيء - بدأ صلاح كلامه ، فعم الهدوء ، ثم تابع الكاهن بصوته المرتجف الضعيف :- أوه أيتها القديسة ذات وجه الحدأة بيتحا . حاميتنا وراعيتنا ، باركيننا . كفري عن ذنوب الضالين ودليهم الى طريق الصواب . لا نحاسبينا على تواضع قرباننا . . إننا نتوجه اليك بأماننا راكعين على ركبتنا . اسمعينا يا واسعة الرحمة . .

ما إن خطر لي أن الأسلاف آمنوا بأن بيتحا قادرة على كل شيء ، وأن لهذا جدواه الأكيدة فعلاً ، حتى اتبعث من الصف الأخير صغير حاد . والثفت الجميع . صقر شخص ذو لباس عسكري باخ لونه واضعاً أصابعه الأربعة في فمه . همسوا له أن يكف عن الصغير ولكنه لم يابه بأحد .

- قرن كامل ونحن نصلي . ما الفائدة من ذلك ؟ صلي الجد وصل الوالد راعماً معافاً . - وأشار الى بيتحا - أية فائدة من هذه ؟ ثلاث سنوات وأنا أطعم القمل وأسقي الأرض بدمي في سبيل مجد السلطان في البلقان . عدت من هناك : لا أب ولا أم ، لا مأوى ولا بيت . قل لي أيها العجوز المحترم لماذا أمست قديسة القديسات بيتحا عمياء طرشاء ضعيفة الحيلة حتى أنها لا تقوى على مساعدة البريء ؟ - قال ذلك ثم بصق وأشاح بيده - كل هذا كذب وافتراء . .

- هل جنتت ؟ - صاح سبت شاعراً بإساءة الجندي القديم ، مبدياً سخطه
وغضبه .

- في المسجد لا يجوز النطق بكلمة واحدة وهنا يجب لجم اللسان خلف الأسنان . .
كفانا - أحاب صديق الجندي بجلافة واضحة . .

- احرسا أيها الأثمان - صاح العجوز داود . ولكن الجندي وصديقه لم يلتفتا لصباح
العجوز مطلقاً :

- غفت بيتحا من زمن بعيد ، أما أنت أيها الكاهن فمن العيث أن ترفع أمامها على
عصا قلب جدي وكبده - صاح الأول .
وأيدته الثاني ساخراً :

- أم أنك لا تعرف طعم القلب والكبد بدون قديستك بيتحا ؟

ازداد الضحيج والجدل بين الشيوخ والشباب .

- مايبكم ؟ هل تأمرتم على تحريب مراسيم الصلاة ؟ - هزتا تلاستان عكازه بيده
واقفاً وجهاً لوجه أمام الشباب .

صعد طاهر الى قمة الرابية ؛ فعل ما يبدو قرر أخيراً أن يقول كلمته للناس . إلا
أن الكاهن صلاحاً قطع الصلاة في تلك اللحظة وأسقط الغصن الذي يحمل قلب
الجندي وكبده ، أسبل يديه هاوياً الى الأرض كأنه ملاءة بيضاء طيرتها الريح عن
الحيل . . هوى بطوله الفارع أمام بيتحا .

تلقفوا العجوز بالأيدي ثم أخذوه الى البيت ولكنه لم يصح طوال تلك الليلة من
غيبوته . ثم لفظ أنفاسه الأخيرة قبل انبلاج الصباح .

مانصو بن شاردين

إيه . . . يا عزيزي شاراخ . . . إن لم أنقل عليك كثيراً حتى الآن اقبل بعض ثمار شجرة ذكرياتي أيضاً .

كان شاردين بن علو أبغض الناس إليّ . لقد ربطت كل محن الأوبخ ومصائب أسرتنا باسمه هو ، واعتبرت هذا الفاسق مذنباً في عار أخوتي ومقتلها . ولم تكف ميتته الشيعة المؤلمة التي انتهى إليها لشفاء غل ثأري . بقيت أشعر كل الوقت برغبة جامحة في الثأر منه روحياً . فلترفعه الشياطين هناك في العالم الآخر أيضاً على أسنة الحراب .

أدهشني حين قدمت الى كارينج - أفاسي أن مانصو وريث أخ أبي بالرضاعة يعيش في رخاء ونعيم ، وأن الفلاحين يعملون له في أرضه . فمن المفروض أن يتحول ابن مجرم دولة ، قاتل قائد الجيش إلى مواطن عادي في أحسن الحالات ، لا أن يعيش على جهد الآخرين . تبين لي أن لدى أبناء الذوات قوانينهم الخاصة . يرتكب الفقير من أمثالي جرماً ما فتذبح أسرته كلها حتى الأصول . أما إذا اقترب صاحب سلطة جرماً مماثلاً فلا ينال الثأر ورثته لأن الابن غير مسؤول عن أبيه . وهكذا نجا مانصو . لكن ذلك الشاب الأرعن الذي لا وجود للمقدسات لديه ذو دماء نبيلة . ولا يجوز أن يفلح الأرض نبيل فلو حدث ذلك لقدرت عامة الشعب أن النظام القائم في دنيا اليوم ليس موضوعاً من قبل الله تعالى بل من صنع الشيطان ذاته . ولا نهار بالتالي الولاء المتأصل في النفوس تجاه أبناء الذوات .

حين قضوا على شاردين بن علو بذلت والدة مانصو كل ما بوسعها حتى أرسلت الوريث الى فرنسا .

ولكنها ماتت بعد مرور سنتين دون أن تفرح بعودته . مارس هذا الشاب المتهور ذو الطبع الجموح والطلعة الجميلة التجارة ولعب القمار والغش فيها . قضى لياليه حتى مطلع الفجر في الكازينو . وذات يوم ضُبط بالجرم المشهود فتذكر الأوبخ وقصد كارينج -

أفاسي ليقول لهم هناك : « أنا نبيلكم وأرجو حُكم واهتمامكم » . اعترفوا به جميعاً وأطاعوه قائلين نحن سعداء بعطفكم .

إيه . . . الأوبخ . . الأوبخ . . . مهما علمتهم الحياة تبقى خصالهم القديمة راسخة في نفوسهم الى الأبد . حنوا رقابهم . . وليس صعباً وضع النبر على الرقاب المحتية . . أما السلطة فعاملت مانصو بن شاردین بسخاء : أعطته أرضاً وفيرة ولسان حالها يقول : عش هنا واحكم وتنعم . . اشتغل المتزعم الجديد على الأوبخ بتجارة القطن بعد اكتسابه خبرة كبيرة في أصول التلاعب التجاري . سارت أموره على مايرام وسرعان ما جمع هذا الفقير المدقع ثروة طائلة . أمسى قصره الأفخم في منطقة قطرها مئة فرسخ . وحسده عليه علي حضرة باشا نفسه . بصق مانصو بصريح العبارة على أبناء جلدته وهمومهم واحتياجاتهم ، وانحصرت همومه في شيء واحد فقط وهو أن يعملوا جميعاً في أرضه لحسابه الخاص ، وألا يتخلوا عن ولائهم الموروث أباً عن جد . لا تقع التفاحة بعيداً عن التي سبقتها . طباع الأب وميوله ورثها دماً ولحمياً . كم حاولت تجنب وريث شاردین إلا أن سبت الذي مرض أجبرني على الذهاب عوضاً عنه يوماً في الأسبوع الى حفل مانصو ، فأرعى المشية ، أو أعزق الأرض . أذكر أن نزاعاً دورياً نشب مجدداً بين الأوبخ وجيرانهم الجمخاسار . فقد زعيمهم جواد بيه عشرة خراف . اشتكى الأخير للوالي واتهم الأوبخ بذيخ خرافه .

اعتقل ثلاث شباب أوبيخيين . استجوبوا طويلاً ، ولم تتوفر ضدّهم أية براهين . أطلق سراحهم بعد ضربهم بالسوط من قبيل الاحتياط . غضب جواد بيه : كيف يحدث هذا ؟ تسرق خرافه ولا يعثر على السارقين ؟! وساق قطع الجمال الى أراضيها . فتح الأوبخ النار على الجمال والرعاة . نشب تبادل اطلاق النار واستمر تطاير الطلقات ثلاثة أيام من كلا الجانبين . . وفي الوقت نفسه نرى جواد بيه يطارد على حصانه بمرافقة حراسه الخيالة متوجهاً الى مانصو بن شاردین ليحلّ ضيفاً عليه . جلسا هناك وراء المائدة ، تمتعا وتلذذا وشرب كل منهما نخب الآخر وامتدح كل منهما نفسه بما أسقطه رجاله من ضحايا من الجانب الآخر .

لم يستطع الشيوخ المجتمعون في بيت سبت أن يفكروا بحل أفضل من تكابفي بالتوجه إلى مانصو ورجائه أن يتفق مع جواد بيه على وقف نزيف الدماء الجاري .

- وجدتم فعلا من يجدر إرساله - اعترضت أنا .

- والداكما أخوان بالرضاعة - ذكروني - ليس لدينا غيرك هذه المهمة .

فليحظ أعداؤك ياداد شاراخ بما حظيت أنا به من نجاح في مهمة الشيوخ هذه .

فتحت الباب الصغير في البوابة الحديدية المطلية بتزيينات غريبة .

- ماذا تريد؟

- اسمي زاورقان زولاق . أنا قريب صاحب القصر ولديّ مسألة أريد أن أعرضها

عليه .

- تقول قريب؟! زاورقان زولاق؟! يتمزق الفم قبل أن ينطق بهذا الاسم

••• « زاورقان زولاق » ••• لم أسمع بقريب من هذا القبيل .

ورمقي الحارس بنظرة ارتياب من رأسي حتى أخمص قدمي وأوعز لي حازما؟

- إلى الوارء - أيها الأحمق - در . إلى الأمام سر .

- حذار أن ينالك عقاب سيدك لقاء هذه المعاملة لانسان قريب إليه .

- السيد مشغول . لديه ضيوف رفيعوا المقام ، وليسوا من مقامك أنت أيها البائس

••• عنده علي حضرة باشا وجنرال فرنسي . انقلع من هنا ••• لمن الكلام ••• هيا ابتعد .

ماذا بقي لي أن أفعله؟ راوحت في مكاني قليلا وتوجهت إلى البيت بخطى بطيئة .

إلا أني حين اجتزت السياج عند الفناء الجانبي سمعت حديثاً مرحاً صاخباً . اقتربت من

قضبان السياج الحديدي فرأيت أربعة رجال . جلس في المقدمة مانصوين شاردين فلا لزوم

لحداقة كبيرة لتخمين ذلك ، إنه شبيه جداً بشاردين . وإلى جانبه عند يده اليسرى جلس

تركي مكنتز الجسم كالبرميل ، وعلى أكتافه رتب برّاقة يدخن غليونه . إنه علي حضرة باشا

- هكذا خمنت . وجلس إلى اليمين سيد نحيف الجسم ، بيده عصا ، وعلى صدره أوسمة

لامعة يدخن ويتحدث بصوت عال بلغة لأعرفها . « لا بد انه الجنرال الفرنسي » هكذا

فكرت . أما في البعيد فوقف جواد بيه بقامته الطويلة وبرنسه الأبيض ..تماما كما وصفه لي

شهود عيان من قبل .

جلس الرجال وراء طاولة عليها فواكه ومشروبات وفستق . « يعيشون حياة حلوة

••• هؤلاء المارقون ، - طرات على ذهني بشكل عفوي - لا ينقصهم إلا عراك الديكة . وهنا

ظهر كالسحر خادمان يحملان ديكين أطلقاهما تَوًّا، نظر الديك الأحمر بعينين غاضبتين إلى الديك الأبيض ٥٥ ثم انفض عليه واشتبكا في العراك. طار ريشها شعنا ثم تباعدا برهة. أخذ كل منهما يشحذ منقاره في الأرض وقد حنيا رأسيهما إليها. أمسى ريشها منفوشاً وأجنتهما مشرعة. قلبا أجفانهما وتبادلا نظرات السخط والغضب لحظة ثم استأنفا العراك. اشتد احمرار عرقبيهما. ملأ الريش منقارهما. في منقار الديك الأحمر ريش أبيض والعكس بالعكس. كاد الضيوف وصاحب الدار يموتون من الضحك وهم يحرضون الديكين المتعاركين. صفروا لها ورموها بالفتق.

صاقت أنفاسي وارتددت عن قضبان السياج وشدت من قبضتي يدي ثم أسرعت في الابتعاد عن المكان قبل أن ارتكبت جريمة هناك.

يعشوننا للنزاع مع الجيران مثل هذين الديكين - فكرت وأنا في طريقي - يشتبك الديكان فينتمعون ويضحكون، يتشاجر الناس فتسليم المشاجرة، وتمتعهم بل تفيدهم أيضا: ابقوا أعداء أيها الجهلة، فحياتنا تسمي أهدأ حين تنشغلون بنزاعاتكم.

علمت في اليوم التالي أن الضيوف يغادرون القصر. قصدت البوابة الحديدية من جديد لتحلّ عليها شر اللعنات. فتحت باب السياج وسألني الحارس الذي حلّ محل سابقه:

- ماذا تريد؟

- شرحت له أني أريد رؤية مانصوبن شارددين، الأخ بالرضاعة لأبي.

- ألا ترى الحصان مسرّجاً؟ يعترم السيد الذهب للصيد. ولا وقت لديه الآن لك.

- سأخذ القليل من وقته فقط. أرغب بقول كلمتين له، لا أكثر.

- لا أستطيع السماح لك بالدخول. أمرت بالأدخال أحدا على الإطلاق.

بينما كنت أجادل الحارس خرج مانصوبن شارددين من شرفة الدار إلى فنائه. جزمته تعلقو ركبته. على رأسه قبعة من القش وخلف كتفه بندقيّة بسطانتين.

كنت في قميص قفقاسي ويزة شركسية وخنجري على جنبي. حين لاحظ مانصوبن مجهولا بلباس مغاير للعادات التركية اقترب مني:

- يوم طيب - حيّته بالأويخية.

عوضا عن أن يجيب على تحيتي بتحية مماثلة سألتني بالتركية:

- من أنت؟

- ثمَّعن جيداً فقد تتذكر.
 - لاوقت لدي للتمعن.
 - أنا زاورقان زولاق. أبوانا أخوان بالرضاعة.
 - آه ٠٠ حدثني عنك مختار ٠٠ وقال مكشراً عن أسنانه وهو يضرب السوط
 فيلتفّ علي ساقه - أنت من ذبح الباشا رفيع المقام.
 ليست الحادثة الوحيدة في سلالتنا - لم أقو على عدم التلميح إلى أبيه الذي قتل قائد
 الجيش ٠٠ حصلت على العفو بالبيان الذي صدر.
 - تقول بيان !!! مادخل البيان هنا؟ أنت مجرم ويداك ملطختان بالدم ٠٠ - وقطب
 مانصو بن شاردين جيبه:

- لم أت إلى هنا لحاجة خاصة لي ٠٠
 - تقول بيننا قرابة؟
 - كانت جدتي مرضعة أبيك.
 - يا إلهي متى كان هذا؟ ذلك الزمان الذي انقضى ٠٠ ماذا تريد أنت مني؟
 - اعذرني لأنني أؤخرك ٠٠ ولكنني وسيط فقط.
 - بين من ومن؟
 - بينك وأبناء العشيرة.
 أخذ مانصو بن شاردين حذره:
 - ولكن بماذا يرغب أبناء عشيرتي؟
 - أن تتفق مع جواد بيه على عقد الصلح. الدماء تجري في ثلاثة مجار.
 - أنت من يأسف على سفك الدماء؟ ٠٠ ليتوقف الأوبخ عن السرقات وكل شيء
 ينتهي من تلقاء ذاته. بلغ هذا لمن أرسلك.
 أفهمني أن الحديث انتهى وتوجه إلى حصانه المسرج ثم التفت إلي بعد بضع
 خطوات.

- في أية أيام تعمل عندي هنا؟
 - في أيام الاثنين والثلاثاء.
 - ذكرت اسم أبي. سأعفيك لقاء هذا من يوم واحد. تعال إلى العمل في أيام
 الثلاثاء فقط. أما اليوم فظالماً أنك أتيت مساعد الخدم. إيه حسن أره مايجب أن يفعله.

امتطى مانصو حصانه وانطلق إلى الطريق الرئيسي حيث اختفى سريعاً في سحب الغبار. لماذا لم أكسر رجلي حين توجهت إلى هذا الفناء المشؤوم؟ - بصقت ساخطاً حانقاً.

من دعي بحسان، وهو عملاق ذو عينين سودوين وذقن كثيفة مستطيلة، قادني إلى حيث الخطب وأشار إلى الفأس قائلاً:
- ابصق على راحتي يديك واشتغل.
أنهت قطع الخطب وقادني الجاموس حسان إلى البستان، فناولني معزقة وقال:
- اجمع القش.

بلغت الشمس قمة السماء. هاج بطني من الجوع الشديد. وحلمت بشيء واحد فقط: أن أكون خارج أبواب هذه الدار. إلا أن حسان ذا الوجه العريض ظهر من جديد وأخذني إلى حظيرة الكلاب.

- يجب تغسيل الكلاب. شمّر عن ذراعيك، وسأصب عليها الماء من الأبريق.
كم من الأعمال الغريبة العجيبة قمت بها في حياتي؟ أما تغسيل الكلاب؟ ٠٠ هذا ما لم أصل إليه سابقاً. كنت مرتدياً ملابس جديرة بابن الجبال الأصيل وعلى خصري خنجر ففقاوسي. فليأخذ الشيطان كل الكلاب. لم ألسها بيدي منذ ولدت ٠٠ أما أن أغسلها أيضاً؟

- هيه. هل أنت أصم؟ شمّر عن ذراعيك أيها المتسكع - صرخ بي صاحب الوجه العريض.

استنكرت قائلاً:

- لا أستطيع.

- فليأخذك الطاعون. كيف لاتستطيع؟

شدت على قبضي. ولكن ٠٠ لو أننا في غير هذا المكان ٠٠ وضغطت على مقبض خنجري فهالني أن حسان العملاق الذي لو حملة أقرباؤه إلى المقبرة لأصيبوا بالفتق من ثقله أمسى فجأة أخف من الفراشه وطار إلى باب المطبخ ليختفي فيه على الفور وأسرعت بدوري بمغادرة الدار. « فليمتلئ باللصوص » وخرجت إلى الطريق.

أشدّ ماسعراً غضبي في تلك اللحظة هو جدي المدفونة في الأرض الأوبخية

البعيدة، « فلينمُ الشوك بين عظامها » - هكذا لعنتها في سري - كيف لم يحف الدم في يدك حين كنت تغسلين ريبك بالحليب عوضاً عن الماء. غسلته بالحليب، أما ابنه الفاسق فيجعلني الآن أغسل الكلاب. فلتحل عليه اللعنات مع كلابه كلها.

شعرت بألم مريع في بطني النحيف كبطن الكلاب، إما من الجوع أو الغضب على جدتي المرحومة. كلما ابتعدت عن مزرعة مانصو أصبح البحر الذي يفصل أحدنا عن الآخر بلا شيطان ٠٠ أه لو أزي لا ألفاه بعد ذلك أبداً - تمثيت في سري .

أستان زولاق

- هل بقي أحد من سلالتنا زولاق؟ - سألت عمي حيمحاج في اليوم التالي لوصولنا إلى كارينج - أفا سي .

- بقي شخص واحد شبيه بالبعل الذي سألوه: من أبوك؟ فأجاب: أمي - فرس .
- من هو؟

- لعلك تذكره ٠٠ الحق أنه كان فتياً حين انتقلنا إلى تركيا . . . أستان زولاق حفيد عازف الأبخيارتسا الأعمى ساكوت الذي توفي في سمسون رحمه الله .

مات ساكوت كما تعلم يا عزيزي شاراخ في سمسون بالفعل، ولكنني نسيت أن أخبرك في حينه أن ساكوت من سلالة زولاق. كان أقرابي في ذلك الوقت كثيرين أما الآن فيبدو أن في كارينج - أفا سي جيلين اثنين فقط من السلالة الكبيرة سابقاً زولاق: أنا وحفيد ساكوت - أستان . الأرض تعج بالأخبار ولم يسع ساكوت ألا يعلم بوصولي إلى كارينج - أفا سي . ثم طالما أنه أصغر سنّاً وجب عليه أن يسرع إلى بيت سبت، ويقول: « يا ابن سلالتي الوحيد . أنا سعيد بعودتك . ولكن لا بأس :» إذا لم يذهب الجبل إلى محمد فمحمد يذهب إلى الجبل :» كان الوقت صيفاً ، وحين قصدت بيت أستان بدت الشمس لاهبة بكل ما أوتيت من قوة . اصفرت أغصان أشجار الشمس وارتمت على السور، وبانت ثمارها الكهرمانية بين الأوراق الخضراء . تصاعد دخان الموقد فوق الكوخ الطيني

المائل . رأيت قرب البيت حظيرة بقر وركاماً من الروث القديم تحت نافذة من الشبك .
شعد كهل نحيف الجسم ذو حاجبين شائبين شائكين فأسه على حجر السن جالساً تحت
شجرة ظليلة .

- يوم طيب . أريد رؤية ابن سلالتي أستان زولاق - خاطبت الجالس بالأويخية .
وضع العجوز راحة يده على جبينه ليقى عينيه من وهج الضوء الساطع . توجب
العادة عليه أن ينهض فوراً حتى لو دخل البيت شخص غير مرغوب فيه أومسيء لصاحب
البيت إلا أنه لم يقم من مكانه .
- مرحباً بك . أنا - إذا سمحت - أستان زولاق . ومن تكون أنت؟ - أجاب
بالتركية .

- ألا تعرف؟ خصّ ذاكرتك إذا وتذكر هل هناك بين أبناء زولاق من دعي
زاورقان ؟

وضع أستان الفأس جانباً ونظر إليّ بحذر:
- تقول زاورقان؟ كان هناك قاطع طريق بهذا الاسم . إنسان ضائع سلبه أحد
الباشوات أختيه ، فجنّ جنونه وذبح الغادر ٠٠ إنه أحمق ، وقد أعدموه .
- إذا أعدموه فعلاً فقد بعث ثانية من العالم الآخر . استقبل أخاك إذا بأستان .
- لانتحامق باداد ليس لدي ٠٠ لا أخ ولا أخوات ٠٠ كلهم ماتوا .

- إذا فلا تعرفني ؟ ونعتقد أي مدع ؟
- الموتى لا يعيشون . . الكفار فقط اختلقوا أن نبيهم عيسى قد بعث .
- أستطيع أن أريك ورقة تشهد بأنه أطلق سراحي ببيان السلطان . فتح عينيك
جيداً فلم تصبح أعمى بعد مثل جدك ساكوت . أتريد أن أذكرك بالأغنية التي أداها
حين غادرنا أويخيا . كنت عندها صبياً تقوده من يده . لقد غنى حينها :

لنلتفت إلى جبالنا الأبية . .

فهي لاتدري إلى أين نسير . . .

ونترك لها أغنية شجية . .

فتصدح هنا دائماً كالنغير . .

تفقد الأم طفلها وهو محبوب . . .

فهل هي حقاً مذنبه ؟ !

تسأل الأرض عننا وتشكو . . .

لمن أبقي يا قوم سائبة ؟ !

لماذا الرحيل أيها الأطفال ؟ !

تبكي أرضنا وتطلب المحال . . .

ساعيننا نحن حقاً بؤساء . . .

نحن لا نقوى هنا على البقاء . . .

أرواحنا ستبقى هنا . . .

قبل أن يأخذها الفناء . . .

فلتبق دوماً . . . في هذه الأرجاء . . .

رحم الله من وضع هذه الأبيات . فلتصبح الأرض التي تأويه تحت شجرة الصنوبر
الوحيدة قرب سمسون ريشاً ناعماً بالنسبة إليه .

لأن وجه أستان وبدا لي أنه سيففز إليّ توأً ويعانقني بيديه . . .

أخطأت . بقي أستان في مكانه أمام حجر السن وكان شيئاً لم يجر أمامه .

- هل حدث قبل الآن أن يبقى الإنسان المحكوم عليه بالموت على قيد الحياة ؟ ! .

اقبل نهائي يازاورقان . ولكن لا تغضب ؛ فلا أستطيع أن أقبلك في داري . . . أين
نزلت ؟

- في بيت سبت مع أن العادة تملي عليك أن تقدم لي المأوى ، حتى لو أزي محكوم

بالأشغال الشاقة ، وهارب من وجه العدالة .

- العادة مثل ذنب الثور . . مات الثور وسلخوا جلده . . .

- لو أنهم أعدموني لوجب عليك أن تتأثر لي .

- ماذا ؟ ! هل أنت تعيش على الأرض أم نزلت علينا من السماء ؟ ! حتى بعد

مقتل والدي لم أعلن بأنّي سأثار له . لا بأس إن لم يبق لي مكان في الجنة ، أما ما أريده

فشيء واحد فقط : أن يتركني الجميع وشأنى طالما أنا على قيد الحياة . لست ملزماً بشيء ،
تجاه أحد .

- اهدأ . أنا لا أريد منك شيئاً . أردت أن أراك فقط ، فنحن لسنا غرباء .
حين سمع أستان بأنني لا أريد أن أطلب منه أي شيء نفس الصعداء وقال :
- الحمد لله . . رجلاك ويداك سليمة . انحن لهم فقد يعطونك أرضاً ، فتعيش
وتتنفس .

- أنا وأنت آخر حلقة في سلسلة زولاقي . . لا يجدر بها أن تنقطع .
- رميت بنسبي زولاقي تحت ذيل الشيطان ، وأخذت نسبة زوجتي الشرالية .
- وجدت مائتدح به نفسك . أين رأيت رجلاً يأخذ نسبة زوجته ؟ . . .
- كلام فارغ . الإنسان كالبقطين والنسبة مثل البذور يصنعون من البقطين إناء
فيرمون ببذوره .

- لاتجن على الإنسان يا «إناء» .

ضحك الأوبيخي الذي غيّر نسبه بصوت لا أثر للمرح فيه :

- هاهاها . كل هذا من العجرفة والتكبر . كان حربياً بنا أن نحرص على بهرجنا
اللائق حين عشنا في الوطن . . أذكر أننا اعتدنا حين ينكسر عرق الكوسا مثلاً أن نطعمه
للنسر لأنه لم يعد لائقاً لكي يتناوله الإنسان . . اللحم الذي يبقى من وليمة الأمس لا
يقدم للضيوف في صباح اليوم التالي ، فهو يعد من فئات المائدة . . إذا تزوج جيلي فتاة
من سلالة غير جذيرة وجب عليه إما أن يتركها وإما أن يختفي عن الأنظار في مكان بعيد .
يمكنك أن تحوم سنة كاملة . أما حين يجلس الضيف فعليك أن تضع على المائدة كل
مايجب وضعه . عشنا نحن الأوبيخ في حسد القفقاس ووسعنا راحة يده فحسب ، إلا
أن عزتنا فاقت كل الحدود . ولكن إلام انقلب كل هذا ؟

- لا تبحث لنفسك عن تبرير ، أنا أكبر منك سنّاً أقف أمامك وأنت لا تدعوني
حتى إلى الجلوس .

- المكان واسع . . تفضل واجلس . - ورسم بيده نصف دائرة .
- ثار الدراق تتدلى فوق رأسك وأنت لا تضيفني منها أيها البحيل .
اقطف حين ترغب . . وضيّف نفسك بنفسك .

- تبقي واقفاً في فناء الدار ولا تدعوني إلى داخل البيت .
- الجوف في الداخل خائق . . طالما أنهم لم يعدموك فهذا يعني أنك جلست بها فيه الكفاية بين أربعة جدران .
- ينبغي عليك أن تعرفني على زوجتك حسب العادات .
- عندي زوجتان . إنها شارواليتان .
- وأين هما ؟
- في البيت . تعملان وتتشاجران كالعادة .
- وكيف تقيت زوجتين . . من أين لك المورد الكافي لذلك ؟
- حصلت في السابق على مورد جيد . . ولكنه انقطع وبقيت الزوجتان . تقول :
- « يجب أن تتعرف عليهما » ولكن هل جتتهما بالهدايا ؟
- أليس أفضل الهدايا هو لقاء القريب ؟
- أو ليس الهواء الطلق أفضل من جو المسكن الخائق ؟ - مزح هكذا . ثم أضاف مهادناً وكأنه محق في كل شيء - اجلس قليلاً . . ستخبر المرأتان وتعذنان الفهوة وأدعو جارنا العجوز محمد . كل شيء في وقته .
- هل أطفالك كثيرون ؟
- اثنان . طفل من كل زوجة .
- وهل يحملان نسبك أم نسبة الأم ؟
- نسبي الجديدة : كازانجي أوغلي . . إنها نسبة تطرب آذان من ولد في هذه البلاد وتحفظ من الشبهة . .
- وأين هذان الكازانجيان الأوغليان ؟
- لم أسمع شيئاً عن الأول من أكثر من سنة . لقد انضم إلى عصابة سرقة . . إنه احق . لعله سجين الآن . . أو أنه قتل . . فلتحل اللعنة عليه . أما الثاني فلا بأس به ، يعمل أجيراً في دكانة في مدينة قونية ويكسب قوته . متزوج ولكني لم أر زوجته وأطفاله .
- مؤسف أن أحفادك لا يحملون أيام شيخوختك . لو أنهم لعبوا ومرحوا هنا في فناء الدار لما أمست شيخوختك يتيمة هكذا .

- إيه يازاورقان ، تَحْمَلُ أعباء الأطفال والتفكير الدائم بإطعامهم عمل مضمّن ،
وليس متناسباً مع جيبي . فليبقوا أحياء هناك حيث هم موجودون . إذا كان لهم نصيب
فسيعيشون ويكبرون ويدخلون بين الناس .
- وأنت ؟ كيف تحصل على خبزك ؟
أرعى الأوز للحاكم حسين أفندي . نحن ثلاثة رعيان . نتناوب العمل كل ثلاثة
أيام .

- أين رأيت رجلاً يرعى الأوز ؟ ! أن ترعى الخيل . . مسألة أخرى أما الأوز
الفاجر ؟ ! . .

في كلماتك عنجبية غريبة . . هل أكلت لحم الأوز في يوم من الأيام ؟ حُرِبَ
ذلك . . تلعق أصابعك عندها . . أما لحمه المشوي فيسبّل لعابك حتماً . ثم
ريشه الناعم لا يفارق بالقش . من ذلك الأوز يضع حسين أفندي في جيبه ذهباً
خالصاً - رعاية هذا الطير الأحمق ليست مسألة سهلة بالطبع ولكني اعتدت عليها .
وأخذ أستاذنا يحدثني عن الأوز بحماسة عجيبة وكأنه يتحدث عن الخيول . خرجت
في ذلك الوقت من البيت امرأة في ملاءة . اقتربت من كومة الحطب عند العتبة ، وأخذت
حزمة منها . ثم عادت إلى البيت دون أن تقول كلمة واحدة .

تابعتها بنظري ، وتوجهت إلى محدثي :

ألا يبدو لك غريباً يا أستاذنا أننا أوبيخيان ونحدث بلغتين مختلفتين ، أنا باللغة
الأصلية وأنت بالتركية ؟ أم أنك نسيت لغتك الأم ؟

- اعتبر الأمر كذلك . أنا أفهم كل ما يصدر عن شفتيك بل حتى أني أفكر
بالأوبيخية ولكن من السهل عليّ أن أتحدث بالتركية . زوجتاي تتحدثان بهذه اللغة ،
وتنشاجران بها . ليس بوسعي أن أتحدث مع نفسي كالمجنون . حين يرغب الحاكم
حسين أفندي بالترويح عن نفسه يجبرني على التحدث بالأوبيخية ، ولكن ما أن أبدأ
بالكلام حتى يفهمه ويعرق في الضحك قائلاً : « لغة طيور . . غرّد أيضاً » أنت تحمل
خنجرأ على حزامك . أخشى أنه صدى وأصبح حملاً زائداً عن اللزوم . وهكذا الأمر
مع لغتنا فلا تحكم بقسوة وصرامة .

استللت خنجري من غمده . . ولمع بريق مخيف تحت ضوء الشمس . وانعكس

عل نصله المصقول كالمرة بيت أستان العفن خلف أستان نفسه . وبدا لي كل ماحولي
وضيماً تافهاً بالمقارنة مع الماضي الغابر الذي يمثلّه هنا خنجري البارد كالقمة الثلجية .
شعرت بخفقان شديد في قلبي . خفق قلبي كما في صحراء أفريقيا حين يمسى الجو خانقاً
قائظاً في عزّ النهار . « يجب أن أودعه وأنصرف . . أنصرف بأسرع مايمكن » . هكذا
تردد في صدغي .

- لاتنس بأستان أننا من دم واحد . فإذا احتجت إلى وجدتي في بيت سبت . قم
بزيارتي يا أخي . والآن وداعاً .
- وداعاً . هزّ أستان برأسه ، وتناول فأسه ليواصل شحذه .

إلا أن أستان قطع بفأس أخرى غير مرئية شجرة أخوتنا من جذورها ، وأمسى
بوسع المرأة ذات الملاة التي يحمل أستان نسبتها أن ترمي بكل هدوء بأغصان هذه
الشجرة اليابسة إلى ثغر الموقد الأرجواني .

« نعم . . سلالة زولاق . . سلالة الفرسان المهرة والمحاربين الشجعان الذين
عمّت سيرتهم المجيدة المشرفة أرجاء أويخيا كلها . . ماتت هذه السلالة - هكذا فكرت -
ماتت السلالة بشخص أستان ميتة بالسة لا مجد فيها . . بل ميتة عار أكيد » . يقال إن
كل شيء متعلق بالظروف والواقع . إذا صدق هذا فعلاً فمن السخف اتّهام أستان
وحده . إنه ضحية . أما الظروف فقأس على عنقه ، ولا يمكن الهروب من المقصلة . ثم
ما الفائدة المرجوة مني ؟ ! من أنا ؟ ! ليس لدي أسرة ولا أطفال . أدخن تحت السماء
وأحترق حتى النهاية بلا فائدة ترجى مثل شجرة الصنوبر التي فتك بها البرق . تندثر
سلالة زولاق دون أي أثر وكأنها لم تكن . كيف جرى هذا ؟ كيف تخفتي عشيرة
بأسرها ؟ كيف تخفتي لغتها التي صدحت فروعاً عديدة ؟ اللغة التي مجّد بها الناس
بعضهم بعضاً ، تشائموا بمفرداتها ، غنوا بها أغاني المهد ، تحدّثوا عن الحيز الذي نقتات
به ، أفسموا بها وثرثروا بها ، لعنوا بها ، وصلّوا بها . هل هذا من حكم القدر أم أنه نتاج
خطيئة مهلكة ؟ وهل أمكن حدوث هذا لشعبنا لو كان كل أبنائه من أمثال طاهر ؟ لو
أنهم كانوا شبيهين به لاستحال على الموت أن ينالنا . . .

ذكرتني أفكارني بعبار سبيل ضلّ طريقه في غابة كثيفة مجهولة . وجدت نفسي واقفاً
مهموماً حائراً ضالّ السبيل أمام بيت صغير في نهاية حارة تعج بالغبار .

أمكنني إيجاد الأجوبة عن أسئلتني المضنية هنا فقط . . في هذا الكوخ الهاديء
المواضع المطلي بطلاء أبيض والذي بناه طاهر بيديه .

جريدة من أبخازيا

بيت طاهر كسائر بيوت الفلاحين الموحشة والضيقة . ولكن لا يمر يوم واحد دون
أن يدخله الناس . في هذا البيت يتغنون الترحيب بالضيف . . فالكلمة الصادرة عن
القلب تقع في القلب . هل يمكن الحصول في مقر المختار على فائدة ترجى ؟ كلا . لم
يكن هناك جدوى من قصده لقضاء حاجة أو التنفيس عن هم . أما بيت طاهر فلا
يوصد بابه أبداً . . على الرحب والسعة دائماً . يقدم صاحب البيت النصح ، أو يكتب
استدعاء . والأهم من هذا وذاك أنه يستمع باهتمام ويرفع المعنويات بصدق . أما حين
ينشب نزاع ؛ فيحكم فيه بالعدل كقضاة عليم . حتى أن الناس قصدوا طاهراً طلباً
للأعشاب النافعة مع أنه لم يدرس الطب في استانبول ولكن للظروف أحكامها . . اضطر
طاهر إلى الإنكباب على كتب الطب الشعبي القديمة واكتسب معارف غنية في التطبيق .
وهكذا أخذ الحسد يأكل قلب المختار . فقد أثار غضبه أن أوبيخياً بسيطاً مجهولاً يحتل
تلك المكانة المهيبة بين المهاجرين . فليس الشيخ وليهم الروحي المعتمد ، بل شخص
من عامة الناس وصلت مواصيله إلى ذرى العلم والتعليم مع أن أحداً لا يذكر أباه وأمه .
أوه . . يجب مراقبة أمثال هؤلاء جيداً . ووضع المختار مراقباً يقتضي آثار طاهر واهتم
شخصياً بالوشاية به إلى علي حضرة باشا . علم طاهر بهذا ولكنه لم يستسلم ولم يتراجع أو
يحين .

لحظ طاهر أني بلغت فناء داره فخرج مسرعاً إلى العتبة :

- عزيزي زاورقان . . اجلس قليلاً في الظل هنا . . سأنتفخ حالاً ، فقد جاءني الناس بمسألة . .

- الضيف بأمره صاحب البيت - أجبت وجلست في الفم .

حلت إليّ غوليزار الحاذقة زوجة طاهر فنجان قهوة . إنها امرأة تركية استانبولية ، متناسفة القوام ، سمراء البشرة ، بشوشة الوجه . لا تحتجب بملاءة عن الرجال ، شبيهة بعض الشبه بفيلديش ، ولذلك كان قلبي يهوي كلما رأيتها . عرفت غوليزار لغتنا ولكنها لم تقدر على التحدث بها . تزوج بها طاهر في سنّ متقدمة ، ولدت له طفلين . الصبيان لا يشبهان في شيء أولئك الصبية الذين - كما تذكر - لعبوا بالسكاكين الصغيرة في الطريق حين سرت مع سبت إلى الكاهن صلاح ، بل رُبّ ابننا طاهر حسب أصول الإحترام الجبلي . ماأن ودّع طاهر أبناء قريته حتى دعاني إلى الدار :

- تفضل إلى البيت يازاورقان . اعذرني لأنني أبقيتك طويلاً في الفناء ، لقد كتبت استدعاء للفلاحين . ادخلني صاحب الدار إلى غرفة صغيرة عبر أخرى أكبر قليلاً . دخلتها للمرة الأولى . أدهشني أن كل جدرانها مغطاة حتى السقف بالكتب . رؤية الكتاب في مسكن الأوييخي أمر نادر جداً من قرون وحتى الآن . أما هنا فأعداد هائلة من الكتب . أنت ياشاراخ تقرأ كتباً كثيرة بالطبع . أما بالنسبة لي فلم تكن هناك أية فائدة ترحى من إلقاء نظرة مني إلى أحد تلك الكتب الموجودة في غرفة طاهر أو تصفّحه . نظرت إليها وخطر لي أنني لو قرأت كل هذه الكتب لوضعت أي وزير في حزامي .

- بين الكتب التي تراها يازاورقان - قال طاهر وهو يشير بيده إلى الجدران - توجد مؤلفات قديمة نادرة . نحن الأوييخين لسنا كالأعشاب الطفيلية ، بل لدينا ماضيها المجيد . كتب عنا العلماء القدامى باللغة اليونانية والعربية والتركية وغيرها من اللغات . أما أن سيف القدر الحافل بالصعاب نالنا هذا المنال ؛ فإن الذنب يقع على زعمائنا الخونة ، لو أنهم لم يحثوا الشعب على الهجرة لآزدهر شعبنا الآن على أرض وطنه .

- كيف وصلت إليك هذه الكتب ؟

- أغرق شادرين بن علو ابنه مانصو بالنقود ولم يبخل عليه بشيء وأمست خلال سنوات الدراسة زميلاً مكرهاً لمانصو الطائش . . ثم أخذ يمدني بالديرات لشراء الكتب لكي أدرس عني وعنه . لم يكن لديه وقت فراغ يقتطعه من لهُوه وطبشه لتصفح الكتب ،

فدأبت أخص له محتواها وأتقاضى أجراً لقاء ذلك . . وهكذا جمعت ثروتى التي تراها . -
قرب طاهر كرسياً وأجلسني ازاء الطاولة التي توضع عليها مخطوطة ضخمة . - أما هذه
يازاورقان فهي تاريخ الأوبخ منذ القدم وحتى أيامنا هذه . أكتبها من زمن بعيد . إذا
بقيت حياً فسأنجزها حتماً . الحى يتغير والمتغير يعيش . قد يأتي زمن يختمني فيه الشعب
كله . . ندوب . . ونصيح ذكريات ، إلا أن كتابي سيحدث العالم كله عنا ، عن عظمتنا
ثم هلاكنا .

- قضية مقدسة . فليحالفك النجاح بعون الله . أذكر أن آباءنا كانوا يغنون أغنية
الأبطال حين يخسرون المعركة ، فترفع الأغنية من معنوياتهم ويدخلون الرعب إلى قلوب
الأعداء . كتابك هذا مثل أغنية الأبطال تلك . لو أنه اتعدم لضاعت ذكرانا ، أما
الكلمة فتبقى خالدة ، يقرؤها ويتذكرونها باحترام « حيثما عاشوا لم يفقدوا رجولتهم » .
- شكراً يازاورقان .

ربت طاهر بيده على المخطوطة كأب صارم يربت على رأس ابنه الحبيب . قارنت
بذهني ما سمعته هنا بما سمعته هناك في فناء دار أستان . هناك أنشدت الروح صلاة
الموت ، أما هنا فصلاة الحياة والعافية . . هناك سقطت في هاوية سحيقة ، أما هنا
فاعتلت القمة . تناول طاهر قلماً من الطاولة .

- أتدري ما هذا ؟

- نعم ، به يكتبون .

- تأكد يازاورقان أنه أقوى من أي سيف كان . لو أننا - نحن الأوبيخيين - عرفنا
كالجورجيين مثلاً القراءة والكتابة لحصلنا على سلاح لا يمكن انتزاعه من الأيدي
ولاستحال حدوث أي شيء مما حدث لشعبنا . أنا أكثر من واثق ومؤمن بهذا . من يقرأ
ويكتب لا يقع في الهاوية . فليحرق الأجداد والأسلاف ويذكروا وضعنا الحالي البائس .
الكثير من الجبلين الذين وصلوا إلى تركيا نضجوا ولو في وقت متأخر . وضع الأبخازيون
أحرفاً أبجدية لهم لكي يتعلموا ويفتحوا المكاتب للتعليم . والأديغيون كذلك . وأنا -
قرب طاهر رزمة من الورق المكتوب بإرتفاع الإصبع - وضعت أيضاً أبجدية أوبيخية -
وفتح على الصفحة الأولى قائلاً : - إليك هذا . . أنظر . هذه أحرف : أ ، ب ، ف

...

- أين هي يا عزيزي طاهر ؟! .. بل لو أنها كتبت بحجم الجمل ، وليس بهذا الحجم لما فهمت شيئاً منها على الإطلاق ، فلا تحاول معي . وحتى النظارة لن تساعدني .

- لو أنك الوحيد هنا لقلت «مؤسف» وكفى ، أما حين يكون الجميع هكذا فهي مصيبة .. ولن تجد كلمة أخرى أفضل . لو أتي تمكنت من الحصول على ترخيص من السلطات لفتح مكتب أعلم فيه الأطفال الأويخيين بلغتهم الأم لحولت بيتي هذا إلى مكتب ولأمسى اليوم الأول للمدرس أسعد أيام حياتي .

وضعت مسودة الأبجدية على راحة يدي وهددتها كأنها طفل رضيع :
- لا بد أن كتابك شيء جيد وعلى الأغلب أتي عاجز - بسبب جهلي - عن تقدير عملك كما يجب ويليق به . اعذرني إذا ياطاهر ؛ ولكن الأتراك الذين سمعوا لغتنا الأويخية قالوا لي بأنه لا يمكن تسجيلها على الورق ، وأنها تشبه زقرقة الطيور أما الحاكم حسين أفندي فقد ساءها (لغة صقور) .

- بين كتفي حسين أفندي يقطينة لا رأس بشري . ثم ليس هناك في العالم لغة لا يمكن كتابتها على الورق . أوه لو تمكنت فقط من طباعة الأبجدية وفتح مكتب ! ولكنني أمل ألا أفقد حماسي .
- حسناً تفعل .

تناول طاهر المخطوطتين بيديه ، وعدّل من وضع الصفحات المتنافرة ، ثم وضع الكتاين في صندوق في زاوية الغرفة . جاءتنا غوليزار بفنجان قهوة فواحة الأريج رفعت توتاً عن النار .

أسند طاهر رأسه براحة يده وأخذ يفتل شاربته المعقوص من وقت لآخر . احتسيت قهوتي .. شعرت بلزتيح شديد وهدوء بال ومتعة أخاذة وكأنني أجلس في باتسخا حبيبة . فتح طاهر عليه التبغ ودخن .. أخذت كلماته تصل إلي عبر غشاوة الدخان :

- أفكر كل الوقت بأويخيا التي أذكرها كحلم بقطعة منذ طفولتي . لقد قلت لك إنه قامت في روسيا والقفقاس سلطنة الشعب . هل تتصور ماهيتها تماماً ؟؟ لقد تخلصوا هناك نهائياً من الحرب والثأر بين القبائل والشعوب وأعلنت أخوة البشر .. إيه .. لو أننا لم نطرده أنفسنا بأنفسنا من هناك لأمست حياتنا رائعة . لم يعان أحد آلام الندم القاسي

مثلما عانى شعبنا . لم يبق لنا إلا أن نقضم أظافرنا حسرة ومرارة .
وزفر وكأنه يبكي . وغطت سحابة جديدة من الدخان وجهه الحزين .
- لا يصدّق . لا يمكن أن يتصور المرء أن شخصاً مثل علي حضرة باشا يُقدم على
اقتسام أرضه مع شخص آخر وكان بوسع الذئب أن يتحول إلى خروف .
- لن يتخلى الذئب من تلقاء نفسه عن شيء ، ولكن حين يتحد الفلاحون كافة
والحدادون وصنّاع الأسلحة مع الرعاة والحمالين جميعاً ، يتحول أمثال علي حضرة باشا من
نمور إلى قطط .

- لانتلهب روحي بحديثك عن الحياة الحرة .
- حين كنت في استانبول أحرر مرة تعرفت في الميناء شخصاً يونانياً أبحر من
سوخومي إلى أثينا . علم أني قفقاسي وانطلق يحدّثني من توه عن أبخازيا التي أصبحت
دولة مستقلة . ثم أهداني عند وداعنا جريدة .

- يوجد الكثير من الجرائد في تركيا . . . قلت أنا . .
فتح طاهر الصندوق الذي خبأ فيه الكتابين وتناول الجريدة من هناك .
- هذه ليست جريدة عادية بل إنها جريدة أقربائك لأمك . اسمها « أبخازيا
الحمراء » سموها حمراء على شرف الدماء التي بُذلت في سبيل الحرية والإستقلال . أنظر
إلى هذه الصورة . . هؤلاء الفلاحون انتزعوا أرض الإقطاعي . تمعن جيداً فيهم ،
لعلك تتعرف أحدهم .

- ومن هذا ؟ - أشرت بإصبعي إلى صورة رجل في الصورة .
- إنه رئيس الحكومة الأبخازية يلقي كلمة في الشعب .
- ربّاه ! - خرجت صيحة من صدري - الشكر لك من القلب ياإلهي لأنني عشت
إلى هذا اليوم . كان إجحافاً بحقي بالفعل أن لا أشهد هذا بنفسي . . وقبّلت الجريدة .
من لم يدخل جلدي لن يفهم تصرفي هذا . - أوه كم هيّجت نفسي ياطاهر . إذا كانت
المرأة التي ولدتك طيبة فتلطّف وضع هذه الجريدة على صدري يوم موتي . .
وادفنها معي . سأعتبر أنك وضعت حفنة من تراب الأرض الأم .

نفرت الدموع من عيني . من أين جاءت ؟ لقد اعتقدت أنها نضبت من زمن
بعيد . أم أن تماسكي تضعضع ؟ ! . . الوتر المشدود بقوة شديدة ياعزيزي شاراخ ينقطع

فجأة بلا مقدمات . مكثت إلى وقت متأخر في بيت طاهر ، ولم أقبل بالمبيت عنده على الرغم من إلحاحه الشديد .

- يدعوننا مانصو غداً إليه - قال لي طاهر حين أومئنا في الطريق .

- لا أرغب في رؤيته .

- وليس عندي أيضاً أدنى رغبة في الذهاب إليه لكن الأمر على ما يبدو يخص كافة الأويخ . . . ولذا علينا أن نمضي إليه سواء أردنا أم لم نرد .

ودعته بعد أن اتفقنا على موعد اللقاء غداً . سرت طوال الليل على غير هدى عبر الطرقات المعتمة الهادئة في أطراف القرية . أبقيت الجريدة التي أهداها لي طاهر تحت إبطي كل الوقت . لو أن امرأ صادفني في تلك الليلة لقرر على الفور أنني مجنون ، يجب برجليه ، ويتحدث مع نفسه . يحدث أحياناً أن يرى المرء أحلام يقظة . . . لقد رأيت في هذه المرة أنني أسير إلى البلدة التي يعيش فيها أخوة أُمِّي . . . سلسلة جبال تسييلدا . . . جبل « بيانج » ومن قمته أرى أبحازيا وكأنها على راحة يدي . أحد جانبي منحدر « كفانا تشخبره يبرق تحت أشعة الشمس وهناك في الأسفل يصخب نهر « كودور » عند الحنجرة الحجرية . أصبح السمع فتصل إلى مسامعي من جهة « دالا » أغنية الفرسان وخبب الخيل وطلقات غزيرة على شرف مناسبة ما .

وها أنا أصعد . . . أمامي منزل سبت . أصل إلى الشرفة . أرقد على المصطبة الخشبية وأسمع صياح أوائل الديكة في تناغمها المبكر .

في الضفاف المواجهة

فتحنا الباب في البوابة الحديدية ودخلنا أنا وطاهر إلى فناء قصر النبيل مانصو بن شاردين . لم نسمع صيحة الحارس « ماذا تريد » وهذا ما أثار دهشتي . بل لم يكن هناك حارس . ساد هدوء غريب ولم يخطر الخدم أمام البيت جيئة ذهاباً .

- هل ماتوا ياترى ؟ - همست لظاهر .

- ليتهم كذلك .

حين بلغنا الباحة التي كانت إلى وقت قريب مسرحاً للعراك الدموي بين الديكين ، تخيلتها أمامي مدميين ورنّت في أذنيّ أصوات السادة المحرضين الصاخبين المتمتعين بالمشهد . شعرت فجأة في فرارة نفسي بهاجس خفي : « لا ينتظرنا خير هنا » . وفجأة ظهر أمامنا خادم كأن الأرض انشقت وأخرجته . ماأن قلنا له إننا جئنا بطلب من مانصو بن شاردین حتى أجاب باحترام :

- إنهم بانتظاركم . .

وأشار إلى درج دائري يقود إلى الطابق الثاني . صعدنا الدرج فوجدنا أنفسنا في قاعة فسيحة مفروشة بسجاد وثير . رأينا مانصو بن شاردین جالساً على أريكة فخمة ، متكئاً على وسادة طرية ، واضعاً رجلاً على رجل ، متلفحاً بعباءة تركية قابضاً بأسنانه على مشرب سجائر كهروماني ، ينفث الدخان من فمه .

- أوه . ادخلوا واجلسوا - دعانا بمودة .

جلسنا على أرائك متقابلة . أخذت أتفحص صاحب البيت . رأيته في المرة السابقة مرتدياً لباس الصيد ، ورأسه مغطى بقبعة من القش غطت حاجبيه ، بدا لي رجلاً متين البنية ، وعلى الرغم من كونه قد بلغ الستين لم أر في رأسه الخلق أي أثر للشيب . جفناه منسوخان قليلاً ، وعيناه الصغيرتان غائرتان عميقاً . عرفته مذ كان صبياً . . . إنه وقت بعيد جداً . لم أتلمس في وجهه أية سمة من سمات الطفولة تلك . برزت يدا مانصو من كمّي العباءة الفضفاضة صفراوا اللون لا أثر فيها للدماء ، وكأنها عرنوسا ذرة صفراء نموا في الظل . لمحت في أحد أصابع مانصو خائماً كبيراً يلمع .

- كيف الحياة ؟ أية أخبار جديدة ؟ مطّ ابن صهر السلطان في الزمن الغابر عبارته

الأخيرة ثم سحب بعد سؤاله نفساً عميقاً بمشربه .

- أنا فلاح بسيط أعيش في بيت صغير قرب الحقل . أما بالنسبة لك فالرؤية

أوضح من الطابق الثاني . - أجاب طاهر .

- لا تتغاب ؛ أي فلاح أنت ؟ المنطقة كلها تسميك علياً* بيتك غاص بالكتب

(*) عليم : تستخدم بالتركية بمعنى عالم (مأخوذة من اللغة العربية) .

ولا تترك الريشة من يدك .

- الحق حق . وضعت أبجدية ، وأكتب تاريخ الأوبيخ ولكني أقتات من الأرض ،
مما أزرع وأحصد . تحدث الأول والثاني بالتركية .

- أنت إنسان ذو إمكانيات هائلة . أذكر هذا من أيام استانبول . ولكن « قد يعلف
الحصان ولا يفيد بشيء » . خَرَفَتِكَ الكُتُب عن الصراط المستقيم ، ومن المضحك المبكي
أن يسبح المرء ضدَّ التيار .

- كل إنسان يعيش حسب عقله وضميره .

- « العالم العنيد أسوأ من الحمار » . ماذا يمكنك أن تغير؟ الظروف أقوى منك ولا
يمكنك خدش الجدار الحجري بجبهتك . فكر بنفسك وبأطفالك .

- كنت نَفَدْتُ نصيحتك بكل سرور لو أنك فكرت بأبناء جلدتك . .

تناول مانصو بن شاردين مندبلاً أبيض اللون ومسح به وجهه الذي طفع به
العرق . ثم فتح علبة التبغ الفضية ومدَّها إلينا :
- دخنوا .

- ليس لدينا رغبة - اعتذر طاهر عني وعنه .

نفث مانصو دخاناً من جديد وتابع :

- لماذا بُدِرَ العِدَاء بين المالكين وغير المالكين؟ لن يخلُص هذا الشعب . هل بوسع
أناس مثلك ياطاهر أن يغيروا من طبيعة الإنسان؟ إدعاء عنجهي . . نصف مصيبة لو
أنك تموت وحدك بسبب عدم تحفظك ؛ ولكنك تجر الشعب وراءك ولا تحسب حساباً
لمسألة هلاك الكثيرين . ثم سألتني ، وكأنه يتوقع أن أَدْعِم رأيه : - ألسنت محقاً
بازاورقان؟

- يسعى طاهر لمساعدة الناس ويقوم بذلك بقلب خالص . ليس لدى طاهر
مطامع أو نوايا مغرضة ، فالناس لا يأتون إليك يا مانصو - أرجو المعذرة لصراحتي - طلباً
للتصح أو بحثاً عن نصرتك لإنصافهم . والأحرى بك أنت أن تفكر بالأوبيخين المقيمين
في كارينج - أفاسي وتهتم بهم كراع لهم .
ضحك صاحب البيت ساخراً .

- إذا وصل إليك أيضاً سَم هذا الـ . . ونظر باتجاه طاهر - الداعية العصامي؟

لعل إقامتك في السجن مع القمل عادت إليك بالعقل والتفكير على هذا المنوال .
- السجن والتسول يعلمان كل شيء .

نكس مانصو بن شادرين رأسه ووازن الأمور بينه وبين نفسه . وتسمرت نظراتي فجأة بعد أن مرّت أولاً على الحائط ثم وصلت إلى اللوحة المعلقة عليه . بل إنّي ارتعشت من المفاجأة أول وهلة . في اللوحة امرأة نائمة بكامل عريها الجميل والمخجل . الملاءة منساحة عنها ومرغمية على السجادة قرب السرير بعفوية ولا مبالاة . يداها مشبوكتان تحت رأسها بحيث يرى شعر إبطيها الذهبي ، وتلامس إحدى ساقيها الأخرى . . . خجلت وأشحت بوجهي عنها . تعليق لوحة كهذه في البلد الذي حرم فيه الله تصوير البشر وحيث تخفي فيه النساء وجوههن يعتبر إثماً فاحشاً وكفراً . إن مانصو بن شادرين إنسان شائه الخلق . حاكمت الأمر بنفسه .

- لافائدة من الجدال يامانصو - صدح صوت طاهر - أخبرنا ، لماذا دعوتنا ؟ .
جاءنا الخادم الذي التقينا به عند المدخل حاملاً ثلاثة فناجين من القهوة قدمها لنا على صينية . وسرعان ما اختفى .
- الأوبخ منذ أول أيام الزواج نقطة بيضاء في عيني تركيا - بدأ مانصو بن شادرين حديثه بلا مبالاة وهدوء .

- توجب على طاهر أن يبدي تماسكه . ويسمح لصاحب البيت بإتمام حديثه حتى النهاية ، ولكن الرامي المجرب ينسى أحياناً وضع الزناد في حالة أمان :
- البقعة البيضاء ليست سبباً بل نتيجة .

تابع مانصو كلامه وكأنه لم يسمع أي اعتراض حاد .
يُعدّ زعيم هذه البلاد وليّ الله على الأرض ولذا ينبغي على كافة المواطنين أن يكونوا مسلمين حتى العظم . السلطة تعرف مسألة واحدة : إذا انتهى الإيمان بدأت المشاحنات . إلّا أن الأوبيخيين يذهبون إلى المسجد رفع عتب وللتمويه ، لا أكثر .
- على السلطان أن يدرك أن لا وجود لمواطنين خالين من النقائص . يمكنه إيجاد أمثال هؤلاء في الجنة فقط ، حيث تنتظره الحوريات ذوات العيون السود . وأريد أن أشير أيضاً - إلى جانب هذا - إلى أن النبي محمداً لم يُكره في الدين أحداً ، ولم يستخدم قوته ضد من يبدي ولاءه ويقبل بدفع الفدية . ألا ندفع نحن الضرائب للسلطان ؟ !

- تفسير تعاليم النبي من حق السلطان وحده ، أما أنت فلم تصبح حتى وزيراً . . . حان الوقت لأن يندمج الأوبيخ مع المسلمين تحت الراية الخضراء ذات الهلال الذهبي . فليغيروا أسماءهم ونسبهم بأسماء ونسب تركية وليسجلوا عثمانيين .
- إنهم في أغلبيتهم قد نسوا بيتنا ويتحدثون بالتركية ويذهبون الى المسجد . أما الآن فتفرضون عليهم أن يغيروا أسماءهم ؟ هذه مغالاة فاضحة . . .
- القانون هكذا . على كل من يعيش في الامبراطورية العثمانية أن يصبح عثمانياً . . .
وأريد أن أحذرك سلفاً ياطاهر بالأثار الشغب . . . احذر . . . وإلا فإنك ستهلك نفسك وغيرك . عود الثقب الذي يريدون به حرق المسجد سيحترق قبل المسجد . فلتكن أنت المثل أمام الأوبيخ بتغيير نسبك .
أز الباب الجانبي ودخلت امرأة فنية . كانت في ثياب بيضاء متدلّية بكمين قصيرين وفتحة واسعة عند الصدر . فاحت في الجوارحة العنبر والورد . . . لا أدري لماذا تساءلت بيني وبين نفسي : « أليست هي المرسومة في اللوحة ؟ » . نهضت واطاهر وانحنينا لها .
ابتسمت الحسناء رادةً تحمينا ، واقتربت من مانصوبين شاردين ، وخاطبته بلغة لا أعرفها . . . بعد فترة من الزمن ، أي بعد أن غادرنا بيت مانصوب أخبرني طاهر أن زوجة مانصوب تحدثت باللغة الفرنسية . . . وأنها توجهت للترهة وزيارة علي حاضرة باشا .
- لا تنس المجيء مساء لتأخذني من هناك - همست صاحبة البيت الفتية قبل أن تخرج وقدمت يدها لظاهر ثم اقتربت مني فملأت الدهشة عينها : « أوه لا لا . . . كفكاس . . . »
تلمست حزامي حلزة ، ثم خنجري ومواسير البارود على صدري فعبر وجهها عن الرعب والإعجاب معاً .
- أووو . . .
غادرتنا المرأة مسرعة كما دخلت . قال طاهر لمانصوبين شاردين :
- ألا تُعد من الحرام أن زوجتك لا تخفي وجهها كما يملي الاسلام ؟
- إنها فرنسية . . . مسيحية . . .
- يحرم الله على المؤمنين تصوير الناس . . . وفوق رأسك صورة امرأة عارية . . . لو أن أحد الأوبيخيين علق في بيته لوحة كهذه . . .

- أثناء دراستنا . ذكرت لي في أحد الأيام عبارة لاتينية : « مايسمح به للرب
 بوبير يحظر على الثور » . أنا لست تركيا ولا أويخيا . أنا أوربي .
 - ما حاجة السيد الأوربي الى هدايتنا وتحذيرنا من الأخطار إذا ؟!
 - بدافع من مشاعري الطيبة تجاهكم .
 - هكذا إذا . . طالما أن متاعرك الطيبة هي السبب فهل بوسعك أن تخصص من
 أموالك ما يكفي لبناء مكتب وطبع كتاب الأبجدية الذي وضعته ؟
 - يمكنني هذا . ولكن من يحتاج الى ذلك ؟ هذا سخف . افهم ذلك . الزمن
 يملي أن تنهى الأمة العظيمة الأمة الصغيرة ولو بالقوة . حتى أبنائك لا يعرفون اللغة
 الأويخية . اللغة التركية تخلق لهم امكانيات أوسع في الحياة مما تهبؤه اللغة الأويخية
 الموجودة ضمن أربعة منحدرات . لم يعد الناس يتحدثون حتى باللاتينية مع أن هناك
 الكثير من الكتب المكتوبة بها . وأية كتب تلك ؟
 - إذا سرنا في هذا الطريق فيمكن أن نسهل الأمر أكثر : بأن نجبر العالم كله على
 التحدث بلغة واحدة بالفرنسية مثلا . . . أما بخصوص اللاتينية فأقول أيضاً - أضاف
 طاهر وقد حمي وطيس النقاش لديه ، - لقد عاشت اللاتينية قروناً طويلة حتى بعد سقوط
 الامبراطورية التي اعتبرت فيها لغة رسمية .
 - راجع بذهنك أيها العبد طاهر التاريخ الأويخي . اذكر لي ولو اسم شخص
 واحد بارز فيه . لا يوجد حتى اسم واحد . بمن يمكنك أن تفتخر ؟ ليس لديك من
 تفتخر به . عمن ستحدث الأطفال ؟ عن زعماء الغزوات ؟ عمن ديدنه الثأر ، فيعيش
 شعره الطويل في الجبال ؟ أم عن الطائشين المتهورين ؟ الأفضل أن ترفق بالأطفال ، وأن
 تدرك أن مصير الأويخ قد حدده التاريخ ذاته . أما أن تضع العصي في عجلات التاريخ
 فأمر مضحك وغير مجد إطلاقاً . كلما أسرع الشباب الأويخي بالاندماج بالعثمانيين
 ربحوا أكثر . لأن الأتراك بلغوا درجات أعلى بكثير من الشعوب الصغيرة الأخرى في
 التعليم والثقافة وتطور الحرف ، ولا أتحدث هنا عن الأويخ . .
 - قل ببساطة أكثر : « للعيش مع الذئاب يجب العواء كالذئاب » .
 ولكن مانصو بن شارددين لم ينفجر من الغضب وهذا أمر عجيب . بل استمر في
 تنويرنا بلا مبالاة .

- إذا أراد الأوبىخ أن يحافظوا على أنفسهم فليس لديهم وسيلة أخرى سوى تسليم
مصرهم كاملاً للسلطان . يقوم علي حضرة باشا وهو صاحب هذه الاملاك بجمع قواته
ضدّ المتمردين . فلينهض الأوبىخيون الشباب أيضاً تحت راية السلطان .
- أين ستجد هؤلاء الأوبىخيين الشباب ؟ هل عاد الكثيرون منهم من البلقان ؟
أوليس من عادوا منهم مرضى ومقعدين .

- إذا أصدرت أنت وزاورقان النداء فإن الأوبىخ سيحملون السلاح .
- السلام على رفات أمك - قلت أنا - لقد نطق طاهر بالحقيقة ؛ فأية مساعدة
ترجى منّا ؟

- لا بأس بها كيفما كانت . . . أما إذا أحجتم عن مؤازرة السلطان في حربه مع
كمال باشا فإنه سيعتبر ذلك خيانة ولن يغفر لكم خيائته . . أرجو ألا تعتمدوا على عوني
حين يحرك علي حضرة باشا قواته ضدكم لتواطئكم مع عدوه . . . بل إنه سيطرده الأوبىخ
من هنا حتماً ، ويحول بيوتهم الى عنابر للقطن .
- عندها لن تطيب لك حياة هنا - لم أمالك نفسي .

- أعرف ذلك - وافق مانصوبين شاردين ثم نهض ووقف أمام المرأة - ولكن لا تخافا
على مانصو - ومرر أصابعه على حاجبيه - يرغب حسين أفندي في شراء قصري وأرضي .
وأنا سأسافر الى والد زوجتي في فرنسا . ففي مقاطعة « شامبان » ينتظرنى ركن بديع غني
بكروم العنب وأقبية الخمر . سأشرب هناك بصحة المخلصين للسلطان وإذا أعرضتم أنتم
عن نصيحتي فسأشرب نخب سكون أرواحكم .
- أنت هناك ستعصر العنب وهم هنا سيعصرون أرواحنا - خرج طاهر عن
طوره . .

- أنا سأخرج من اللعبة . كان بإمكانى السفر دون إخباركم بشيء وانتهى الأمر .
- ستجد أحزان الأوبىخ حلقك أينما ذهبت وتعصره عصراً .
- كفى نقاشاً . . تعلمون أن مصر الأوبىخ بهمني ، ولهذا أحذركم من الأخطار
المقبلة . - والتفت الى طاهر قائلاً وكأنه يدق كلماته دقاً - تذكر ياداعية الأمس أنك إذا
رميت بنصيحتي تحت ذيل الخنزير فلا تلمني . . . وداعاً . .
أطرق مانصوبين شاردين برأسه وخرج من القاعة .

قطع زاورقان حديثه في ذلك المساء قبل المعتاد . صمت وقتاً طويلاً وهو متعب . ثم حين أخذنا نتحدث عن أمورنا المعيشية تعكر مزاجه لعدم تمكنه من تذكر كلمة أراد قولها بالأبخازية أو الأويخية . اتضح في نهاية الأمر أن الكلمة هي « مقلاة » .

كلمة بسيطة كهذه - غضب زاورقان - ولكني لا أذكر أن أحداً نطقها أمامي من سنوات طويلة سواء بالأويخية ، أو هنا ، أو عند الجيران . أعيش وكأني في قبر وأنسى الكلمات التي لا أسمعها .

جلس زاورقان طويلاً أسفاً ممسكاً رأسه بيديه ونظرت إليه وفكرت - سواء تعمدت ذلك أم لم أتعمد - بالمأساة التي واجهتني بها الحياة في هذا البيت .

في الأيام الأولى للقائني بزاورقان تبين لي أنه لا يصدق أن اللغة الأويخية قد توت ، بل حاول طويلاً إقناعي بأن لغته الأم بقيت في وطنه أويخياً وأنها لا يمكن أن تختفي كما لا يمكن أن تزول الجبال والغابات والأنهار . لم أناقشه في ذلك ، بل اندهشت كل الوقت لإصراره على خطئه .

اتضح لي في هذه الليلة أن العجوز الذي يعيش بلغة لا يعرفها كافة المحيطين به يحس نفسه إنساناً حياً وحيداً بين أموات ولذلك بحث لنفسه عما يعزبه . . . جاء ذلك شيئاً بمأدبة الأموات التي أقامها وهمياً في الليلة الأولى لوصولي إليه . . .

لم يعرف زاورقان كلمة « مشكلة » ولكن الحياة وضعت أمامه مشكلة اللغة بشكل مأساوي مرة تلو أخرى ، ولم يجد له مفرّاً منها .

عاش سنوات طويلة يتحدث مع نفسه فقط ، واشتاق للتحدث بلغته الأم . كما اشتاق إلى أهله وأقربائه الغابرين . . . كم من المرات التي تلقف فيها بأذنه حديثاً مبهماً لتحدثين بعيدين ، فبرق الأمل لديه في أن يسمع اللغة الأم الحبيبة . أما حين عاد إلى شعبه بعد ذلك الإنقطاع الطويل فقد تضاعفت أحزانه لاكتشافه تلك الحقيقة المرة وهي أن عدد المسنين الذين تحدث وإياهم باللغة الأويخية منذ الطفولة ، واستمع إلى أحاديثهم أصبح أقل فأقل . وأن عدد الشباب الذين لا يعرفون اللغة الأويخية إطلاقاً أو يعرفونها بشكل سيء أمسى أكثر فأكثر .

واجهته الحياة بهذه المشكلة التي لو بقي يعيش في وطنه لما طرأت له على بال ولما وجدت على الإطلاق .

بالنسبة لي . . . - كابين للشعب الأبخازي - حلت هذه المشكلة لأنها عولجت في حياة الشعب ذاته . . . أما بالنسبة لعالم اللغات فإن هذه المشكلة ، دراسة اللغة الأويغية متعلقة باختصاصي مباشرة . إنها نهاية معاكسة للطريق الذي سرنا عليه في بلادنا . وهذه النهاية المعاكسة مرةً ومؤلمة ، يصعب على نفسي الإدعان لها بغض النظر عن الشعب الذي نحن بصددده . الحق يقال أنها لو لم تشغل ذهني لما أبحرت الى هنا على الأغلب ولما سافرت الى هذه الديار ولما انسجم هنا على سفح هذه الراية الجرداء شخصان اثنان ؛ أحدهما بلغ المئة ، والثاني الثلاثين ، ويعيش كل منهما هذه المشكلة على طريقته .

اختفاء بيتحا وموت طاهر

أتدري ياعزيزي شاراخ بم مختلف الذاكرة عن المرأة ؟ أرى أنك لا تدري . . . لا تتعب رأسك بهذه الأحجية . فكر بنفسك . إنها من أبسط الأمور ؛ يمكن للمرأة أن تحون الرجل حين تكون شابةً أما الذاكرة فتحونه حين تشيخ . لا تلمني يا بني إذا أخذت ذاكرتي تحونني أكثر فأكثر .

جمعنا محصولاً وفيراً من القطن في السنة التي نزع لقب الباشا فيها عن مصطفى كمال . حرّياً بنا أن نفرح بذلك النجاح ولكن الزمن كان عصياً ، والحرب دائرة ، والطرق الى الأسواق مقطوعة من قبل الجيوش المتحاربة . فمن جهة السلطان وقد تورط حتى أذنيه أو باع نفسه للإنكليز والفرنسيين واليونان فحصلوا على أراضٍ تركية شاسعة ، ومن جهة أخرى المتفضضون التابعون لكمال الذين أقسموا على تحرير وطنهم . وهكذا طاف التجار السامسة كالثعالب على الولايات . اشتروا القطن بالمجان تقريباً ، ونقلوه الى خلف خط الجبهة لبيعهوا بأثمانٍ باهظة . ولكن لمن الشكوى ؟! حسين أفندي ذاته

استفاد كثيراً أيضاً من الصفقات الخفية بالقطن . . . فليس لديه عرف أو قانون . وإذا صدقت الأقاويل الرائجة في استانبول فإن السلطان الذي أمسى أسير الغزاة الغربياء فقد سلطته ؛ ولكنه أصدر حكمه غير المباشر على كمال وأنصاره بالإعدام . وشهدت العاصمة ليلة تلو ليلة حرائق وانفجارات مستودعات للبارود أو احتراق سفن بكامل عتاها الحربي عند جسر القلعة . كما جرى أيضاً بالقرب من « إيلديزكيوسك » تبادل إطلاق النيران وكذا قرب قصر السلطان . كثيراً ما أخذ العسكر المرسلون من قبل السلطان لصد المنتفضين ينتقلون الى جانب زعيمهم المحكوم عليه بالموت في استانبول والذي أمسى الشخصية الأولى في أنقرة . أصبحت البلاد شبيهة بجسم له رأسان . وأمست بلدتنا كيرنج - أفاسي شبيهة بمشوى للمبيت . كم شهدت من الزوار . . رأينا الفرنسيين واليونانيين وعسكر السلطان ، وكيف انعدم لدى كل هؤلاء الحجل والشرف والضمير . ثم عليك أن ترعى كل منتفض وتطعمه . نم أنت في العراء ولكنك ملزم بإيوائه في بيتك . وهنا أيضاً شبابنا الأويغيين ؛ تشاجروا فيما بينهم أثناء اللعب بالنرد . من كلمة لكلمة نشبت مشاجرة حامية وسرعان ما احتدت الأمور لتصل إلى سفك الدماء .

رُسم على وجه أحدهم ندب واضح وكان من سلالة العصبيين الناغواي . اعتبر أبناء هذه السلالة أن إهانة عظمى قد ألحقت بهم في تلك المشاجرة الطارئة تعادل فقدانهم لابن جلدتهم الأريب .

- العبن بالعين . لن يطيب لنا العيش وهذا الندب . لا تمحى الإهانة إلا بالثأر . اسم الشاب الذي رسم الندب على وجه صديقه القديم فرحات ، وهو من سلالة تشيزما . حين شعر أقرباؤه بأن سفك الدم الذي حدث يبشر بسفح دماء كثيرة فترة طويلة لم يجبنوا أبداً ، بل العكس حاجت عنجهينهم ، وقرروا أن من المستحيل عليهم السعي الى الصلح مع الناغواي .

- إذا حاولنا مصالحة هؤلاء الناغواي الجبناء فإنهم سيعتقدون أننا ضعفنا . - هكذا حذر أحدهم وهو الشهير بينهم بتنبؤاته الخائبة دائماً .

- يجب أن نبعد فرحات الى الشر والبين سرّاً لكي يبقى تحت حماية حسين أفندي بالذات - نصح شخص آخر منهم عُرف بعقله الذي يحسده عليه - كما قال أصحاب الألسن الشريرة - الوزير العظيم في تلك الأيام توفيق باشا .

وأرسل فرحات الى الشروالين . أريد أن أشرح لك بالطيفي شراخ أن أي نزاع بين الأوبيخ يمسى عيداً على قلب حسين أفندي . استقبل فرحات كابته ، لاطفه وألبسه بزة عسكرية وعينه في فصيل الحراس المسؤولين عن أملاك علي حضرة باشا . وهكذا . . . لم يتميز فرحات بأسلحته المدججة وحصانه الأرعن ودماغه المقلوب رأساً على عقب عن لصوص حسين أفندي الأفاقين المعربدين الذين لا فرق لديهم أو لدى سيدهم بين قتل إنسان أعزل أو ذبح فرخ دجاج . والحق أن كلب الأمير أشرس من الأمير ذاته . بات فصيل السفاحين هؤلاء الذين أمسى فرحات من عدادهم بتردد على كارينج - أفاسي ؛ وأمسى كل زيارة له شبيهة بالغزو المسلح .

أتيج لي ذات مرة أن أرى علي حضرة باشا من بعيد في مزرعة مانصوبين شاردين . ولذلك عرفته فوراً حين جاء إلينا . امتطى مهراً عربياً أسود ، وأمسك بيد واحدة طرف السرج من الأمام وكأنه يخاف الوقوع عن سرجه . الى جانبه جنرال فرنسي على حصان مطهّم أبيض . انتصب الجنرال بقامته الطويلة النحيفة كالعصا ، وغطت رأسه قبعة لها واقية شبيهة بذيل اللقلق . اصطف خلفهم فصيل الحراس الخيالة على شكل حادة حصان . خرج المختار من الصفوف ، وتقدم باتجاه الفرسان ، فخلع قبعته ، وانحنى لهم ، إلا أن الباشا خطر بحصانه ، ولم يعره أي اهتمام ، والتفت الى الجمهور :

- يا سكان كارينج - أفاسي المحترمين ، أنا لا أصدق أنكم أمسيتم مرتدين وترفضون مؤازرة السلطان العظيم وليّ الله على الأرض . أنا لا أصدق أنكم ترغبون في تحطيم قلب ابن جلدتكم المجيد أنزور باشا المقرب من السلطان . لقد تحملت تركيا خسائر فادحة في الحرب العالمية دون ذنب اقترفته . . . واستغل هذه الظروف مدعون مجرمون سمو أنفسهم قادة أفواج ، وأخذوا يزرعون الخلاف والشقاق ؛ إلا أن السلطان قادر على لوي أعناقهم . وهو أيضاً غير وحيد . لقد جاء هذا المسؤول العسكري الشجاع على رأس جيشه لمؤازرة السلطان - الحاكم الشرعي للبلاد . ثم ليست الجيوش الفرنسية الباسلة الوحيدة التي مدّت لنا يد العون والصدقة . الإنكليز واليونانيون حلفاء السلطان أيضاً . من سيصمد أمام قوة كهذه إذا ؟ تذكروا أيها الأوبيخيون الشجعان كيف قدّمت لكم السلطات التركية في ظروفكم العصيبة المسأوى ، وكم غمستكم

بحسناتها . يسعى المدعون الآن الى تشويه سمعتكم فيروجون أنكم تمتنعون عن الخدمة في جيوش السلطان العظيم .

تنحى سيت قليلاً عن الجموع ، واقترب من الفرسان . فخلع قبعته ووضعها تحت إبطه . ثم انحنى قائلاً :

- أيها الباشا الرحيم . أنت محق . إننا لا نعادي السلطان . ولكن من أين لنا أن نأتي بالمحاربين لكي نرفد جيوشه ؟! بقينا حفنة صغيرة . لقد سقط شبابنا كلهم تقريباً في المعارك .

أسرع علي حضرة باشا بمقاطعة سيت :

- لا يليق بك أيها العجوز أن تخدعني . هيه ، مختار ، هات قائمة المدعويين للخدمة .

ركض المختار بساقيه المقوستين الى الباشا ، وسحب من تحت إبطه أوراقاً أخذت الريح تعيث بها .

- أرايت أيها العجوز . . . كم من الأسماء هنا ؟ على كل من ورد اسمه في هذه القوائم أن يأتي الى الميدان في الموعد المناسب . كل من يتخلف عن الدعوة سيخضع للمحكمة العسكرية . أرى بينكم مثيري فتنة بنشرون الوباء ، ويحرضون على التمرد . هيه يا مختار ، لماذا تتستر على أعداء الوطن ؟ لماذا لم تخبر عن وجود عملاء للعدو في البلدة ؟

ارتعدت فرائص المختار الذي انحنى مرات متلاحقة للباشا ، وتلعثم قائلاً :

- لقد أخبرت حسين أفندي . .

- آ . . . آ . . . أذكر . . . أذكر . . . هنا يوجد عليم . . ويحرك المياه الساكنة . .

- هكذا بالضبط ياسيدي . . . عليم اسمه طاهر .

- أين هذا الخائن ؟

- إنه ليس خائناً يا باشا . إنه إنسان محترم بين أفراد شعبنا - اعترض سيت واضعاً

قبعته على رأسه .

- أين هو . . ؟ إني أسأل .

- ذهب الى استانبول .

- لماذا ؟

- ليشتكي على حسين أفندي .

- هكذا إذا . .

- كل شيء حسب القانون . . . لقد توجه مباشرة الى استانبول ، ليس الى مكان

آخر .

- أمل - والثفت الباشا من جديد الى الجمهور - أن الأويخ اليواسل سيكونون

سعداء كما في الماضي في البلاء في المعارك في سبيل قضية السلطان والخليفة .

تساءل ياعزيزي شاراخ بماذا انتهى لقاءنا مع باشا السلطان ؟ لم ينته بشيء . رحل

الباشا بما لديه من هموم ومشاكل أخرى لا تحصنا نحن الأويخ بشيء . أخذوا يسوقون

شبابنا الى جيش السلطان بالفعل . وسرعان ماتوا في الكثيرين عن الأنظار دون أن يخلفوا

أية آثار . جُند من الشباب من لم يتمكن من الفرار . يحدث هذا مع المخففين دوماً

منهم . فهؤلاء إما أن يستعجلوا أو يتأخروا في تحركاتهم .

في صباح أحد الأيام والشمس تصدرت السماء فوق الرأس تماماً هبّ غبار كثيف

على طريق القرية ، وظهر فارس يمتطي حصاناً دون سرج ، ويصيح :

- هيه أيها الناس . . ضاعت قديستنا . . اختفت بيتنا .

- كيف ضاعت ؟ أين اختفت ؟ . . تساءل الناس وهم لا يصدقون أذانهم .

- اذهبوا الى سفح الرابية وتأكدوا بأنفسكم . . اذهبوا . . اذهبوا جميعاً .

وشاع الخبر السيء كشرارة تذروها الريح في أرجاء البلدة كلها . . أسرع الشعب

الى الرابية ذات شجرة الصنوبر الوحيدة . . سمع سبت المريض باختفاء بيتنا فنتسي

مرضه وهبّ من فراشه ، وارتدى ملابسه ، وتوجه متكئاً على عكازه الى الرابية . أخذت

أدركه بصعوبة . اقتربنا من سفح الرابية ورأينا الحشود المجتمعة ؛ كما في الأيام الماضية

التي يفد فيها المؤمنون قاصدين بيتنا . اقتنع الشيوخ الكبار الذين صعدوا القمة بأن

الشاب الذي أهب القرية كلها بصراخه لم يكذب . فالتجوف الذي كان يحتوي بيتنا

ذات وجه الحدأة محطم ، وشجرة الصنوبر الوحيدة هناك ممددة كالحارس المقتول إثر بترها

من جذرها . . صمت الشعب . تفحص سبت حطام الأحجار وأثر الفأس على جذع

الشجرة المائلة ، ومر بأصابعه بعد ذلك على الأوراق الميتة الذابلة . ثم اعتدل في وقفته

وألقى نظرة شاملة على الجموع وقال :

- ارتكبت جريمة . هناك من سرق قدیستنا . . لم يحدث هذا اليوم أو بالأمس ،
فقد ذبلت الأوراق واعمى أثر الفأس .

وضّح الشعب . لم تعد تربط أكثرية الواقفين في ذلك الجمع الغفير أية رابطة
بالدين القديم ؛ ولكن الإساءة لمقدساتهم جاءت مهينة وقاسية . ذكّرتهم رابطة الدم في
تلك اللحظة بالذات بأصلهم الواحد ووحدتهم معاً في عمرة الغضب العام . . هكذا
يُوحّد الحزن أحياناً جميع الأقارب في جنازة واحدة بعد جفائهم الطويل .
صدّق بإشاراخ أني شعرت بإهانة قاتلة . ولو أن الشخص المذنب في هذه الجريمة
ظهر أمامي الآن لاندفعت يداي إليه أول الجميع لئمسكا بخنافة .

- من يجرؤ على هذا الإثم والإساءة للمقدسات ؟ أوه أيتها القديسة القادرة على كل
شيء ؛ تحوئي الى رعد وبرق وحطمي رأس المجرم . فليمهر بخاتم اللعنة الأبدي أفراد
سلالته أجمعين - هتف تاتلاستان العجوز بعد أن خلع قبعته وتصرّع بيديه المرتجفتين الى
السماء .

وردد كثيرون من الجموع :

- أميين .

« لا يجرؤ على هذا العمل أوبيخي » - فكرت بيني وبين نفسي ، ولكن اتضح أني
فكرت بهذا بصوت عال ، وصاح أحد أبناء القرية :

- هذا صحيح يازاورقان . . . هذا من صنع أعدائنا .

إلا أن جار تاتلاستان الأصلع التحيل ، ذا العين الغائرة - وكم يؤسفني أني لا أذكر
اسمه - ضحك وقال معترضاً :

- من السهل اتهام الغرباء . . . ولكن ماذا لو أن الفاعل من جماعتنا ؟؟

- لا تتحلمق - قاطع داود ذو الرأس الشائب ذا العين الغائرة .

- لماذا لم تلاحظوا حتى الآن أن بيتنا قد اختفت ؟ - سألت امرأة يغطي رأسها

منديل أسود . كان في صوتها لوم موجه لرجال القرية كلهم .

أجاب داود مشيراً الى الشباب وكأنه يبعد التهمة عن الشيوخ :

- ما الذي يدعش هنا ؟ ليس جديداً على الأوبيخ أن ينسوا مقدساتهم ، وينحنوا

لأشياء جديدة غريبة . ليس عشاء بل عين الصواب ما يقال عنا بأننا شوك لا بنت
بأرض . ألم تسخروا أنفسكم منذ زمن بعيد ، وفي هذا المكان بالذات من الكاهن
صلاح ، له فسيح الجنان :

وصدح صوت الأصلع من جديد :

- لا دخان بلا نار . ركضتم وراء اللص في قرية بعيدة وهو ينام في قرينته بسلام . .

وتنبه الناس .

- تكلم ، إذا كنت تشبهه بأحد - طالب الناس .

- الكلام لا يكفي بل يلزم البرهان - حذر سبت .

- هناك شهود عيان . . أجاب الأصلع بجلافة .

- احتشد الناس أكثر .

وهنا سُمع في هذه اللحظة صوت عال :

- افسحوا الطريق .

ابتعد الناس مفسحين الطريق وظهر رحمن مع ابنه في أردية بيضاء من رأسه حتى
أخص قدميه . وسلسلة ساعته تزين بطنه . مارس هذا الشخص التجارة وعقد مختلف
الصفقات في السوق من زمن بعيد . لم يكن تاجراً بمعنى الكلمة ولكنه كان يلتحق عادة
بالقوافل القادمة ، وينفذ طلبات باشا القافلة . أي أنه ذو حاسة شم قوية . بصطحب
رحمن دائماً ابنه الى حيث يتوجه . هكذا يدرّب جروه ويعلمه .

- أوه بايتحا المنصفة والقادرة على كل شيء - صلى رحمن راکعاً على ركبتيه بعد أن
نزع قبعته القشية ووضعها أمامه - إذا اتضح أني شاهد زور فليسقط غضبك ليس على
رأسي فحسب ، بل على رأس ابني الوحيد أيضاً ، ولا تحجر في مكاني هنا أمامكم إذا
كذبت بكلمة واحدة .

- وضع الثعلب ذيله شاهداً - قال تانلاستان .

- رأينا بأم عيوننا - قال ابن رحمن .

- طاهر . . هو . . من . . سرق . . بيتحا - قال رحمن وهو يعتصر الكلام عصراً

وكأنه تحت التعذيب .

تجمد الجمهور في مكانه .

- لا يمكن ذلك أبداً . . . إنك تتهمه زوراً وهتاناً - قال سبت محذراً ملوحاً بعكازه .
- أفهم . . . إن تصديق هذا صعب جداً ولكن لا يمكن تجنب الحقيقة .
- اكذب ولكن لا تفرق في الكذب . . . اطروده من هنا .
- من السهل أن تقول « اختبىء واخف رأسك » لعل هذا ماحدث فعلاً - صاح بعضهم .

- كل شيء يحدث - صاح الأصلع من جديد - حتى ابنة الإمام ترتكب الآثام .
دعوا الأب والابن يتحدثان .

- أيها الناس المحترمون . قديستنا المسروقة ، التي لا ندري أين هي الآن تملك قوة الإنتقام . إذ كنت ألقى تهمةً لطاهر ، وهو برىء منها ، فلتحل النعمة عليّ بالذات . . . من عشرة أيام خلت التحقت وابني بقافلة متوجهة الى مدينة قونية . أنهبنا أعمالنا هناك ، وقررنا أن نشترى بعض الحاجيات . ثم ونحن في طريق عودتنا ، سرنا في السوق ، وبحكم الصدفة وحدها وجدنا أنفسنا أمام دكان تباع فيه الأشياء الثمينة من الأحجار الكريمة والزجاج وناب الفيل . نظرنا ، ورأينا فجأة طاهراً خارجاً من الدكان . نادينا ولكنه اختفى بين الناس . إما لأنه لم يسمع نداءنا وإما لأنه تظاهر بذلك . في ذاك الشارع حشر كثير دوماً . علمنا سابقاً أن طاهراً توجه الى استانبول قبل سفرنا نحن ، حاملاً شكوى ضد حسين أفندي ، وفجأة . . . نراه في مدينة قونية . نظرت وابني بدافع الفضول الى ذلك الدكان المخصص للأثرياء فحسب والذي خرج منه طاهر . دخلناه فرأينا ، وكأننا في كابوس ثقيل ، ثلاثة عمال في الدكان يتفحصون بيتحا ذات وجه الخدأة .

حين سمع الجمهور ذلك الكلام همهم وزفر قلقاً ، أمام رحمن فواصل كلامه ،
واضعاً يديه أمام صدره كمسلم تقي يؤدي صلاته ويعترف لربه :
- جسم بيتحا البازلتي يبدو أكثر سواداً ، وعيناها الذهبيتان تبرقان من الغضب ،
ومخالبها تنز دماً .

- « لقد خدعنا هذا الشركسي على ما يبدو » - قال أحد الباعة متفحصاً بيتحا ، أما الثاني فرت على كتفه وضحك قائلاً : « لا تهتم. هذا شيء غير ثمين ولكنه نادر . على كل حال سنحصل على ربح أكيد » .

- ركعت وابني امام بيتنا في الدكان ولكن الباعة هبوا الينا ودفعونا خارجاً .
- لماذا نضيع الوقت إذا . كل شيء واضح . نحن الآن نعرف من السارق . فليعد
طاهر القديسة إلينا وإلا نسلخ جلده حياً - صاح غاضباً الشاب الذي صفّر هنا عند هذه
الرابية يوم وفاة صلاح .

تردد الناس ، أراد بعضهم تمزيق رحمن ، وعزم بعضهم الآخر على التوجه الى بيت
طاهر .

- لو قطعتموني الى قطع فلن أصدق هذا السمسار ، أما طاهر فأصدقه كما أصدق
نفسي - اعترض سيت بصوت حازم .

- لن تغلقوا أفواه الجميع - صاح الأصلع - ه دقائم النحلة تحت القميص * . .
ادعى أنه مسافر الى استانبول ، وانضح أنه في قونية .

كنت وبعض الناس نعرف أن طاهراً لم يتوجه فعلاً إلى استانبول بل الى أنقرة
ليتحدث هناك في أمورنا مع ممثل روسيا السوفييتية الذي ذهب حسب الشائعات الى كمال
باشا . أراد طاهر أن يعرف إذا كان بالإمكان الآن - بعد الثورة - أن يعود الراغبون ممن
بقوا أحياء من الأويخ الى وطنهم .

إلا أن إخبار الجميع بالمكان الذي ذهب إليه طاهر بالفعل مسألة خطيرة . فبين
الناس المجتمعين هناك جواسيس حسين أفندي ، وبوسعهم إخبار سيدهم خلال لحظة
واحدة . ولن يتأخر قابض الأرواح هذا عن اعتقال أسرة طاهر كلها تحت تهديد
السلاح .

خرجت إلى الامام :

- فليغلق المنافقون حناجرهم . ستأكدون جميعاً في القريب العاجل أن كل ماقاله
رحمن هو كذب واضح . ومن العبث أنه يحسبنا حبراً طوال الأذان . ليس لطاهر أي أثر
في قونيه .

قفز الأصلع نحوي ونظر إلي بعيني من قبضوا له على المكان الذي يميز الرجل عن
المرأة :

(*) كناية عن أن عاقبة التفاوضي عن الخطر ليست محمودة .

- أنتم متآمرون معه إذأ . . . متآمرون . . . أنتم شياطين من صوف واحد .

استلقت خنجري من غمده :

- سأنتزع أمعاءك وألفها على رقبتك . .

- غاب الأصلع عن أنظاري ، وكان رجلاً حملته بعيداً - تدحرج على المنحدر

مقلباً . لا يمكن الحرب من الإشاعة - كما هو معروف - ولو على حصان سريع . انتشرت

الإشاعة في كل البلدات الأويخية .

كذبها بعضهم ، ولم يناقش الأمر آخرون ، أما الفريق الثالث فزادوا واستزادوا .

يبدو الحيوان متلوناً من الخارج أما الإنسان فمن الداخل . من رفع بالأمس اسم طاهر ،

واستعد لتقديم الركاب لكل كلمة من كلماته ، أخذ ينعت هذا الانسان الفاضل

بالسارق ، ولا يحجم عن قطع رأسه . وانتشرت في كارينج - أفاسي وضواحيها المحاكمات

والأقاويل بصدد سرقة بيتحا . أما أنا وأصدقاء طاهر الآخرون فلم نطق بغيابه . انتظرنا

عودته بفارغ الصبر لنحاول معاً معرفة من سرق بيتحا بالفعل ، ومن حرّض رحمن

والأصلع ضده .

إلا أن طاهراً أطال غيابه وقررت وداود في أحد الأيام أن نتحدث مع رحمن وجهاً

لوجه .

دخلنا فناء بيته . . . لا أحد . . . حتى الدجاج لا يفتق . .

سألنا الجيران :

- أين رحمن ؟

- سافر مع أسرته عند الغروب في اليوم ذاته الذي علمنا فيه باختفاء بيتحا . حملوا

كل متاعهم على عربة ، وربطوا بها بقرتهم ، وسافروا .

- الى أين ؟

- من يدري ؟ جاءهم فرحات تشامزا عشية ذلك اليوم . . .

« آه . . الآن يبدو واضحاً الى أين يقود الخيط . . » هكذا فكرنا نحن ، ولسوء

حظنا وعمق حزننا ، لم نعرف الى أي مدى بعيد يقود ذلك الخيط بالفعل .

- « توفرت الخيول فاعدمت حظيرة الخيول ، توفرت حظيرة الخيول فاعدمت

الخيول . . » . خاب أمل علي حاضرة باشا بجعل الأويخ عسكرياً للسلطان . . . وأمسى

بلا جدوى مطلقاً أن يجوب رسل الباشا على خيولهم القرى والبلدات باحثين عن ضالّتهم
هاتفين كل الوقت « عاش السلطان » .

كما قلت لك ياشاراخ أمست غنيمتهم هزيلة في أغلب الأحيان .
وقيل لنسا إن عليّ حضرة باشا حين علم بهذا كله أرغى وأزبد من السخط
والغضب ، وكأنه قطعة نحاس حامية غمست في الماء البارد . كم صبّ من المسبات
الغليظة على رؤوس الأويخ « الأثمين » .

وليت الأمر توقف عند المسبات واللعنات ..
أخذ زبانية الباشا منذ ذلك الوقت يقتحمون البيوت تنفيذاً لأوامره ، فيترعون
ماتقع عليه أيديهم ، وما يروق لهم .. يسوقون الماشية ويغتصبون النساء وإذا وجدوا
شباباً مرضى أو متمارضين عدوهم فأرين ، وقتلوهم على الفور .
« لا إله إلا الله . عاش السلطان » .

ارتكبوا الأثام باسم الرب وارتكبوا المحرمات باسم القانون .
« استغفر الله العظيم » - هكذا ردد الناس على الدوام .

أدرك الجميع أن حياتهم في كارينج - أفاشي لم تعد تطاق من العذاب والقسر ...
ينبغي الرحيل حثماً إلى مكان ما ... النزوح إلى مكان آخر .. إيه .. هذه
النزوحات .. هذه المهجرات ... إنها كالفقضاء والقدر المر تلاحقنا نحن الأويخ طوال
حياتنا .

- حين تقع المصيبة الفادحة تقصف الأرجل ... عاد طاهر دون أن يصل إلى
أنقرة ... فحيثما توجه اعترضته الحواجز والمراكز والمخافر . الطرق مقطوعة . وعند
الجسور والممرات حراس مسلحون . أي بكلمة ، حرب حقيقية . نهضت غوليزار
المسكينة في ساعة متأخرة لتستقبل زوجها العائد في منتصف الليل وارتمت على عنقه .
انهمرت الدموع من عينيها بغزارة وعفوية .

- ماذا حدث ؟ - سأها طاهر .

أخذت غوليزار تحدّثه كيف لفقوا له تهمة سرقة بيتها . ولم تكذب تنهي كلامها حتى
صاح صوت من الشارع ينادي طاهراً .

- هل صاحب البيت هنا ؟ - سأل شخص ما بالأويخية .

- لا تخرج . اختبئ - تشبثت زوجة طاهر به متوسلة .
- لا تقلقي - هذا واحد من جماعتنا - قال ذلك ومضى ليفتح الباب .
أز صوت طلقة وسقط طاهر .

ترجل أربعة رجال عن خيولهم واقتحموا البيت . أمسكوا بغوليزار التي أخذت
تستغيث بكل قواها . أغلقوا فمها وربطوها من يديها ورجليها . . استيقظ ابنها
مذعورين . ربطتها المقتحمون بالخيال ، والقوهما وأمهها على سروج الخيل ثم أحرقوا
البيت وفلّو هارين . .

حين بلغت وسيت بيت طاهر وجدته قد تحول الى بقايا ألواح سود ينبعث منها
الدخان . . . أما النار التي شبت فقد أخذت ترمي بألستها وشراراتها الأرجوانية ذات
اليمن وذات الشمال . ذرت الريح الرماد والدخان وبقايا الحريق . رقد طاهر المذمى على
أرض فناء الدار . ظنته أول الأمر ميتاً . ولكنه - كما اتضح - لم يكن ميتاً بل جريحاً جرحاً
قاتلاً . . . وحين أفاق سأل بصوت خفيض بالكاد بسمع «أين زوجته وطفلاه» ؟ .

- أحياء ، أحياء - أجبت دون أن أجد ما أقوله وحلقتي يكاد يزار من الحزن .
إلا أن طاهراً لم يصدق كلماتي . أدركت ذلك حين رأيت دمعة تنساب زاحفة على
خده . .

- من أطلق الرصاص عليك ؟ - سألته وأنا أرفع رأسه . .
- فرحات تشيزما .

تجمع الناس إلى هنا ، كل من كان طاهر غالياً عليه قريباً منه ، كل من أناط به
آماله . . تجمعوا هنا وقد غلبهم حزن قاتل . نقلنا الجريح إلى مكان محمي بواقية
أعدناها بسرعة . نظرت إلى ملامح الوجه الرجولي الحبيب الأخذة في الذوبان وعصر
قلبي حزن فتاك وشعور بالقهر لم يسبق له مثيل .

أخذ طاهر يلفظ أنفاسه الأخيرة والنيران تلتهم كل ما كرس له حياته . لن يكتب
تاريخ الشعب لأوبيخي أحد بعد الآن . . ولن يضع أبجدية اللغة الأوبيخية للأطفال
الأوبيخي شخص آخر .

حرك طاهر يده الواهنة التي أخذت تفارقها الحياة وتمتم :
- عودوا الى البيت . . الى القفقاس . . كلكم . . . الى الوطن . .

كانت هذه كلماته الأخيرة . . . وصيته . . . مات طاهر قبل شروق الشمس .
اجتمعت القرية كلها تقريباً لتبكيه . . . حتى الإمام . . . جاء مع أنه وصف طاهراً من
فترة قريبة بأنه كافر . . . أكد هروب رحمن سرّاً ثم مقتل طاهر أن لا وجود لأية صلة بينه
وبين اختفاء بيتنا . . . وهنا شعر بالندم والألم كل من صدّق افتراء رحمن فسكب الدمع
والتمس العفو والسماح من الفقيده .

- أواه . . . ينانان . . . أيها الحبيب طاهر- نذبت العمة حيمجاج طاهراً وهي
جالسة بشعرها المنفوش قرب رأسه هناك - أنظر كم من الناس المحترمين اجتمع لوداعك
إلى مثواك الأخير .

صدحت أصوات النساء الباقيات ونأوهات الرجال التي تشق النفس .
جاء مانصو بن شارددين لوداع صديق الشباب أيضاً، همس إلى الرجال الواقفين
قربه :

- أسفا عليه . كان علياً حقيقياً . . . ولكنه أراد أن يثقب الجدار الحجري بخنصره
•• حالم ••

وصلت العربة الفاخرة إلينا ووقفت على مقربة . اقترب مانصو بن شارددين منا نحن
الشيوخ :

- فليحل الخبر عليكم . لن أنسى أعمالكم التي قدمتموها لي . شكرا لكم . عل
الأغلب أننا لن نلتقي بعد الآن . بعث البيت والمزرعة وسأسافر إلى فرنسا إلى وطن
زوجتي . وكما يقال «من يتذكر الماضي تفلح عيناه» ولكنني لن أخفي عليكم أنكم أسأتم إليّ
حين أرسلتم عن طريق الحاكم حسين باشا آخر قديسة للشعب هدية إلى علي حضرة
باشا . هل أنا أقل جدارة منه كي أحرم من هذه الهدية ؟ هل أردتم بهذا دفع فدية
له؟! ولكن هل يمكن التعامل مع لص كهذا؟! كان أكثر نفعاً وفائدة لو أنكم أزرتم
السلطان . . . لكنني وبغض النظر عن موقفكم مني لم أنس أن أبي أوبخني . نعم أيها
المحترمون لم أنس ذلك . هل تعلمون ماذا فعلت؟ لقد اشترت هديتكم من علي حضرة .
اشتريتها ولم أبخل بشئها الباهظ . سأخذ بيتنا معي فلعلي تأتيني بالسعادة في بلاد
الغربة . الوداع ولا تذكروني إلا بالخير .

جلس مانصو بن شارددين في عربته واحتفى عن أنظارنا وراء سحب الغبار التي

خلقتها حوافر الخيل على الطريق .
 ودّع جميع المحتشدين طاهراً ٠٠ وقف هناك رجال مسنون ٠٠ وحين بكيناه بكينا
 مصيرنا الأسود ورأينا من خلال دموعنا وطننا الحبيب البعيد الذي أوصانا به طاهر ٠٠
 ووطننا أوبيخيا .
 دفنا طاهراً على الرابية ذاتها حيث كانت يتحا في السابق . أضاءت شمس الغروب
 القبر الندي بأشعتها الوداعية .
 لم يستعجل الناس في الإنصراف ٠٠ وقفوا مطرقين ولم تفارقهم الأفكار الحزينة .
 صعدت الرابية ووقفت قرب قبر طاهر . كان البوق في يدي . قرّيته من شفّتي وسبح أنين
 بوق الأوبيخ التحاسي عبر الصحراء . بكى البوق فوق قبر طاهر الندي . أطلق البوق
 نعناته ودعى إلى المسير عبر الطريق الموصل إلى بلاد الأوبيخ ٠٠ إلى الوطن ٠٠ المرضى
 على النقالات ، الأطفال في الحمالات وعلى الخصر الفؤوس والخناجر . فليكن هذا الدرب
 دمويّاً مهلكاً ولكن ٠٠ ينبغي علينا أن نسيره حتماً ، فمن يفقد وطنه يفقد كل شيء .
 هكذا بكى البوق ونادى حتى نلني التعب وارتخت يداي .
 أحاطت الظلمة بأرجاء المكان ولمعت في السماء نجوم قليلة وكان السماء تبكيها
 بدموعها الباردة . أمست تلك الليلة الأخيرة بالنسبة للأوبيخ في الأرض التي لم يعد يطيب
 لهم عليها عيش .

الدرب الأخير

مرّ أكثر من أسبوع ونحن جميعاً تقريباً - سكان ثلاث عشرة بلدة أوبيخية - من غير
 القادرين على حمل السلاح ومن النساء والأطفال نسير في الطريق مع بقايا أمتعتنا . بدونا
 شبيهين بمن نجا من الحريق ، أو بالعجر الرّحل ، أو بالهاربين من خط الجبهة . ثلاثة
 آلاف بيت اقتلعوا جذورهم من الأماكن التي عاشوا فيها طويلاً وإن لم تكن أرض

أجدادهم . ثلاثة آلاف بيت ليس بالعدد القليل . كان الفصل صيفاً والطقس حاراً جافاً . في النهار يقظ يلهب النخاع وفي الليل برد كلي . تماماً كما في الصحراء الأفريقية التي سامتني العذاب ، وأهبت جسمي بقيظها ، وأنا مرافق لقافلة اسماعيل صباح ، فلتحرقه نار جهنم في الآخرة .

سرنا باتجاه القفقاس وكأننا ننفذ وصية المرحوم طاهر . لو أن طريقنا اتجه نحو سوريا أو البلدان العربية التي تخضع لسلطة تركيا لأشاح علي حضرة باشا بوجهه عن انتقالنا هذا : «بدون هؤلاء الأوبيخ لدينا من المهم ما يكفي» ولكننا توجهنا نحو حدود الوطن ، حيث يسود حكم مؤيد لكمال باشا ٠٠ «هل دفأنا الحية في صدرنا؟!» قال علي حضرة باشا - «جميع هؤلاء المهاجرين القفقاسيين خونة وأعداء للسلطان سأريهم إذا» ولم تختلف أقواله هنا عن أفعاله فقد أخذت فصائل الإنتقام التي يقودها تنقّص كقطعان الذئاب على تجمع الناس الذين وجدوا خلاصهم في الهروب ففتك بهم ٠٠ وتخصد الحياة تلو الأخرى .

لا أدري تماماً ، بل افترض أنه لو كانت قوانا وأسلحتنا أكثر لاستطعنا النفاذ عبر جماعة علي حضرة باشا ، وعبر اليونانيين الذين هاجمونا أحياناً ، وتراجعوا أمامنا في أحيان أخرى ، ولعل عنادنا وحظنا ساعدانا في الوصول في نهاية الأمر إلى القفقاس ٠٠ إلى قمم وطننا الحبيب .

إلا أن قوانا ضعيفة وأسلحتنا قليلة ، مع أن عشرات الشبان المسلحين ممن حارب في السابق مع هذا الجانب أو ذاك أو اختفى في الجبال انضموا إلينا . دافع عنا شبانا المسلحون ماوسعهم إلى ذلك من سبيل .

سرنا في سهل قونية الأجرد الذي يشبه الميت المنهوب ، حيث لا وجود فيه لشجرة واحدة أو ينبوع ماء أو يثر على امتداد عشرات الفراسخ . ليس عبثاً أن الأتراك يقولون بأنفسهم «يصعب قطع هذا السهل حتى على حمل» .

حركت الجياد حوافرها بمشقة وذباب الفرس لايفارقها . وأنت العربات في سيرها - تحت الأطفال الجالسين والمرضى المسنين الراقدين والضعفاء المهودبين - كأنها عظام تنكسر . كئناً في عجلة من أمرنا ٠٠ ندفن موتانا على عجل ، ونبكيهم ونحن سائرون . لم يطلب الجرحى القادرون على تحريك أرجلهم مكاناً في العربات مع أن الغيوبة داهمتهم



من حين لآخر. أما من أمسى بين الحياة والموت فيحمل على العربات أو القنلات. وإلى جانب ذلك ينهمر علينا الرصاص من الخلف تارة، ومن جهة مفاجئة تارة أخرى. إطلاق الرصاص على الناس المجتمعين شيء وضيع بالطبع، ولكنه مجدٍ دائماً، فيمكن لكل طلقة غيبة أن تجد ضحيتها. أما مهمة شباننا فأصعب لأن ملاحقنا يطاردون على الخيل كالشياطين ٠٠ يفرغون أسلحتهم من الرصاص فينا ثم يطاردون في مختلف الاتجاهات. حذر علي حضرة باشا من خلال الرجال الذين أرسلهم:

- إذا كنتم لا ترغبون في الموت حتى آخركم ٠٠ ارموا أسلحتكم وعودوا إلى الواء قبل فوات الأوان. أقسم بالله أن من يسعى إلى عناق أعداء السلطان سيحظى بعناق الموت على يدي هاتين.

ولكننا لم ندعن لا للترغيب ولا للترهيب. النهر يسعى إلى البحر والإنسان إلى أرض الوطن. طالما أننا سرنا فلن نعود إلى وراء لأن نداء الوطن مثل نداء الحقيقة لا يمكن نكرانه. أخذنا نحن المسنين نردد معاً أغنية أوييخية قديمة من أغاني المسير لكي نرفع من معنويات الضعفاء:

لينهمر الدم من جراحنا ٠٠

ولنهجم معا على الأعداء ٠٠

إلى الأمام ٠٠ لمجد جبالنا ٠٠

قدماً ٠٠ على ركاب السناء ٠٠

هكذا صدحت الأغنية. لم يفهم الشباب معاني كلماتها بل أعجبهم أننا غنيناها. أمسى نصف السهل الميت خلفنا. وهنا حلت بنا محنة جديدة؛ نفذت احتياطات الطعام القليلة لدينا وأعلن بكاء الأطفال بداية الجوع. سماع صفير الطلقات ليلاً ونهاراً فوق الرأس أهون من سماع بكاء الأطفال الجياع. لم يكن لدينا مخرج آخر ٠٠ نحرقنا الثيران. ثم أخذنا نقتل الجياد. هل أتبع لك ياشاراخ أن نسمع صهيل الجواد ونزاعه قبيل موته؟ بعد أن أحرقتنا العربات جاء دور أسرة الأطفال الخشبية التي تعلق في السقف. ثم أخيراً لم يبق لدينا خشب نشعله وتندفء به سوى كعاب البنادق، ولكنها ما زالت ضرورية بالنسبة لنا لكي نجيب على النار بالنار ٠٠

«فليهمر الدم من جراحنا ٠٠» - أصبحت هذه الأغنية عكازاً لنفوسنا. ولكن إلى

جانب الجوع أمسك العطش بخناقنا أيضاً. تشبث الجوع والعطش بنا كذئبين مسعورين، ولم نجد لنا منفذاً. فلا وجود لبنع أو مصدر ماء أو بئر حولنا.
- ماما، أريد أن أشرب ٠٠ ماما ٠٠ - بكى الأطفال وتضرعوا بشغاف مشفقة.
جئت دموع الأمهات. حتى الدم لم يكن يتزف إذا جرح أحدنا، بل كان يتخثر فوراً أسود اللون أما المجموعة التي أرسلت بحثاً عن الماء فلم تعد. أخذ سيل الناس يزحف ولم يعد يمشي. أدى الجوع إلى التنافس على قطعة خبز أو جرعة ماء. أكل الناس الأعشاب التي نادراً ما ظهرت على الطريق. أما من حظي بفأر قبض عليه بطريقة ما فشخص سعيد.

«لا تسقطوا معوياتكم فالمطر سيهزم ٠٠
سيهزم في هذا الليل رحمة من السماء».

غينا نحن المسنين ساعين إلى منح الناس أملاً بالنجاة ولكنها لم تكن أغنية في هذه المرة، بل حدب وندب.

وفجأة دوى صوت وكأنه جاء من السماء:

- مستنقع ٠٠ هناك مستنقع قريب - حشرح شخص ظهر فجأة، وجاءنا يترنح في مشيته كالسكران. وهب حتى أشباه الموتى حين سمعوا تلك الكلمات.
اندفع الجميع ركضاً وزحفاً إلى حيث أشار الرجل. حملت الأمهات أطفالهن على أيديهن أما الأطفال الأكبر قليلاً فسبقوا الكبار. من فقد وعيه منهم على الأرض الملتهبة الشبيهة بقشرة يقطينة مشققة مفرطة في التضوج. تمددوا على الأرض وأفواههم مفتوحة إلى السماء كالسمك المرمي على الشاطئ. ولم يلتفت إليهم أحد.
وسرعان ما بقيت التلوات تحت أقدام الناس. كان المستنقع عريضاً والمعرات إليه مقلقلة، ينمو فيها القصب بكثرة. وانتشر على سطح المستنقع نتن وعفن. كانت التربة والأعشاب حول المستنقع شديدة الملوحة وكان هناك من ملحها عمداً. صاح أحد الناس:

- احذروا أن تشربوا من هذه المياه.

ولكن من يصغي إليه؟! ارثمى الناس على ركبهم متزاحمين، بالكاد يلتقطون

أنفاسهم ، يجهدون بكل قواهم لبلوغ المياه الملية الداكنة ، وشربوا منها حتى كادوا يختنقون . المياه دافئة آسنة مليئة بالبراغيث اللزجة وفقس الحيوانات المائية والعناكب الصغيرة ٠٠ ولكننا - نحن الأوبخ - شربناها بشره لا نطفؤ به فمأنا أعذب بتابعنا الجبلية . ثم بعد أن شربنا حتى آذاننا ، لم نقو على الإبتعاد عن المستنقع . ورغم القيط المحرق ارتفعت أحسامنا من البرد . ذاق الناس طعم الخوف من العطش مثلما تخاف الكلاب المسعورة من الماء ذاته . وأخيراً استرددنا أنفاسنا فأخذ الناس يتفقد بعضهم بعضاً ، ويحشون عن أقرباهم . شرعنا نهض من لم يتمكنوا من الوصول إلى الماء ، فوجدنا بينهم عدداً ممن لاقوا حتفهم .

ما أن انتهينا من المصيبة الأولى حتى جاءت الثانية . فما أن أطفأنا ظمأنا حتى بدأ الجوع . الحقيقة أنه في اليوم التالي حالقنا الحظ . لاحظ مستطلعان من شبابتنا قطع خيل يرعى في البرية . لم يضع الشابان الفرصة وأخذوا يطلقان النار بحيث يأتي القطيع صوتنا نحن الجياع المعدبين . هل سمعت في يوم من الأيام ياعزيزي شراخ بحرب بين الناس والجياد؟ اسمع إذاً: جرت هذه الحرب قرب ضفاف ذلك المستنقع المشؤوم . من حمل بيده سلاحاً أطلق النار على الخيول . من حمل خنجراً أنقض به على الحيوانات الخاطفة ، وكأنه في معركة بالأيدي . أصحاب الفؤوس انقضوا على القطيع الهائج وكانهم يقطعون أجمة أشجار في الغابة . واختلط كل شيء ٠٠ شخير الجياد وصهيلها ونزاعها الأخير ، الرغوة الأرجوانية الصادرة عنها ٠٠ الناس تحت حوافر الخيول التي جن جنونها ٠٠ تأوهات وأنين ونزاع ٠٠ الخيول المدماة تسقط مقطوعة الرؤوس ، أو مبتورة الأرجل ٠٠ سلخوا جلود الحيوانات وهي في نزاعها الأخير ٠٠ قطعوا أجسادها قبل أن تموت ٠٠ الإنسان الجائع كالذئب ٠٠ اقتلعوا القصب وكسروه وأحرقوه مع عفته . فاحت رائحة لحم الخيل المشوي أخيراً . أكلنا اللحم نصف نيء وشعرنا بالعطش من جديد ٠٠ ثم توجهنا ثانية إلى المستنقع ، وشربنا الماء الأسن براحتنا أيدينا ، ثم دفنا موتانا الذين سقطوا في العراك مع القطيع . وقبل أن نتحرك إلى الأمام حرقنا القصب الذي نها حول المستنقع بكثافة كبيرة : «فليعتقد أعداؤنا أننا مازلنا نشعل المواقد» .

أعطانا الأمل الذي ولد في نار المواقد القوة والحماسة ، ولكن لفترة قصيرة . نجونا من مصيبتين ٠٠ لتقع بنا مصيبة ثالثة . انتشرت الكوليرا بين الأوبخ . مرضت أولاً أم ثلاثة

أطفال. قبضت على يطنها بيديها بشدة وهي ترتجف من البرد وترنحت على الرمل الساخن. باتت شفتاها وجفناها زرقاء. ثم أخذ التشنج يسري في يديها ورجليها. ماتت المرأة بعد عدة ساعات، إلا أن المرض ألم بأطفالها. ساد الناس رعب قاتل. منهم من أخذ يصلي للرب ومنهم من أخذ يكفر به. تحولت إلى حفار قبور متطوع. وسرعان ما دفنت أعز شخصين إلى قلبي، العمة حيمجاج وزوجها سبت. قال لي سبت فور وفاة زوجته:

- زاورقان، إني مريض. ادفني قرب حيمجاج فأنا لا أريد أن أتركها وحيدة في هذه الأرض اللعينة.

حفر سبت قبره بنفسه جنباً إلى جنب مع قبر زوجته. ولم يطل عذاب الموت عليه. وقفت عند قبريها، وظهرت على وجنتي الدموع مع أن عيني قد جفنا من زمن. هكذا يحدث أحيانا لصخور الجبال، حتى حين تكون السماء صافية تظهر نقاط الماء الباردة عليها. بكيتهما كنتك الصخور وجرت دموعي عبر أخاديد وجنتي المجدتين.

وفجأة سمعت صوت أكبر المسنين بيننا تاتلاستان:

- لم تموتوا بعد وبدأنتم تدفنون أنفسكم. هيا ارفعوا رؤوسكم .. أهاهارا .. أهاهاريرا .. صفقوا بأيديكم. وإلى الرقص .. إلى الرقص .. وأخذ يردد أغنية راقصة وكأنه أكثرنا صحة وعافية وقد رمى عن كتفيه نصف قرن من الزمان.

لم أفهم تماماً: هل فقد عقله ياتري؟

ولكن تاتلاستان كان بكامل قواه العقلية وأنصح ذاكرة.

- ألم تروا كيف يتوهج ضوء الشمعة قبل أن يلمد نارها؟! إذا فلنبرق في عيون أعدائنا قبيل الموت كالنجمة الهاوية؟ بل كالبرق ..

صفق تاتلاستان بقوة أكبر فأكبر متوجها إلى كل منا:

- أهاهارا .. أهاهاريرا .. أهاهارا .. أهاهاريرا ..

وتحقت معجزة فعلاً .. ولم يصرخ أي شخص: «هل فقدت عقلك؟» أو «إهدأ» .. بل على العكس أخذ الناس الذين كانوا يقفون بصعوبة فائقة على أرجلهم، أو يرقدون على الرمال دون وعي يصفقون أولاً بأول ثم يمسون بأغنية الأجداد. ويرفعون أصواتهم أكثر فأكثر حتى يصرخوا ملء أفواههم.

- لقد أصيبت هذه الأرض بالصمم فلا تسمع بكاء أطفالنا، لقد أصيبت بالعمى فلا ترانا، ولا ترى كيف نموت. فلترقص إذا حتى تضح آذانها بوقع أرجلنا. فلتعلم أننا أحياء ولا نريد أن نستسلم لها - هكذا صاح تاتلاستان.
تشكلت حلقة بالتدريج. لو أنك رأيت بابني وجوه الناس المتحلقين لتصورت الآن وجوه موتى يتسمون.

أما تاتلاستان فأخذ يكلم نفسه قائلاً:

- إيه باتاتلاستان. هل فقدت مهارتك؟! عُرِفَت في الأعراس في أويخيا قادراً على الرقص على طاولة ضيقة ٠٠ كانت رؤوس الفتيات تدور حين ترقص الأهاهارا على رؤوس أقدامك ٠٠ لانهتز الطاولة ولا ينسكب الخمر من الأقداح الملأى. هيا إذاً تذكر شبابك الآن. هيا.

وانطلق إلى الرقص واضعاً يديه على وركيه.

وهنا ٠٠ اختلط كل شيء - الحذب والندب، صيحات أهاهارا والدموع والبسات ٠٠ ساد جنون مطلق. وأنا أيضاً أخذت وكأني شربت الحشيش ذاته، أصفق بيدي بحماسة:

- أهاهارا ٠٠ أهاهارا ٠٠

أما تاتلاستان فحاول أن يحط على ركة واحدة، ولكنه لم يتمكن من القيام بذلك. «العظام القديمة لاتساعده - فكرت أنا - فلكل رقص سنواته». ولكن من أين استمد تاتلاستان قوته إذاً؟ حقا أنهم يحكمون على شباب المرأة من خلال وجهها، وعلى شباب الرجل من خلال روحه.

ماجرى هناك في الصحراء ذكّرني بالمثل الذي اخترعه أجدادنا قبل ولادتي بكثير: «ندعوا الموتى إلى الوليمة ونجبرهم على الرقص». «أحقاً أنهم تنبؤوا بالنهاية المريعة لورثتهم؟» - عندما تذكرت هذا شعرت برعشة تسري في جسدي.

أخذ تاتلاستان فجأة يتعد عن الحلقة دون أن يتوقف عن الرقص ويدعوا الناس جميعاً إليه وهم ٠٠ يصفقون ويصفقون. بدأت روح العجوز تميل إلى الغروب. لم يعد قادراً على تحريك لسانه من التعب، فأشار برأسه للجموع أن تتبعه. وأذعنت له الجموع

وانقادت وراءه كأنه يجرها بحبل إليه . جرّها إلى جهة صاح منها دبك فجأة . وبدت هناك على مقربة منّا أول قرية في هذه الصحراء

ماذا حدث بعد ذلك؟ لم يذكر زاورقان جيداً ما حدث لاحقاً . بل تحدث عن التدريب الذي سلكوه وأفكاره مشتتة . لم يقدر أن يتذكر كم من الزمن سار الأوبخ في دربهم هذا، أو اسم المكان الذي بلغوه، أو عدد الأوبخ الذين بقوا عندها أحياء . يتحدث اليوم بشيء وغداً بشيء آخر . اختلط عليه كل شيء .

أصابته في تلك الأيام عدوى الكوليرا . لعلها السبب في فجوات ذاكرته؟ بقي واضحاً أمر واحد فقط : عاش العجوز حالة فظيعة . وحين أخذ يتحدث عنها ارتعش جسمه مرة تلو أخرى، وتجهّم وجهه، وضاع صوته .

ولكن أين هذا المكان بالتحديد؟

أخذت خارطة تركيا وجلست قرب العجوز . أشرت له بإصبعي إلى سهل قونية والمستنقع وكانا معلّمين بنقط خضراء على الخارطة . ولكن العجوز لم يتمكن من إضافة شيء جديد إلى حديثه .

توضّعت تلك المستنقعات بالقرب من المكان الذي نتحدث فيه أنا والعجوز . واتضح أنّ قطعت تلك المسافة لأصل إلى هنا عبر الأماكن التي تنتثر فيها عظام الأوبخ الموتى من الكوليرا . إنها قريبة من هنا . أما تصوّر زاورقان أنهم قضوا وقتاً طويلاً في الطريق، وأن ذلك التدريب لا ينتهي، فبعيد عن الحقيقة . ففي الواقع لم يقطع الأوبخ أكثر من ستين إلى ثمانين فرسخاً . ولكن من يوسعه لوم العجوز لأن حزنه أطال في ذاكرته الأيام والفراسخ؟ .

وجلسنا معاً من جديد وأخذ العجوز يجمع ثانية ذكرياته المتقطعة وهو يتعذب في ذلك كل العذاب .

وقعنا بين نارين ولا نخرج أمامنا . طريقنا إلى الخلف مقطوع أيضاً . هرب سكان القرى القريبة خوفاً من الكوليرا إلى الجبال آخذين معهم مؤونة الطعام وقطعان الماشية . بقي منهم من أقمعه المرض في البيت . حيثما يدوي الرعد يسقط البرق على رأسنا الأوبخي . اتهمنا العشانيون بنشر الكوليرا . ولذا هبّ كل من بقي في بيته للعناية بالمرضى إلى جانب المرضى المكابرين على ألامهم . . . هبوا والسلاح في أيديهم لاعتراض طريقنا .

استلمت الشرطة أمرا حازما كل الحزم من استانبول: «اقطعوا كل الطريق على الأويغ . لانتورعوا عن استخدام السلاح . احرقوا موتاهم .»

حين بلغنا أول بلدة ووصلنا إلى بيوت أطرافها هبَّ للقائنا فلاح أطلق النار نواً على تاتلاستان الذي سار في مقدمتنا . اختفى الفلاح وسقط تاتلاستان . انحنيت إليه فوراً .
- هاقد قضوا عليّ أنا أيضا يازاورقان . إذا كنت رجلاً ادفني ورأسي نحو أويغيا .
مات تاتلاستان وشعرت ببرودة . تذكرت كلمات أغنية قديمة : «لايطير السنونو في عام الكوليرا» نظرت إلى السماء ولم أر طيور السنونو فعلاً . غطى الضباب الأفق البعيد .
مررت براحة يدي على جبين تاتلاستان المتوفي ، ولم أستطع أن أحدد جهة أويغيا . بل لم أقو على دفنه . . . خارت قواي تماماً .

سحبته إلى شجرة وأغمضت عينيه بيدي . ساءت حالي الصحية أكثر فأكثر . شعرت بألم في بطني وسرت نحو بيت في طرف القرية . صفرت الطلقات فوق رأسي ، ولكني لم أعرها التفاتاً .

هرع ابن أخ تاتلاستان وشاب أويغيا آخر وخنجرهما بيديهما باحثين عن الفلاح الذي قتل العجوز وتحطبان مسرعين :

- لايمكن أن تبلعه الأرض - صاح أحدهما - على الأغلب أنه اختبأ في أحد البيوت .

اقتربتُ من بوابة البيت ، وسمعت صراخاً يمزق الأذان لامرأة تستغيث .
استجمعت قواي ودخلت البيت . وضع ابن أخ تاتلاستان خنجره على صدر المرأة بعد أن ساقها إلى زاوية الغرفة .

- قولي : أين اختبأ من أطلق النار؟ رأيتَه يدخل هذا البيت . لماذا تصطك أسنانك؟ . أجيبني . أقول لك أجيبني . إذا لم تردي يا حوزية الجنة فستحل نهايتك ونهاية ابنك حالاً . وانقضَّ على الصبي المريض الذي تقلب في سريره .

- أقسم بالله أنه لم يدخل أحد إلى هنا . فتشوا البيت ، ولكن لاقتلانا ، فنحن بريشان . ابني يتيم مات أبوه من ستين - هكذا أجابت المرأة المدعورة وهي تجهد في الإلتصاق بالصبي البائس .

- ابتعدا - صحت أنا .

لعل صوتي بدا شبيهاً بصيحة وحش يلفظ أنفاسه الأخيرة.
أخفى الشابان المنهوران سلاحيهما. وصدح صوت إطلاق رصاص في الشارع في
تلك اللحظة فخرجوا من البيت على الفور. خطوت إلى الوارء. ونخطيت العتبة، ولكن
المرأة أمسكت بي يديها الاثنتين:
- لانهبوا، أتوسل إليكم ألا تذهبوا. إذا بقينا وحيدين عادا وقضيا علينا. ارافوا
بحالنا.

قالت ذلك مشيرة إلى الصبي.
لو أن تلك المرأة لم تمسك بي في ذلك الوقت لكان من غير المحتمل أن أسير بعيداً.
سرعان ما شعرت بغشاوة في عيني. وفقدت ذاكرتي إلا أنني شعرت بالمرأة تمدني على
السريير.

كم رقدت أهذي منهك القوى من المرض أولاً، ثم من الغيبوبة؟ لا أدري ..
ولكن حين عدت إلى رشدي وجدته في بيت لأعرفه.
- أين أنا؟ - كانت هذه أولى كلماتي بعد أن عدت من منتصف الطريق إلى العالم
الأخر. وجهت كلماتي إلى المرأة الواقفة عند رأسي.

- اعتبروا أنكم في بيتكم.
- ولكن من أنت ياخانم؟
- إذا تذكرتم بشكل جيد فقد تدركون؟

بدا لي أن المرأة ابتسمت، وأخذت أتفحصها. وجهها مَدور، عيناها سوداوان
كبيرتان مليتان بالحزن العميق رغم ابتسامتها، شعرها قليل الشيب. وأجهدت ذاكرتي:
«من هي؟». إلا أن المرأة أجابت بنفسها.

- أتذكرون كيف أراد اثنان من شبابكم أن يذبحاني وابني فأنقذتمونا أنتم، ثم أردتم
الذهاب ولكني توسلت إليكم أن تبقىوا. كنتم مرضى، وترتب علي أن أمددكم على
السريير. حتى هذا اليوم كنتم على حافة القبر، ولكن، والحمد لله بقيتم أحياء.
أخذ رأسي يدرك ويتذكر كل شيء. وأخذت تسبح أمام عيني أشباح الطريق الأخير
للأوبيخ واحداً تلو آخر .. موتي .. موتي .. موتي .. ناتلاستان الراقص .. ثم أخيراً

تذكرت كيف دخلت هذا البيت. حين شعرت بشيء من النشاط قررت أن أنهض وأجلس.

- ارقدوا، ارقدوا، مازلتم ضعفاء جداً - قالت المرأة بقلق واهتمام، وهي تمسح العرق عن وجهي، وأرغمتني على إرخاء رأسي على الوسادة. ثم أحضرت الشاي، وسفتني بيدها.

- إذا هاتان اليدان انتزعتاني من الموت؟ - ورتت بيدي على يدها.
- أنتم منقذنا. الحق أنه لم يكن سهلاً رعاية شخصين في وقت واحد. أنتم هنا، وابني هناك. ولكن الحمد لله بقيتما حيين. - واقتربت من الباب ففتحته ونادت: بيرم. ادخل يا بني إلى البيت.

ظهر أمامي صبي في الخامسة عشر تقريباً من عمره، دخل فجأة بهدوء تام كالظل. لم يكن في وجهه فطرة دم واحدة.

- بيرم ٠٠ هاهو العم منقذنا بنعاني - قالت المرأة لابنها دون أن تصرف نظراتها المحبة عنه - اقترب منه وتحدث إليه، ولكن لا تطل عليه كي لا يشعر بالملل.
نظر الصبي إليّ بعينيه الوديعتين الشبهتين بعيني الأبل. ثم اقترب من السرير وهمس قائلاً:

- الحمد لله. الحمد لله.

وضعت المرأة يدها على رأس ابنها وزفرت بأمل:

- لعل يوماً مضيئاً سيطل علينا من النافذة الآن.

عزيزي شاراخ حدث ذلك في هذا البيت الذي نجلس فيه أنا وأنت الآن. رقدت عندها في هذا المكان الذي يوجد فيه سريري هذا وجلست هي حيث تجلس أنت ونظرت إليّ ٠٠ أعرف أنه لا يجوز أن أذكر اسمها، فالأوبخ مثل الأبخاز لا يذكرون أسماء زوجاتهم ٠٠ ولكن يجب أن تعرف أنت اسم تلك المرأة التركية التي أنقذتني: أنها سليمة.

أيها الصديق الغالي، أيها الصديق الصبور كم أرهقتك بأحاديثي التي تعبق كل كلمة منها بآثار الدم والحزن. مات كافة الأوبيخيين الذين حاولوا العودة إلى الوطن: منهم من مات بسبب الكوليرا، ومنهم من الرصاص، أما أولئك الذي بقوا أحياء - مع أن

عددهم قليل - فقد ماتوا لأنهم لم يبقوا أوبيخين .

تسأل ماذا حدث لسليمة؟ إنها امرأة ذات نفسية رائعة نادرة . بلغت ثمانى عشرات من السنين في تلك السنة التي انتزعتني فيها من أيدي عزرائيل . سرعان ماشفت واستعدت قواي . أردت الذهاب ولكنها قالت لي : « ابق معنا ، فلا طريق أمامك . وليكن هذا البيت بيتك منذ الآن » . كنت رجلاً قويا عندها بغض النظر عن سني . وهكذا عشنا معاً زوجاً وزوجة . مرت عدة شهور ولم يعد يتحدث بالكوليرا أحد في القرية . عاد كل من سكن الجبال . إلا أن عدد القبور ازداد في تلك السنة في مقبرة القرية أكثر مما يزداد في عشر سنوات من الحياة الهادئة .

مرضت سليمة فجأة . افترسها مرض في الصدر . بذلت المستحيل لكي أنقذها ، ولكن جهدي لم يكن وفاقاً على ما يبدو . رجعتي سليمة قبل الموت قاتلة - لا تتخل عن بيرم . كن له أباً .

دفنتها في اليوم التالي . قبرها على منحدر الرابية . حين أتوجه للترهة أقصد ذلك المكان . أحس هناك دائماً بأنها لا ترقد وحدها ، بل يرقد الى جانبها كل أقاربي . لقد وصيت بيرم من زمن بعيد أن يدفني هناك قريبهم ، حين تحل ساعتى . كبر بيرم معي دون أن يفارقني . عاش تحت إشرافي ورعايتي . أصبحت أباه ووصياً عليه .

يتحدث الناس عنه أحاديث طيبة . . بأنه إنسان نزيه محب للعمل وحداد ماهر . يمكن لأي يوم من الأيام أن يمسي الأخير بالنسبة لي في هذه البلاد ، في هذا البيت الذي لم أبنه بيدي أنا . . زورقان زولاق - الأوبيخي الأخير في هذا العالم الناقص ، ويخزني ضميري لأنى أطلت المكوث فيه . .

هذا ما استطعت ساعه من زاورقان زولاق . أعدت قراءة ماسجلت ، وتعجبت المرة تلو الأخرى من حيوية هذا الإنسان . الذي وجد لديه ما يكفي من القوى - وهو شاهد العيان على اندثار شعبه - لكي يتذكر طفلة شهر كامل حياته كلها يوماً بيوم على مسمع مني .

- يابني شاراخ . . لا تلمني ، ولكن علي أن أرقد قليلاً فرأسي يدور - قال ذلك في المساء الأخير بعد أن نهض واعتذر لي .

عدت الى مكاني ، أشعلت شمعة ووضعت أوراقى أمامى ، وأخذت أفكر .
ارتسم أمام ناظرى الدرب الأخير للأوبىخ . وصدحت فى أذنى الأصوات والطلقات وبدأ
لى وكأن محطوطى تقطر دماً ودموعاً .

هناك أمثلة غير قليلة فى التاريخ لاختفاء شعوب بكاملها عن وجه الأرض ، ولا
بقى لها أثر ، تفوق الأوبىخ بعددها . لكن الأوبىخ اختفوا عن وجه الأرض من وقت
قريب جداً - حدث هذا كله منعكساً فى ذاكرة شخص واحد . مع أن ذلك كله لم يحدث
بالطبع لا فى يوم واحد ولا فى سنة واحدة .

فمنذ اليوم الذى صعد فيه الأوبىخ الى السفن على أمل الحصول على أرض الجئان
فى تركيا ، وضعوا أنفسهم عرضة للإنذار التدريجى .

كانت سياسة التجنيس* سياسة حكومية رسمية دائمة لتركيا ، سواء فى سنوات
حكم السلطان عبد الحميد ، أم فى سنوات وصول الأتراك الشباب الى السلطة .

جرف التجنيس بنهره العكر الجبار الأوبىخ ، ودمجهم معه كالعديد من الشعوب
الأخرى . حلم الأتراك الشباب بتوحيد كافة الأراضي التى يعيش فيها سكان مسلمون .
حلّموا بالقفقاس ، واعتبروا « أنه يجب أن يكون الإسلام ديناً للدولة » فى الإمبراطورية
العثمانية العظيمة التى أسسوها . « وأن تكون اللغة الموحدة هى التركية » ، « يجب أن
تكون كافة الأمم فى تركيا متساوية فيما بينها وكلها عثمانية » . ولم يبق للشعوب الصغيرة إلا
أن تذوب وتحمى فى ذلك النهر الواحد . أما من رفض ذلك فقد حصل له ما حصل
لظاهر .

مسّ انتصار ثورة أكتوبر فى روسيا العالم كله ، كما مسّ القاطنين فى تركيا من
المهاجرين الجبلين الذين بقى الحب كامناً كل الوقت فى أعماق نفوسهم إلى ديار وطنهم .
حين سمعوا أن اخوتهم القاطنين فى القفقاس أصبحوا بعد ثورة أكتوبر أصحاب أرض
الأجداد بكامل الحقوق والصلاحيات انفعّل المهاجرون ، وعزم الكثيرون منهم على
العودة إلى المواقد المهجورة . . تحدّثوا بهذا الى ميخائيل فرونزه خلال زيارته الى تركيا سنة
(١٩٢١) .

وهذا لم أدهش كثيراً لحديث زاورقان عن ظاهر . . فقد حاول الأخير بغض النظر

(*) التجنيس : بمعنى التريك .

عن كافة أخطار الطريق أن يصل الى أنقرة ، عبر خطوط الجبهات ، لكي يلتقي مع أي ممثل لروسيا السوفيتية .

تشهد مواد الأرشيف بأن الكثير من الجبلين الذين كانوا في تركيا شاركوا في ذلك الوقت في الأحداث الثورية . وحدث أيضاً أن الوضع السياسي الغامض كان يقذف بهم أحياناً من ضفة الى أخرى . . . من تلك الضفة الحامية الى تلك الباردة .

حاول أناس طليعيون آخرون من المهاجرين القاطنين في تركيا أن يفعلوا أي شيء - مثل الأويخي طاهر الذي لم تتحقق أحلامه - للحفاظ على لغتهم وعاداتهم وكيانهم القومي . بحثوا عن حل للأزمة في التعليم . . ووضعا الأبجديات وكتب القراءة . . أصدروا جرائد صغيرة بلغاتهم . . نظموا النوادي لتنوير الشعب .

في عام (١٩١٩) أصدر مصطفى بوتييا وهو من المهاجرين الأبخاز في استانبول كتاب قراءة بالأبجدية الأبخازية التي وضعها بنفسه على أساس اللاتينية . وفتحت في بعض الاماكن مدارس أبخازية درس فيها كتاب القراءة هذا . .

إلا أن هذه النباتات الغضة الأولى ماتت تحت مدحلة التريك . لا يتسنى لها النمو قليلاً حتى تسوى بالأرض من جديد .

حملت مفارقات الحرب القاسية بعض الأبخاز من تركيا الى أراضي اليونان ، ورأيت بأم عيني الرسالة التي بعثوا بها يائسين الى حكومة أبخازيا في سوخومي : « ثلاث سنوات من الحياة في مقدونيا حافلة بأقصى المحن والحرمانات وشقاء الحياة التي لا تطاق ، في مناخ لا يمكننا الإعتماد عليه على الإطلاق . كانت أنظارنا ومساعدتنا طوال الوقت ومنذ وطننا أرض تركيا متجهة نحو قسم أبخازيا الحبيبة . ولكن الوقت لم يكن مناسباً . فالنظام القديم لم يرغب في عودتنا الى ديار الوطن . أبخازيا اليوم حرة وتعيش حياتها الخاصة ، ونحن اليوم - الأبخاز الذين رمتهم الأقدار الى أراض غريبة - نشد أكثر من أي وقت مضى الى الجبال الحرة . . الى أسرنا الحبيبة ، الى أشقائنا الأبخاز - نحن جميعاً - الأبخاز الذين يعيشون فكرة واحدة مشتركة وحلماً واحداً مشتركاً ، وهو خدمة الشعب الأبخازي الحر ، قررنا بالإجماع في اجتماعنا العام في منطقة كايلاريا بتاريخ (٢٨) أيلول (١٩٢٥) أن نسعى ونطلب من لجنة المفوضين الشعبيين لجمهورية أبخازيا الاشتراكية

السوفييتية السماح لنا - نحن سبعمائة أبخازي موجودين في اليونان - بالعودة مع أسرنا الى القرى الجبلية في الوطن الأبخازي الحر .

فكرت بأشياء كثيرة ومن ضمنها هذه الرسالة التي تمثل مصائر تاريخية مُرة لا للأبخاز فحسب .

فكرت بالكثير وأنا أدون هذه الملاحظات في مخطوطي جالساً في وحدتي في بيت زاورقان زولاق .

لمعت نجمة بعيدة ناصعة من خلال النافذة الضيقة وتذكرت فجأة وطني أبخازيا والبيت الذي ولدت فيه والذي تعيش فيه أمي الوحيدة الآن . لعلها تعاني مثلي في هذه الوقت من الأرق .

سمعت طوال الليل من الحجرة المجاورة سعال زاورقان زولاق وتأوهات الخافتة أثناء نومه .

غفوت قبيل الصبح ، واتضح لي حين أفقت أن العجوز مرض فعلاً ، ولا يسعه النهوض من سريره . جاهد في كتم تأوهات وكبت آلامه . ولكن عذابات ومعاناته بانث بوضوح في عينيه الغائرتين . لم يستطع تناول الطعام ، بل شرب بضع جرعات من الماء من حين لآخر ودخن .

بذلت ، وبيرم ، خلال ثلاثة أيام إثر ذلك الصباح كل ما أمكننا لمساعدة المريض والتخفيف عنه . ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل مع المرض الذي يسمى الشيخوخة ؟ لم أستطع أن أتأخر هنا أكثر ، فقد انتهت مدة إقامتي المسموح لي بها في جواز السفر .

في اليوم الذي توجب عليّ أن أودع فيه زاورقان ، دعاني إليه منذ الصباح وقال : - عزيزي شاراخ . . . بوسعك الرحيل دون قلق عليّ ، فأنا . . . إما أن أتعاقي ، وإما أن أجدني فقدت القدرة على الحياة فأتقبل الموت بهدوء . لقد رأيتك أيها الأبخازي ، قريب والدتي ، ابن الشعب الذي خرجت أنا من جسمه . استطعت أن أحدثك عن كل ماعشته في حياتي . أما أنت فقد جئتني بخبر سعيد بالنسبة لي ، وهو أن الأبخاز لم يفصلوا عن أبخازيا .

نادى العجوز بريم ، وهمس له ببضع كلمات . مضى الأخير تَوّاً ، وعاد يوق نحاسي وخنجر قفقاسي كبير . أمسك العجوز بها بيديه المرتجفتين وتفحصها طويلاً . - عزيزي شاراخ . من الأويخ السذين زالوا عن وجه الأرض بقي هذا فقط . خذهما معك إلى أبخازيا . إنها بالنسبة لبريم صامتان أما معك فسيكلمان . سيقعان هنا بعد موتي في أهد غربية أما معك فسيكونان في ديار الوطن . .

قبلت الهديتين الغاليتين عليّ شاكرأ . بذلت كل ما بوسعي لكي أبقى زاورقان في سريره ، ولكنه لم يصغ إليّ وقرّر النهوض . لبس قميصه القفقاسي العتيق وبزته الشركسية ، ووضع قلبه على رأسه ، وحمل عكازه وخرج من البيت ليودعني حتى البوابة . هناك فقط عانفتي وقبلني وتمنى لي درباً سعيداً . . وأطلقني .

ساعدني بريم على حمل أشيائي حتى الطريق العام . سرنا ببطء على السهل . وحين التفت رأيت خلفنا على الرابية زاورقان زولاق واقفاً هناك حتى ذلك الوقت وكأنه آخر أطلال جدار قلعة قديمة . .

لم ألتفت بعد ذلك . فليبق هكذا في ذاكرتي . فليبق آخر أطلال الماضي عزيزاً قوياً وليسُد للناس الآخرين هكذا تماماً في الكتاب الذي سأضعه عنه حتى اعتماداً على التسجيلات التي قمت بها لأحدثه .

في الختام

عند هذه الكلمات انقطعت المخطوطة التي وقعت تحت يدي ، مخطوطة عالم اللغات الشاب شاراخ كفادزيا .

كما جاء في البداية لم يكن للمخطوطة عنوان ولم تقطع إلى فصول ، ولدى إعدادها للنشر قسّمتها إلى فصول بتسميات مستقلة وعنونّت الكتاب من خلال انطباعاتي عما قرأت : « آخر الراحلين » .

باغرات شينكوبا

١٩٦٦ - ١٩٧٣

نهاية الرواية





ولد باغرات شينكوبا في قرية شويديد الأبخازية عام ١٩١٧ . صدر أول ديوان له في عام ١٩٣٨ .
يجمع بين الكتابة (شعراً ونثراً) والعمل العلمي في مجال الفولكلور والتاريخ . صدرت له عدة كتب وأعمال أدبية . نال وسام بطل العمل الاشتراكي بمناسبة بلوغه السبعين تقديراً لعطاءاته الإبداعية .
ترجمت روايته « آخر الراحلين » إلى خمس عشرة لغة .

افراد الراجلين

- إنها قصة الهجرة . . هجرة أبناء القفقاس إلى تركيا والبلدان العربية . ولكن هل هي هجرة حقاً؟! أم تهجير قسري تأمرت عليه الامبراطورية العثمانية وروسيا القيصرية ١٩
- إنها مأساة الشعب الأبخزي ذي الماضي العريق والتقاليد الغنية الذي طرد من أرضه فزال عن الوجود .
- إنها سيرة حياة القروي القفقاسي الجلود زاورقان زولاق ذي النفس الأبية والشجاعة الفائقة الذي اختبرته المحن وصقلته الأحزان فبقي أصيلاً لمنبته بأسلاً في سلوكه شاعراً كذري القفقاس . . وعمر مئة عام ليحكى قصة فناء شعبه .
- إنها رواية الإلتصاق بالأرض والسمو إلى رحاب الحزن الإنساني والاعتزاز بقوة الإنسان وقيمه . . إنها صرخة تحذير مدوية يعبر عنها المثل الأبخازي القديم : « من يفقد وطنه يفقد كل شيء » .
- إنها واحدة من روائع الأدب العالمي حقاً ، رواية جديرة بالقراءة والتمعن ، مفعمة بالقيم الجمالية الأخلاقية والعبر التاريخية البليغة والهدى التضالي الإنساني .
- إنها مأساة إنسانية . . وملحمة تاريخية . . ورائعة أدبية . . ومتعة جمالية أخاذة . . . رواية لا يمكن قراءتها دون ذرف دموع .
- إنها أكثر من كل هذا بكثير